

٢١٤
٣٣٣

المملكة العربية السعودية

الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

كلية الدعوة وأصول الدين

قسم العقيدة

مباحث العقيدة

في سورة الأنبياء

بحث لنيل الشهادة العالمية «الماجستير»

إعداد الطالب / محمد وكوري بن محمد

إشراف فضيلة الدكتور / أحمد عطية الغامدي

لقد تم الباحة كتحقيق طلب
ملاحظة عليه وأثنان له الشكر والثناء
والثناء

مما طالب به من طلبة
١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م

السيد
محمد
بن
محمد
بن
محمد

لا مانع لدي من قيام الباحث
بتصوير ما يحتاجه من المجلد الرسالة

محمد
بن
محمد

العام الجامعي ١٤١٢ هـ
١٩٩١ - ١٩٩٢ م



بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

احمد الله سبحانه وتعالى واشني عليه بما هو اهل على ما من به علي من نعمة الهداية للإسلام ، والانخراط في سلك طلب العلم سائلاياه - سبحانه - المزيد من فضله ومنه وكرمه وتوفيقه . ثم اوجه الشكر والعرفان لكل من ساهم في تعليمي وتدريسي ، داعيا الله سبحانه وتعالى أن يرحم الاموات منهم ويبقي الاحياء ذخرا للامة الإسلامية ، ويبارك في أعمارهم ، ويمدهم بعون منه وتوفيق ،

كما اوجه الشكر للمسئولين عن هذه الجامعة الإسلامية الغراء ، منارة الفقه ومنبع العلوم ، وأخص بالذكر المسئولين عن كليتي القرآن الكريم والدراسات الإسلامية ، والدعوة وأصول الدين ، الذين لم يألوا جهدا في تذليل الصعاب أمام طلابهم ، فجزاهم الله خيرا .

وأوجه الشكر على وجه أخص لفهيلة الشيخ الدكتور أحمد عطية الغامدي على تفضله بقبول الإشراف على هذه الرسالة ، وعلى توجيهاته وتقويماته السديدة التي أسهمت كثيرا في خروج الرسالة إلى حيز الوجود بهذا الشكل الذي أرجو أن يكون لائقا بها ، فجزاه الله عنى خير الجزاء .

وأشكر جميع الذين ساعدوني في عملي هذا بقول أو فعل بشكل مباشر أو غير مباشر ، فجزاهم الله خير الجزاء .
وأخيرا أحمد الله سبحانه وتعالى وأصلي على نبيه الكريم محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

(يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) < سورة آل عمران الآية ١٠٢ >

(يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرًا ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبًا) <سورة النساء الآية الأولى>

(يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) <سورة الأحزاب الآيتان ٧٠-٧١ >

أما بعد : فإن الله تبارك وتعالى أنزل كتابه العزيز القرآن الكريم تبيانا لكل شيء وهدى وموعظة للمتقين وشفاء لما في الصدور ورحمة للمؤمنين .

(يأيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) <سورة يونس الآية ٥٧ >

(ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) <سورة النحل الآية ٨٩ >

ولقد احتوى القرآن الكريم على كل ما فيه خير البشرية وصلاحها وفلاحها في معاشها ومعادها فهدي البشرية للتي هي أقوم في جميع الشؤون ، وبشروا نذر ، ورغب ورهب > إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذابا ليما <سورة الإسراء الآيتان ٩-١٠ >

ولقد طبق الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم تعاليم القرآن الكريم في واقع الحياة، فكانت لهم الدولة، ودانت لهم الدنيا فأقاموا الدولة الإسلامية على هدى من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وقويت شوكة الدولة الإسلامية ، وظلت قوية لفترة من الزمن ، وكانت

دعامتها الأساسية وقاعدتها التي تتركز عليها هي السير على المنهج الإلهي المعتمد من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ذلك المنهج الذي ارتضاه الله لخلقهم ، وهو اللطيف بعباده الخبير بهم العالم بما يصلحهم ويسعدهم ، ولما بدأ المسلمون يبتعدون عن هذا المنهج ، وتطلعوا إلى المناهج المستوردة من الشرق والغرب بدأ الضعف والوهن يدب في أوصال الدولة الإسلامية وبدأ تفككها ، وكان الوضع يزداد سوءاً كلما ابتعد المسلمون أكثر عن المنهج ، بينما كان يتحسن حين يعودون إليه .

وقد ازداد الوضع سوءاً وذلّت دولة المسلمين حين تركوا هذا المنهج ، فأصبحوا عالة على الأمم التي كانت في الماضي سيادة عليها .

ومما لا شك فيه أن تهميش المسلمين لدور القرآن الكريم (١) في حل القضايا اليومية هو الذي همّش دورهم في عالم اليوم ، بعد أن كانت دفة الأمور بأيديهم قروناً طويلاً ، ولقد خسر العالم كثيراً بانحطاط المسلمين وبعدهم عن مركز صناعات القرارات ، لأن جميع الأنظمة التي قدمت بديلاً عن الإسلام لم تقدم أي حل ملموس للقضايا والمشاكل

في عالم اليوم ، بل إن معظم هذه الأنظمة زادت من تفاقم هذه المشاكل ، ولذا فلا بديل عن عودة صادقة إلى القرآن الكريم إذا ما أريد للعالم الصلاح والسلام والرضاء ، وإذا ما أريد للبشرية الخروج من المأزق الذي انتهت إليه ، فيعتمد على القرآن في تصحيح العقائد وإزالة ما تراكم على الصدور من تصورات خاطئة عن الدين الإسلامي ، وماران على القلوب من خرافات وأوهام البدع والانحرافات العقيدية والفكرية الأخرى ، فيكون القرآن المصدر الذي يتلقى منه الأمور الاعتقادية والعنصرية ، ويقوم منهج الحياة على أساس منه .

ومن هنا تأتي أهمية دراسة مباحث العقيدة من القرآن الكريم ،

ولما كان من نظام الجامعة الإسلامية - التي وفقنى الله للدراسة بها - ملزماً للطالب الذي يريد الحصول على الشهادة العالمية (المجستير) أن يقدم بحثاً في المجال الذي تخصص فيه استخرت الله عز وجل واخترت أن يكون موضوع بحثي ضمن الإطار السابق ، وهو دراسة مباحث العقيدة من القرآن الكريم ، لما قدمته من ضرورة ذلك وأهميته ، وقد اخترت سورة الأنبياء لأدرس مباحث العقيدة التي وردت فيها ، وجعلت عنوان البحث (مباحث العقيدة في سورة الأنبياء)

(١) حين أكتفى بذكر القرآن فان السنة تدخل أيضاً لأنها شارحة للقرآن مكملة لتعليمه

أسباب اختيار الموضوع :

وقد اخترت هذا الموضوع لأسباب من أبرزها:

١ = أنها من أجمع سور القرآن الكريم لمباحث العقيدة ، فقد ورد فيها الحديث عن جميع أركان الإيمان الستة .

٢ = أن جميع آياتها في مباحث العقيدة ، حتى أن كتب أحكام القرآن لم تجد فيها آية تتحدث عن الأحكام الاعددة آيات هي أساسا مجال العقيدة ألمق منها بمجال الفقد (١)

٣ = مالقيته من تشجيع بعض المشايخ لفكرة هذا الاختيار

٤ = ماتقدم ذكره عن أهمية دراسة موضوع العقيدة من القرآن الكريم

منهج البحث وخطته

ولما كان الموضوع متشعبا والآيات التي تتحدث عن الموضوع الواحد منتشرة في أنحاء السورة فقد نهجت في دراسة الموضوع النهج التالي:

١ = جمعت الآيات التي تتحدث حول موضوع واحد من السورة وصنفتها على أبواب كتب العقائد

٢ = عرضت تفسير الآيات وأقوال العلماء فيها عرضا موجزا لاستخلاص المفهوم العام للآية ، مؤيدا ذلك المفهوم بالنصوص الشرعية الأخرى التي وردت حول الموضوع نفسه

٣ = بعد عرض معانى الآيات أذكر المباحث العقيدية المستخلصة منها ، مركزا على ماأراه المذهب الحق فيها عارضا لأقوال الذين خالفوا ذلك الحق ، مسترشدا بأقوال سلف الأمة وعلماؤها .

٤ = لما كان غرضي عرض العقيدة المافية التي عرضها القرآن الكريم عرضا مبسطا تجنبيت قدر الاستطاعة المباحث المعقدة التي أدخلت على علم العقيدة ، كما تجنبيت الرجوع إلى المصادر التي اهتمت بذلك إلا إذا لم يكن هناك بد من الرجوع

(١) انظر أحكام القرآن للجصاص ٣/٢٢٢ وابنه العرف ٣/٢٦٤ حيث لم يذكر الاثر من آيات

٥ = فى عزو الآيات ذكرت أرقام آيات سورة الأنبياء بعد ذكر الآية مباشرة ، بينما أذكر عزو الآيات الأخرى فى الهوامش .

٦ = وفى عزو الأحاديث اكتفيت بالصحيحين أو أحدهما إذا كان الحديث موجودا فيها أو أحدهما ، وفيما عدا ذلك أعزو الحديث إلى مخرجه مكتفيا بما قال أهل العلم حول إسناده ، وذلك فرارا من التطويل الذى يحصل لو خُرِجَت جميع الأحاديث الواردة فى البحث .

٧ = ترجمت لبعض الأعلام الذين ورد ذكر أسمائهم فى البحث ترجمة مختصرة مشيرا إلى مصادر تراجمهم (ولم أترجم لأصحاب كتب الحديث الشهرين ولا للتابعين والمحابة حفاظا على طابع الاختصار الذى آثرته من جهة، ولأن شهرة هؤلاء تغنى عن تراجمهم من جهة أخرى).

أما خطة البحث فقد قسمت البحث إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة .

أما المقدمة فهى هذه .

وأما التمهيد فهى تسمية السورة ومكان نزولها ومقاصدها العامة .

وأما الأبواب ؛ فالأول فى مباحث توحيد الله عز وجل وتحتة مدخل وثلاثة فصول .
المدخل فى تعريف التوحيد وتقسيمه .

والفصل الأول فى مباحث توحيد الربوبية ، وتحتة سمعة مباحث

المبحث الأول : تعريف توحيد الربوبية وتقسيمه وبيان منزلته

المبحث الثانى : دلائل الربوبية العامة من السورة

المبحث الثالث : دلائل الربوبية الخاصة من السورة

المبحث الرابع : أدلة المنكلمين على توحيد الربوبية مقارنته بما جاء فى السورة

المبحث الخامس : أهمية بحث توحيد الربوبية والاستدلال له

المبحث السادس : مسائل القدر الواردة فى السورة

272

الفصل الثاني : مباحث توحيد الألوهية ، وهي أربعة مباحث :

المبحث الأول : تعريف توحيد الألوهية وبيان منزلته وعلاقته بتوحيد الربوبية

المبحث الثاني: دلالة السورة على توحيد الألوهية وأنواع العبادات الواردة فيها

المبحث الثالث : الشرك وخطورته كما عرضت له السورة .

المبحث الرابع : عرض السورة لتنزيه الله تعالى عن الشريك ومناقشة المشركين

ونقص شبههم ، وقد ضمنته الحديث عن الشفاعة .

الفصل الثالث : مباحث توحيد الأسماء والمفاتيح ؛ وهي ثلاثة مباحث .

المبحث الأول : تعريف هذا التوحيد وبيان مذهب السلف في هذا الباب ومذاهب

مخالفهم على سبيل الإجمال .

المبحث الثاني: دلالة آيات السورة على بعض صفات الله عزوجل

المبحث الثالث: شبهه المخالفين للسلف في باب المفاتيح والرد عليها .

وأما الباب الثاني : ففي مباحث الإيمان بالملائكة والنبوات. وتحت ثلاثة فصول .

الفصل الأول : مباحث الإيمان بالملائكة، وتحت ثلاثة مباحث .

المبحث الأول : تعريف الملائكة

المبحث الثاني : صفات الملائكة

المبحث الثالث : المهمات المناطة بالملائكة كما عرضت لها السورة

الفصل الثاني : مباحث الإيمان بالأنبياء وتحت مدخل وستة مباحث

المدخل في حاجة البشرية إلى الرسائل السماوية .

المبحث الأول : تعريف النبي والرسول وما قيل في التفرقة بين مدلوليهما .

المبحث الثاني : النبوات الواردة في السورة

المبحث الثالث : صفات الأنبياء والرسول عليهم السلام ووظائفهم .

المبحث الرابع : الوحي .

المبحث الخامس : دلائل صدق الأنبياء والرسول عليهم السلام .

المبحث السادس : وجوب متابعة الرسل وبيان خطر مخالفتهم .

الفصل الثالث : الإيمان بالكتب .

وأما الباب الثالث فى مباحث الإيمان باليوم الآخر .

وتحتة ثلاثة فصول :

الفصل الأول : أدلة قيام الساعة والبعث بعد الموت ، وتحتة مبحثان ،

المبحث الأول: أدلة إمكانية البعث

المبحث الثانى: أدلة وجوب قيام يوم الجزاء

الفصل الثانى: ميعاد قيام الساعة وأشراتها ، وتحتة مبحثان ،

المبحث الأول : ميعاد قيام الساعة

المبحث الثانى : أشرط الساعة

الفصل الثالث : وقائع يوم القيامة وأهواله ، وتحتة مدخل وخمسة مباحث :

المبحث الأول : النفخ فى الصور

المبحث الثانى : انهيار نظام الكون

المبحث الثالث : الحساب

المبحث الرابع : الميزان

المبحث الخامس : الجنة والنار

وأما الخاتمة فى أهم ما توصلت إليه من نتيجة لهذا البحث ، وبعض التوصيات

لتحويل هذه النتائج إلى خطوات عمل .

وقد بذلت جهدى حتى أوفى الموضوع بعض حقه-إن لم يكن حقه كله-محاولان أبتعد

عن التطويل الممل أو الاختصار المخل ، ولم أقصد بهذا العمل إلا ابتغاء مرضات

الله سبحانه وإفادة طلاب الحقيقة وخدمة الدعوة الإسلامية .

فإن وفقت فى تحقيق هذه الأمداف فبفضل الله سبحانه الموفق لكل خير ، وإن كانت

الأخرى فمن تقصيرى وقصر باعى ، والحق أردت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت

وإليه أنيب .

ولله الحمد أولا وآخرا .

التشبيد

«الحديث بإيجاز من تسمية السورة ومكان نزولها ومقامها العامة»

سميت هذه السورة بسورة الأنبياء لأن قصص الأنبياء قد
أغذيها أكبرها منها ، فقد ورد فيها ذكر موسى وهارون ، وقصة
إبراهيم مع قومه ، وذكر إسحاق ويعقوب ، ونجاة نوح ولوط ، وقصة
داود وسليمان ، وذكر أيوب وإسماعيل وإدريس وذو الكفل ، وذو
النون وهودون ، وذكر ياقوب ومريم وإبنها عيسى عليهم السلام
وقد أخرج البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال :
(بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق
الأول وهن من تلادى) (١)

أما مكان نزولها فقد أجمع المفسرون على أنها مكية ، ومن
نقل الإجماع على ذلك ابن الجوزي في زاد المسير والقرطبي
في تفسيره (٢) وغيرهم :

وذكر ^{السلوطني} الإتيان أنها مكية كلها لإقوله تعالى : (الفلبيرون
أشأناتى الأرض نقتصا من أطرافها) الآية (٣) ^{٤٤} هي مدنية (٣)
لأنه لم يمسند هذا القول مع أن سياق الآية كلها في المكيين
فأية بتمامها : (بل متعنا هؤلاء واهباءهم حتى طال عليهم
العمر فلبيرون أشأناتى الأرض نقتصا من أطرافها ...)

ولكن على تقدير أن المراد بنقصان الأرض نقصان أرض الكفر
وتحول كثير منها إلى أرض إسلام فيقتضى أن تكون الآية نزلت
بالمدينة لأن هذا النقصان كان بعد الهجرة والأمر بالجهاد ،
ويمكن رد هذا الأثر في أن السورة لما كان نزولها في آخر
العهد المكي فقد بدأ النقصان من ذلك الحين ، فقد بدأت

القبائل تدخل في الإسلام ، وعلى هذا فالسورة كلها مكية .

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير (سورة الأنبياء) ٤٣٥/٨

(٢) انظر : زاد المسير ٣٣٩/٥ والقرطبي ٢٦/١١

(٣) انظر : الإتيان ٦١/١

أما المقاصد العامة للسورة فهي مقاصد السورة المكية على العموم ، وهي تشيبت عقيدة التوحيد وإقامة الدلائل على مسألتها وتنبيهه الفاعلين إلى دلائل قدرة الله عز وجل المهبوثة في هذا الكون العظيم ، وكذلك بسط العقائد الدينية الأخرى كالإيمان بعالم الملائكة الكرام وإثبات النبوات ، والبحث بعد الموت .

وقد ورد الحديث من هذا كله في السورة وربط بعضها ببعض ومرس شواهد من واقع البشر في تطبيق مفهوم تلك العقائد ، فقد تحدثت السورة عن توحيد الله سبحانه وعن دعوة المرسلين إلى التوحيد ، وتطبيقاتهم ، وعن إيمان بعض الناس بهم وكفر البعض الآخر وعن نتائج ذلك كله .

كما تحدثت عن يوم القيامة باعتباره خاتمة المطاف ، ويوم الجزاء والعدل يوم يلقى كلُّ مصيره وجزاء عمله .

>>وسياق السورة يعالج موضوع العقيدة بمرس النواميس الكونية الكبرى وربط العقيدة بها ، فالعقيدة جزء من بناء هذا الكون يسير على نواميسه الكبرى وهي تقوم على الحق الذي قامت عليه السموات والأرض ...

وسياقها يوجه مدارك الناس إلى وحدة النواميس التي تحكم

الحياة في هذه الأرض وإلى وحدة مصدر الحياة وإلى وحدة النهاية ووحدة المصير ، لكل من ماء وكل من يذوق الموت ثم يرجع الجميع إلى الله .

ويظهر السياق بعض مشاهد القيامة وتتمثل فيها تلك المعاني معاش العقيدة الصافية في صورة واقع يوم القيامة كما تجلت قبل في صورة قواعد عامة ونواتج كونية كبرى ، وفي صورة

وقائع في حياة الرسل والأنبياء ، فأيقاعات السورة المتنوعة إذا تتجمع على هدف واحد هو استجاشة القلب البشري لإدراك الحق الأصيل في العقيدة التي جاء بها خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم ... (11)

(11) من تفسير في ظلال القرآن ٢٣٦٤/٧ - ٢٣٦٥ . بتصرف

الباب الأول
مباحث التوحيد
وخمسة وثلاثون فصلاً :

الفصل الأول : مباحث توحيد الربوبية
الفصل الثاني : مباحث توحيد الألوهية
الفصل الثالث : مباحث توحيد الأسماء والصفات

المدخل
تعريف التوحيد ونفسه

قال الله تعالى: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون) (١)

اقتضت حكمة الله عز وجل أن يجعل في الأرض خليفة يخلف من كانوا عليها فعاشوا فيها فسادا وسفكوا الدماء فهلكوا لجرائمهم التي ارتكبوها وبادوا (٢) فخلق الله آدم عليه السلام ونفخ فيه من روحه وأسد له الملائكة وأسكنه الجنة وأذن له بالتمتع بجميع ما فيها ما عدا شجرة واحدة نهاه اللد عن القرب منها، وذلك ليمضي فيه سنته التي سنها في ربط المسببات بأسبابها، إذ كان سبق في علمه أن سبب خروج آدم من الجنة سيكون بمعصية الأكل من تلك الشجرة.

ولكن إبليس اللعين وسوس لآدم وزين له الأكل من تلك الشجرة، ولم يزل به حتى أكل منها، فأهبطه اللد من الجنة إلى الأرض، ولكنه سبحانه وعدد أن يعود إلى الجنة إن هو النزم التعليمات التي زوده بها، وقد خلق اللد من آدم حواء فكانت معه في الجنة، وشاركت معه في معصية الأكل من الشجرة، ونزلت معه إلى الأرض، وبث اللد منهما رجالا كثيرا ونساء، وقد دخلت هدد الذرية مع آدم في التقيد بتلك التعليمات وفي العودة معه إلى الجنة.

قال الله تعالى: (قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بغايتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (٣)

- (١) سورة البقرة الآية (٣٠)
(٢) هذا على أصح الأقوال عندي في معنى قوله تعالى: (خليفة) انظر: تفسير الطبري ١ / ١٥٧ وقد رواه عن ابن عباس وأنس، وزاد المسير ١ / ٦٠ ونسبه إلى ابن عباس والحسن و أبي العالية ومقاتل. وتفسير ابن كثير ١ / ٧٤ وقد نسبه إلى ابن عباس وعبد الله بن عمرو وأبي العالية والحسن.
(٣) سورة البقرة الآيتان (٢٨ ، ٢٩).

وقد حرص آدم على التقييد بتلك التعليمات، و تنبه لدسائس ومكر عدوه اللدود إبليس اللعين الذي سبق له معه درس في الجنة، ولكن بنى آدم الذين لم يعوا ذلك الدرس كما وعاه أبوهم وقع منهم من وقوع في شرك إبليس، فحاد عن التعليمات، وأشرك بالله ما لم ينزل به سلطانا، فكان الله سبحانه رحمة بعباده يبعث إليهم من حين لآخر من يذكرهم تلك التعليمات، ويوجههم ويوضح لهم الطريق الصحيح.

قال تعالى: (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) (١)

وقد اتفقت كلمة هؤلاء المبشرين والمنذرين على أمل واحد كان محور رسالاتهم جميعا، وهذا الأمل هو التوحيد.

قال تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) (٢).

وقال تعالى: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا المظالم فممنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) (٣).

نعم بعث الله لكل أمة من يدعوها إلى التوحيد، فكان منهم من قبل الدعوة فهدى، ومنهم من لم يقبلها، وبقي المراع بين الفريقين على مدى التاريخ، ولكن العاقبة دائما للمهتدين، إذ هم المنصرون من قبل الله بما يحملون من نور إلهي وإشعاع رباني. هذه هي بديلة القصة، وهي - كما ترى - دليل واضح على أن آدم وبننيه قد بدءوا مسيرتهم بالتوحيد، وأن الإلحاد والشرك هو الطارئ على المسيرة، لا كما يقول من يقول: إن المسيرة بدأت بالإلحاد والشرك وانتهت بالتوحيد، وهؤلاء يرون أن العقائد الدينية كلها نتاج أفكار البشر التي تأثرت ببيئاتها المختلفة، ثم تطورت تلك الأفكار بفعل تقارب المجتمعات البشرية، فكانت الحضارة البشرية كلما تقدمت تطورت المعتقدات إلى أن كان التوحيد ثم

الإلحاد الحالي، حيث أن الحضارة بلغت ذروتها بتحطيم الذرة التي تحطمت معها

(١) سورة البقرة الآية (٢١٣)

(٢) سورة الأنبياء الآية (٢٥)

(٣) سورة النحل الآية (٢٦)

المعتقدات الدينية التي كانت تتحكم في حرية الإنسان، فتقيدها بقيود لا مبرر لها، حسب ما يزعمون. (١)

وهذا القول يفتقر إلى السند العلمي، بل إلى كل سند حقيقي، فهو مبني على أوهام وتخيلات أورثها اعتقاد قائلها أن الإنسان وجد صدفة على وجه الأرض، ثم استمر في الحياة عليها دون مراقبة من رب حكيم عليّ متصرف في الكون كما يشاء، لا راد لخصمه ولا معقب لحكمه، وهو اللد سبحانه وتعالى.

وإذا قد عرف أن المسيرة بدأت بالتوحيد، وأن الرسل جميعاً قد اتفقت كلمتهم عليه، فليعلم أنه لانجاة إلا به ولا سعادة إلا به فمن فقدته فلا مصير له إلا النار والشقاوة الأبدية.

قال تعالى: (ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين) (٢).

وقال تعالى: (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشكرين) (٣).

وهذا التهديد للملائكة المقربين والأنبياء المرسلين، فكيف بغيرهم، إذا فمن الواجب أن يعرف التوحيد معرفة حقيقية، وتوضح معالمه، وأن يعرف ضده، وهو الشرك، ويعرف الطرق المؤدية إليه حتى يتجنب.

وهذا ما سأحاول القيام به في هذا الباب على ضوء ما ورد بشأن التوحيد والشرك في سورة الأنبياء، بادئاً بالتوحيد ومنها بيان الشرك.

درج

(١) انظر مثلاً: موجز تاريخ العالم للشيخ ويلز الفصل الثاني عشر ص/٤٥ إلى ٤٨ . وقصة الحضارة لـ بول ديورانت ١٠٢٦، وقضية الألوهية بين الفلسفة والدين لعبد الكريم الخطيب الكتاب الأول (الله ذاتاً وموضوعاً) ص/٢٦ - ٢٨، والإسلام يتحدى ص/٢٥ نقلًا عن: Hindustan Times Sunday Magazine Sept: 24-1961 .

(٢) سورة الأنبياء الآية (٢٩)

(٣) سورة الزمر الآيتان (٦٥، ٦٦)

معنى التوحيد لغة وشرعا

أولا : التوحيد في اللغة :

التوحيد في اللغة: مصدر وَحَّدَ يُوَحِّدُ مضعف فعل الوحدة، وجميع اشتقاقات هذه الكلمة تدور حول معنى واحد، وهو الانفراد، سواء أكان الانفراد حسيًا أم معنويًا.

فالوحدة : الانفراد.

والواحد : المنقطع النظير، وهو أول العدد.

والوحيد : المنفرد عن الأصحاب والأمثال. (١)

والأحد : الفرد، قيل : وأصله وحد، ولكن لا يوصف بالأحدية غير الله عز وجل،

فلا يقال : رجل أحد ولادهم أحد، وإنما يقال : رجل وَحَدَ ودرهم وحد.

قال النابغة : (٢)

كأن رجلى وقد زال النهار بنا xxx بذى الجليل على مستأنس وحد (٣)

والمتوحد : المتفرد (٤)

ووحده توحيدًا : جعله واحداً، وكذا أَخَذَهُ (٥)

(١) انظر : تهذيب اللغة للأزهري ١٩٣/٥ مادة (وحد)، والصاحح للجوهري ٥٤٧/٢ مادة (وحد)، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ٩٠/٦ مادة (وحد)، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص/٥١٤ مادة (وحد)، ولسان العرب لابن منظور ٤٥٠/٢ مادة (وحد)، وتاج العروس للزبيدي ٢٦٩/٩ مادة (وحد).

(٢) هو زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني من شعراء الجاهلية المشهورين، ومن أصحاب المعلقات العشر، انظر أخباره في الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٥٧/١

(٣) انظر معلقة النابغة ضمن المعلقات العشر، جمع وتصحيح وشرح أحمد بن الأمين الشنقيطي ص/١٤٧ - وانظر أيضا: تهذيب اللغة ١٩٧/٥ مادة (وحد)، والمفردات ص/١٢ مادة (وحد).

(٤) انظر : تهذيب اللغة ١٩٨/٥ مادة (وحد)، ولسان العرب ٢٦٧/٢ مادة (وحد)

(٥) انظر : القاموس المحيط للفيروز آبادي ٢٥٦/١ مادة (وحد) وكذا تاج العروس للزبيدي ٢٦٨/٩ مادة (وحد).

ثانيا : التوحيد في الشرع وأقسامه :

التوحيد في لسان الشرع هو : (علم العبد واعترافه واعتقاده بتفرد الرب بكل صفة كمال، واعتقاده أنه لا شريك له في كماله، وأنه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين) (١).

وهذا يعني أن يعلم الإنسان ويعتقد في قلبه ويقر بلسانه أن الله سبحانه وتعالى واحد في ملكه وأفعاله فلا شريك له، وأنه واحد في ذاته وصفاته فلا نظير له ولا شبهة، وواحد في ألوهيته فلا تد له. (٢)

ومن هنا انقسم التوحيد قسمين :

القسم الأول :

توحيد المعرفة والإثبات، وهو ما يتعلق بالأخبار الواردة في الكتاب والسنة عن الله وصفاته ومعرفة ذلك وإثباته، وهذا هو التوحيد العلمي.

القسم الثاني :

توحيد الإرادة وال قصد، وهو ما يتعلق بإرادة الإنسان وهو أن يقصد بما يريد ويحققه من عمل وجه الله تعالى ويفرده بذلك. وهذا هو التوحيد العملي. (٣)

وهذا بالنظر إلى الشخص الموحّد، فهو يعرف ربّه واحدا فيخلص له العمل،، أما بالنظر إلى تعلق التوحيد بالله تعالى فهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

- ١ - توحيد الربوبية : وذلك من جهة انفراد الله بالخلق والتدبير.
- ٢ - توحيد الأسماء والمفات : وذلك من جهة انفراد الله سبحانه بالأسماء الحسنی والمفات العلی.

- ٣ - توحيد الألوهية : وذلك من جهة استحقاق الله تعالى للعبادة وحده (٤). وقد اخترت بناء بحثي على هذا التقسيم الأخير لكونه أقرب لترتيب المعلومات.

(١) الكواشف الجلية عن معاني الواسطية ص/٤١٧ باختصار، وانظر شرح الفكيمة النونية للدكتور محمد خليل هراس ٥٢/٢ .

(٢) انظر : تيسير العزيز الحميد ص/٢٢ ، والتنبيهات السنية على العقيدة الواسطية ص/٩.

(٣) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص/٤٦٥ ، ومدراج السالكين بين منازل "إياك نعبد وإياك نستعين" ٢٤/١ - ٢٥

(٤) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص/١٦ ، ودعوة التوحيد للدكتور محمد خليل هراس ص/١١ ، وعقيدة التوحيد في القرآن الكريم ص/١٠٨ - ١٠٩ .

ومن المعلوم أن كلا هذين التقسيمين حادث ككثير من المصطلحات في العلوم المختلفة، لتسهيل عملية البحث والتعليم، ومع هذا فإن التقسيم في هذا الباب صحيح، لكونه مبنيا على استقراء نصوص الكتاب استقراء تاما، وذلك أن نصوص القرآن لاتخلو من أن تكون خيرا عن الله وأسمائه وصفاته، فهذا هو توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، أو تكون دعاء إلى عبادة الله وحده ومبيّنة لتلك العبادة وكيفيتها والأحكام المتعلقة بها ومكملاتها ونواقضها، فهذا هو توحيد الألوهية أو تكون خيرا عن إكرام الله تعالى لأهل التوحيد والطاعة أو إدلاله أهل الشرك والمعصية، فهذا جزاء من يمثّل التوحيد ومن لا يمثّل. (١) وقد تضمنت بعض سور القرآن هذه الأنواع الثلاثة، كسورة الفاتحة بقوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين)(٢) فيه توحيد الربوبية وقوله : (الرحمن الرحيم)(٣) فيه توحيد الأسماء والصفات.

وقوله : (إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم)(٤) فيه أفراد الله بالعبادة وطلب الإعانة وفيه طلب الهداية منه سبحانه، وهذا كله داخل في توحيد الألوهية(٥).

كما أن بعض السور في نوع واحد منها كسورة الكافرون فإنها جميعا في توحيد الألوهية ونفى الشرك، وسورة الإخلاص فيها إثبات الذات ومالها من الأسماء والصفات، ففيها التوحيد العلمي الذي يدخل فيه الربوبية والأسماء والصفات(٦).

(١) انظر مدارج السالكين ٣/٤٦٨ - ٤٦٩، وشرح العقيدة الطحاوية ص/٢٨، وتيسير العزيز الحميد ص/٣٨ - ٣٩ .

(٢) سورة الفاتحة الآية (٢)

(٣) سورة الفاتحة الآية (٣)

(٤) سورة الفاتحة الآيتان (٥ و ٦)

(٥) انظر : مدارج السالكين ١/٢٢٢ فما بعد وقد قرره بأبسط من هذا .

(٦) انظر اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص/٤١٧ .

الفصل الأول

مباحث توحيد الربوبية

وتحت مباحث

- المبحث الأول : تعريف توحيد الربوبية وتقسيمه
- المبحث الثاني : دلائل الربوبية العامة من السورة
- المبحث الثالث : دلائل الربوبية الخاصة من السورة
- المبحث الرابع : أدلة التكميلية على توحيد الربوبية مقارنة بما جاء في السورة
- المبحث الخامس : أهمية بحث توحيد الربوبية والاعتدال له
- المبحث السادس : مسائل القدر الواردة في السورة

المبحث الأول

تعريف توحيد الربوبية وتقسيمه وبيان منزلته

أولاً: تعريفه

١ - المعنى اللغوي :

توحيد الربوبية مركب إضافي من كلمتين ، سبق معنى أولاهما في المدخل بما يغني عن الإعادة .

أما الكلمة الثانية ، الربوبية ، فهي مصدر من كلمة الرب ، وهذه الكلمة تدل على معاني عدة ترجع عند التحقيق والتمحيص الى أصلين هما :

١= الملك والسيادة .

٢= القيام على الشيء وإصلاحه .

قال ابن الأنباري (١) فيما حكاه الأزهرى عنه (٢) (الرب ينقسم على ثلاثة أقسام يكون

الرب المالك ، ويكون الرب السيد المطاع ، قال تعالى : (فيسقى ربه خمرا) (٣)

أى سيده ، ويكون الرب المصلح للشيء ، رب الشيء أصلحه ، وأنشد :

يرب الذي يأتي من العرف انه . . إذا سئل المعروف زاد وتما (٤)

وحكى أيضا عن الأصمعي (٥) قوله : (رب فلان الصنيعة إذا أتمها وأصلحها (٦)

(١) هو أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري الإمام الحافظ المقرئ النحوي (ت ٢٢٨هـ) من معاصري الأزهرى وقد ترجم له في مقدمة التهذيب ص ٢٨/ وله ترجمة في تاريخ بغداد ١٨١/٣ ووفيات الأعيان ٣٤١/٤ ، وسير أعلام النبلاء ٢٧٤/١٥ والبداية والنهاية ١٩٦/١١ .

(٢) هو أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة الأزهرى الهروي العلامة اللغوي الشافعي (ت ٣٧٠هـ) له ترجمة في وفيات الأعيان ٣٢٤/٤ ، وسير أعلام النبلاء ٣١٥/١٦ وشذرات الذهب ٧٢/٣ .

(٣) سورة يوسف الآية (٤١)

(٤) تهذيب اللغة ١٨٨/١٥ مادة (رب) ولم أطلع على قائل البيت فيما لدى من مراجع

(٥) هو الإمام العلامة الحافظ حجة الأدب أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمعي البصري اللغوي أحد الأعلام

(ت ٢١٦هـ) انظر ترجمته في التاريخ الكبير للبخاري ٢٨/٥ ، وتاريخ بغداد ٤١٠/١٠ ، وسير أعلام النبلاء ١٧٥/١٠ ، وتهذيب التهذيب ٤١٥/٦

(٦) تهذيب اللغة ١٧٧/١٥

وقال ابن فارس(١): (الراء والياء تدل على أصول :-

الأول : إصلاح الشيء والقيام عليه، فالرب المسالك الخالق والماحب، والرب المصلح للشيء، والله جل ثناؤه الرب، لأنه مصلح أحوال خلقه.....

والأصل الآخر : لزوم الشيء والإقامة عليه.. يقال: أريت السحابة بهذه البلدة إذا دامت.....

والأصل الثالث : ضم الشيء للشيء ... إلى أن قال : ومتى أنعم النظر كان الباب كله قياسا واحدا(٢).

وقال الراغب (٣) : (الرب في الأصل : التربيية وهو إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حال التمام، يقال: ربه ورباه ورببه ولا يقال الرب مطلقا إلا لله المتكفل بمصلحة الموجودات) (٤).

ومن خلال هذه النصوص يتضح لنا أن الربوبية تدور حول معنى الملك والسيادة والقيام على الشيء وإصلاحه.

المعنى الشرعي:

توحيد الربوبية هو: (أن يشهد انفراد الرب تبارك وتعالى بالخلق والحكم، وأنه ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، وأن الخلق مقهورون تحت قبضته .) (٥)

فهذا التوحيد يتضمن الإيمان بأن الله تعالى المتفرد بالخلق والحكم فلا خالق إلا هو، ولا حاكم إلا هو، وبأن له التصرف التام في خلقه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فهو لم يخلق العالم ثم يتركه يمشى بدون مراقبة منه سبحانه أو تصرف، بل لم يزل هو المحرك للعالم بقدرته، وهو المتصرف فيه بإرادته.

(١) هو أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني أبو الحسين الإمام العلامة اللغوي المحدث المالكي (ت ٣٩٥ هـ) انظر ترجمته في: معجم الأدياء ٨٠/٤ ، ووفيات الأعيان ١١٨/١ ، وسير أعلام النبلاء ١٠٣/١٧ .

(٢) معجم مقاييس اللغة ٢/٢٨١ - مادة (رب) .

(٣) هو العلامة الماهر أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني الملقب بالراغب (ت ٥٠٢ هـ) له ترجمة في تاريخ حكماء الإسلام ١١٢ ، وسير أعلام النبلاء ١٢٠/١٨ ، وبغية الوعاة ٢/٢٩٧ .

(٤) المفردات في غريب القرآن ص/١٨٤ مادة (رب) ، وانظر تهذيب اللغة ١٥/١٧٦ ، والصحاح ١/١٢٠ مادة (رب) وقد ذكر أن الجاهليين قالوا للملك الرب مطلقا

(٥) مداح السالكين ١/٤٤٢ .

كما يتضمن الإيمان بالقضاء والقدر، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأن الله هو خالق الإنسان وأفعاله، فلاخالق إلا هو. وهذه المعانى للربوبية مناسبة للمعنى اللغوي، لأنها جميعا تعنى أن الله هو السيد المطلق في الكون، وهو الذى بيده مقاليد الأمور كلها، وبد صلاح كل شيء في الكون.

ثانيا : تقسيمه :

يمكن تقسيم المعانى المندرجة تحت توحيد الربوبية إلى قسمين:-

- ١ - الربوبية العامة : وهي ربوبية الله عز وجل لجميع الخلق وهو إيجادهم وإيصالهم من العدم، وإنشأؤهم وإيصالهم في أطوار خلقهم، وتصرفه فيهم كما يشاء، ويدخل في هذا الإطار جميع ما تقدم من معانى الربوبية.
- ٢ - الربوبية الخاصة : وهي ربوبية الله تعالى لأنبيائه وأوليائه المؤمنين به وبرسالاته والممثلين لأحكامه وشرائعه، وهذه ترجع إلى معنى التربية والإصلاح، وتشمل توفيق الله إياهم لما فيه الخير والصلاح/وتأييدهم ونصرهم على أعدائهم، كما تشمل تفريغ كرباتهم وإحابة دعواتهم(١) وتوحيد الله بهذا المعنى يعنى الإيمان بأنه سبحانه هو الموفق للطاعات ولجميع ما فيه الخير، وهو الناصر وفارج الهموم وكسفف الغموم، ومجيب الدعوات وحده دون من سواه، وأن من توكل عليه فهو حسبه، ومن توكل على غيره ضاع وخسر.

(١) انظر تفسير الكريم المنان للشيخ عبدالرحمن السعدي ١٥/١ .

ثالثاً : منزلة توحيد الربوبية

وهذا التوحيد لا يكفي الإقرار به لكى يصبح العبد مؤمناً معصوماً بالدم والمال - وإن كان هو الأصل والباب إلى النوعين الآخرين، وذلك لأن الإقرار به وسيلة إلى التقيد بما يلزم من ذلك من توحيد الألوهية، فمن أقر بتوحيد الربوبية واكتفى بذلك لم يحقن دمه وماله، ومن أوضح الأدلة على ذلك أن المشركين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا مقررين بأن الله هو الخالق الرازق المحيى بومع ذلك لم يصبحوا مسلمين.

قال تعالى : (قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلاتتقون فذلکم الله ربکم الحق فماداً بعد الحق إلا الضلل فأنى تصرفون) (١).

وقال تعالى : (ولین سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى یؤفکون) (٢) والآیات بعدما .

وقال تعالى : (ولین سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى یؤفکون) (٣) ومع هذا كله فقد قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم .

إذا فهذا التوحيد يجب أن يكون الإقرار به وسيلة إلى الإقرار بتوحيد الألوهية، ولهذا كثييراً ما يحتج المولى عز وجل على المشركين في الألوهية بإقرارهم بالربوبية .

قال ابن القيم (٤) رحمه الله تعالى : (باب توحيد الإلهية هو توحيد الربوبية فإن أول ما يتعلق القلب بتوحيد الربوبية ثم يرتقى إلى توحيد

(١) سورة يونس الآيتان (٣١ - ٣٢)

(٢) سورة العنكبوت الآية (٦١)

(٣) سورة الزخرف الآية (٨٧)

(٤) هو الامام العلامة المحقق شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن

أيوب الزرعي دمشقي صاحب التصانيف المشهورة في العقيدة السلفية والرد

على الملاحدة وأصحاب البدع والأهواء، من أشهر تلاميذ الإمام ابن تيمية (ت

٧٥١ هـ) من مصادر ترجمته : الدرر الكامنة لابن حجر ٢١/٤ وبغية الوعاة

٦٢/١ وشذرات الذهب ١٦٨/٦ والبدر الطالع للشوكاني ١٤٣/٢ .

الإلهية ، كما يدعو الله سبحانه عبادَه في كتابه بهذا النوع إلى النوع الآخر ، و يحتج عليهم به ، و يقررهم به ثم يخبر أنهم ينقضونه بشركهم به في الإلهية ٠٠٠٠٠ قال تعالى : (و لمن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون) (١) أى فأنى يصرفون عن شهادة أن لا إله إلا الله و عن عبادته و حده و هم يئثدون أنه لا رب غيره و لا خالق سواه ، و كذلك قوله تعالى : (قل لمن الأرض و من فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون) (٢) فتعلمون أنه إذا كان هو و حده مالك الأرض و من فيها و خالقهم و ربهم و مليكهم فهو وحده إلههم و معبودهم فكما لا رب لهم غيره فهكذا لا إله لهم سواه) (٣)

(١) سورة الزخرف الآية (٨٧)

(٢) سورة المؤمنون الآيتان (٨٤ - ٨٥)

(٣) مدارج السالكين ١ / ٤٤٣

المبحث الثاني

دلالة السورة على الربوبية العامة

لقد انتظمت سورة الأنبياء بعض الدلائل على ربوبية الله سبحانه وتعالى العامة لجميع الخلق، ويمكن رجوع هذه الدلائل إلى شيئين هما:-

- ١ - دليل الخلق والإيجاد
- ٢ - دليل العناية .

وسأفرد كل واحد منهما بحديث مستقل .

أولا : دليل الخلق والإيجاد :

ومأخذ هذا الدليل من السورة من خمس آيات هي :-

- ١ - قوله تعالى : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما للعبين) الآية (١٦)
- ٢ - قوله تعالى : (أم اتخذوا إلهة من الأرض هم ينشرون) الآية (٢١)
- ٣ - قوله تعالى : (وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون) الآية (٢٢)
- ٤ - قوله تعالى : (خلق الإنسان من عجل ساوربكم آياتي فلا تستعجبون) الآية (٤٧)
- ٥ - قوله تعالى : (قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين) الآية (٥٦).

فالآية الأولى صريحة في أن السماء والأرض وما بينهما مخلوقات خلقها الله عز وجل وأودع فيها الآيات الدالة على كمال قدرته وحكمته، ففي الآية عدة قضايا:

- الأولى : كون هذه مخلوقات .
- الثانية : أن الله هو خالقها .
- الثالث : أنها خلقت لحكمة .

أما كونها مخلوقات فإن العقلاء من البشر متفقون على ذلك، وكل ما وجد فيه من خلاف فمرده إلى الاختلاف في تفسير الخلق، وإلا فلا ينكر أحد أن هذه الموجودات توجد بسعد أن لم تكن ولو على سبيل الجمع والتفريق، لأن ذلك مشاهد بدهامة، فالنطفة الصغيرة التي تتحول إلى إنسان لاشك في أنه قد حدثت فيها أشياء كثيرة أضيف إليها حتى تحولت إلى إنسان، والبذرة الصغيرة التي تتحول إلى شجرة

كبيرة، لابد وأن تكون قد حدثت فيها أشياء لم تكن موجودة من قبل وانضمت إليها، والمغالطون في هذه المسألة يقولون: إن المادة أولية، بمعنى أن العالم بصفتها الحالية تكون من ذرات أولية متناهية في الصغر بحيث لا تقبل التجزؤ، ولكن هذا لا يعفيهم في هذه القضية، ذلك أن تركيب بعض هذه الذرات مع بعض ثم اكتسابها صفة أخرى غير ما كانت عليها قبل، يعد هذا التركيب خلقاً أيضاً .

وقد أشار ابن رشد (١) إلى هذا المعنى حين قال: (وأما دلالة الاختراع فيدخل فيها وجود الحيوان كله ووجود النباتات ووجود السموات..) وإلى أن قال في الحيوان والنبات: (فإننا نرى أجساماً جمادية ثم تحدث فيها الحياة، فنعلم قطعاً أن ههنا موجداً للحياة ومنها بها، وهو الله تبارك وتعالى) (٢).

وعلى العموم معلوم من المشاهدة والفترة أن هذا الكون حادث بعد أن لم يكن، ولذا لم يقل بأولية العالم إلا بعض الفلاسفة الذين ليس لهم حجة في ذلك إلا بعض الشبهات التي يثيرونها لضعاف العقول.

وإذا ثبت أن الكون مخلوق انتقلنا إلى القضية الثانية، وهي: من خالق الكون ؟ والإجابة على السؤال يتلخص في ثلاثة احتمالات :-

الاحتمال الأول : أن يكون الكون وجد وخلق هكذا دون خالق، وهذا محال عقلاً، لأن إثبات الأثر يوجب إثبات المؤثر بداهة، فمن يستطيع مهما أغرق في الخيال أن يصدق أن الكون بما فيه من مخلوقات عظام، كالشمس والأرض والجبال، ومن مخلوقات بالغة الدقة في التعقيد كالإنسان بجميع أجزائه، والحيوانات الأخرى والنباتات، من يستطيع أن يصدق أن هذه كلها وجدت من دون موجد؟! إن من يتمور هذا فهو إلى الجنون أقرب منه إلى العقل.

(١) هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي المعروف بابن رشد الكوفي من المتفلسفة الإسلامية له بعض الآراء الجيدة في بعض مباحث العقيدة كما أن له بعض الشطحات في مناصرة الفلاسفة أهل الخيال، وله مشاركات في العلوم الأخرى كالفقه والأصول والطب. توفي (٥٩٥هـ) من مصادر ترجمته: بغية الملمس للضبي ص (٥٤) وتكملة الصلة لابن الأبار ٥٥٣/٢ وسير أعلام النبلاء ٢١/٣٠٧ والديباج المذهب لابن فرحون ٢٥٧/٢ (٢) مآهج الأدلة ص (١٥١) وانظر: بيانه بلبس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لابن تيمية ١٧٢/١ ، ١٧٦/١ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (١) -رحمه الله تعالى - : (وأما أن يقول إنه محدث حدث بنفسه بلا صانع فهذا لا يعرف عن طائفة معروفة، وإنما يحكى عن لا يعرف، ومثل هذا القول وأمثاله يقوله من يقوله ممن حصل له فساد في عقله صار به إلى السفطة) (٢).

الاحتمال الثاني :

أن يكون الكون قد أوجد نفسه، وهذا محال عقلا، لأن معناه أن الكون وجد قبل أن يوجد، ثم أوجد نفسه، وهذا يجزم كل عاقل ببطلانه .

الاحتمال الثالث :

أن يكون من صنع رب قدير حكيم بائن عنه، وهو الاحتمال الذي ترتضيه العقول. (٣)

وإلى هذه الاحتمالات تشير الآيات الكريمة : (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون) (٤).

قال ابن كثير (٥) - رحمه الله - عند تفسير هذه الآية : (هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية فقال تعالى : (أم خلقوا من غير شيء) الخ... أي أوجدوا من غير موجد ؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي لا هذا ولا هذا، بل الله هو

(١) هو شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الطيم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الدمشقي، أحد أعلام الأئمة الذين كان لهم الدور البارز في إبراز مصلح العقيدة السلفية وتوضيح معالمها، والرد على المنحرفين والملحدون وقد أشرى المكتبة الإسلامية بمؤلفاته النافعة ورسائله الكثيرة (ت ٧٢٨ هـ) لاستيفاء مراجع ترجمته يراجع معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٢٦١/١ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥١/١٣

(٣) انظر الرياض الناضرة للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي ص/٢٤٧

(٤) سورة الطور الآيتان (٣٥ - ٣٦)

(٥) هو المفسر المحدث المؤرخ الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير أبو الفداء الدمشقي صاحب التفسير المعروف باسمه والذي يعد من أحسن ما كتب في التفسير (ت ٧٧٤ هـ) له ترجمة في: الدرر الكامنة لابن حجر ٣٩٩/١ ، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ١٢٣/١١ ، وطبقات المفسرين للداودي ١١٠/١ ولاستيفاء مراجع ترجمته يراجع مقدمة تفسيره التي كتبها الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي ص/١٢ - ١٤ م

الذي خلقهم، وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً (١).

وإذا ثبت أن الكون مخلوق وأن الله عز وجل هو خالقه، فلماذا خلقه؟ تشير الآية الكريمة إلى أنه - سبحانه وتعالى - لم يخلق عبثاً، لأنه خلقه عن إرادة وقصد، ومن المعلوم أن المرید القاصد لا يفعل شيئاً لغير غرض إلا سمي عبثاً، والله سبحانه منزه عن العبث، فقد خلق هذا الكون للدلالة على قدرته ولكي يطاع أمره، ويوضح ذلك أن الآية جاءت تعقيباً على معاقبة الكفار بسبب أفعالهم السيئة، للتنبيه على أن خلق السموات والأرض وما بينهما ليس لكسب يفعل من يريد ما يريد، وإنما لكي يطاع أمر الله ويعبد وحده. (٢)

وأما الآية الثانية فهي رد على المشركين، أي أخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض قادرين على الإنشاء، وهو إحياء الموتى، أو إحياء الناس في هذه الدنيا، (٣) لأن هذا الإحياء كان بعد عدمه الذي يعد موتاً.

والإنكار

والاستفهام في الآية للإنكار المنصب على افتقاد الآلهة لهذه الصفة التي يجب اتصاف الإله بها، (٤) لأن الرب هو الإله وهو القادر على كل شيء، ومن جملة ذلك إحياء الموتى.

والأحياء خلق لأنه إيجاد للحياة في الجماد، وقد وردت تسميته خلقاً في قوله تعالى: (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) (٥).

ولاشك في أن وجود الحياة دليل على موجودها، وتماثل أوجه الحياة في الأحياء وسيرها سيراً متحداً دليل على أن الذي يتولاها ويرعاها رب قدير واحد، وظاهرة الحياة ظاهرة محيرة للماديين المنكرين لربوبية الله عز وجل، فهم لم يستطيعوا محاكاتها، بل عجزوا أن يجدوا لها تفسيراً مفنعاً دون نسبتها إلى الله تعالى، كما يقول سيد قطب (٦) - رحمه الله - : "لقد عجزت كل محاولة

(١) تفسير ابن كثير ٢٦١/٤

(٢) انظر تفسير القرطبي ٢٢٦/١١ ، والبحر المحيط ٣٠١/٦ .

(٣) انظر تفسير الطبري ١٠/١٨ ، وأبى السعود ٦١/٦

(٤) انظر تفسير أبى السعود ٦١/٦

(٥) سورة الملك الآية (٢)

(٦) من المفسرين المعاصرين ومن زعماء الحركة الإسلامية المعاصرة في مصر، لقي من حكام مصر الكثير من الأذى من جراء آرائه ومواقفه الشجاعة في الدفاع عن القضايا الإسلامية والتي أودعها كتبه، أعدم سنة (١٣٨٦هـ) على يد جلادي طاغية مصر جمال عبد الناصر، رحمه الله رحمة واسعة، كتب عنه العديد من الكتب والرسائل العلمية ومنها: رائد الفكر الإسلامي المعاصر الشهيد سيد قطب للأستاذ يوسف الأعظم، انظر اتجاهات التفسير في القرن الرابع ٩٨٩١٢ .

لتفسير ظاهرة الحياة على غير أساس أنها من خلق الله، ومنذ أن تغلبت المادية على الكنيسة واعتبرت الدين خرافة حاولت إعطاء تفسير لنشأة الكون والحياة فيه دون أن تعترف بوجود الله، فباعت جميع محاولاتها بالفشل، ولم يبق منها في القرن العشرين إلا ترهات تدل على العناد، وأقوال بعض علمائهم الذين عجزوا عن التفسير المقنع تصور حقيقة موقفهم من القضية، وأنها العناد والمكابرة ليس إلا" (١) ومن مظاهر هذا العناد والمكابرة ما قاله بعضهم: "إن نظرية النشو والأرتقاء (٢) غير ثابتة علمياً، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان، ونحن لانؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق المباشر وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه". (٣) إذا فوجود الحياة والأحياء من أقوى الأدلة على وجود المحيي القادر وأن اتصافه بمفحة الإحياء يوجب أن يعبد وحده دون من سواه، لأن توحيد الألوهية هو النتيجة الطبيعية لتوحيد الربوبية.

وأما الآية الثالثة ففيها ثلاث قضايا أساسية هي :-

١ - أن الليل والنهار والشمس والقمر مخلوقات .

٢ - أن الله خالقهن .

٣ - أن كلا منها تسبح في فلك .

فأما القضية الأولى فواضح من منطوق الآية، حيث ورد فيها لفظ " خلق " فالليل والنهار وآيتهما القمر والشمس من أدل الأدلة على وجود الله سبحانه وتعالى ووحدانيته وكمال قدرته، ولذا ورد التنبيه عليها في آيات كثيرة من القرآن الكريم.

ومنها قوله تعالى: (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لآيات لمن يعبدون) (٤).

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب المجلد الثالث ص/٣١٤-٣١٥ باختصار وتصرف يسير

(٢) هي نظرية دارون التي حقيقتها: أن الإنسان لم يخلق سوياً هكذا بل مر بأدوار كثيرة كان في بعضها قرداً. انظر كتاب خلق لاتطور، الذي ألفه فريق من العلماء وترجمه إحسان حقى، وكذا: الإنسان في ظل الأديان ص/٢٨ - ٣٠ ص/٤٤ - ٥٧ .

(٣) القائل هو سير آرثركيث . انظر: الإسلام يتحدى ص/٤٣ وقد نقل العبارة عن

Islamic though Dec 1961

(٤) سورة فصلت الآية (٢٧)

وهذه الآية كالتي معنا تصرح بأنها مخلوقات فهي لذلك لاتستحق ان تعبد، اما كون هذه مخلوقات فلم يعد أحد يشك في ذلك (١) ، أما المؤمنون بالكتب السماوية فالأمر عندهم يقين من جهة الأنبياء والكتب التي أخبرت بذلك، ومن جهة النظر الفطري أيضا، فإن المؤمن يرى الليل والنهار يتعاقبان ويتغيران طولاً وقصراً، ويرى الشمس تغيب وتطلع، وكذا القمر، ويلحقهما الكسوف والخسوف، فيعرف أنه لايد وأن يكون وراء ذلك كله قوة مدبرة مسخرة، وهي قوة الخالق الرب جل وعلا، واستدلال أبينا إبراهيم شامد قوي على ذلك، فقد أخبرنا الله عز وجل أن حبيبه الخليل إبراهيم عليه السلام أبطل ربوبية الكواكب والقمر والشمس وكذا ألوهيتهما بكونهما تغيب، قال تعالى: (وكذلك نرؤ إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين فلما جن الليل^{عليه} رآه كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لأحب الأفلين فلما رآه القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رآه الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يقوم إنى يرى مما تشركون إنى وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) (٢)، فقد استدل إبراهيم عليه السلام على أن هذه مخلوقات وليست أربابا يكون كل منها تأفل وتحتجب، مما يدل على وجود متحكم فيها، وهو الذى فطرها جميعا، وهو الله سبحانه وتعالى. (٣) هذا بالنسبة للمؤمنين، وأما الماديون فقد ثبت لهم من خلال علومهم وتجاربهم الخاصة كونها مخلوقات، إذ قد ثبت لديهم أن الكون في طريقه إلى الزوال والنهاية، وذلك حين تفتقد جميع الأجسام طاقتها ويتساوى الجميع في درجات الحرارة ولايكون أى أثر للحياة في هذا الكون وهذا ما سموه بالقانون الثاني من قوانين الدينا ميكا الحرارية (٤).

والشمس لازالت تفقد طاقتها بمعدل خمسة ملايين طن في كل ثانية (٥) مما يدل على أنها ستخمد يوما ما، ويدل ذلك على أن لها بداية، لأنها لوكانت أزلية مع كونها تفقد هذا القدر الهائل على الدوام لكانت قد استنفدت جميع طاقتها قبل الآن وإذا ثبت أن لها بداية فمعنى ذلك أنها حادثة بعد أن لم تكن، فهي إذا مخلوقة.

-
- (١) الإطلاق هنا لايشمل المعاندين المكابرين لحكم العقل والفطرة طبعاً.
 (٢) سورة الأنعام الآيات من (٧٥ - إلى ٧٩)
 (٣) انظر : تفسير ابن كثير ١٥٥/٢ - ١٥٧
 (٤) انظر : الله يتجلى في عصر العلم ص/٢٢
 (٥) انظر : الإنسان بين العلم والدين ص/٦١ وقد نقله عن "الكون" الصادر عن لايف المكتبة العلمية ص/٨٧

أما القمر فقد كان - حسب ما تقول علومهم - جزءاً من الشمس كالأرض وباقي كواكب المجموعة الشمسية، (١) ثم انفصل عنها وبمرور السنين برد (٢). ومعلوم أن الليل والنهار بمفهومنا البشري - وهو ما يخاطبنا الله به في مثل هذه القضايا - هو ما يتكون من الزمن بين طلوع الشمس وغروبها وبين غروبها وطلوعها، وقد ثبت بعلومهم زوال الشمس وبقيّة أجزاء الكون - أو على الأقل افتقادها لجميع عملياتها الكيومية والعضوية - مما دل على أنها مخلوقة، ويسيطر عليها قوة لاتقارن بقوتها، وهي قوة الله العلي الكبير ذي القوة المتين.

وإذا ثبتت القضية الأولى وهي كون هذه الأشياء مخلوقة تبينت القضية الثانية مما تقدم في الآية الأولى.

وأما القضية الثالثة وهي كون الشمس والقمر تسبحان في فلك فسيأتي الحديث عنها في بحث لاحق أن شاء الله (٣).

والمقصود هنا أن الآية تدل على توحيد الربوبية بدليل خلق الليل والنهار والشمس والقمر.

وأما الآية الرابعة فمناطقة بخلق الإنسان، ولكن المفسرين اختلفوا هل المراد بالخلق هنا المعنى المعروف وهو الإيجاد؟ أم أن المراد بكناية عن كون الإنسان طبع على العجلة في الأمور؟

(١) وهي عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل وأورانوس ونبتون وبلوتو.

(٢) انظر : الإنسان بين العلم والدين ص/ ٣٠ - ٣١

(٣) سيأتي عند الكلام على طريقة المتكلمين في الاستدلال لتوحيد الربوبية ص (٣٩) من هذا البحث

وقد رجح إمام المفسرين ابن جرير (١) رحمه الله تعالى المعنى الأول (٢) بينما رجح مفسرون آخرون المعنى الثاني (٣)، وعلى كلا المعنيين فإن منطوق الآية صريح في أن الإنسان مخلوق، وإنما تظهر فائدة الخلاف في تفسير معنى قوله (من عجل) هل يرجع إلى الله تعالى أم إلى الإنسان؟ فإن كان راجعا إلى الله فالمعنى أنه خلق الإنسان في وقت يسير كأنه يتعجل به غروب شمس الجمعة، وقد وردت آثار كثيرة في ذلك، ومنها ما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم (٤) عن عبد الله بن سلام أن آدم عليه السلام خلق يوم الجمعة في آخر ساعة منه وهي ساعة الإجابة (٥). وهذا الأثر وإن كان موقوفاً فله حكم الرفع لأن مثله لا يقال عن رأي، ويعضده ما رواه مسلم في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أميط من الجنة) الحديث (٦). وما رواه أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم - ضمن حديث طويل - : (وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة) (٧).

-
- (١) هو المفسر الكبير المحدث الحافظ الفقيه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب جامع البيان الذي يعد المرجع الأول في التفسير (ت ٣١٠ هـ) انظر ترجمته في: تاريخ بغداد ١٦٢/٢ وسير أعلام النبلاء ٢٦٧/١٤ وطبقات الشافعية للسبكي ١٢٠/٣ والبدائية والنهاية ١٥٦/١١ وطبقات المفسرين للسيوطي ص/٣٠ والداودي ١٠٦/٢ .
- (٢) انظر تفسيره ٢١/١٧ .
- (٣) انظر تفسير القرطبي ٢٨٦/١١ وابن كثير ١٨٨/٣ .
- (٤) هو أبو محمد عبد الرحمن بن إدريس بن المنذر الحنظلي العلامة المحدث الحافظ المفسر (ت ٣٢٧ هـ) له ترجمة في تذكرة الحفاظ ٨٢٩/٢ وسير أعلام النبلاء ٢٦٣/١٣ والنجوم الزاهرة ٢٦٥/٣ وطبقات المفسرين للداودي ٢٧٩ .
- (٥) أخرجه مسلم في كتاب الجمعة باب فضل يوم الجمعة ٥٨٥/٢ ح : ١٧ .
- (٦) أخرجه الطبري ٢١/١٧ وذكره ابن كثير معزواً إلى ابن أبي حاتم بإسناده ١٨٨/٣ .
- (٧) أخرجه مسلم أيضا في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام ١٤٩/٤ ح : ٢٧ .

قال ابن تيمية في هذا الحديث : (فهذا الحديث قد بين ما يوافق سائر الأحاديث من أن آدم خلق يوم الجمعة، وأنه خلق آخر الخلق) (١).

وإن كان يرجع إلى الإنسان فالمعنى أنه قد ركب في طبعه أن يتعجل الأمور فكأنه خلق من العجلة.

وهذا الخلاف لا يؤثر في دلالة الآية على أن الإنسان مخلوق، أما على المعنى الأول فالأمر واضح، وأما على الثاني فإن القول بأن الإنسان قد ركب في طبعه يعني أن هناك طبعه على ذلك، وهذا الذي ركب في طبعه هو الذي خلقه مع طبعه.

وخلق الإنسان وما ركب فيه من طبائع ومنها العجلة من أوضح عناصر هذا الدليل - دليل الخلق - لأن كل أحد من البشر يلحظ ذلك في نفسه وفي محيطه، فيرى الجيل الماعد، ويسمع بالأجيال الماضية، ويرى النطفة ذلك الماء المهين يتحول بالتدريج حتى يتكون منها إنسان يخرج إلى هذا العالم هزيلًا ضعيفًا، وبمرور الأيام ينمو شيئًا فشيئًا، وهو لا دخل له في شيء من ذلك، فلا يستطيع أحد أن يتكلم بحكم في نفسه فيجعل قامته بالقدر الذي يريد طولًا وقصرًا، أو جثته بالقدر الذي يريد من الضخامة أو الهزال، وجميع وظائف الجسم التي يتوقف الحياة عليها تتم ذاتيًا، فالقلب يتابع دقاته وحتى عند ما يكون الإنسان نائمًا، وكذا الدماغ تجرى في العروق والشرايين مادام الإنسان حيا.

وإن اللطائف والعجائب التي في الإنسان وفي خلقته لجدير في أن تدل دلالة قاطعة على البارئ عز وجل، ولذا فضل بعض العلماء هذا الدليل - دليل خلق الإنسان على غيره من الأدلة.

قال ابن تيمية : (فالاستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والاستقامة، وهي طريقة عقلية صحيحة، وهي شرعية دل القرآن عليها وهدى الناس إليها وبينها وأرشد إليها، وهي عقلية، فإن نفس كونه الإنسان حادثًا بعد أن لم يكن ومولودًا ومخلوقًا من نطفة ثم من علقته هذا لم يعلم بمجرد خبر الرسول، بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم سواء أخبر به الرسول أو لم يخبر، لكن الرسول أمر أن يستدل به، ودل به وبينه واحتج به، فهو دليل شرعي لأن الشارع استدل به، وأمر أن يستدل به، وهو عقلي لأنه بالعقل تعلم صحته) (٢).

(١) بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالطول والاتحاد ص/٣٠٢ - ٣٠٧

(٢) كتاب النبوات ص/٧١ - ٧٢ .

كما نقل عن الخطابي (١) أن ذلك من أوضح الأدلة على أن للخلق صنعا ومدبرا (٢)، فالآية وإن كانت لم ترد في معرض استدلال فإن ذكر خلق الإنسان فيها تنبيه إلى هذه الحقيقة، ومن ثمَّ تعيَّن البحث عن الخالق ودلالة الخلق عليه، وهذا ما جرَّ البحث إلى هذا المنحى.

وأما الآية الأخيرة فهي حكاية لما قاله الخليل لقومه، وفيها تقرير لتوحيد الربوبية لله تعالى بكونه الذى فطر السموات والأرض أي أبدعهن وأخترعهن على غير مثال سابق (٣).

وقد جمعت الآية بين صفة الربوبية والخلق، وإذا يقطع الطريق على أولئك الذين يحاولون أن يفرقوا بين التدبير والخلق وبين التصرف واستحقاق الدعاء والعبادة، فهؤلاء قوم مشركون اتخذوا آلهة من دون الله ومرفوا لها بعض أنواع العبادة، وهذه الآلهة مخلوقة لخالق، وهي لاتنفع ولاتضر، بل لاتدفع عن نفسها من أراد بها ضررا.

وقد قرر إبراهيم عليه السلام الربوبية لله تعالى بكونه الذى فطر السموات والأرض لأن قومه كانوا يعبدون الكواكب السبعة، كما ذكر المؤرخون والمفسرون (٤)، فنسبهم إلى أن هذه مخلوقات لاتستحق أن تعبد، وإلى أن إقرارهم بأنها مخلوقات للخالق عز وجل يوجب عكس فعلهم.

ثانيا: دليل العناية

وهذا الدليل مبناه على شيئين :-

- ١ - أن كل ما في الكون ملائم لوجود الإنسان والمخلوقات الأخرى التي في الكون.
- ٢ - أن كل ما يوجد موافقاً في جميع أجزائه لفعل واحد ومسداً نحو غاية واحدة فهو مصنوع ضرورة، لأنه لايمكن أن يقع بالمصادفة العمياء (٥).

(١) هو الإمام العلامة الحافظ اللغوي أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الخطابي صاحب معالم السنن وهو شرح نفيس على سنن أبي داود (ت ٢٨٨ هـ) وله ترجمة في يتيمة الدهر ٢٢٤/٤ - ٢٢٦ ، ووفيات الأعيان ٢١٤/٢ ، وسير أعلام النبلاء ٢٢/١٧ - ٢٨ ، والبداية والنهاية ٣٤٦/١١ .

(٢) انظر: بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية ١٧٨/١ .

(٣) انظر: تفسير الطبري ١٠١/٧ ، والمفردات في غريب القرآن ص/٨٢ مادة (فطر)

(٤)

(٥) انظر: مناهج الأدلة في عقائد الملة ١٥٠ ، وبيان تلبيس الجهمية ١٧٦/١ .

وقد ورد التنبيه في السورة على بعض ما هياه الله تعالى من ظروف ملائمة للإنسان لكي يعيش على وجه الأرض وذلك في الآيات التالية :-

١ - قوله تعالى : (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون وجعلنا في الأرض رؤس أن تميد بكم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون) الآيات ٣٠ ، (٣١، ٣٢، ٣٣).

٢ - قوله تعالى : (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون) الآية (٤٢).

ففي هذه الآيات تنبيهه إلى بعض مظاهر العناية الإلهية بالكون، وهذه المظاهر هي :-

١ - فتق السموات والأرض لتصبحا مهيأتين للحياة

٢ - إرساء الجبال لحفظ توازن الأرض

٣ - تسهيل التنقلات للناس بجعل السبل والفجاج في الأرض وبين الجبال

٤ - جعل السماء سقفا للأرض وحفظها

٥ - اختلاف الليل والنهار

٦ - حفظ الناس بالليل والنهار من الكوارث والمصائب .

فقوله تعالى : (أولم ير الذين كفروا...) إشارة إلى النقطة الأولى وللمفسرين في معناها قولان :-

١ - القول الأول : أن المراد بالرتق الالتصاق وبالفتق الفصل، فيكون معنى الآية على هذا أن السماء والأرض كانتا ملتصقتين ببعضهما ببعض ففصل الله بينهما، أو أن السماء كانت كتلة واحدة فجعلها الله سعا، وكذلك الأرض كانت كتلة واحدة فجعلها سعا.

وهذا القول منسوب لمفسرين كثيرين من السلف والخلف (١)، وهو مناسب أيضا للمعنى اللغوي للكلمتين، فإن الرتق هو الضم والالتحام والالتحام بين الشيئين والفتق هو الفصل بين المتمثلين والشق وهو القطع (٢)

٣ - القول الثاني : أن المراد برتق السماء أنها كانت لاتمطر وفتقها الإمطار، والمراد برتق الأرض كونها لاتنتبت وفتقها إنباتها. (٣)

وهذا القول مناسب أيضا للمعنى اللغوي من بعض الوجوه، فإن المطر النازل يشق أرجاء السماء حتى يمل إلى الأرض، والنبات كذلك يشق الأرض كما قال تعالى : (ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا) (٤).

ومما يقوى هذا القول قوله تعالى بعد ذكر الرتق والفتق : (وجعلنا من الماء كل شيء حي) فالعطف هنا يوحي بوجود علاقة بين الجملتين، وهذا لايتوجه إلا على القول بأن المراد هو إنزال المطر من السماء، وجعل قوام الحياة بهذا الماء، وهذا القول يتضح العبرة والآية، فإن هذا هو الذي يشاهده الكفار بأبصارهم ويمكنهم أخذ العبرة منه. (٥)

وعندي أنه لامانع من الأخذ بالقولين، وبخاصة في عصرنا هذا، لإمكان أخذ العبرة منهما معا (٦)، أما أخذ العبرة على القول الثاني فواضح لأنه مشاهد بالعيان حدوث ذلك، فالكفار يرون بأبصارهم نزول المطر ونبات الأرض ومالهما من دور في حياة البشر والمخلوقات الأخرى، فيعلمون أن هذا التقدير المحكم والتناسب والتناسق لايمكن أن يكون قد حدث على وجه المصادفة، بل لابد أنه من تقدير حكيم قدير هو الله سبحانه.

(١) انظر تفسير الطبري ١٤/١٧ وقد رواه عن ابن عباس والضحاك وقتادة والحسن، وروى الجانب الثاني وهو كون السماء كتلة واحدة، وكذا الأرض عن مجاهد وأبي صالح والسدي، والقرطبي (١١/٢٨٣، وابن كثير ٣/١٨٦).

(٢) انظر الصحاح ٤/١٤٨٠ مادة (رتق) و٤/١٥٣٩ مادة (فتق) والمفردات المادتين ص/١٨٧ و ٢٧١.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١٥/١٧ وقد رجحه على القول الأول، وانظر كذلك: زاد المسير ٥/٣٤٨، والقرطبي (١١/٢٨٤).

(٤) سورة عبس الآيتان (٢٦، ٢٧) ومادة (فتق) يدل أيضا على الخصب كما ذكره الجوهري في الصحاح ٤/١٥٣٩ مادة (فتق)

(٥) انظر تفسير الطبري ١٥/١٧، وأضواء البيان ٤/٦١٣ - ٦١٥.

(٦) من هذه الصيغة فقط، وإلا فالظاهر أن المعنى الثاني هو الأليق بتفسير الآية لقرائن كثيرة وأهمها أن هذا هو الذي يعلمه الكفار ببقين زمن الوحي والآن، أما القول الأول فعلم الكفار به زمن الوحي مفقود، وهو الآن عندهم بمثابة النظريات العلمية يبنون عليها تجاربهم وعلومهم، ولايرون مانعا أن يأتي يوم يغيرون رأيهم فيه إذا تقدم العلم أكثر فأكثر، والله أعلم.

أما على القول الأول فإن الكفار الآن يقولون - حسب علومهم وتجاربهم - : إن الأرض كانت جزءاً من الأجرام السماوية، وأنها انفصلت مع بقية كواكب المجموعة الشمسية التي نعيش فيها عن الشمس، ثم بمرور السنوات برد سطح الأرض وتكونت فيها العناصر الملائمة للحياة الموجودة على ظهرها الآن، فعلم الكفار بهذا يمكنهم أخذ العبرة منه والاستدلال به على وجود الخالق الحكيم الذي هيا هذه الأرض - من بين سائر الكواكب بهذه الصفة والميزة ليتمكن الإنسان من العيش عليها، لأنه يبعد كل البعد أن يكون ما حدث للأرض من تغيرات حتى ناسبت ظهور هذه الحياة عليها قد حدث صدفة.

وبهذا يتضح أننا سواء قلنا بالمعنى الأول أو الثاني فإن الآية إرشاد وتوجيه للكفار إلى أن يتفكروا ولا يعرضوا عن هذا الكون العظيم وما فيه من دلالات واضحة على قدرة خالقه وبارئيه، ولهذا قال تعالى في آخر الآية: (أفلا يهتدون) أي أفلا يهتدون كل هذا للإيمان ومعرفة أن هذا لم يكن ليحدث بنفسه، بل لا بد من مكون كونه ومدبراً وحده (١) وهو الله العلي الكبير.

وقوله تعالى بعد ذلك: (وجعلنا في الأرض روساً أن تميديهم.. الخ) تنبيهه إلى النقطتين الثانية والثالثة، فالآية ترشد إلى ما من الله به من حفظ هذه الأرض من الاضطراب بإرساء الجبال عليها، وهي كقوله تعالى: (والقى في الأرض روساً أن تميديكم وأنهرها وسللاً لعلكم تهتدون) (٢).

وقوله تعالى: (الم نجعل الأرض مهجداً والجبال أوتادا) (٣).

ففي هذه الآيات وأمثالها يمتن الله سبحانه وتعالى على خلقه بأن جعل في الأرض الجبال الرواسي أي الثوابت كالأوتاد، لحفظ الأرض من الاضطراب والتكفؤ، والميد معناه الاضطراب والتكفؤ. (٤)

وهذا الحفظ يتحقق في صور شتى (فقد يكون توازناً بين الضغط الخارجي على الأرض والضغط الداخلي في جوفها، وهو يختلف من بقعة إلى بقعة، وقد يكون بروز

(١) انظر تفسير القرطبي ٢٨٥/١١ ، وابن كثير ١٨٥/٣ .

(٢) سورة النحل الآية (١٥)

(٣) سورة النبا الآيتان (٦ ، ٧)

(٤) انظر : تفسير الطبري ٦٢/١٥ ، والمفردات في غريب القرآن ص/٤٧٧ مادة (ميد)

الجبال في موضع معادلا لانخفاض الأرض في موضع آخر... وعلى أية حال فهذا النص (١) يثبت أن للجبال علاقة بتوازن الأرض واستقرارها، فلنترك للبحوث العلمية كشف الطريقة التي يتم بها هذا التوازن، فذلك مجالها الأصيل. (٢)

ولا يرد على كون الجبال حافظة للأرض من الاضطراب ما ثبتت علميا عند أغلب الناس أن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس، لأن ^{دورة} دوران منظم، والأرض أثناء ذلك الدوران بحاجة إلى الأتزان، وتظهر فائدة الجبال في ذلك، ^{كثيرة} لأن الشيء الثابت في الغالب ليس بحاجة إلى ما يحفظه من التكفؤ بخلاف المتحرك.

وهذا الحفظ من مظاهر عناية الله بالخلق، فلو كانت الأرض مضطربة لما تمكنا من الاستقرار عليها ولانهارت المباني علينا، بل لما تمكنا من إقامة المباني أصلا.

ومن مظاهر العناية الإلهية التي ترشد إليها الآية الكريمة تسهيل التنقلات عبر الجبال، لأنها لو كانت سلاسل متصلة لافراغ بينها لعاش البشر في تجمعات منعزلة، ولما وصلت الحضارة البشرية إلى ما وصلت إليه من تقدم ورفي، ولتسبب من ذلك فساد مصالح كثيرة للناس، ولذا جعل الله فيها سبلا فجاء، أي واسعة ليسلك الناس فيها إلى مصالحهم، وهذا على القول برجوع الضمير في قوله تعالى في الآية: (فيها) إلى الجبال، وأما إذا رجعنا الضمير إلى الأرض فإن المعنى يعم حينئذ كل الطرق التي يسلكها الناس، وهي من مظاهر العناية أيضا فإن الناس لولم يهتدوا إلى اتخاذ السبل للتنقل لضاعت عليهم مصالح كثيرة.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى - بعد أن ذكر منافع الجبال وبعض الحكمة في كونها على وضعها الحالي - : (فكان أولى الأشكال والأوضاع بها وأليقها وأوقعها على وفق المصلحة هذا الشكل الذي نصبت عليه، ولقد دعانا الله سبحانه وتعالى في كتابه إلى النظر فيها وفي كيفية خلقها، فقال: (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت) (٣). فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة بارئها وفاطرها وعلمه وحكمته ووحدانيتها) (٤)

(١) المراد الآية الكريمة التي نتحدث عنها هنا

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥٢١/١٧ .

(٣) سورة الغاشية الآيات (١٧، ١٨، ١٩)

(٤) مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢٢٢/١ .

والآية التي بعدها وهي قوله تعالى: (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) الخ الآية،
فيها إيضاح لمظهر من مظاهر عناية الله سبحانه بخلقه، وهو جعله السماء للأرض
مقفا، وحفظها من السقوط على الأرض، ومن أن يمل إليها الشياطين، وكذلك حفظها
من التشقق والتفطر.

قال تعالى - عن حفظها من السقوط على الأرض -: (ويمسك السماء أن تقع على
الأرض إلا بأذنه) (١).

وقال تعالى - عن حفظها من الشياطين -: (وحفظناها من كل شيطان رجيم) (٢).

وقال - عن حفظها من التشقق والتفطر -: (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف
بنيناها وزيّناها ومالها من فروج) (٣). أي ليس فيها شقوق ولا صدوع (٤).

فلولا حفظ الله للسماء والأرض لزلتا أو لتصادمتا ونتج عن ذلك الهلاك
والدمار، ولكن الله سبحانه وتعالى أمسك كلا منهما، وكذلك الأجرام السماوية
الأخرى من النجوم والكواكب، وجعل لكل منها مسارا محددًا بحيث لا يحصل بينها
تصادم أبداً.

وهذه الأجرام السماوية المبعثوثة في السماء والتي يستفيد منها الإنسان في سير
حياته، فالشمس - مثلاً - تؤمن له الطاقة اللازمة، والغلاف الجوي يقيه إشعاعات
الشمس الخطيرة، والقمر والنجوم تساعد على معرفة الجهات والتواريخ، كل هذا
يجب أن يسترعى نظر الإنسان وينسبها إلى الخالق العظيم الذي خلق هذه الأشياء،
وقدرها هذا التقدير الذي يحصل له به المنفعة، ولو كانت على غير هذا الوضع
الذي هي عليه لأضرت، فيعرف أن ذلك لم يكن ليحصل لولا تقدير مقدر حكيم قادر
مريد، وهذا ما يرشد إليه آخر الآية (وهم عن آياتها معرضون) أي الكفار "يعرضون
عن التفكير فيها وتدبير ما فيها من حجج الله عليهم، ودلالاتها على وحدانية
خالقها، وأنه لا ينسب في العبادة إلا لمن دبرها وسواها، ولا تصلح إلا له." (٥)

(١) سورة الحج الآية (٦٥)

(٢) سورة الحجر الآية (١٧)

(٣) سورة (ق) الآية (٦)

(٤) انظر أضواء البيان للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ٦١٧/٤ - ٦١٨ .

(٥) تفسير الطبري ١٧/١٧ .

قال ابن كثير - رحمه الله - : " وقوله: (وهم عن آياتها معرضون) كقوله: (وكأين من آية في السموات والأرض يمدون عليها وهم عنها معرضون) (١) أي لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم والارتفاع الباهر، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلها ونهارها، من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكماله في يوم وليلة، فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله الذي قدرها وسخرها وسيرها". (٢)

وأما قوله تعالى: (وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر) ففيه مظهر من مظاهر العناية الإلهية بالخلق، وهو خلق الليل والنهار وجعلهما مختلفين، وكذا إيجاد الشمس والقمر، ففي هذين أعظم المنن، فلو لم تكن شمّ شمس تضيء العالم بنورها الوهاج الذي تمد الأرض والحيوان والنبات ونشحنها بالطاقة اللازمة لها لتعذرت مسيرة الحياة على وجد الأرض.

ولو لم يكن شمّ ليل يستريح فيه العباد ويسكنون لكلوا وملّوا، وأصبحوا في جهد جهيد وأنهارت قواهم الجسدية، ثم اقتضت الحكمة الإلهية ألا يخلو الليل من نور خفيف ييسر للناس تنقلاتهم وحركاتهم الليلية فخلق الله القمر وجعل نوره خفيفاً، ثم جعله دليلاً لمعرفة السنين والشهور، قال تعالى - ممتنا على الخلق: (قل أرى أنتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتاكم بضياء أفلا تسمعون قل أرى أنتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتاكم سليلاً تسكنون فيه أفلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) (٣).

فوجود الليل والنهار والشمس والقمر إذاً من أعظم النعم ومن أجل منن الله على العباد، ثم تعاقبها بهذا الشكل الدقيق بما يناسب الخلق من أعظم الأدلة على وجود الرب المدبر الحكيم سبحانه وتعالى .

(١) سورة يوسف الآية (١٠٥)

(٢) تفسير ابن كثير ١٨٦/٢

(٣) سورة القصص الآيات (٧١، ٧٢، ٧٣) .

وأما الآية الأخيرة فقولہ تعالیٰ فیہا : (قل من یکلؤکم باللیل والنہار..) خطاب للعباد کلہم یدکرہم اللہ سبحانہ وتعالیٰ بعنایتہ لہم بحفظہم باللیل والنہار من الآفات . (١)

وقیل : إن الخطاب موجه إلى الکفار، والمراد تنبیہہم إلى أنهم قد استحقوا العذاب ولا راد لہ إن ہو نزل بہم لولا رحمة اللہ التي وسعت کل شیء . (٢) وكلا المعنیین واف بغرضنا، أما الأول فظاهر بحیث أن الإنسان ضعيف بطبعه، ولا یستطیع أن یؤدی وظیفتین فی آن واحد، فهو فی النہار یتصرف فی تأمین معاشه ورفاہیتہ، وأثناء ذلك یتعرض لآفات وأخطار لولا العنایة الإلهیة لأطاحت به، وهو فی اللیل یتسغرق فی النوم بحیث یمکن ذبحه وهو لا یشعر، فلولا العنایة الإلهیة لبلعته المخاطر، ولكن اللہ سبحانہ جعل لہ ملائكة یحرسونه باللیل والنہار من کل المكاره، إلا ما قدر لہم.

قال تعالیٰ : (لہ معقبات من بین یدیہ ومن خلفہ یحفظونہ من أمر اللہ) (٣) . (أي للعبد ملائكة یتعاقبون علیہ ، حرس باللیل وحرس بالنہار، یحفظونہ من الأسواء والحادثات، كما یتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خیر وشر) (٤) فیہذا الحفظ ینجو الإنسان من كثير من المخاطر.

وكذلك جعل اللہ فی نفس الإنسان من الدفاعات الذاتیة ما یقیه كثيرا، فمن تلك المناعة ضد الأمراض، وأغطية الفم وحوامض الأذن وحساسية الجلد، كل هذا من مظاهر الحفظ، لأننا بدون هذه الأشياء عرضة للمخاطر تفتك بنا وتفقدا مقومات حیاتنا ورغدنا.

أما على المعنى الثاني فإن الکفار لو تدبروا وقرءوا التاریخ لعلموا أن هناك أمما أهلكوا وأبیدوا بسبب العصیان، ووفق إخبار رسلهم لہم بنوع الهلاك ومیعادہ أحيانا، فیقع كما أخبروا، فهذا دلیل على صدقہم فی دعواہم بأن اللہ واحد لا یرضی بالشرك، والکفار إذا قرءوا هذا شم قارنوا بین حالہم وحال أولئك علموا أنهم معرضون لمثله وأنه لو حدث فلا راد لہ، وهذا بالتالي یدلہم على وجود الملك الجبار المتصرف فی الكون كما یشاء، وهو اللہ جل جلالہ .

(١) انظر : المصدر السابق ١٨٨/٣، وكذا مجموع الفتاوى ٢٧٢/٢٥ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٢٢/١٧، وزاد المسير ٢٥٢/٥، والقرطبي ٢٩١/١١ .

(٣) سورة الرعد الآية (١١)

(٤) تفسير ابن كثير ٥٢١/٢

وهذا الدليلان - دليل الخلق والإيجاد ودليل العناية - من أهم أدلة توحيد الربوبية، وأبينها وأوضحها، وأغلب آيات القرآن التي يمكن استنباط دليل لتوحيد الربوبية منها من هذا القبيل، وهذا ما حدا ببعض العلماء إلى حصر أنواع أدلة توحيد الربوبية من القرآن فيهما.

قال ابن رشد بعد أن ذكر الدليلين: "فهذان الدليلان هما دليلي الشرع، وأما أن الآيات المنبّهة على الأدلة المقضية إلى وجود المانع في الكتاب العزيز هي منحصرة في هذين الجنسين من الأدلة فذلك بين لمن تأمل الآيات الواردة في الكتاب العزيز في هذا المعنى".

ثم بين وجه الحصر فيهما بأن الآيات الواردة في هذا الباب كلها إما أن تدل على الأول أو الثاني أو تجمع بينهما، وذكر أمثلة لكل قسم منها، ثم قال: " فقد بان من هذه الأدلة أن الدلالة على وجود المانع منحصر في هذين الجنسين: دلالة العناية ودلالة الاختراع". (١)

وقد استحسّن شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - قول ابن رشد هذا فعلق عليه بقوله: "ذكره لهذين النوعين كلام صحيح حسن في الجملة وإن كان في ضمنه مواضع قصر فيها، مثلما ذكر في دلالة حركة الفك وتفسير الآية وتسبيح المخلوقات واستدلال إبراهيم، ودليل الأحداث والاختراع يدل على ربوبية الله تعالى، ودليل الحكمة والعناية والرحمة يدل على رحمته...". (٢)

ويشير ابن تيمية في استدراكه إلى المواضع التي وافق فيها ابن رشد بعض المتكلمين في هذا الباب، وهي استدلاله بحركة الكواكب على كونها مخلوقة، وهو ما يسميه المتكلمون دليل الحركة، (٣) وإشارته إلى قصة إبراهيم عليه السلام

وجعلها من هذا الباب، وقد سبق أن قصد إبراهيم لم يكن إثبات المانع، بل قصد الاستدلال بالربوبية على الألوهية (٤) وكذا تفسير ابن رشد تسبيح المخلوقات الوارد في قوله تعالى: (وإن من شيء إلا

يسبح بحمده) (٥) نفسه ذلك بأنه دلالة هذه المخلوقات على بارئها. (٦)

- (١) مناهج الأدلة في عقائد الملة ص ١٥١/١٥٢ .
- (٢) بيان تلبيس الجهمية ١٧٦/١
- (٣) وسأني الكلام عليه لاحقاً ص (٤٣) من هذا البحث.
- (٤) انظر: ما تقدم ص (٢١ - ٢٥) من هذا البحث .
- (٥) سورة الإسراء الآية (٤٤)
- (٦) بقي مما استدركه عليه قوله: "وتفسير الآية" ولم يتضح لي قصده ولعله يريد تفسير ابن رشد آية الأعراف (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) الآية فقد فسرها ابن رشد بما يقتضي أن المراد بأخذ الميثاق ما فطر الله عليه الخلق من الإقرار بالربوبية، لأنّه قد أخذ عليهم ميثاق حقيقي. وانظر ما سأتى حول هذا الموضوع ص (٤٧)

المبحث الثالث

دلالة السورة على الربوبية الخاصة.

سبق أن ذكرت أن الربوبية تنقسم إلى ربوبية عامة وخاصة ،

وقد سبق وجه دلالة السورة على الربوبية العامة في المبحث السابق ،

وأما وجه دلالتها على الربوبية الخاصة فلأنه ورد فيها أن الله تولى أولياءه

المرسلين وأتباعهم فنصرهم على أعدائهم وخذل الأعداء وانتقم منهم لأولياءه ،

كما ورد فيها إجابة الله سبحانه وتعالى دعاء عباده المرسلين واستغاثتهم ،

وإنجائهم إياهم من أعدائهم ، وتفريجه كرباتهم ، وذلك في الآيات التالية :

١= قوله تعالى : (ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين)

الآية (٩)

٢= قوله تعالى : (قلنا ينار كوني بردا وسلاما على إبراهيم ... إلى قوله ..

ونجيناه ولو طأ إلى الأرض التي بوركنا فيها للعلمين) الآيات (٦٩-٧٠-٧١)

٣= قوله تعالى : (ولو طأ آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التي كانت

تعمل الخبيث إنهم كانوا قوم سوء فسقين) الآية (٧٤) وكذا ما بعدها.

٤= قوله تعالى : (ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب

العظيم ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا) الآيتان (٧٦ -

(٧٧)

٥= قوله تعالى : (وأيوب إذ نادى ربه أنسى مسسى المر وأنت أرحم الراحمين

فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وءاتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا

وذكرى للعبيد) الآيتان (٨٣ - ٨٤)

٦= قوله تعالى : (وذا النون إذ ذهب مغضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في

الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من

الغم وكذلك نجى المؤمنين) الآيتان (٨٧ - ٨٨)

٧= قوله تعالى : (وزكريا إذ نادى ربه رب لا تدركنى فردا وأنت خير الوارثين

فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأملنا له زوجه ..) الآيتان (٨٩ - ٩٠)

ففي الآية الأولى يخبر سبحانه عن الرسل السابقين عليهم السلام ويحكى لنا ما

حدث لهم من نصر وتأييد وما حدث لأعدائهم من خذلان وهلاك، فيقول تعالى: (ثم صدقناهم

الوعد) أي صدقنا المرسلين. أي أنجزنا الوعد الذي قطعنا لهم بأن نصرهم على

أعدائهم ونهلك الأعداء ، إذالم يؤمنوا بالآيات وننجز الرسل وأتباعهم من الهلاك والدمار اللذين بلحقان من لم يؤمن بهم ، وقدورد التصريح بهذا الوعد فى آيات أخرى كقوله تعالى : (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) (١)

وقوله تعالى : (إنالذين آمنوا والذين ءامنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهد) (٢)

وقوله تعالى : (فأنجيناهم ومن نشاء) (تفسير لمصدق الوعد أى أنجزنا ما وعدناهم فنصرناهم وأنجيناهم من العذاب الذى نزل بقومهم ، وأنجينا معهم من نشاء ، وهم المؤمنون بهم ، كما يوضح ذلك الآيات الأخرى فى قصص الأنبياء (٣)

وقوله تعالى : (وأهلكنا المسرفين) أى أهلكننا الذين أسرفوا ولم يؤمنوا بآيات ربهم ولم يتبعوا المرسلين .

وهذه الآية تتحدث بالإجمال عن المرسلين قبل رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما الآيات الأخرى ففيها تفصيل لكيفية هذا الإنجاء بالنسبة لبعضهم وفيها كذلك ذكر تفريح كربات بعضهم ،

فقوله تعالى : (قلنا يئسار كونس بردا وسلما على إبراهيم) (تفصيل لما حدث للخليل إبراهيم عليه السلام ، فقد قابله قومد بالملف والعناد لما دعاهم إلى عبادة الله سبحانه وحده ونبتذ الأصنام ، وأراهم بالبرهان العملى أن هذه الأصنام لاتضر ولاتنفع ، فما كان منهم إلا أضرموا له النار والقود فيها ، ولكن الله سبحانه أحاطه بعنايته ورعايته ، فحفظه من كيدهم ، وجعل النار - التى من طبيعتها أن تحرق - بردا وسلاما عليه ، ورد كيد الأعداء فى نحرهم ، وجعلهم الأخرى فى الدنيا والآخرة .

(١) سورة الروم الآية (٤٧)

(٢) سورة غافر الآية (٥١)

(٣) اقرأ الآيات (٦٤-٧٢) من سورة الأعراف والآيات (٤٠ و ٥٨ و ٦٦ و ٩٤) من سورة هود حيث ورد فيها التصريح بلفظ (والذين ءامنوا معد) ونحوه من الألفاظ

وقوله تعالى: (ولوطا ءاتيناهُ حكما وعلما ..) تفصيل لما حدث للوط عليه السلام حيث نجاه الله سبحانه وتعالى من القرية التي كان أهلها يأتون الرجال شهوة من دون النساء ، وكانوا يقطعون السبيل ، ولايتورعون عن إتيان الفواحش في المحافل وأمام الناس ، فلما نزل بهم العذاب وهو قلب الأرض يجعل عاليها سافلها وإمطارهم بحجارة من سجيل نجي الله سبحانه نبيه لوطا وأهلك إلامراته التي كانت تشايح الكفار ، نجاهم من العذاب كما نجاهم من قبل من أهل القرية ومكراتهم ، وأدخله في رحمته ، لكونه أصلح وعمل ما برضى ربه عند .

وقوله تعالى: (ونوحا إذ نادى من قبل ..) الآية تفصيل لما حدث لنوح عليه السلام إذ نادى ربه واستعان به على قومه الذين كذبوه وآذوه بعد أن استنقذ كل ما عنده من وسائل الدعوة إلى الله ،

فدعاهم ليلا ونهارا سرا وعلانية ، ومكث فيهم يدعوهم إلى الله عز وجل ألف سنة إلا خمسين عاما ، فلم يزداهم كل هذا إلا عتوا وعنادا وتمسكا بالباطل وإعراضا عن الحق ، ثم سخرية وازدراء لنوح عليه السلام وبمن معه من المؤمنين ، فلما رأى نوح أنه لم يبعد هناك أمل في هدايتهم دعا عليهم بقوله: (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) (١)

واستنصر عليهم بقوله: (أنى مغلوب فانتصر) (٢)

فاستجاب الله له ونجاه وأهلكه ومن آمن به من الكرب العظيم، وهو العذاب الذي حل بقومه ، ونصره على أعدائه الذين كذبوه وآذوه وسخروا منه ، فأغرقهم جميعا بالطوفان .

وقوله: (وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر ...) بيان لتفريج كرب العبد الصالح النبي أيوب عليه السلام ، الذي نادى ربه واستغاثه مما حل به من الآلام والأسقام ، وما أصابه من موت أهله ، وما لقى من الشيطان من نصب وعذاب ، كما قال تعالى في سورة (ص) (واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب) (٣)

فاستجاب الله له وشفاه مما أصابه ، ثم آتاه أهله ومثلهم معهم رحمة من عند سبحانه وتعالى وحزاء له على صرده على البلاء .

(١) سورة نوح الآية (٢٦)
(٢) سورة القمر الآية (١٠) (٣) سورة (ص) الآية: ٤١ .

وقوله تعالى : (وذا النون إذ ذهب مغضبا...) بيان لتفريج كربة ذي النون وهو يونس بن متى عليه السلام، فقد دعا قومه إلى الله عز وجل، فأبطأوا عليه فتعجل الرجيل عنهم، فمادف سفينة على شاطئ البحر، فدخلها ليعبر بها، واتفق أن عجزت السفينة عن حملها، فقرر الريان أن يخفف الحمل بإلقاء أحد الركاب، فاستهم أهل السفينة لتحديد من يلقي في البحر، فخرج سهم على يونس، فألقى في البحر فالتقمه حوت من حيتانه .

قال تعالى : (وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون فسامح فكان من المدحضين فالتقمه الحوت وهو مليح) (١) .

وحينئذ علم أن الله ابتلاه فآقر واعترف بخطئه، فتداركته نعمة ربه وأنجاه الله من الغم الذي أصابه، فنبيذ الحوت على البر وأحاطته العناية الإلهية واللفظ الرباني، وأثبت الله عليه شجرة من يقطين إلى أن عاد عليه صحته (٢) .

وقوله تعالى في آخر القصة : (وكذلك نجى المؤمنين) تأكيد منه سبحانه على أنه مع عباده المؤمنين يتولاهم ويحيطهم برعايته وعنايته ويوفقه للإجابة إليه ويستجيب دعواتهم، وينجيهم من البلاء والمحن .

وقوله تعالى : (وزكريا إذ نادى ربه^{رب} لا تذرني فردا...) والآية بعدها حكاية لدعاء زكريا ربه واستجابته له وهبة يحيى له وإصلاح زوجته للحمل بعد أن كانت عاقرا .

وهكذا نجد في هذه الآيات وأمثالها في القرآن الكريم ما يؤكد ربوبية الله سبحانه وتعالى الخاصة لأوليائه وأصفيائه والمرسلين وأتباعهم، حيث يلاحظ في سياق هذه الآيات ونظائرها في السور الأخرى أن لفظ " الرب " يرد كثيرا مضافا إلى الأنبياء وأتباعهم، وأنهم عند إرادة الدعاء يدعون بهذه الكلمة ذاتها، فعلى سبيل المثال نجد في قصة نوح أنه حين دعا على قومه قال : (رب إن قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين) (٣) .

(١) سورة المافات الآيات : ١٢٩-١٤٠-١٤١-١٤٢ .

(٢) هذه قصة القصة كما ذكرها ابن كثير في تفسيره ٢٠١، ٢٠٠/٣ وهناك رأي آخر في المسألة وهو أن سبب مغاضبته وخروجه من بينهم هو أنه وعدم العذاب فلما رفع العذاب عنهم لإيمانهم غضب وخرج لئلا ينسبوه إلى الكذب والخلف. ولكن هذا الرأي

(٣) سورة الشعراء الآيات: ١١٧-١١٨ .
انظر تفسير الطبري ١١٨/١١ ومجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨٦/١٠ .

الأنبياء والأنبياء مثل نوح، إبراهيم، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، يوسف، موسى، هرون، داود، سليمان، عيسى، محمد، وآلهم الصالحين، صلوات الله عليهم أجمعين.

وحين أراد لوط الدعاء قال : (رب انصرنى على القوم المفسدين)(١).

ونجد في آخر السورة هنا دعوة النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول تعالى : (قل رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون)(١١٢).

وهكذا نجد ورود هذا اللفظ كثيرا على لسان الأنبياء والرسل مما دل على أنهم يقدمون به ربوبية خاصة تقتضى الحماية والرعاية والتوفيق وإجابة الدعوات وتفريج الكرب .

المسألة فلفظ الرب أولى الآن إجابة الدعاء
وهذه الظاهرة توجه أنظارنا وترشدنا إلى أننا حين ما نريد دعاء وتفريج الكرب من خصوصية الربوبية الخاصة .

يقول ابن تيمية : " والرب هو المربى الخالق الرازق الناصر الهادى وهذا الاسم أحق باسم الاستعانة والمسألة، ولهذا يقال : (رب اغفرلى ولو لأبى)(٢) (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين)(٣) ... إلى أن قال: فعامة المسألة والاستعانة المشروعة باسم الرب " (٤) .

ومما يلاحظ هنا أن الربوبية الخاصة تقتضى من العبد عبودية خاصة، أى أنها لا تتحقق إلا لمن يوجد عنده توحيد الألوهية، فالعلاقة بين الربوبية الخاصة وتوحيد الألوهية علاقة تلازم، حيث يلزم من وجود كل منهما وجود الآخر، ولعل هذا هو السر فى أن بعض المتكلمين - إن لم يكن معظمهم - يخلط بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، ويسوى بين لفظي الرب والإله، مع أنه وإن كانت الربوبية الخاصة داخلية تحت لفظ الربوبية فإن توحيد الربوبية إذا أطلق فإن المراد منه هو الربوبية العامة، لأنها التى يتصور فيها التوحيد والشرك، أما الربوبية الخاصة فلا تحصل إلا لمن وحد الله سبحانه وتعالى فعلا .

-
- (١) سورة المنكوت الآية : ٣٠ .
(٢) هذا الدعاء مقتبس من الآية : ٢٨ من سورة نوح .
(٣) هذا دعاء آدم وزوجه وقد ورد فى الآية : ٢٣ من سورة الأعراف .
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/١٣ .

المبحث الرابع

أدلة المتكلمين على توحيد الربوبية مقارنة بما جاء في السورة .

ما سبق من الأدلة على ربوبية اللد سبحانه وتعالى لخلقهِ أدلة صريحة واضحة مناسبة للعقل البشري بكل فئاته، يفهمها العامى ويفهمها العالم، وهذه الأدلة تخاطب الوجدان وتثير الإحساس لدى المخلوق نحو الخالق العظيم، وتربط بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية برباط مستحكم الوثاق، بحيث يكون توحيد الربوبية بابا مباشرا إلى توحيد الألوهية للخالق العظيم.

ولكن بعض المتكلمين انتمسوا لإقامة أدلة على توحيد الربوبية وهي أدلة إثبات الصانع عندهم، وهي إلى جانب كونها ليست أدلة شرعية - كما نبه على ذلك غير واحد من السلف والخلف(١) عقيمة لاتوصل - في الغالب - إلى عين المقصود بل إلى نعوذ، وذلك بمقدمات طويلة يصعب تقريرها على العلماء، فضلا عن العوام، وهي لا توجد إحساسا لدى المخلوق نحو خالقه، بل على العكس قد تورث الشك والارتباب(٢).

ونورد نموذجا لاثنتين منها، اخترتهما لسببين هما:-

١ - أنهما من أشهر أدلتهم في الباب ،

٢ - أنه قد يتوهم وجودهما في آيات سورة الأنبياء .

والدليلان هما : دليل التمانع ودليل الحركة .

وسأخص كل دليل بحديث مستقل .

(١) كابن رشد في مناهج الأدلة في عقائد الملة ص/١٤٧ وابن تيمية في كتاب النبوات ص/٥٠ وما بعدها ومجموع الفتاوى ٨/٢ وما بعد .

(٢) فهي كما وصفها ابن تيمية لا يحمل منها بعد التعب الكبير إلاخير قليل، فهي لحم جمل غث على رأس جبل وعر، لاسهل فيرتقى ولاسمين فينتقى. انظر مجموع الفتاوى ٢٢/٢ .

أولا : دليل التمانع

وهو أشهر دلائل وحدانية الرب عندهم، بل هو عمدتهم في الباب، كما صرح بذلك غير واحد من العلماء (١).

وقد قرره سعد الدين التفتازاني (٢) في شرحه على العقائد النسفية بقوله: "وتقريره أنه لو أمكن إلهان لأمكن بينهما تمناع بأن يريد أحدهما حركة زيد والآخر سكونه، لأن كلا منهما في نفسه ممكن، وكذا تعلق الإرادة بكل منهما إذ لاتضاد بين الإرادتين بل بين المرادين، وحينئذ إما أن يحصل الأمران فيجتمع الضدان، أو لا فيلزم عجزهما، أو يحصل أحدهما فيلزم عجز أحدهما، وهو أمانة الحدوث والإمكان، لما فيه من شائبة الاحتجاج، فالتعدد مستلزم لإمكان التمانع المستلزم للمحال فيكون محالا، وهذا تفصيل ما يقال: إن أحدهما إن لم يقدر على مخالفة الآخر لزم عجزه، وإن قدر لزم عجز الآخر، وبما ذكرنا يندفع ما يقال: إنه يجوز أن يتفقا من غير تمناع، أو تكون الممانعة والمخالفة غير ممكنة، لاستلزامها المحال، أو أن يمتنع اجتماع الإرادتين كإرادة الواحد حركة زيد وسكونه معا" (٣) وقد أحس التفتازاني بعد هذا التقرير أن الاعتراض الذي أورده - وهو إمكان اتفاق الآلهة من غير تمناع - لا يزال واردا ويمكن دفعه بالسهولة التي دفعه بها، فذكر أن الحجة في الآية (٤) ليست قطعية، ولكنها اقناعية والملازمة فإن العادة جارية بوجود التمانع والتغالب عند تعدد الحاكم (٥).

- (١) كابن الحنبلي في كتابه استخراج الجدل من القرآن المطبوع ضمن الرسائل المنبرية ٥٠/٢ وابن أبي العز في شرحه للعقيدة الطحاوية ص/١٩ والتفتازاني في شرحه للعقائد النسفية ص/٨٧.
- (٢) هو مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني المعروف بسعد الدين (٧٩٢ هـ) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١١٩/٥ وبقيّة الوعاة ٢٨٥/٢ ومفتاح السعادة ٢٠٥/١ شذرات الذهب ٣١٩/٦.
- (٣) شرح التفتازاني على النسفية ص/٨٧.
- (٤) المراد قوله تعالى: (لو كان فيهما إلهة إلا الله لفسدتا) الآية: ٢٢ من سورة الأنبياء وهي التي يرون استنباط دليل التمانع منها كما سيأتي.
- (٥) انظر المصدر السابق ص/٨٩.

لكن الخيالي (١) في حاشيته على شرح التفتازاني ذكر تقريراً آخر أوضح فيه أن الحجة في الآية قطعية، وحاصل التقرير أن الآية إن حملت على نفي تعدد المانع مطلقاً فهي حجة اقتناعية، وإن حملت على نفي مؤثرين في السماء والأرض - وهو الظاهر من الآية كما يرى - فالملازمة حينئذ قطعية إذ التوارد باطل، فتأثيرها إما على سبيل الاجتماع أو التوزيع، فيلزم انعدام الكل، أو البعض عند عدم كون أحدهما مانعاً، لأنه جزء علة أو علة تامة، فيفسد العالم، أي لا يوجد هذا المحسوس كلا أو بعضاً (٢).

ومن الملاحظ أن كلا من التفتازاني والخيالي وجمهور المتكلمين غيرهما يذكرون أن قوله تعالى: (لو كان فيهما إلهة إلا الله لفسدتا) الآية: ٢٢ من سورة الأنبياء إشارة إلى دليل التمانع، فيفسرون الإله في الآية بموجد الكون ومدبره، ثم يفرعون تفرعاتهم على هذا الأساس، وهذا ناشئ من تسويتهم بين توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية (٣).

وعلى الرغم من أن دليل التمانع في نفسه دليل عقلي صحيح، كما نبه إلى ذلك غير واحد من العلماء (٤) فإنه ليس طريق القرآن في هذه الآية التي معنا في إثبات الوجدانية، فإن الآية ترتب الفساد على وجود آلهة مستحقين للعبادة سوى الله، فهي دليل لتوحيد الألوهية المتضمن لتوحيد الربوبية، بينما دليل التمانع دليل لتوحيد الربوبية قاصر عن توحيد الألوهية. فالصحيح في معنى الآية كما قال إمام المفسرين ابن جرير رحمه الله: (يقول تعالى ذكره لو كان في السموات والأرض آلهة تصلح لهم العبادة سوى الله الذي هو خالق الأشياء وله العبادة والألوهية التي لا تصلح إلا له (لفسدتا) يقول: لفسد أهل السموات والأرض) (٥).

قال ابن تيمية: (والمقصود هنا أن في هذه الآية بيان امتناع الألوهية من جهة الفساد الناشئ عن عبادة ما سوى الله تعالى، لأنه لا صلاح للخلق إلا بالمعبود المراد لذاته من جهة غاية أفعالهم ونهاية حركاتهم، وما سوى الله لا يصلح، فلو كان فيهما معبود غيره لفسدتا من هذه الجهة فإنه سبحانه هو المعبود المحبوب لذاته كما أنه هو الرب الخالق بمشيئته) (٦).

-
- (١) هو أحمد بن موسى الخيالي الرومي الحنفي الأصولي المتكلم (ت ٥٨٨٦ هـ) له ترجمة في شذرات الذهب ٢٤٤/٧ والبدر الطالع ١٢١/١ والفوائد البهية في تراجم الصغية ص/٤٣ .
- (٢) انظر حاشية الخيالي على شرح التفتازاني ص/٩٠ .
- (٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص/١٩ .
- (٤) انظر مثلاً منهاج السنة النبوية ٣/٣١٢ .
- (٥) تفسير الطبري ١١/١٧ (٦) منهاج السنة النبوية ٣/٢٢٣-٢٢٤ .

ومن هنا نستطيع القول : إن الاستدلال بالآية على أنها إشارة إلى دليل التمانع خطأ من وجهين :

١= أن الآية ترتب الفساد على وجود الآلهة المعبودين من دون الله بينما دليل التمانع يرتب الفساد على وجود الأرباب .

٢= أن الفساد الذى رتبته الآية على وجود الآلهة هو فساد الكون بعد تـكونه بينما الفساد المترتب على دليل التمانع هو عدم تكون العالم أصلاً . (١)

فللاية إذاً تنبئ إلى أن خالق السموات والأرض ومدير شأنهما هو المستحق للعبادة وصرف العبادة لغيره من وضع الشىء فى غير محله، ويؤدبه إلى فساد كبير ، فكما أن الكون يسير بنظام واحد ولو سار على غير نظام أو على أنظمة مختلفة لآدى ذلك إلى ظل كبير فيه ، فكذلك يجب على العباد أن يسيروا على نظام واحد ، هو الذى رسمه الله سبحانه وتعالى ويلفده رسله، وهو التوحيد الخالص، فلو ساروا على غير هذا النظام تكون فتنة فى الأرض وفساد كبير .

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ص ٤١٤

ثانيا : دليل الحركة :

يرى أكثر المتكلمين أن إثبات المانع متوقف على إثبات حدوث العالم فيثبتون هذا أولا ، ثم يستدلون به على إثبات المانع .

ولهم في إثبات حدوث العالم طرق كثيرة ، حصرها بعضهم في أربع ، فقال :

(قد علمت أن العالم إما جوهر أو عرض ، وقد يستدل على إثبات المانع بكل واحد منهما إما بإمكانه أو بحدوثه ، فهذه وجود أربعة) (١)

ولسنا بصدد بيان تلك الطرق ، وإنما نتحدث هنا عن طريق واحد ، وهو الاستدلال بحدوث الأقسام ، حيث يرى بعضهم أن أولى الطرق في الاستدلال بهذا الباب (٢) وهذا الطريق مبنى على أربع دعاوى :

١ = أن في الأقسام معانى هي الأقسام الأربعة : الاجتماع - والافتراق - والحركة - والسكون .

٢ = أن هذه المعانى محدثة ،

٣ = أن الأقسام لم تنفك عنها ولم يتقدمها ،

٤ = أنها إذا لم تنفك عنها ولم تتقدمها وجب حدوثها مثلها .

ومن هذا المنطلق ركب بعضهم دليل الحركة ، فرآى أن كل متحرك فهو حادث ، يقول ابن رشد في معرض رده على الأشعرية في تقريرهم دليل حدوث العالم :

(وذلك أن الجسم السماوى وهو المشكوك فى إلحاقه بالشاهد ، الشك فى حدوث أعراضه كالشك فى حدوثه نفسه ، لأنه لم يحس حدوثه ولأعراضه ، ولذلك ينبغي أن نحعل الفحص عنه من أمر حركته ، وهى الطريق التى تفضى بالسالكين إلى معرفة اللد بييقين ، وهى طريق الخواص وهى التى خص اللد يد إبراهيم عليه السلام فى قول تعالى : (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) (٤) لأن الشك كالد إنما هو فى الأجرام السماوية وأكثر النظائر انتهوا إليها ، واعتقدوا أنها آلهة) (٥) .

وقد نقل القاسمى (٦) فى كتابه «دلائل التوحيد» تقريراً آخر لهذا الدليل

- (١) المواقف فى علم الكلام للإيجى ص ٢٦٦
(٢) انظر : شرح الأصول الخامسة للقاضى عبد الجبار ص ٩٤
(٣) انظر : المصدر نفسه ص ٩٥
(٤) الآت (٧٥) من سورة الأنعام
(٥) مناهج الأدلة فى عقائد الملة ص ١٤٠
(٦) هو جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الفاسمى الحمقى صاحب تفسير محاسن التأويل (ت ١٢٢٢ د) انظر : الأعلام للزركلى ١٢١/٢ - ومعجم المؤلفين ١٥٧/٢

فقال : ورأيت بعضهم يسمى هذا الدليل ، برهان القهر بالدوران ، ، قال : إن جميع ما نراه بالعين مقهور بالدوران وكذا عموم الكواكب مقهورة ودائرة حول محاورها ، (وكلف في فلك يسبحون) (١) وكذلك المياه والنباتات والحيوانات دائرة ومقهورة بالانتقال من مكان لآخر ، وأما الثبوت فهو نسبي ، مثل الأجسام الصغيرة ننظرها ثابتة بالنسبة لبعضها ، لكنها مقهورة بالدوران مع الأجسام الكبيرة ، كما لأرض دائرة بما فيها وما عليها ، وبالضرورة كل مقهور مفتقر إلى قاهر فوقه ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : (وهو القاهر فوق عباده) (٢) وقد ستوهم أن قوله تعالى : (وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون) (٣) تعضيد لهذا الدليل ، ولكن إذا عرفنا أن هذا الدليل مبني على أساس غير سليم تبين لنا أن معنى الآية بمعزل عن تعضيده وكل ما في الآية أنها إخبار ووصف للشمس والقمر بأنهما - مع عظمهما وعلوهما - سابحان في فلك ولا يمسكهما من أن يمتدح بعضهما ببعض ، وكذلك من أن يمتدح بعض الأجرام السماوية ببعض أويصطدم بالأرض ، فالأجرام السماوية رغم كثرتها لكل منها مدار تسيير عليه ، لا تتعداه ولا تحيد عنه ، وفي هذا دلالة على قدرة الله الباهرة وسلطانه القاهرة .

ونوجز مناقشة دليل الحركة فيما يلي ، فنقول : إن الدليل - كما سبق - مبني على دليل حدوث الأجسام لدى المتكلمين ، وذلك مبني على أربع دعاوى ، أما الأولى منها وهي كون الأجسام لا تخلو من الحركة والسكون والاجتماع والافتراق ، وكذا الثالثة وهي أنها الأجسام لم تنفك عنها ولم يتقدمها ، فقد بسلم لهم بهما ، ولكن الثانية وهي كون هذه محدثة ، والرابعة وهي أنها إذا لم تنفك عنها ولم تتقدمها فهي حادثة مثلها ففيها يكمن ضعف الدليل .

(١) سورة يس الآية (٤٠)

(٢) دلائل التوحيد للقاسمي ص ٤٤ والآية من سورة الأنعام في موضعين هما (١٨) (٦١)

(٣) الآية (٢٢) من سورة الأنبياء

وبيان ذلك أن هاتين المقدمتين لايتوصل بهما إلى النتيجة المطلوبة إلا بعد إثبات القول بامتناع حوادث لأوّل لها ، وقد حاول المتكلمون إثبات ذلك فجزتهم تلك المحاولات إلى محاذير كثيرة ، والنزوم آمن أجلها لوازم باطلّة معلومة الفساد في الشرع والعقل ، كنفى صفات اللد عزوجل والقول بفناء حركات أهل الجنة والنار (١)

وقد أتوا من قبل أنهم لم يحرروا معنى «الحوادث» فإن هذا اللفظ قديم صدق على الحوادث المعيّنة المعلومة بأن لها ابتداء ، وقد يمدق على الجنس الذي لا يعلم بأن لها ابتداء فإن أريد المعنى الأول فالمقدمة صادقة ولكنها لا تنتج المراد ، فكل الحوادث المعيّنة في هذا الكون لها ابتداء لأن هذا الكون نفسه حادث فكذلك أعراضه وصفاته ، ولكن العلم بحدوث الكون لم يأت من قبل العلم بعدم خلوه من الأعراض الحادثة ، بل العكس ، علمنا حدوث أعراض الكون من قبل علمنا بحدوث الكون نفسه .

وإن أريد بالحوادث المعنى الثاني - وهو الذي ينتج المراد - ولكن المقدمة حينئذ يكون متنازعا عليها ، لأنه لا يمكن القطع بأن جنس الحوادث لها ابتداء وكما أننا نعلم أن الحوادث لانهاية لها في المستقبل ، وأن ذلك لا ينافي كمال الله عز وجل ، ولا يمنع أن يكون الله الآخر الذي ليس بعده شيء ، فكذلك دوام الحوادث في الماضي لا ينافي كمال الله عز وجل ، ولا يمنع أن يكون الأول الذي ليس قبله شيء (٢)

ومذهب أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه وتعالى لم يزل قادرا على فعل ما يشاء ولاحد لقدرته لا في المستقبل ، (٣)

يقول ابن تيمية - ملخصا القول الصحيح في المسألة - : (وذلك أن العقل يفرق بين كون المتكلم متكلمما بشيء بعد شيء دائما وكون الفاعل يفعل شيئا بعد شيء دائما ، وبين آحاد الفعل والكلام ، فيقول كل واحد من أفعاله لا بد أن يكون مسبوقا بالعدم ، ويمتنع كون الفعل المعين مع ^{الفاعل} أولها وأبدا ، وأما كون الفاعل لم يزل يفعل فعلا بعد فعل فهذا من كمال الفاعل فالفاعل يتقدم على كل فعل من أفعاله ، وذلك يوجب أن كل ما سواه محدث مخلوق ، ولانقول : إن كان في وقت من الأوقات ولاقدرة حتى خلق له قدرة ، والذي لاقدرة له هو عاجز ، ولكن نقول : لم يزل الله عالما قادرا مالكا لاشبه ولاكيف) (٤)

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٣٩/١ - ٤١

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ١٨ / ٢٣٩

(٣) انظر: منهاج السنة النبوية ١٧٦/١ وكتاب المصفدية=٥٢/١

(٤) مجموعة الفتاوى ٨ / ٢٢٧ - ٢٢٨

وهكذا نرى أن مسند هذا الدليل واد ، وأن مقدماته متنازع عليها ، بل صرح غير واحد من العلماء بأنها باطلة (١)

ومن المهم هنا الإشارة الى أن مناقشة القول بامتناع حوادث لأول لها لاتعنى إقرار القول بأزلية العلم ، ذلك أننا فرقنا بين حوادث هذا الكون المعينة ومطلق الحوادث ، وبيننا أن جميع حوادث هذا الكون مخلوقة محدثة بعد أن لم تكن ، وأنها علمنا ذلك من قبل علمنا بحدوث الكون نفسه ، فصفات الشيء تابعة لذاته ، وإطلاق القول بأن ما لاينفك عن الحادث حادث ، ومن ثم تنزيه الله عن شغل الحوادث به يؤدي إلى نفي بعض صفات كمال الله عزوجل كماسبق ذكرذلك عن الذين

الترزموا القول بامتناع حوادث لأول لها ، ولذا لاينبغي جعل ذلك قاعدة أساسية لبناء العقيدة السليمة ، بل العقيدة السليمة تبين على الأمور اليقينية التي لاتؤدي إلى تناقضات ولاإلى خلق شكوك وشبهات يصعب - إن لم يتعذر- التخلص منها .

فالأدلة التي سبق ذكرها والاستدلال بها فيالمبحث السابق وهي دليل الخلق والعناية واضحة مريحة ، لاتحتاج لمثل التعقييدات الموجودة في أدلة المتكلمين ولاتوقع في مثل تلك المتاهات التي إن قدر الخروج منها فإنه سيكون بعد جهدهد وقدلايمكن الخروج منها فيبقى إيمان صاحبها مرزعاكما هو حال الكثيرين ممن التزموا مثل تلك الطرق في إثبات وجود الله .

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل ٣٩/١ فمابعد

المبحث الخامس

بيان أهمية الاستدلال لتوحيد الربوبية ومناقشة مسأله

قبل الحديث عن أهمية مناقشة توحيد الربوبية نقول : إن الإقرار به فطرة
فطر الله عليها خلقه ، ولا يكاد ينكره أحد منهم إلا مكابرة أو بسبب فساد في الفطرة
وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أنه أخذ الميثاق من بنى آدم على
الإقرار بأن ربهم ، وذلك في عالم الذر ، حين أخرجهم من ظهر أبيهم آدم
وظهور آباؤهم وأشهدهم على ذلك فشهدوا ،

قال تعالى : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم
أليس بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غفلين
أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون) (١)

فالآية صريحة في أن الله سبحانه وتعالى أخذ من ظهور بنى آدم ذرياتهم وأشهدهم ،
ومعلوم أن إخراجهم من ظهور آباؤهم يكون بعد إخراج الآباء من ظهور آدم نفسه ،
وبخاصة إذا علمنا أن ذلك كان بحضرة آدم نفس عليه السلام ،

وإلى هذا ذهب جمهور المفسرين ، ولم يذكر ابن جرير غيره ، وقد عضده بما رواه
من الأحاديث الكثيرة والآثار ، (٢)

ومن الأحاديث التي تدل على هذا المعنى ما أخرجه البخاري ومسلم - رحمهما الله -
عن أنس بن مالك مرضى الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

(إن الله يقول لأهل النار عذابا : لو أنلك ما في الأرض من شيء كنت تفتدي
بها قال : فقد سألتك أهون من هذا وأنت في صلب آدم لا تشرك بي فأبيت إلا الشرك) (٣)

قال أنس ح (٤) (وفي الحديث تنبيهه إلى معنى قوله تعالى : (وإذ أخذ ربك من
بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) إلى آخر الآية . (٥)

- (١) سورة الأعراف الآيات (١٧٢- ١٧٣)
(٢) انظر تفسير الطبري ١٣ / ٢٢٢ الطبعة المحققة لأحمد شاكر ومحرر الأثر
(٣) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب خلق آدم وذريته ٣٦٢/٦ وكتاب
البراق باب صفحة الجنة والنار ٤١٦/١١ ومسلم في كتاب صفحة المنافقين وأحكامهم ٤ / ٤٤١٦ (٥١)
وأحكامهم ٤ / ٢١٦٠ (٥١)
(٤) هو أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي المعروف بابن حجر العسقلاني المصري
الحافظ صاحب التمام في الحديث وعلومه والتي منها فتح الباري شرح
صحيح البخاري الذي يعد من أهم شروح البخاري (ت ٨٥٢ هـ) لد ترجمته في : حسن
المحاضرة للسيوطي ٢٦٢/١
(٥) فتح الباري ٢ / ٦٥٠

وحديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
(أخذ الله الميثاق من ظهر آدم ببعمان -يعنى عرفة- فأخرج من صلبه كل ذرية
ذراهما ، فنثرهم بين يدي كالدّر ، ثم كلمهم قبلا (ألست بربكم قالوا بلى شهدنا
أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا من هذا غفلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من
قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المظنون) (١)

فهذان الحديثان والأحاديث الأخرى التى بمعناها تصرح بأن بنى آدم قد أقروا
بربوبيّة الله لهم قبل مجيئهم إلى هذد الدار لقضاء ما كتب لهم فيها من آجال
وبحضره آدم نفسه .

وفدذهب بعض الأئمة إلى أن المراد بأخذ الميثاق ما جعلهم الله تعالى عليه
وفطرهم عليه من الإقرار بالتوحيد ، لأنّ حصل إلهادجسّ فعلا، بل فسروا الإلهاد فى
الآية بالفطرة . (٢)

ولايتسع المقام لذكر أدلة الطرفين ومناقشتها ، كما أن ذلك ليس من غرضى فى
عرض القولين هنا ، وإنما الغرض التنبيه إلى أن توحيد الربوبية واضح أمره
وأن الناس مفلطرون على الإقرار به ، وهذا قدر مشترك بين القولين ، وإذا كان
الأمر كذلك فنعود إلى مسألتنا فنقول : هل من حاجة إلى إقامة الحجج والبراهين
على هذا التوحيد؟

وما أهمية ذلك ؟

وما الداعى إلى مناقشة المسألة أصلا طالما أنه فطرة مركوزة فى طبائع البشر ؟
والجواب : أن الأصل أن لا تحتاج هذه المسألة إلى مناقشة نظرا لظهورها ووضوح
أدلتها وكون الخلق مفلطرين على الإقرار بها ، ولكن هذا لايعنى أن مناقشتها
تخلو من الأهمية ،

وتكمن أهميتها فى أن الفطر قد طرأ عليها ما أفسدها لدى مجموعة من البشر فمنهم
من أقر بأصل المسألة وجد ما يترتب عليها ، ومنهم من آمن بها جملة وطل عند
التفصيل عن وجد الحق ، ومنهم من أنكر المسألة بما يترتب عليها جملة وتفصيلا
فهؤلاء ثلاثة أصناف .

(١) أخرجه أحمد فى المسند ٢٧٢/١ وابن جرير فى التفسير ١٣ / ٢٢٢ تحقيق أحمد
شاكّر برقم (١٥٢٢٨) وابن أبى عامر فى السنة ١/٨٩ ح (٢٠٢) والحاكم ٢ / ٥٤٤
والبيهقى فى الأسماء والمقات من ٢٦٨ وقد صرح الألبانى لغيره فى سلسلة
الأحاديث الصحيحة ١٥٨/٤ ح (١٦٢٢) وحسنه فى تعليقه على السنة لابن أبى عامر
٨٩/١ - وتقدم عز والابتين فى الصفحة السابقة .

(٢) انظر : الروح لابن القيم ص ٢٤٤ - ٢٥١ وتفسير ابن كثير ٢ / ٢٧٢ - ٢٧٥

١ = الصنف الأول : من آمن باللذ نعالى ربا وخالفا ، ولكننه لم يفرده بالعبادة ولم يحتمل عقلة المرىض أن يكون الله وحده هو المعبود دون من سواه ، وهؤلاء هم المشركون الذين حكى الله تبارك وتعالى عنهم تعجبهم من ذلك فى قوله تعالى : (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكفرون هذا سحر كذاب أ جعل الالهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب) (١)

وقد نعى الله سبحانه وتعالى عليهم هذا المسلك ، وجاءت آيات كثيرة تناقشهم وتوضح لهم أن الإيمان بربوبية الله تعالى مستلزم للإيمان بالوحيته وحده دون من سواه ، كما فى قوله تعالى المتقدم فى دليل الخلق (أم اتخذوا الهة من الأرض هم ينشرون) الآية (٢٦) سورة الأنبياء

وقوله تعالى : (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلاتتذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلاتتقون قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يسحير ولا يحار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون بل أتبينهم بالحق وإنهم لكاذبون ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا ذهب كل إله بما خلق ولعل بعضهم على بعض سحرة الله عما يصفون) (٢)

فى الآية الأولى ينكر الله تعالى عليهم اتخاذهم آلهة مفتقدين لخصائص الألوهية وهى القدرة المطلقة ، فإن الإله الذى تجب له العبادة هو القادر على الإنشاء وهو إحياء الموتى فكيف ساع لهم اتخاذ آلهة عاجزة ،

وأما الآية الأخرى ففيها تقرير لتوحيد الربوبية وإرشاد إلى أن الله مالك الأرض والسموات والذى بيده ملكوت كل شيء هو الإله الذى لا إله إلا هو ، وقد جاءت ذلك الآيات ردا على المشركين المقربين بأن الأرض ومن فيها لله وحده ، وأنه هو وحده رب السموات السبع ورب العرش العظيم وبيده ملكوت كل شيء وهو السيد العظيم الذى يجير ولا يحار عليه ومع هذا كله يصفون عن عبادته إلى عبادة غيره ،

وقوله تعالى : (بل أتبينهم بالحق) أى حجتهم بالحق الذى هو التوحيد المقرون بأدلتهم ، (وإنهم لكاذبون) أى المشركون كاذبون فى عبادتهم مع الله غيره ، ولادليل لهم على ذلك إلا التقليد الأعمى . (٣)

(١) سورة (ص) الآيتان (٤- ٥)

(٢) سورة المؤمنون الآيات من (٨٤- إلى - ٩١)

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ١٣/٢ : ١٣٠

والآية الأخيرة فيها التنبيه إلى أنه لا يصلح الكون مع وجود إلهين فصاعدا ، لأن ذلك يؤدي إلى أن ينفرد كل إله بما خلق وإلى أن يتغالبوا ومع وجود أي من الحاليين لا يصلح أمر الكون ، لأنه لا يصلح الكون إلا بالسير على نظام واحد وطاعة إله واحد هو القادر على كل شيء ، وهو الذي بيده كل شيء وهذا هو التمانع في الألوهية المتضمنة الربوبية ، وقد سبقت الإشارة إليه في مبحث سابق (١)

فمناقشة توحيد الربوبية مع أهل هذا المذهب - وإن كانوا لم ينكروا بالقول - من باب تنزيل غير المنكر منزلة المنكر لأنه قد ظهر عليه أمارة الإنكار ، فهو بحاجة إلى أن يبين له استلزام توحيد الربوبية لتوحيد الألوهية بيانا شافيا .

٢ = المذهب الثاني: من آمن بأصل المسألة وفضل عند التفصيل ، وهؤلاء طوائف كثيرة

فمنهم غلاة المتصوفة الذين يصل الغلو ببعضهم إلى أن يشرك مع الله غيره في التصرف في الكون وكشف الكربات وطب المنافع ، ويصل بعضهم إلى أن يجعل المخلوق خالقا بدعوى وحدة الوجود ، كما روى عن بعض أولياء المتصوفة أنه قال: يباريح اسكنى عليهم بإذننى ، وقد سئل التجاني (٢) عن معنى هذا القول فأجاب : (معنى ذلك أن الله ملكهم (٣) الخلافة العظمى ، واستخلفهم الحق في مملكته تفويضا عاما أن يفعلوا في المملكة كل ما يريدون ، ويملكهم الله تعالى كلمة التكوين، متى قالوا للشيء كن كان من حينه فلا يستعصى عليهم شيء) (٤) وأمثال هذه النصوص ميثوثة في كتبهم ، وقائلو مثل هذه المقالات وإن لم يصرحوا بأن الأولياء هم الذين خلقوا الكون إلا أنه يفهم من أقوالهم مشاركة الأولياء لله في التصرف في الكون ، تعالى الله عن ذلك .

- (١) انظر: (٤٠) من هذا البحث (٢) هو أبو العباس أحمد بن محمد التجاني من أئمة المتصوفة ومؤسس الطريقة المعروفة باسمه في المغرب ومريده يقصدون قبره بفاس التي توفى بها (٢٣٠ هـ) انظر ترجمته في طية البشرى تاريخ القرن الثالث عشر للبيطار ٢٠١/١ وجواهر المعاني وبلوغ الأمانى في فيض سيدى أبى العباس التجاني لعلى حرازم ٢٦/١ فما بعد ، وشجرة النور الزكية لمحمد مخلوف ٢٧٨/١ والتجانية لعلى بن محمد الدخيل ص (٤٠) فما بعد .
- (٣) يقصد الأولياء ،
- (٤) جواهر المعاني وبلوغ الأمانى في فيض سيدى أبى العباس التجاني لعلى حرازم ص (٧٦)

ومن هذا المنصف غلاة الشيعة من الرافضة وغيرهم ، وهم الذين يجعلون لأئمتهم

بعض خصائص الربوبية ، بل يتعدى بعضهم فيجعل للأئمة كل خصائص الربوبية ،

ومن أقوالهم في هذا مارواه الكليني (١) في الكافي - زورا وبهتانا - عن

جعفر الصادق^(ع) - رحمه الله - أنه قال : (أما علمت أن الدنيا والآخرة للإمام

يضعها حيث شاء ، ويدفعها إلى من يشاء .) (٢)

وفي أصول الكافي وغيره من كتبهم الكثير من أمثال هذا القول الذي ينسبونه

إلى أئمة آل البيت ليلقى رواجاً لدى العامة .

ومن هذا المنصف الفرق الباطنية المدين يجعلون أئمتهم آلهة من دون الله

ويصفونهم بصفات الربوبية ، فالبهائية مثلاً تجعل حسين على الما زندرانى (٣)

الذى يسمونه بالبهاء رباً من دون الله ، ويجعلون أنفسهم عبيداً له وقد تسمى

ابنه عباس بعبدالبهاء ،

ومن أقوالهم في ذلك ماورد للعباس بن البهاء في تعليقاته على كتاب (الإشرفات) (٤)

لوالده حيث علق على بعض جملة بقوله : (فالذى غاظ ربهم البهاء وعبيده

عبدالبهاء وسائر عبيدالبهاء

(١) هو أبو جعفر محمد بن يعقوب الرازى الكليني شيخ الشيعة وعالم الإمامية (ت ٣٢٨ هـ) وكتابه الكافي عند الإمامية بمثابة الصحيحين عند أهل السنة . له ترجمة في : الوافى با لوفيات ٢٢٦/٥ ولسان الميزان ٤٢٢/٥ وسير أعلام النبلاء ٢٨٠/١٥

(٢) هو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب من خيار التابعين نسب إليه الرافضة - زورا وبهتانا - كثيراً من أقاويلهم الباطلة ، وكان يمقت الرافضة ويتبرأ منهم ، ولكنهم ظلوا يستغلون اسمه لمكانته في العلم والإمامة لدى المسلمين (ت ١٤٨ هـ)

من مصادر ترجمته : التاريخ الكبير للبخارى ١٩٨/٢ وحقية الأولياء لأبي نعيم ١٩٢/٣ وتذكرة الحفاظ ١٦٦/١ وسير أعلام النبلاء ٢٥٥/٦ وتهذيب التهذيب ١٠٣/٢ أصول الكافي ٢٢٧/١

(٣) هو مؤسس الطريقة البهائية التى تأسست على أنقاض الباطنية وقد تربى فى طهران واتبع الباب ، وبعد موت الباب ادعى خلافته ثم تدرج فى ادعاءاته حتى ادعى أنه مظهر الله الأجلى وأن الله قد حل فيه فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، وسلط عليه الحمى حتى هلك عام (١٢٠٩ هـ) انظر البهائية تاريخها وعقيدتها لعبد الرحمن الوكيل من ١٢٥ - ١٤٤

(٤) هى مجموعات مزاعم وأباطيل ألفها البهاء نفسه ضمنها آراءه ، وقد ترجم إلى العربية وطبع فى مصر سنة ١٢٤٢ هـ انظر : البهائية لمحب الدين الخطيب ص ١٨

ان يكون إيقان (١) في مكتبة باريير وفي المتحف البريطاني على اسم يحيى اخي البهاء (٢).

ومنها ماورد على لسان البهاء نفسه مخاطبا احد أتباعه: (ياوهاب إذا اجتذبتك ندائي الاجلى وصرير قلبي الاعلى، قل: إلهي لك الحمد بما فتحت على وجوه اوليائك ابواب الحكمة والعرفان.... إنك أنت المقتدر على ماتشاء، لا إله إلا أنت الغفور الرحيم) (٣).

وإذا علم القارئ الكريم ان الهائية ترى ان البهاء هو مظهر الله الاعلى، وان الله - تعالى عما يقولون علوا كبيرا - لاحقيقة لوجوده إلا في مظهر البهاء، إذا علم القارئ هذا سهل عليه ان يعرف ان البهاء يقدم نفسه بالصفات المتقدمة (٤).

ومن هذا المنف الذي آمن بأصل المسألة وفضل عند التفصيل القدرية، وقد تقدم ان الإيمان بالقدم من هذا الباب، والقدرية نفاة القدر فرق، والمقصود هنا منهم القائلون إن الإنسان هو خالق أفعاله الاختيارية، وذلك فرارا منهم من نسبة الظلم إلى الله سبحانه إن قالوا بأنه خالق أفعال العباد، وهؤلاء وإن كان وجودهم كفرقة مستقلة قد انتهى او كاد فإن المذهب لازال باقيا لدى بعض الافراد المندسين تحت الطوائف الإسلامية المختلفة، ولا زال بعض الشباب متشبعا به.

ومنهم الثنوية القائلون بإلهين إله الخير وإله الشر، وهما النور والظلمة، وإنما جعلتهم من هؤلاء لأنهم لا يرون لإله الثاني القدرة التامة، فهو ناقص عندهم، لم يستوف خصائص الربوبية المطلقة.

ويمكن إدراجهم في المنف الثالث، لأن الإله الذي اثبتوه خالقا ليس هو الله سبحانه وإنما هو غيره، فكانهم ينكرون وجود الله سبحانه وتعالى الإله الحق.

ومناقشة توحيد الربوبية مع هؤلاء جميعا تكتسب أهميتها من أنها تنير لهم الطريق وتوجههم إلى معرفة الإله الحق، وأنه لا شريك له في الخلق وفي التصرف في الكون وفي استحقاق العبادة، وأنه خالق الإنسان وعمله.

(١) هو احد الكتب المقدسة لدى البهائية، وقد تنازع عليه البهاء وأخوه يحيى وادعى كل منهما أنه هو مؤلفه.
(٢) البهائية لمحِب الدين الخطيب م (١٩-٢٠)، وقد نقله عن ترجمة الإشراقات، الإشراق التاسع م (١٠٤).
(٣) المصدر نفسه م (٢٠) ناقلا عن مجموعة الاقواج المباركة م (١٦١).
(٤) انظر المصدر السابق والمفحة ذاتها، وكذا المذاهب العاصرة وموقف الإسلام منها للدكتور عبد الرحمن عسيبة م (٢٥٠).

٣ =المنصف الثالث : من أنكر المسألة من أصلها حملة وتفصيلا ، وهو من يرى أن العالم أزلى وأنه ليس فوقه قود تتحكم فيه ، ورغم اختلاف مشارب منتحلي هذا القول فى التفصيلات إلا أنهم متفقون على الإلحاد وإنكار وجود الله تعالى على أنه رب العالمين ، وقد تشدق بهذا الكلام على مدى التاريخ فلاسفة ملاحدة ، وكان من الممكن أن يبقى على ذمة التاريخ ، كما بقيت آراء كثيرة من آرائهم فى الطبيعيات ، فلا تكون هناك حاجة إلى إشارة شبهاته ، والرد عليها ، ولكن ظهرت خطورة القول به مرة أخرى فى القرون المتأخرة ، حين انتحل الماديون ردا على طغيان الكنيسة وجبروتها ، وبرز فلاسفة كثيرون يسعدون منظرين للحضرة الأوربية الحديثة عادوا إلى الإلحاد ، ثم لما استولت الدول الأوربية على مقاليد الأمور فى بلاد المسلمين صدروا إليها هذا الإلحاد ، وبعثوا التراث الفلسفى القديم المملوء به ، وصارت المعاهد والجامعات فى بعض دول الإسلام بل فى أكثرها تدرس بعض الآراء المنبثقة عنه ، وذلك فى العلوم والجغرافيا والتاريخ وغيرها وأصبح لنظرية النشوء والارتقاء أو نظرية التطور مكان فى مجال التاريخ البشرى ، ولازلنا نسمع عن الإنسان الأول ساكن الكهوف ، وعن فترة ما قبل التاريخ حيث كان الإنسان جاهلا بأبسط المعلومات الضرورية ، وكان أبانا آدم لم يكن الإنسان الأول ، وكان بنينه لم يكونوا يعيشون عيشة الإنسان ، بل عيشة الوحوش والزواحف ،

فهذا الخبط فى تاريخ الإنسان الذى كرمه الله يوجب بحث المسألة لبيان الحقيقة ، وأن الله هو خالق هذا الكون خلقا مباشرا ، وأن الإنسان خلق مكرما معززا ، ولم يتطور عن جنس آخر بل خلق الله آدم بشرا سويا وعلمه كل ما يحتاج إليه ثم خلق منه حواء وبيت منهما رجالا كثيرا ونساء ، ولم يتركهم الله سبحانه وتعالى على وجه الأرض دون إرشاد وتوجيه ، بل لم يزلوا منذ وجدوا على ظهر الأرض مستنيرين بنور الوحي وإن كان إبليس اللعين قد استولى على فريق منهم فضل عن السبيل ، فلما مجال إداللقول بأن الإنسان تطور عن أجناس حيوانية أخرى ، وأن ما اكتسبه من الأخلاق والعقائد كان نتيجة التطورات والتقلبات المحيطة به .

على أن أهمية المسألة لا تقتصر على مناقشة هذه الأصناف الثلاثة ، بل تتعداها الى المؤمنين أنفسهم ذلك أن المؤمن (كلما عرف بإبراهيمها قويت في قلبه وازداد إيمانه ، ونمى إيقانه ، وحمد الله على هذه النعمة التي هي أعظم المنز وأجلها) (١)

ويشهد لهذا طلب الحليل إبراهيم عليه السلام من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ، فقال الله تعالى له : (أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) (٢)

فمناقشة توحيد الربوبية إذا لها أهمية كبيرة في تثبيت العقيدة الإسلامية لاسيما إذا نوقش على هدى من الكتاب والسنة ، واتبع طريق القرآن في الدلالة عليه وربط بتوحيد الألوهية الذي هو باب اليد ، ولم يقتصر على مجرد إثبات وجود الله عزوجل ، فإن هذا - وإن احتاج إلى دليل لدى بعض النحرفين عن القطرة - فإنه لايفيد شيئا طالما كان مقتصر على مجرد إثبات الوجود ، وقد تقدم أن المشركين الذين حاربهم الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا مقرين بذلك ، لكن ذلك لم ينفعهم لأنهم لم يربطوا بتوحيد الألوهية الذي هو المقصد الأعظم للدين

(١) الواض النظره للسعدى ص ٢٤٦
(٢) سورة البقرة الآية (٢٦٠)

المبحث الخامس

مباحث الإيمان بالقدر

سبق أن بينت في تعريف توحيد الربوبية أن الإيمان بالقدر يدخل في الإيمان بتوحيد الربوبية، (١) لأن الإيمان بالقدر يعنى الإيمان بتصرف الله التام في الكون، وأنه لا يقع شيء في الكون إلا بإذنه، ووفق ما سبق قضاؤه به، وأنه سبحانه وتعالى خالق الإنسان وفعله، وهذا من كمال ربوبيته وقيوميته ،

والإيمان بالقدر من أركان الإيمان الستة كما في حديث جبريل المشهور (٢) ،

وقد ورد من مسائل القدر في السورة مسألتان هما:

١ = سبق القضاء والقدر بما هو كائن قبل أن يكون

٢ = إثبات الحكمة والتعليل في أفعال الله سبحانه

وسأتناول المسألتين بشيء من التفصيل فيما يلي :

(١) انظر: ص (١٢) من هذا البحث
(٢) انظر: ص (١٥٩) من هذا البحث

المسألة الأولى: سبق القضاء والقدر بما هو كائن قبل أن يكون:

١ = قال تعالى: (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) الآية <١٠١>

٢ = قال تعالى: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) الآية <١٠٥>

في هاتين الآيتين بيان بأن أعمال الناس وما يجرى عليهم في هذه الحياة الدنيا وفي الحياة الأخرى مفدرة في سابق علم الله عزوجل ، ومكتوبة في أم الكتاب .

ففي الآية الأولى يخبر اللد سبحانه أن الذين سبقت لهم في علمه الحسنى أي السعادة سيعدون عن نار جهنم فلا يسمعون لها حساب لهم خالدون في الجنة ، (١) وهذا يعنى أن سعادة الإنسان وكذا شقاوته مقدرتان في علم الله تعالى قبل أن يسعد السعيد ويشقى الشقى .

وفي الآية الثانية يخبر اللد سبحانه أنه كتب في الزبور من بعد الذكر أي من بعد الكتاب في الذكر أن الأرض يرثها عباد الله الصالحون ، والمراد بالذكر هنا أم الكتاب الذي كتب الله تعالى فيه مقادير الأمور كلها قبل خلق السموات والأرض، ومما يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب في الذكر كل شيء) (٢) والمراد بالأرض الموروثه هنا إما أرض الكفار أو الجنة (٣)

فإن كان أرض الكفار فالآية تدل على أن ما سيحدث للمؤمنين من نصر وإعزاز بالاستيلاء على أرض الكفار في الدنيا فانه مقدر ومكتوب في أم الكتاب قبل إخبار الكتب السماوية به ،

وإن كان الجنة فالمعنى أن فوز المؤمنين الصالحين بالجنة مقدر ومكتوب قبل أن يفوزوا ، وفي هذا دليل على ما دلت عليه الآية الأولى من أن السعادة والشقاوة مقدرتان ،

فنستخلص من الآيتين إذاً أن الله سبحانه وتعالى قد قدر ما هو واقع قبل وقوعه فكتب في أم الكتاب ، ويدخل في ذلك جميع ما يحدث في العالم

(١) انظر: تفسير الآية كاملاً فيما سيأتى من (١٧١ و٣٧) من هذا البحث
(٢) أخرجه البخاري عن عمران بن الحصين في كتاب بدء الخلق /باب ما جاء في قول الله تعالى: (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده) (٢٨٦/٦) وكتاب التوحيد /باب (وكان عرشه على الماء) (٤٠٣/١٢)
(٣) انظر: ما سيأتى حول الآيخس (٢٥١) من هذا البحث

من جليل الأمور ودقيقها ، فكل ذلك قد علمه الله ، بل علم ما لا يكون كيف كان يكون لو كان .

ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) (١)

وقوله صلى الله عليه وسلم: (إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له: اكتب ، قال : رب وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة) (٢)

وقوله صلى الله عليه وسلم: (كتب اللد مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ..) الحديث (٣)

والآيات والأحاديث في إثبات القدر كثيرة جدا ، ومن هنا كان الإيمان به في أول الرسالة المحمدية نقيا صافيا لا يكدره شيء فكان الصحابة رضوا الله عنهم لا يكلفون أنفسهم في البحث عما غمض عنهم من مسائل القدر ، بل كانوا يؤمنون بأن جميع ما كان وما سيكون فهو بإذن الله ومشيئته ، فلا يقع شيء في الكون إلا ما أراد الله وشاءه ، وأن الله هو الخالق ككل شيء فلا خالق إلا هو ، ومضى على ذلك أمرهم ، وفي آخر عهدهم ظهر من تكلم في القدر ، وبدأ القول بنفى علم الله السابق بما هو كائن قبل أن يكون ، وكان أول من أظهر ذلك رجل نصراني كان قد أسلم ثم تنصر ، فتلف القول عنه معبد الجهني وأخذ عنه غيلان الدمشقي ، (٤) ثم انتشر

القول به ، وقد جوبه بمعارضة قوية من قبل الصحابة وخيار التابعين ، حتى صار القائلون به منبوذين من قبل المجتمع ، واعتزلهم كثير من الناس ، فأصبحوا لا يجالسون ولا يكالمون ، وكان كثير من الأئمة والعلماء يطردونهم من مجالسهم العامة والخاصة (٥)

(١) سورة الحديد الآية (٢٢)

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند عن عبادة بن الصامت ٢١٧/٥ وأبو داود في كتاب السنة باب القدر ٢٢٥/٤ ح ٤٧٠٠ والترمذي في كتاب القدر ٤٥٧/٤ ح ٢١٥٥ وابن أبي عاصم في السنة ٤٨/١ وقد صححه الألباني في تخريج له .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب القدر ٢٠٤٤/٤ ح (١٦)

(٤) انظر: السنة للحلال ٥٢٦ والشريعة للأجري ص ٢٤٢ وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٧٥٠/٤ وقد قتل معبد سنة ٨٠ هـ لما خرج مع ابن الأشعث ، وقتل غيلان في عهد هشام بن عبد الملك وصلب ، وذلك أنه كان عامد عمر بن عبدالعزيز على ترك مذهبه في القدر ، ثم تنكب في عهد هشام ، انظر ترجمة معبد في تقريب التهذيب ٢٦٢/٢ وخبر مقتل غيلان في السنة لابن الإمام أحمد بن حنبل ٤٢٩/٢

(٥) انظر: السنة لابن الإمام أحمد بن حنبل ٢٩١/٢

وكان ملخص مذهب هؤلاء أن اللد لا يعلم بشيء قبل حدوثه ، وأن الإنسان هو الذى يوجد فعلة من غير إرادة الله وعلمه ، فالله لا يريد كفر الكافر ولا يعلمه قبل حدوثه ، ومفاد هذا القول أنه يقع فى ملك الله ما لا يريد وقوعه ولا يقدر على دفعه .

ولشدة مناقضة هذا المذهب لأصول الإيمان وما يجب فى حق الله تعالى فإنه لم يستطع البقاء فى المجتمع الإسلامى فانقرضت الفرقة الفائلة به (١)

ثم ظهر المذهب على شكل آخر لدى المعتزلة حيث قالوا إن الإنسان هو خالق أفعاله وأن الله سبحانه لم يخلق شيئاً من أفعال غيره من الناس والحيوانات (٢) ،

وفى مقابل مذهب القدرية ظهر مذهب ثالث أثبت أصحابه القدر وبالغوا فيه حتى ادعوا أن الإنسان مجبور على أفعاله ، فلا قدرة له على شيء منها .

وهذا المذهب شرم من مذهب القدرية المعتزلة ، لأن المعتزلة أرادوا تنزيه الله سبحانه عن أن يقدر الذنب ثم يلوم عليه ويعاقب ، ونزهوه أن يعاقب العبد على ما لا صنع له فيه البتة ، بينما نزهت الجبرية العباد ونسبوا الظلم إلى الله تعالى عن ذلك ، (٣)

وقد حاول الأشاعرة التوسط بين الفرقتين ، ففرقوا بين خلق الله لأفعال العباد ، وفعل العباد ، فقالوا إن صرف العبد قدرته وإرادته إلى الفعل كسب وإيجاد الله الفعل عقب ذلك الصرف أو معها خلق (٤) ،

ومآل هذا القول إلى الجبر لأن تحقيقه أن إيجاد الفعل لا يرجع إلى العبد لأنه لا تأثير لقدرة على الفعل فى الحقيقة ، بل يرجع إلى الله فهو الذى يوجد الفعل عقب إرادة العبد ، ومعلوم أن مجرد الإرادة لا يكون فعلاً ، فلا معنى إذا لنسبة الفعل للعبد على هذا المذهب . (٥)

-
- (١) انظر: شرح النووى على صحيح مسلم ١٥٤/١
(٢) انظر: مقالات الإسلاميين ٢٨٩/١ والفرق بين الفرق ص ٧٩ وشرح الأصول الخمسة ص ٢٩٩ و٥٢٥
(٣) انظر: مجموع الفتاوى ١٠٢/٨ وطريق الهجرتين ص ١٦٢
(٤) انظر: مقالات الإسلاميين ٢٢١/٢ والفرق بين الفرق ٢٦١ والملل والنحل للشهرستاني ١٢٥/١
(٥) انظر: مجموع الفتاوى ١١٩/٨-١٢٩

والمذهب الحق هو مذهب اليد سلف الأمة من أند لا يقع فى ملك الله مالا يريد ، وأن ما يجرى فى الكون فىقدر الله وقضائه فهو خالق كل شىء ، والإنسان حين يؤاخذ على أفعاله فلا يعنى ذلك ظلماله ، لأنه فعلها باختياره وإرادته ، ولا حجة له فى القدر لأن القدر مبنى على ما علم الله من العبد أنه يفعل ، فهذا هو الذى كتبه الله عليه ، فالإيمان بالقدر يعنى الإيمان بعلم الله السابق لما هو كائن ثم كتابته له ثم مشيئته الكونية له ثم خلقه وإيجاده إياه .

المسألة الثانية: الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى

١ = قال تعالى: (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لبعين) الآية <١٦>

٣ = وقال تعالى: (وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاسبا
لعلهم يهتدون) الآية <٣١>

٢ = وقال تعالى: (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) الآية <٢٣>

٤ = وقال تعالى: (كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا
ترجعون) الآية <٣٥>

٥ = وقال تعالى عن أيوب عليه السلام: (فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وءاتيناه

أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعبدین) الآية <٨٤>

٦ = وقال تعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) الآية <١٠٧>

في الآيات السابقة دلالة على أن الله سبحانه وتعالى يفعل ما يفعل لحكمة
بالغة وغاية سامية ، وليس لمجرد المشيئة والإرادة كما ذهب إلى ذلك من ذهب
من الأشاعرة وغيرهم .

وقد وردت في الآيات ذكر حكم بعض أفعال الله سبحانه وتعالى:

ففي الآية الأولى يخبر تعالى أنه ما خلق السماء والأرض وما بينهما لبعيا أي
بدون حكمة أو غاية . لأن هذا - أعنى الفعل لغير حكمة وغاية - هو اللعب ،
فالمريد القادر لا يفعل شيئا إذا لم يكن هناك غرض من هذا الفعل ، وإلاسمى
لاعبا عبثا ، وقد نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن ذلك هنا ، كما نزه نفسه
عن ذلك في آيات أخرى كقوله تعالى: (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا
لا ترجعون) (١)

فخلق السموات والأرض إذاً كان لحكمة بالغة هي الدلالة على قدرته سبحانه
وتعالى ، وعلى قيام يوم الجزاء ، كما قال تعالى في آية أخرى: (وخلق الله
السموات والأرض بالحق ولنجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون) (٢)

قال ابن جرير في تفسير هذه الآية (يقول تعالى ذكره (وخلق الله السموات والأرض
بالحق) للعدل والحق يقول جل ثناؤه : فلم يخلق الله السموات والأرض
للظلم والجور ، ولكننا خلقناهما للحق والعدل ومن الحق أن يخالف بين حكم

(١) سورة المؤمنون (١١٥)

(٢) سورة الجاثية الآية (٢٢)

المساء والمحسن في العاجل والآجل ، وقوله : (ولتجزى كل نفس بما كسبت) (٣)
يقول تعالى ذكره : وليثيب الله كل عامل بما عمل من عمل خلق السموات والأرض)
وقال أبو السعود (٢) في قوله تعالى : (ولتجزى كل نفس بما كسبت) (عطف على (بلحق)
لأن فيه معنى التعليل ، إذ معناه خلقها مقرونة بالحكمة والمواب دون العبث
والباطل ، فحاصله : خلقها لأجل ذلك ولتجزى الخ... أو على علة محذوفة ، مثل :
ليدل بها على قدرته أو ليعدل ولتجزى ..) (٣)
وأما الآية الثانية فإجل الكلام عليها الآن (٤)

والآية الثالثة فيها إثبات لحكمة إيجاد الجبال في الأرض ، وكذا في جعل الطرق
فيها ،

والآية الرابعة فيها حكمة إصابة الناس بالخير والشر وهي الا ابتلاء والاختبار
ليظهر المؤمن الصادق في إيمانه من المنافق ، ويظهر المؤمن من الكافر ،
والآية الخامسة فيها ذكر الحكمة في إجابة دعاء أيوب عليه السلام وإيتائه أهله
ومثلهم معهم ، وهي الرحمة به ، وليتذكر به العابدون ويأخذوا العبرة من قصته
ويعلموا قدرته الله سبحانه على كل شيء .

والآية الأخيرة فيها ذكر الحكمة من بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهي
الرحمة لجميع العالمين المؤمنين به وغيرهم ، أما المؤمنون فلأن الله سبحانه
وتعالى أنقذهم به من الظلمات إلى النور ، وهداهم به إلى طريق السعادة الأبدية
في الدنيا والآخرة ،

وأما الكافرون فلأن الله سبحانه رفع عنهم عذاب الاستئصال ببعثته صلى الله
عليه وسلم وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال - لما سئل أن يدعوا
على المشركين : (انى لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة) (٥)

قال ابن كثير - رحمه الله - : (فإن قيل : فأى رحمة حصلت لمن كفر به ؟ -

- (١) تفسير الطبري ٩٠/٢٥
(٢) هو محمد بن مطفى العمادى الحنفى الفقيه المفسر الأصولى (ت ٩٨٢ هـ) له
ترجمة فى شذرات الذهب ٢٩٨/٨ والبدر الطالع ٢٦١/١ ومعجم المؤلفين ٣٠/١١
(٣) تفسير أبى السعود ٥٦٦/٥
(٤) انظر : ص (٦٢) من هذا البحث
(٥) أخرجه مسلم عن أبى هريرة فى كتاب البر والصلة والآداب ٢٠٠٧/٤ ج <٨٧>

فالجواب مارواه أبو جعفر بن جرير - وساق الإسناد إلى ابن عباس أنه قال في الآية : (من آمن بالله واليوم الآخر كتبت له الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفى مما أصاب الأمم من الخسف والقذف) (١)

ولهذه الآيات وأشباهها من نصوص الكتاب والسنة ذهب السلف -رضوان الله عليهم - إلى أن أفعال الله سبحانه وتعالى لا تخلوم من حكمة وغاية هي مرادة له سبحانه ، ^{لم تكن مقصودة} لأن الحكمة إذا لم تصح تسميتها حكمة ، بل تكون رمية من غير رام .

يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالى - (وقال الجمهور من أهل السنة وغيرهم : بل هو حكيم في خلقه وأمره ، والحكمة ليست مطلق المشيئة ، إذ لو كان كذلك لكان كل مريد حكيمًا بل الحكمة تتضمن مافى خلقه وأمره من العواقب المحمودة والغايات المحبوبة ، والقول بإثبات هذه الحكمة ليس هو قول المعتزلة ومن وافقهم من الشيعة فقط ، بل هو قول جماهير طوائف المسلمين من أهل التفسير والفقه والحديث والتموف والكلام وغيرهم ، فائمة الفقهاء متفقون على إثبات الحكمة والمصالح في الأحكام الشرعية . .) (٢)

وقد أنكر الأشاعرة ومن وافقهم تعليل أفعال الله تعالى بالحكمة (٣) وأولوا كل مجاء في القرآن من لام للتعليل بلام العاقبة والضرورة فهم يقولون إن أفعال الله لا تخلو من حكمة ، ولكن هذه الحكمة حاملة عقب الفعل ، وليست مرادة لله ولا باعثة له على الفعل ، لأنه لو كان كذلك لكان - سبحانه - ناقما مستكملا بتحصيل ذلك الفعل ، وذلك مناف لكماله . (٤)

ومما استدل به على هذا المذهب قوله تعالى : (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) الآية (٢٣)

قال الألوسي : (٥) (واستدل بالآية على أن أفعاله تعالى لا تتعلل بالأغراض والغايات ، -

-
- (١) تفسير ابن كثير ٢/٢١١ وانظر الأثر في تفسير الطبري ١٧/٨٢
 - (٢) منهاج السنة النبوية ١/١٤١
 - (٣) انظر المصدر السابق ١/١٤١ و ١٤٢ - وكذا نهاية الإقدام للشهرستاني ص ٣٩٧ والموافق للإجماع ص ٢٣١
 - (٤) انظر نهاية الإقدام في علم الكلام ص ٣٩٧ والمواقف في علم الكلام ص ٣٣١
 - (٥) هوالمفسر المحدث الفقيه الأديب محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت ١٢٧٠ هـ) انظر ترجمته في المسك الأذفر في نشر مزايا القرن الثاني عشر والثالث عشر ص ٦٤ وحلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ٣/١٤٥٠ والأعلام ٨/٥٣

فلا يقال : فعل كذا لكذا إذ لو كانت معللة لكان للعبد أن يسأل فيقول لم فعل ؟
ورلى ذلك ذهب الأشاعرة (١)

ولكن هذا الاستدلال فى غير محله ، إذ تقدم من الأدلة ما ثبت أن أفعاله سبحانه
معللة بالحكم والغايات ، وإذا كان الأمر هكذا فمعنى الآية إذا أن الله سبحانه
هو القاهر فوق عباده ، وهو الفعال لما يريد فلا يعترض على حكمه ولا يحاسب على
فعله ، بل هو الذى يسأل العباد ويحاسبهم على ما يفعلون ، لأنهم خلقه وعبده
وهو ربهم وخالقهم ، وهو الحاكم الذى لا معقب لحكمه ، ولا اعتراض عليه لعظمته

وجلاله وكبريائه وعلمه وحكمه وعدله ولطفه (٢). وقد أوردوا لتعضيد قولهم هذا أدلة أخرى
عقلية جعلوها حاكمة على الأدلة النقلية السابقة (٣) ومن المعلوم أن العقيدة
السليمة لا بد أن تبني على نصوص الكتاب والسنة ويكون مجال العقل تفهم تلك
النصوص ورد المتشابه منها إلى المحكم ، والمنصف إذا وقف على الأدلة السابقة
من السورة وأشبهها من الكتاب والسنة لا يبقى أمامه أى مجال إلا أن يؤمن بأن
الله سبحانه حكيم يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد للمجرد المشيئة بل لحكمة بالغه
قد تظهر للناس فيزدادون إيماناً ويقيناً ، وقد تخفى عليهم ومع ذلك فهم يؤمنون
بأنه لا يبدمن وجودها ، كيف وقد سمى نفسه حكيماً فى أكثر من ثماني آية ، فهل
يعقل بعد هذا كله أن تنفى الحكمة عن أفعاله ويقال إنه يفعل ما يشاء لمجرد
المشيئة .

(١) روح المعاني ٢٩/١٧

(٢) انظر تفسير الطبري ١١/١٧ والقرطبي ١١/٧٩

(٣) انظر : شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتغليل ص ٤٢٥
فما بعد

الفصل الثاني

مباحث توحيد الألوهية
وتحتها أربعة مباحث

- المبحث الأول: تعريفه وبيان منزلته وعلاقته بتوحيد الربوبية
- المبحث الثاني: دلالة السورة عليه وأنواع العبادات الواردة في السورة
- المبحث الثالث: الشرك وظهوره
- المبحث الرابع: عرض السورة لتفزيه الدم عن الشرك ومناقشة الشركية ونقصه شهوراً

المبحث الأول

تعريف توحيد الألوهية، وبيان منزلته، وعلاقته بتوحيد الربوبية

- ١ - المعنى اللغوي : سبق معنى التوحيد، ولاوجه لأعادته هنا .
أما الألوهية فمصدر من أله يأله " بفتح العين فيهما " ، وبالرجوع لمعاجم اللغة نجد أن الكلمة ترجع إلى معنى التعبد والعبادة .
قال الأزهري : (قال: (١) التأله التعبد، وقال رؤبة(٢)).
(.....:سبحن واسترجعن من تألهي)(٣)
وقال الجوهري(٤): (أله بالفتح إلهة أي عبد عبادة، ومنه قرأ ابن عباس رضي الله عنهما: (ويذكر وإلهتك)(٥)
وقال ابن فارس: (الهمزة واللام والهاء أصل واحد، وهو التعبد فالإله الله تعالى سمي بذلك لأنه معبود، ويقال : تأله الرجل، إذا تعبد
وأما قولهم في التحير أله يأله فليس من الباب، لأن الهمزة واو)(٦) .

- (١) أي الليث بن المظفر أحد الذين نقل عنهم الأزهري اللغة في التهذيب .
(٢) هو رؤبة بن العجاج التميمي الراجز من أعراب البصرة، وكان رأسا في اللغة
(ت ١٤٥ هـ) له ترجمة في: الشعر والشعراء ص/٤٩٥، ومعجم الأدياء ١١/١٤٩،
ووفيات الأعيان ٢/٢٠٣، وسير أعلام النبلاء ٦/١٦٢، وشذرات الذهب ١/٢٢٣ .
(٣) تهذيب اللغة ٦/٤٢٢ مادة (أله) والبيت في ديوان رؤبة ص/١٦٥ .
(٤) هو إمام اللغة أبو نصر إسماعيل بن حماد التركي صاحب كتاب الصحاح أحد من
بضرب به المثل في ضبط اللغة (ت ٣٩٢ هـ) انظر ترجمته في: يتيمة الدهر
٤/٤٠٦، ومعجم الأدياء ٦/١٥١، وسير أعلام النبلاء ١٧/٨٠، والنجوم الزاهرة
٤/٢٠٧، وبغية الوعاة ١/٤٤٦ .
(٥) الصحاح ٦/٢٢٢٣ مادة (أله) وهذه القراءة شاذة عن ابن عباس رواها ابن
جرير في تفسيره ١/٤١ و ٩/١٨ وذكرها ابن كثير في تفسيره ٢/٢٢٩ والآية من
سورة الأعراف ورقمها (١٢٧) والقراءة المتواترة (ويذكر وإلهتك) .
(٦) معجم مقاييس اللغة ١/١٢٧ مادة (إله) .

وقال الفيروز آبادي (١) : (ألد إلهة وألوهة وألوهية : عبد عبادة، ومنه لفظ الجلالة وأصله إله كفعال بمعنى مألود، وكل ما اتخذ معبودا فهو إله عند متخذه) (٢).

وهكذا تتفق آراء علماء اللغة على أن مادة الكلمة تدل على العبادة وأن الألوهية هي العبادة، والإله هو المعبود.

أما ماعلاقة الكلمة بلفظ الجلالة ؟ فهذا نرى الاختلاف لكن الأكثر بين أن لفظ الجلالة من المادة نفسها، وإن اختلفوا في كيفية بيان ذلك، وأوضح ما قيل في ذلك عندي أن أصل الكلمة - لفظ الجلالة - الإله، ثم حذفت الهمزة للتخفيف لكثرتة في الكلام، كما حذفت من قوله تعالى : (لكننا هو الله ربى) (٣)، وأصل (لكننا) لكن أنما فلما حذفت الهمزة أدغمت النون في النون فصارت الكلمة (لكننا)، وكذلك الحال هنا لما حذفت الهمزة أدغمت اللام في اللام فأصبحت الكلمة (الله) (٤).

وذهب بعض العلماء إلى أن لفظ الجلالة ليس مشتقا، وأنه هكذا أصله.

قال ابن كثير : " الله علم على الرب تبارك وتعالى، يقال : إند الاسم الأعظم

(١) هو محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الفيروز آبادي الشيرازي صاحب القاموس المحيط (ت ٨١٧ هـ) له ترجمت في: بغية الوعاة ص/١١٧، وشذرات الذهب ١٢٦/٧، والبدر الطالع ٢٨٠/٢.

(٢) القاموس المحيط ٢٨٢/٤ مادة (أله)

(٣) الآية (٢٨) من سورة الكهف، وقد قرأه الحسن البصري على الأصل (لكن أنما) وهي قراءة شاذة. انظر إتحاف فضلاء البشر ص/٢٩٠ والقراءات الشاذة لعدد الفتح القاضي ص/٦٣.

(٤) وهناك آراء أخرى في المسألة ومنها:

أ - أن الأصل (الإله) ولكن الألف واللام عوض عن الهمزة كما عوضتا عنها في (الناس) وأصله (أناس). وقد رد الجوهرى هذا القول بأنه لو كان الأمر كذلك لما اجتمعنا مع المعوض في قولهم (الإله) كما لا يقال (الأناس).

ب - أن الأصل (إلواه) من الولد وهو التحبير، ثم قلبت الواو همزة، كما في (وشاح) و(إشاح). ورد هذا بأنه لو كان كذلك لردت الواو في الجمع كما ردت في (إشاح) حيث جمع بـ (أوشحة) ولكن الجمع هنا (آلهة) وليس أولهدة.

ج - أن الأصل (لاه) فدخلت عليها الألف واللام، وقد استدل على هذا بقول الشاعر:

(لاه ابن عمك لا أفضلت في حسب xxx عني ولا أنت ديانى فتخزوني).

وهذا البيت لدى الإصبع العدواني - قال ابن هشام في معنى اللبيب ١٤٧/٢ : أى لئلا أكن عمك .. فكلمة (لاه) ليست أصلا، وإنما حذف منذ حرف الجر وأبقى عمله سدودا. حكى القرطبي هذه الأقوال في تفسيره ١٠٢/١ - ١٠٣ وانظر: تهذيب اللغة ٤٢٢/٦ و٤٢٤/٦ والصاح ٢٢٢٢/٦ والقاموس ٢٨٢/٤ مادة (ألد) فيها جميعا.

لأنه يوصف بجميع الصفات ... إلى أن قال : وهم اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى، ولهذا لا يعرف في كلام العرب له اشتقاق من "فعل يفعل" فذهب من ذهب من النحاة إلى أنه اسم جامد لا اشتقاق له ، وقد نقله القرطبي عن جماعة من العلماء منهم الشافعي والخطابي وإمام الحرمين (١) والغزالي (٢) وغيرهم وروى عن الخليل (٣) وسيبويه (٤) أن الألف واللام فيه لازمة ، قال الخطابي : لا ترى أنك تقول : يا الله ولا نقول : يا الرحمن ، فلولا أنه من أصل الكلمة لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام (٥) .

ويمكن التوفيق بين القولين بأن يوجه الأول بأن المراد به أن لفظ الجلالة يمكن رجوعه إلى أصل من أصول اللغة العربية يتفق معه في الحروف والمعنى ، وهذا الرجوع يتمشى أيضا مع قواعد اللغة وأساليب العرب في الاشتقاق ، وهذا الأصل هنا هو ، ، الهمزة واللام والهاء ، ويوجه القول الثاني بأن المراد به أن العرب لم يسمع منهم لفظ الجلالة بمعنى المعبود مطلقا كما سمع في <الإله> وأن معنى العبادة لم يلاحظ عند إطلاق الكلمة ، بل روعى فيها أن تكون علما على الرب تبارك وتعالى ، وتعبير ابن جرير - رحمه الله - في المسألة قريب من هذا ، فقد قال في تفسيره : (وأما تأويل قولنا لله ، <الله> فإنه على معنى ما روى لنا عن عبد الله ابن عباس هو الذي بيأله كل شيء ويعبده كل خلق ثم قال بعد ذكره الرواية بذلك : فإن قال لنا قائل : فهل لذلك في "فعل ويفعل" أصل كان منه بناء هذا الاسم ؟

قيل : أما سماعا من العرب فلا ، ولكن استدلالا) ثم استمر في ذكر وجه هذا الاستدلال (٦)

- (١) هو أبو المعالي عبد الملك بن أبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني النيسابوري شيخ الشافعية صاحب التمامين ، كان خاض في علم الكلام ثم رجع إلى مذهب أهل الحق (٤٧٨ هـ) له ترجمة في ذيل تاريخ بغداد ٨٥/١ ووفيات الأعيان ١٢١٢/١ وسير أعلام النبلاء ١٨٤/١٨٤ وطبقات الشافعية للسبكي ١٦٥/٥ والبداية والنهاية ١٢/١٣٦
- (٢) سنائي ترجمته ص (١٥٢) من هذا البحث
- (٣) هو الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري الإمام الهذلي في اللغة منشى علم العروض وشيخ سيبويه إمام النحو (ت ١٦٠ هـ وقيل ١٧٠ هـ) له ترجمة في معجم الأدباء ١١/٢٢ ووفيات الأعيان ٢/٢٤٤ وسير أعلام النبلاء ٧/٤٢٩ وتهذيب التهذيب ٢/١٦٢
- (٤) هو إمام النحو واللغة أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي البصري المعروف بسيبويه (ت ١٨٠ هـ) له ترجمة في تاريخ بغداد ١٢/١٥٩ ومعجم الأدباء ١٦/١١٤ ووفيات الأعيان ١/٤٨٧ وسير أعلام النبلاء ٨/٢٥١ وبغية الوعاة ٢/٢٢٩
- (٥) تفسير ابن كثير ١/١٩ وانظر تفسير القرطبي ١/١٠٢ وكذا تهذيب اللغة ٦/٤٢٤ مادة <اله>
- (٦) تفسير الطبري ١/٤٢ وقد وجهه هنا كما سبق في التوجيه الأول

٢=المعنى الشرعى لتوحيد الألوهية وبيان منزلته

إذا كان معنى الألوهية هو العبادة فإن توحيد الألوهية يعنى توحيد العبادة، أى أن يوحد العابد معبوده فيعبد وحده دون من سواه، والآلهة كثيرة ولكن الذى يعبد بحق هو الله وحده دون من سواه. فتوحيد الألوهية إذاً يعنى : إخلاص العبادة لله وحده دون غيره وهذا هو معنى ، لا إله إلا الله ، أى لا معبود بحق إلا الله ، وهذا التوحيد هو اللب والخلاصة من دين الإسلام ، وهو المقصود بلفظ التوحيد إذا أطلق وهو الذى بعث المرسلون لتقريره ، وأقنوا أعمارهم فى تحقيقه ودعوة الناس إليه ، وفيه كان النزاع بينهم وبين قومهم، حيث حاربهم قومهم دفاعاً عن الآلهة الباطلة قال تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطغوت) (١) وقال تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (٢) وقال تعالى عن كفار مكة : (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكفرون هذا سحر كذاب أ جعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب) (٣)

قال الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب (٤) :

(النوع الثالث : توحيد الإلهية المبني على إخلاص التألذ لله تعالى من المحبة والخوف والرجاء والتوكل والرغبة والرغبة والدعاء لله وحده، وينبنى على ذلك إخلاص العبادات كلها ظاهرها وباطنها لله وحده لا شريك له، لا يجعل فيها شيئاً لغيره لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل فضلا عن غيرهما،... وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره وباطنه وظاهره، وهو أول دعوة الرسل وآخرها وهو معنى لا إله إلا الله....
ولأجل هذا التوحيد خلقت الخليقة، وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وبد افترق الناس إلى مؤمنين وكفار، وسعداء أهل الجنة وأشقياء أهل النار) (٤)

(١) سورة النحل الآية (٣٦)

(٢) سورة الذاريات الآية (٥٦)

(٣) سورة ، ص، ، الآيتان (٥/٤)

(٤) هو الحافظ الفقيه المحدث الشيخ سليمان بن عبدالله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي من أئمة الدعوة السلفية وخدام العلم وكان من الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر، وشبهه إلى إبراهيم باشاين محمد على باشا وإلى مصر فقتله ظلما وعدوانا (١٢٢٢هـ) بالدريعية رحمه الله رحمة واسعة . انظر ترجمته في مقدمة تفسير العزيز الحميد، للإمام إبراهيم بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ ص ١٢. ونسخ علمه في كتابه (٥) تفسير العزيز الحميد ص ٣٦ باختصار

٢ = علاقة توحيد الألوهية بتوحيد الربوبية :

=====

العلاقة بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية علاقة تضمن وتلازم فتوحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية ، وتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية ، وبيان ذلك أن من أتى بتوحيد الألوهية فوحد الله وأخلص له العبادة فلا بد أنه قد اعتقد أن الله هو المستحق لذلك، لأنه الخالق الرزق المحيي المميت المالك للضر والنفع، وأن من سواه لا يملك لنفسه - فضلا عن غيره - ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا،

وإذا علم العبد أن الله سبحانه وتعالى هو الرب وحده وهو الخالق لكل شيء والمالك له علم أنه هو المستحق للعبادة، فاستلزم ذلك منه أن يعبده دون من سواه حتى يوافق علمه عمله ، ولهذا كثيرا ما يدعو الله سبحانه وتعالى عباده إلى إخلاص العبادة له بسوق أدلة الربوبية، لأن توحيد الربوبية هو الباب إلى توحيد الألوهية وهو منه كالمقدمة من النتيجة ، قالتعالى : (يأيها الناس أعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) (١) وقال تعالى في سورة الأنبياء (وأنا ربكم فاعبدون) الآية (٩٢)

وقال تعالى في سورة النحل : (أمن طلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إله مع الله بل هم قوم يعدلون) (٢)

قال ابن القيم بعد استشهاده بهذه الآية والآيات بعدما : (يحتج عليهم بأن من فعل لهم هذا وحده فهو الإله لهم وحده فإن كان معه رب فعل هذا فينبغي أن تعبدوه وإن لم يكن معه رب فعل هذا فكيف تجعلون معه إله آخر ؟

ولهذا كان الصحيح من القولين في تقدير الآية ، إله مع الله فعل هذا؟ ، حتى يتم الدليل، فلا بد من الجواب بلا، فإذا لم يكن معه إله فعل كفعله فكيف تعبدون آلهة أخرى سواه؟

فعلم أن إلهة ما سواه باطلة كما أن ربوبية ما سواه باطلة بإقراركم وشهادتكم (٣) .

(١) سورة البقرة الآية (٢١)

(٢) سورة النحل الآية (٦٠) وانظر مدارج السالكين ٤٤٣/١ وشرح الطحاوية ٢٧ والكوشف الجلية معاني الواسطية ٤٢١ - ٤٢٢

(٣) مدارج السالكين ٤٤٤/١

المبحث الثالث

دلالة السورة على توحيد الألوهية وأنواع العبادة الواردة فيها

إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة وإخلاصه له وحده دون من سواه هو زبدة الرسالات السماوية ، وهو المحور الذي دارت عليه الشرائع الإلهية جميعها من أولى الرسالات وإلى أن ختمت برسالة النبي الأمي محمد صلى الله عليه وسلم وعلى جميع أخوانه الأنبياء وسلم، وقد نبه الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز إلى هذه الحقيقة ، وعقب على ذلك بالامر بعبادته وحده والسير على منهجه الذي وضعه لملاحق البشرية، والذي لافلاح ولإسعاده للبشرية بدونه .

وفي هذه السورة إشارة إلى هذه الحقيقة وبيان لها ، فقد ورد فيها الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، والتنبيه إلى أن جميع المرسلين بعثوا بذلك وطبقوه في واقع الحياة ، وأن أمة التوحيد أمة واحدة في كل العصور ، كما ورد فيها ذكر بعض أنواع العبادات ما يتعلق منها بالقلب أو باللسان أو بالجوارح ،

وسنعرض للحديث عن هذا في نقطتين رئيسيتين :

١= تقرير توحيد الألوهية في السورة مع إيضاح أنه زبدة الرسالات السماوية

٢= أنواع العبادات الواردة في السورة .

أولا : تقرير توحيد الألوهية فى السورة مع إيضاح أنه زبدة الرسالة السماوية

وردت فى سورة الأنبياء عدة آيات تقرر توحيد الألوهية وهى :

١= قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) الآية (٢٥)

٢= قوله تعالى : (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) الآية (٩٢)

٣= قوله تعالى : (قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون) الآية (١٠٨)

إلى جانب الآيات التى تقرر هذا التوحيد بتنزيه الله تعالى عن الشريك ومناقشة المشركين وبيان مصيرهم مع آلهتهم يوم القيامة ، وقد آثرت تأخير الكلام عليها إلى أن يأتى الحديث عن الشرك لأنها ليق هناك، أما الآن فالكلام حول الآيات الثلاث، فالآية الأولى تقرر حقيقة أن توحيد الألوهية من أساسيات الرسالات السماوية من عهدىها الأول، وإلى أن ختمت برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فكل المرسلين بعثوا بالتوحيد ودعوا إليه وبينوه بأساليب مختلفة متنوعة،

فهذا نوح عليه السلام أول المرسلين يبدأ بدعوة قومه إلى التوحيد ونهى الشرك كما قال تعالى عنه : (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) (١)

وقال تعالى : (إننا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم قال يا قوم إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون) (٢)

يدعوه قومه إلى توحيد الله فيعرضون ، ويكرر الدعوى وينفخن فى عرضها، فتارة سرا وتارة جهرا ومرة ليللا وأخرى نهارا، فيوجههم إلى ما يقرون به من توحيد الربوبية ليستخلص لهم مند نوحى الألوهية ، يوجههم إلى أن إقرارهم بأن الله هو خالق السموات السبع وما فيها من شمس مضيئة وقمر منير ، وخالق الأرض وجعلها بساطا ليسهل للناس التنقل فيها، وهو المجدى المميت ، يلزمهم هذا الإقرار بأن يوحده فى العبادة وينسبوا ما عدا من الآلهة الباطلة التى لا تملك لهم شيئا ، قال تعالى على لسان نوح وهو يخاطب قومه :

(١) سورة الأعراف (٥٩)

(٢) مفتتح سورة نوح الآيات (١-٢-٣-٤)

(٣) تيسير العزيز الحميد ص ٢٨، وأصل الكلام لابن القيم فى مدارج السالكين ٤٦٨/٢

(ألم ترورا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبىءكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا والله جعل لكم الأرض يساغا لتسلكوا منها سبلا فجاجا) (١)

وبعد كل هذا البيان يقابلونه بالرفض ، ويتمسكون بآلهتهم الباطلة ود وسواع ويعوث ويعوق ونسر (٢) فكان عاقبتهم أن أغرقوا فأدخلوا نار جهنم وتسلق عاقبة كل من يشرك بالله ،

وهذا إبراهيم أبو الأنبياء عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم يدعو قومه إلى توحيد الألوهية و يقيم لهم البراهين العقلية عليه ، بل ويوضح ذلك عمليا فيريهم بالبرهان العملي أن أصنامهم لا تنفع ولا تضر بل لا تستطيع أن تدافع عن نفسها ضد من يريد بهاسوا ، وكل ذلك ليوضح لهم هذا التوحيد ويقرره ، وسيأتي مزيد بيان لدعوتد عند الحديث عن الشرك (٣)

وهكذا نجد كل الرسل يبدءون بدعوة قومهم إلى توحيد الألوهية قال تعالى عن هود: (وإلى عادأخاهم هودا قال يقوم اعبدوا لله ما لكم من إله غيره أفلاتتقون) (٤)

وقال عن صالح: (وإلى ثمود أخاهم صلحا قال يقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب) (٥)

وقال تعالى عن المرسلين جميعا: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطغوت ...) (٦) الآية

فكل منهم أوحى إليه هذا التوحيد فيبدأ به ويلفد ، وهذا ينبغينا إلى حقيقة أخرى وهي أن هذا التوحيد هو أول واجب على المكلف ، بدليل أن جميع المرسلين بعثوا وبدءوا دعوتهم به ، ومن المعلوم أن النبي أو الرسول إنما يبدأ بأول الواحات وأولها ،

(١) سورة نوح الآيات (١٥-١٦-١٧-١٨-١٩-٢٠)

(٢) هذد أسماء أصنام قوم نوح، وكانوا في الأمل قوما صالحين، فلما ماتوا عكف قومهم على قبورهم، وصوروا تماثيلهم على سبيل الذكرى، وليتأسوا بهم في العبادة، ولكن لما طال الزمن وخلف من بعدهم خلف جهلوا مقصود سلفهم أوحى إليهم الشيطان أن السلف صوروهم ليعبدوا ويستغاث بهم ، وهكذا صاروا أصناما يعبدون من دون الله ، انظر: فتح الباري كتاب التفسير / باب ودا ولاسواع ولايعوث ويعوق ونسرا) ٦٦٧/٨ وتفسير الطبري ٦٢/٢٩

(٣) انظر ص (١١٨) من هذا البحث

(٤) سورة الاعراف الآية (٦٥)

(٥) سورة هود الآية (٦١) (٦) سورة النحل الآية (٢٦)

ولايعنى هذا أنهم لم يتحدثوا عن توحيد الربوبية ، بل قد تحدثوا عنه ولكن على أساس الربط بيئته وبين توحيد الألوهية ، والاستدلال به عليه ، فكانهم يقولون يا قومنا إن كنتم قد أقررتم بأن الله هو الخالق الرازق ، وأن أصنامكم لا شأن لها فى ذلك ، فيلزمكم أن تتوجهوا إلى الله وحده لأنه المستحق للعبادة ، وإذا فقضية وجود الله وإثبات المانع لم يكن لها فى رسالة المرسلين محل إلا من حيث إنها وسيلة لا غاية ، لأنها لم تكن محل شك إلا للمكابرين المعاندين كفرعون (١) وأمثاله .

قال تعالى عن المرسلين وقومهم من نوح فمن بعده : (قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فاتونا بسلطان مبين) (٢) فالقضية إذاً لم تكن هل الله موجود أو غير موجود؟ لأن هذه قضية مسلمة لا اختلاف فيها وإنما كانت فى أن المرسلين يريدون من قومهم أن يتركوا عبادة ما كان آباؤهم يعبدونه من الأصنام والأوثان ، ولذا يقول الكفار : تريدون أن تمنعونا عن السير على طريق آباءنا الذى ورثناه منهم من عبادة هذه الأصنام ،

وهذا يبدح حجة من يرى من المتكلمين أن أول واجب هو المعرفة أو النظر أو أول جزء من النظر أو القصد إلى النظر أو ما إلى ذلك (٣) وهم يقصدون بالنظر ما اصطلاحوا علننه من النظر فى الجواهر والأعراض ثم الاستدلال بذلك على حدوث العالم ثم على إثبات المانع (٤) كما مر فى دليل الحركة (٥) وهذا النظر إنما ابتدعوه هم وليس مما أمر الله به ولا رسوله ،

يقول ابن تيمية : (فإن علماء المسلمين يعلمون بالاضطرار أن الرسول لم يدع

الخلق بهذا النظر ولا بهذا الدليل ، لاعامة الخلق ولا خاصتهم) (٦)

(١) كان فرعون وقومه يعتقدون فى قرآوة أنفسهم بوجود الله ، ولكنهم جحدوا مكابرة وعناد قال تعالى عنهم : (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عقبة المفسدين) سورة النمل الآية (١٤)

(٢) سورة إبراهيم الآية (١٠)

(٣) انظر : شرح الأصول الخمسة ص ٣٩ والمواقف فى علم الكلام ص ٣٢ وتحفة المرید على جوهر التوحيد ص ٢٤

(٤) انظر تحفة المرید ص ٢٤

(٥) انظر ص (٤٣) من هذا البحث

(٦) النبوات ص ٦١

وقال أيضا : (والاستدلال الذى يدعون إليه ويوجبونه ويجعلونه أول الواجبات وأصل العلم هو نظر واستدلال ابتدعوه ليس هو المشروع لآخرا ولاأمرأ وهو استدلال فأسدلايوصل إلى العلم) (١)

والخلاصة أن قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاأنوحى إليه انه لاإله إلاانا فاعبدون) يوضح حقيقة أن المرسلين جميعا بعثوا بتوحيد الألوهية ، وهم جميعا بدءوا بدعوة قومهم إليه ، مما يؤكد حقيقة أخرى هي أنه أول واجب على المكلف ، وفى هذا تقرير لهذا التوحيد وتأكيد لدوره فى تثبيت عقيدة المسلم وتوجيهه إلى إخلاص العبادة لله وحده ، لأن العبادة بدون الإخلاص لاتقبل أبدا ، كماقال تعالى : (فمن كان يرجوالقاء ربه فليعمل عملا صلحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا) (٢) أى لايشرك معه أى أحد كائنا من كان .

أما الآية الثانية فقد جاءت تعقيبا على قصص المرسلين ، لبيان أن أمة التوحيد على مدى التاريخ أمة واحدة ، فهذا هو قصصهم ليس فيه شذوذ عن هذه القاعدة ، فكلهم دعاة إلى التوحيد وعاملون مجتهدون فى تحقيقه ،

فأمة التوحيد من يوم أن وجدت وإلى أن تقوم الساعة مهما اختلفت شؤونها فإنها متفقة على أن اللد هو الإله الواحد الذى له الأمر كما له الخلق ، فالأمة واحدة وربها واحد ، فيجب الإخلاص له ،

وقد فسرت الأمة هنا بالملة والدين على أن يكون المعنى أن الدين واحدهوالإسلام والتوحيد ،

كما يدل عليه آخر الآية (وأنا ربكم فاعبدون) يقول ابن جرير فى

تفسير الآية : (يقول تعالى ذكره: إن هذه ملتكم ملدة واحدة وأناربكم أيها الناس

فاعبدون دون الآلهة والأوثان وسائر ماتعبدون من دونى) (٣)

ثم روى بإسناده عن ابن عباس ومجاهد أنهما فسرا الأمة هنا بالدين، وكذا ذكره

ابن كثير وحكاه عن ابن عباس و مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعبدالرحمن بن

زيد بن أسلم ، ثم قال ابن كثير : (ولهذا قال : (وأنا ربكم فاعبدون)

كماقال : (يأيتها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صلحا إنى بما تعملون عليم وأن

هذه أمتكم أمة واحدة وأناربكم فاتقون) (٤)

(١) انظر المصدر السابق ٥٩ - ٦٠

(٢) آخر سورة الكهف الآية (١١٠)

(٣) تفسير الطبرى ٦٧/١٧

(٤) سورة

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد) (١) يعنى أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله) (٢)

وإذا كان الدين واحداً فإن الأمة ستكون واحدة كذلك ، وهذا ما جعلنى أعبر عن معنى الآية هنا بأمة التوحيد ، لأن المقصود بالملة الواحدة هنا ملة التوحيد ، فهذه الأمة لا ممل لآلهة أخرى فى أى شأن من شئونها جلها ودقها ، وبقدرة تمسك الأمة بهذه العقيدة يكون التآلف والوحدة بينهم ، وبقدر بعدهم عنها يكون الاختلاف والفرقة ، فالبشرية حين كانت فى أول أيامها متمسكة بهذه العقيدة كانت أمة واحدة ولم تكن بينهم اختلافات ولا تمزق ، وإنما حصل الخلاف لما دب الشرك بينهم ، قال تعالى: (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) (٣)

قال سيد قطب: (إن أمة الرسل واحدة تقوم على عقيدة واحدة وملة واحدة ، أساسها التوحيد ، الذى تشهد به نوااميس الوجود ، والذى دعت إليه الرسل منذ أولى الرسالات إلى آخرها ، دون تبديل أو تغيير فى هذا الأصل الكبير ومع وحدة الرسل ووحدة القاعدة التى تقوم عليها الرسالات فقد تقطع أتباعها أمرهم بينهم ، كأنما اقتطع كل منهم قطعة وذهب بها ، وثار بينهم الجدل والخلاف ، وماجت بينهم العدوة والبغضاء لقد تقطعوا أمرهم بينهم فى الدنيا ولكنهم جميعاً سيرجعون إلى الله فى الآخرة (كل إلينا راجعون) فالمرجع* الله وحده ، وهو الذى يتولى حسابهم ويعلم ما كانوا عليه من هدى وضلال) (٤)

وقوله تعالى فى آخر الآية (وأنا ربكم فاعبدون) توضيح لحقيقة أن الله سبحانه وتعالى استحق العبادة لأنه هو الرب ، ففيه ربط بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، وقد سبق الكلام عن ذلك بما يغنى عن الإعادة هاهنا (٥).

(١) أخرجه البخارى معناه عن أبي هريرة فى كتاب الأبياء باب (وأذكر فى الكتاب مزيم) ٤٧٨/٦ وسلم فى كتاب الضحى ٤/١٣٢٧
(٢) تفسير ابن كثير ٢٠٣/٣
(٣) سورة البقرة الآية (٢١٢)
(٤) تفسير الظلال ٢٢٩٧/٤ اختصار وتصرف يسير
(٥) انظر ص (٦٩) من هذا البحث

وأما قوله تعالى : (قل إنما يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد) وهو الآية الثالثة فهو داخل فى إطار معنى الآية الأولى فإذا كان كل الرسل بعثوا بالتوحيد فلم يكن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بدعا منهم بل هو منهم وهو أفضلهم ، فلقد أوحى إليه -أن الإله المستحق للعبادة إله واحد وهو الله سبحانه وتعالى، وقوله: (إنما) يفيد القصر فكان الموحى إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم هو التوحيد فقط ، وهو كذلك من بعض الوجوه لأن ما عدا التوحيد فى القرآن الكريم فهو من مكملاته ،

قال الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب : بعد تفصيله الكلام فى توحيد الألوهية (وكل سورة فى القرآن بل كل آية فى القرآن فهى داعية إلى هذا التوحيد شاهدة به متضمنة له ، لأن القرآن إما خبر عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وهو توحيد الربوبية وتوحيد الصفات ، فذاك مستلزم لهذا متضمن له ، وإما دعاء إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه ، أو أمر بأنواع العبادات ، ونهى عن المخالفات ، فهذا هو توحيد الإلهية والعبادة ، وهو مستلزم للنوعين الأولين متضمن لهما أيضا ، وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيد وطاعته وما فعل بهم فى الدنيا وما يكرمهم به فى الآخرة ، فهذا جزء توحيد ، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم فى الدنيا من النكال وما يحل بهم فى العقب من الوبال ، فهذا جزء من خرج عن حكم التوحيد ، وهذا التوحيد هو حقيقة دين الإسلام الذى لا يقبل الله من أحد سواه^(١١))

(١١) تيسير العزيز الحميد ص (٢٨) وأصل الكلام لابن القيم فى مدارج السالكين ٣/٤٦٨

ثانياً = أنواع العبادات الواردة في السورة وشرط قبول العبادة قبل التعرض لذكر أنواع العبادات في السورة وشرط قبولها اذكرهنا تعريفاً مختصراً للعبادة وأقسامها ، تمهيداً للدخول في الموضوع .

العبادة : أصل معناها اللغوي : الذل والخضوع (١)

وأما معناها الشرعي : فهي إظهار التذلل والخضوع لله عز وجل بامتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه محبة له وخوفاً منه وطمعا فيما عنده .

أو هي كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة) (٢)

فكل ما أمر الله به سبحانه وتعالى فهو عبادة ، وكل ما نهى عنه فاجتنابه عبادة .

والعبادة على كثرة أنواعها ترجع إلى أربعة :

١ = عبادات تتعلق أداؤها بالقلب

٢ = عبادات تتعلق أداؤها باللسان

٣ = عبادات تتعلق أداؤها بسائر الجوارح

٤ = عبادات تتعلق بالأموال (٣)

فالأول : مثل إيمان القلب بالأمور الاعتقادية كالإيمان بالله واليوم الآخر ، ومحبة

الله تعالى والخوف منه والإخلاص له ،

والثاني : مثل النطق بالشهادتين وشكر الله على إنعامه وقراءة القرآن والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر

والثالث : مثل أفعال الصلاة والحج والصوم والجهاد في سبيل الله

والرابع : مثل الزكاة وسائر النفقات

وقد ورد في سورة الأنبياء عبادة أو أكثر من كل نوع من هذه الأنواع الأربعة ،

فمن النوع الأول : ورد الخشية والإشفاق والتقوى والمبرور والرغبة والرهبية والخشوع ،

ومن النوع الثاني : الذكر والدعاء والشكر ،

ومن النوع الثالث : إقامة الصلاة ،

ومن النوع الرابع : إيتاء الزكاة .

وسأتحدث عن كل نوع بحديث مستقل .

(١) انظر تهذيب اللغة ٢/٢٣٣ مادة (عبد) والمصاحح ٢/٥٠٢ المادة نفسها

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/١٤٩

(٣) انظر مدارج السالكين ١/٢٢٣ ودعوة التوحيد ، للدكتور محمد خليل هراس

١ = العبادات القلبية :

وردت العبادات القلبية في السورة في الآيات الآتية :

أ = قوله تعالى عن الملائكة : (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) الآية <٢٧>

ب = قوله تعالى : (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرنا للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون) الآيتان <٤٨-٤٩>

ج = قوله تعالى : (وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين وأدخلنهم في رحمتنا إنهم من الصالحين) الآيتان <٨٥-٨٦>

د = قوله تعالى عن زكريا وسائر الأنبياء : (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسرعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) الآية <٩٠>

فالآية الأولى وردت في مدح الملائكة ، وبيان أنهم عباد الله مكرمون ، لا يعصونه فيما أمرهم به ، وهم خائفون وجلون من خشيتهم لربهم أن ينالهم عقاب منه .

قال ابن جرير : (وهم من خشيته مشفقون) يقول : (وهم من خوف الله وحذار عقابه أن يحل بهم مشفقون ، يقول : حذرون أن يعصوه ويخالفوا أمره ونهيه) (١)

والآيتان بعدما وردتا في مدح المؤمنين الذين اتبعوا موسى وهارون ، وقد وصفهم الله تعالى بالتقوى والخشية لربهم تعالى والإشفاق من الساعة ، أي من أهوال يوم القيامة .

قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره : آتينا موسى وهرون الفرقان الذكر الذي آتيناهما للمتقين ، الذين يخافون ربهم بالغيب ، يعني في الدنيا أن يعاقبهم في الآخرة إذا قدموا عليه بتضييعهم ما ألزمهم من فرائضه ، فهم من خشيته يحافظون على حدوده وفرائضه ، وهم من الساعة التي تقوم فيها القيامة مشفقون حذرون أن تقوم عليهم ، فيردوا على ربهم قد فرطوا في الواجب عليهم لله ، فيعاقبهم من العقوبة بما لا قبل به) (٢)

(١) تفسير الطبري ١٧ / ١٣

(٢) تفسير الطبري ١٧ / ٢٦

والآية بعدما وردت فى مدح كل من إسماعيل وإدريس وذى الكفل، وقدمدهم الله سبحانه وتعالى بأنهم كانوا من المارين ، وأنه أثابهم على ذلك بأن أدخلهم فى رحمته ، أى فى الجنة أو النبوة ، أو الخير مطلقا (١) لكونهم كانوا صالحين ، ومن الصالح الصبر .

وأما الآية الأخيرة فقد وردت فى ختام قصص الأنبياء ، وفيها أن الأنبياء كانوا يمارعون فى الخيرات ، أى يسرعون فى إيتاء الخيرات كأنهم يتسابقون ، ويدعون الله سبحانه وتعالى راغبين فى رحمته طامعين فى جنته مشتاقين إليها ، وراغبين من عذابه خائفين من عقابه ، وكانوا خاشعين خاضعين لله ، وقد اختار بعض المفسرين أن ضمير الجمع فى الآية راجع إلى زكريا وزوجده وابنه يحيى ، لأن الآية وردت فى سياق قصصهم (٢) وعليه فإن هذا المدح بالمسارعة إلى الخيرات راجع إليهم ، وعلى كلا القولين فإن الآية دليل على أن الله سبحانه وتعالى يحب هذه الأعمال ، لأنه سبحانه وتعالى مدح فاعليها ،

وبعد هذا الاستعراض السريع لمعانى هذه الآيات نستخلص من مجموعها العبادات القلبية الآتية : الخشية والإشفاق والتقوى والصبر والرغبة والرهبنة والخشوع وكلها عبادات بدليل أن الله تعالى مدح فاعليها وأثنى عليهم ، وقد وردت فى هذه الآيات أيضا عبادة الدعاء ، وهى من العبادات القولية إن فسرت بالطلب وهو أحد معنييها ، ومن عبادات القلب والجوارح إن فسرت بمعناها الآخر ، وسيأتى الكلام عليها أما الآن فالكلام عن العبادات القلبية ،

فالخشية والإشفاق والرهبنة معان متقاربة تؤدى جميعا معنى الخوف ،

فعن الخشية قال الأزهري : (قال الليث : الخشية : الخوف) (٣)

وقال ابن فارس : ، (الخاء والشين والحرف المعتل يدل على خوف وذعر ، ثم يحمل عليه المجاز ، فالخشية : الخوف) ، (٤)

وقال الراغب : ، (و الخشية : خوف يشوبه تعظيم ، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه ، ، (٥)

(١) انظر : زاد المسير ٢٨٠/٥ والقرطبي ٣٢٨/١١
(٢) انظر مثلا : الطبرى ٦٦/١٧ وابن كثير حيث أورد أثرا عن أبى بكر الصديق يخص المدح فى الآية بزكريا وأهل بيته ٢٠٢/٣ وحكى بعض المفسرين القولين كليهما انظر القرطبي ٣٣٦/١١ الشوكاني ٤٢٥/٣
(٣) تهذيب اللغة ٤٦١/٧ مادة (خشى)
(٤) معجم مقاييس اللغة ١٨٤/٢ المادة نفسها
(٥) المفردات فى غريب القرآن ص ١٤٩ المادة نفسها

وعن الإشفاق قال الأزهرى : (الشفق : الخوف ، تقول : أنا مشفق عليك أى خائف) (١)
وقال ابن سيده (٢) : (الشفق : الخيفة ، وأشفق عليه : حذر ، وأشفق منه : جزع) (٣)
وقال الراغب : (والإشفاق : عناية مختلطة بخوف ، لأن المشفق يحب المشفق عليه
ويخاف مما يلحقه ، قال : (وهم من الساعة مشفقون) (٤) فإذا عدى بمن فمعنى
الخوف فيه أظهر ، وإذا عدى بغير معنى العناية فيه أظهر) . (٥)
وعن الرهبة قال الجوهري : (الرهبة : الخوف والفرع) (٦)
وقال ابن فارس : (الرهبة : الخوف) (٧)
وقال الفيروزآبادي : (رَهَب رهبة ورهبا بالضم وبالفتح وبالتحريك : خاف) (٨)
وقال الراغب : (الرهبة والرهب مخافة مع تحرز واضطراب) (٩)
ومن هذه النقول من كتب اللغة يتضح أن الكلمات الثلاث تدور حول معانى الخوف ،
فالأخشية : الخوف المشوب بالتعظيم

والإشفاق : رقة الخوف ، وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه ، (١٠)
والرهبة : الخوف مع التحرز والاضطراب . أو هى شدة الخوف والإمعان فى الهرب من
من المكروه (١١)

-
- (١) تهذيب اللغة ٣٣٢/٨ مادة (شفق)
 - (٢) هوأبو الحسن على بن إسماعيل المرسي الأندلسي المعروف بابن سيده الإمام في اللغة والحافظ لها (ت ٤٥٨ هـ) انظر ترجمته في الصلة لابن بشكول ٤١٧/٢ ومعجم الأدباء ٢٣١/٢١ ووفيات الأعيان ٣٢٠/٣ ولسان الميزان ٢٠٥/٤
 - (٣) المحكم والمحيط الأعظم في اللغة ١٠٦/٦ المادة نفسها
 - (٤) الآية (٤٩) من سورة الأنبياء
 - (٥) المفردات ص ٢٦٣ - ٢٦٤ - مادة (شفق)
 - (٦) الصحاح ١٤٠/١ مادة (رهب)
 - (٧) مجمل اللغة ١٤٠٢/٢ مادة (رهب)
 - (٨) القاموس ٧٦/١ المادة نفسها
 - (٩) المفردات ٢٠٤ مادة (رهب)
 - (١٠) مدارج السالكين ٥٥٥/١
 - (١١) المصدر نفسه ٥٥٠/١

فالخوف هو أصل الجميع ، وقد أمر الله سبحانه وتعالى في غير ما آية بتوحيده بالخوف وأن لا يخاف العبد إلا الله ،

قال تعالى : (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) (١)

فأمر سبحانه وتعالى بالخوف منه وحده ، وربط بين ذلك وبين الإيمان فكل من آمن بالله وحده فعليه الأيخاف سواه ،

وقال تعالى : (وقال الله لاتتخذوا آللهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون) (٢)

وأثنى الله تعالى على الذين يخشونه ولا يخشون غيره ، قال تعالى : (الذين يبلغون رسالت الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا) (٣)

قال ابن كثير في تفسيره هذه الآية : «يمدح تبارك وتعالى (الذين يبلغون رسالت الله) أي إلى خلقه ويؤدونها بأماناتها ، (ويخشونه) أي يخافونه ولا يخافون أحدا سواه ، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله تعالى ، (وكفى بالله حسيبا) أي وكفى بالله ناصرا ومعينا) (٤)

وهذه الآيات وأمثالها ترشد إلى أن الخوف عبادة يجب تمحيصها لله وحده دون من سواه ولكن ليس كل خوف داخلا في العبادة ،

وقد قسمه بعض العلماء إلى أربعة أقسام موضحا ما يدخل في باب العبادة وما لا يدخل :

١ = القسم الأول : خوف السر وهو أن يخاف الإنسان من غير الله أن يصيبه بما يشاء من مرض أو فقر بقدرته ومشيئته ، سواء ادعى أن ذلك كرامة للمخوف بالشفاعة أو على سبيل الاستقلال ، فهذا الخوف لا يجوز تعلقه بغير الله . لأنه من لوازم الإلهية ، فالقادر على هذه الأمور هو الله وحده وهو المستحق لأن يخاف منه ،

٢ = القسم الثاني : أن يترك الإنسان ما يجب عليه من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر بغير عذر إلا للخوف من الناس ، فهذا محرم (٥)

(١) سورة آل عمران الآية (١٧٥)

(٢) سورة الأحزاب الآية (٢٩)

(٣) سورة النحل الآية (٥١)

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٥٠٠/٣ وانظر أيضا : الشوكاني ٢٨٥/٤ وبعض المفسرين

كما الطبري (١٢/٢٢) يجعل اسم الموصول بدلا من الموصول قبلها في قوله تعالى

(سنة الله في الذين خلوا من قبل) وعليه فإن الرسول عليه السلام مأمور

بإقتداء سنن المرسلين قبله ، لأن «سنة الله» منصوب على الإغراء ،

(٥) ولكن الظاهر أنه ليس بشرك لأن مبناه على الضعف والخور والجبن وليس على

اعتقاد تعظيم للمخوف بل قد يكون من النوع الأخير من باب (الأمن أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) النحل الآية (١٠٦)

٣ = القسم الثالث: خوف وعيد الله الذي توعد به العصاة، وهو الذي قال الله فيه:

(ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد) (١)

وهذا الخوف من أعلى مراتب الايمان ، ولكن يجب أن يقتصر بالرجاء، وتكون غايته أن يحول بين الإنسان وبين محارم الله ، أما إذا أوقع فى القنوط فهنا يكون مذموماً ، وهذا الخوف ليس مقصوداً لذاته ، بل هو مقصود لغيره قصد الوسائل ، ولهذا يزول بزوال المخوف ، فإن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون (٢)، لأنهم قد تحققوا من نجاتهم من الوعيد .

٤ = القسم الرابع: الخوف الطبيعي كالخوف من السباع والكوارث والمصائب ،

فهذا ليس داخلاً فى باب العبادات وليس مذموماً ، فقد وقع من أولياء الله ، قال تعالى عن الخليل إبراهيم عليه السلام ، (فلما رءا أيديهم لاتتمل إليد نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط) (٣) وقال عن موسى : (فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين) (٤) .

وأما التقوى فهى الاحتماء عما يضر بفعل ماينفع (٥) أى أن يجعل الإنسان بينه

وبين محارم الله وعذابه كالوقاية ، فيتجنب المحارم لينجى من العذاب، وهى فى الأصل من أعمال القلب ، لأن الباعث على تجنب المحارم هو المعرفة التى وقرت فى القلب وحركت الجوارح ،

وقدمح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: (التقوى هامننا- ويشير إلى صدره ثلاث مرات) الحديث (٦)

(١) سورة إبراهيم الآية (١٤)

(٢) مدارج السالكين ٥٥/١

(٣) سورة هود الآية (٧٠)

(٤) سورة القصص الآية (٢١) وانظر بالنسبة للتقسيم لأربعة أقسام تيسير العزيز

إلى الحميد ص ٤٨٤- ٤٨٦

(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤٤/١٠

(٦) أخرجه مسلم فى الصحيح عن أبى هريرة كتاب البر والملة والأدب ١٩٨٦/٤ ح <٣٢>

وقدحت الله سبحانه وتعالى العباد على تقواه وأكثر منه ،

فمن ذلك قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) (١)

فأمر سبحانه وتعالى المؤمنين بأن يتقوه حق التقوى ، وقدرى المفسرون فى ذلك عن ابن مسعود رضى الله عنه أن حق التقوى : «أن يطاع الله فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر» (٢)

وروى الطبرى عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : (حق تقاته) أن يجاهدوا فى سبيله حق جهاده ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم (٣)

قال الطبرى فى تفسير الآية : (يعنى بذلك جل ثناؤه يأمعشر من صدق الله ورسوله (اتقوا الله) خافوا الله وراقبوه بطاعته واجتناب معاصيه (حق تقاته) حق خوفه وهو أن يطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ويذكر فلا ينسى) (ولاتموتن) أيها المؤمنون بالله ورسوله (إلا وأنتم مسلمون) لربكم مدعون له بالطاعة مضمون له الألوهية والعبادة (٤)

ومنه قوله تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم) (٥) أى اتقوا الله قدر استطاعتكم لأن الله لا يكلفكم ما لا تطيقونه (ويلاحظ هنا أن الأمر بالتقوى حسب الاستطاعة وفى الآية الأولى حق التقوى ، وقد رأى البعض أن فى هذه الآية تخفيفا أو أنها نسخت

الأولى (٦) لكن الصحيح أنه ليس فى الأمر نسخ

(١) سورة ال عمران الآية (١٠٢)
(٢) أخرجه الطبرى ٤/١٩ ونكره ابن كثير عن ابن أبى حاتم ٣٩٦/١ وأخرجه الحاكم فى المستدرک ٢/٢٩٤
وصححه على شرط الشيخين

(٣) تفسير الطبرى ٢٠/٤

(٤) تفسير الطبرى ١٩/٤

(٥) سورة التغابن الآية (١٦)

(٦) قال السيوطى فى الاتقان : (وليس فى القرآن آية تصح فيها دعوى النسخ غير هذه الآية) (الاتقان ٧٤/٣) وممن حكى عنهم المفسرون النسخ سعيد بن جبیر وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم والسدى وغيرهم ، وفى أثر ابن عباس المتقدم رد على القول بالنسخ حيث صدر كلامه بنفى النسخ ثم ذكر معنى الآية بما لا يتعارض مع الآية الأخرى ، انظر الطبرى ٢٠/٤ وابن كثير ٣٩٦/١

وإنما الثانية للأولى كالتفسير والبيان ، فإن حق التقوى هو ما مر عن ابن عباسٍ وهو مستطاع ، وإذا فسر بما فسر به ابن مسعود فإن الآية تكون مقيدة للأولى ، أى حق التقوى قدر الاستطاعة ، ومن المعلوم أن العبد لا يكلف ما لا يستطيع ، فكل أوامر الله سبحانه وتعالى مقيدة بالاستطاعة ، قال تعالى : (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) (١)

وقد وعد الله المتقين بأن يجعل لهم من كل ضيق مخرجا ويرزقهم من حيث لا يحتسبون، قال تعالى: (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) (٢) وجعل أكرم الناس عنده أتقاهم فقال تعالى: (إن أكرمكم عند الله أتقكم) (٣) ومن الملاحظ أن التقوى يرجع أيما إلى الخوف نوع رجوع ، فالباعث على التقوى هو الخوف من الله عز وجل ، ولذا كثيرا ما يفسر التقوى بالخوف من الله ، كما سبق فى تفسير الطبرى لقوله تعالى: (اتقوا الله حق تقاته) (٤)

لكن المعنى الأملى للتقوى هو التوقى بأن يجعل الإنسان بينه وبين ما يخاف ما يقيه منه، كما قال ابن فارس: (واتق الله: توقه أى اجعل بينك وبينه كالوقاية) (٥)

وقال الراغب : (التقوى جعل النفس فى وقاية مما يخاف ، هذا تحقيقه ، ثم يسمى الخوف تارة تقوى والتقوى خوفا، حسب تسمية مقتضى الشيء بمقتضيه ، والمقتضى بمقتضاه، وماز التقوى فى تعارف الشرع حفظ النفس عما يؤثم) (٦) وأما الصبر فهو حبس النفس عن الجزع والتسخط وحبس اللسان عن الشكوى وحبس الجوارح عن التشويش (٧)

وهو من العبادات القلبية التى يظهر أثرها على الجوارح ، فالصبر يرجع آخر الأمر إلى الرضا بما قد رآه الله عز وجل وبما أمر به ، ومن ثم الامتنثال للأمر والاجتناب عن المنهى ، واحتمال المصائب فى سبيل ذلك ،

-
- (١) سورة البقرة (٢٨٦)
 - (٢) سورة الطلاق الآية (٢ - ٣)
 - (٣) سورة الحجرات الآية (١٣)
 - (٤) انظر ص (٨٣) من هذا البحث
 - (٥) معجم مقاييس اللغة ١٢١/٦ مادة <وقى>
 - (٦) المفردات ٥٢٠ مادة <وقى>
 - (٧) مدارج السالكين ١٦٢/٢

وهومن أجل العبادات وأرفعها منزلة عند الله عز وجل ء

قال تعالى : (إنما يوفى الصبرون أجرهم بغير حساب) (١)

وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا الصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) (٢)

وقال تعالى أمرانبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بالصبر : (واصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) (٣)

قال ابن تيمية : (وقد ذكر الله الصبر في كتابه في أكثر من تسعين موضعا) (٤)
والصبر في هذه المواضع جاء على أنحاء كثيرة :

منها الثناء على الصابرين :

كقوله تعالى : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين وءاتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمسكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الملوحة وءاتى الزكوة والموفون بعهدهم إذا عهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) (٥)

فقوله تعالى : (والصابرين) من صوبا بعد قوله : (والموفون) مرفوعا سبب نصبه المدح
أى وأمدح الصابرين (٦)

قال ابن كثير : (وإنما نصب الصابرين على المدح والحث على الصبر فى هذه الأحوال
لشدته وصعوبته والله أعلم) (٧)

ومنها ضمان النصر والمدد للصابرين :

كقوله تعالى : (بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا ممددكم ربكم
بخمسة آلاف من الملائكة مرسولين) (٨)

- (١) سورة الزمر الآية (١٠) (٢) آخر سورة آل عمران الآية (٢٠٠)
(٣) آخر سورة الأحقاف الآية (٣٥) (٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٩/١٠
(٥) سورة البقرة الآية (١٧٧)
(٦) انظر تفسير الطبرى ٥٩/٢ والقرطبي ٢٣٩/٢ والشوكانى ١٧٢/١
(٧) تفسير ابن كثير ٢١٥/١ (٨) سورة آل عمران الآية (١٢٥)

ومنها الإخبار بأن الصابرين هم أهل العزائم من الأمور :

كقوله تعالى : (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور (١)

ولهذا سمى أفضل الرسل بأولى العزم وأمر الله تعالى نبيه أن يقتدى بهم في الصبر كما مر قبل قليل .

ومنها الإخبار بأنه ما يلقى الأعمال المألحة وجزاءها والخطوط العظيمة لإهل الصبر : (وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقىها إلا الصابرون) (٢) ومن فضيلة الصبر قوله صلى الله عليه وسلم : (ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر) (٣) .

وهذه النصوص وأمثالها تبين ما للصبر من منزلة عظيمة بين العبادات والصبر على ثلاثة أقسام : صبر على طاعة الله ، وصبر عن معصية الله ، وصبر على امتحان الله ، وقد نقل ابن القيم عن شيخ الإسلام أنه كان يقول : (الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات ، فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية ، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكبر من مفسدة وجود المعصية) (٤)

وأما الرغبة فهي الطمع ^{فيها} عند الله ورجاؤه وطلبه فهي كالرجاء ، والفرق بينهما أن الرجاء طمع والرغبة طلب فهي ثمرة الرجاء (٥)

والرغبة المحمودة ما كان مصحوبا بالرهبة ، كما أن الرجاء المحمود ما كان مقرونا بالخوف ، وكثيرا ما يجمع الله سبحانه وتعالى بين هذه الأمور ، ليرشد عباده إلى أن الحالة الحسنی الجمع بينهما ، كما حكى عن الأنبياء هنا بقوله تعالى : (ويدعوننا رغبا ورهبا) (٦)

(١) سورة الشورى الآية (٤٣)

(٢) سورة القصص الآية (٨٠)

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح في كتاب الزكاة / باب الاستعفاف عن المسألة عن

أبي سعيد الخدري ٢٢٥/ وكتاب الرقاق / باب الصبر عن محارم الله ٣٠٣/١١

ومسلم في كتاب الزكاة

٢٢٩/٢ ح (١٢٤)

(٥) المصدر نفسه ٢٦٣/٢

(٤) مدارج السالكين ١٦٢/٢-١٦٣

(٦) انظر : مدارج السالكين ٥٨/٢

وقال تعالى : (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمت الله قريب من المحسنين) (١)

أما الاقتصار على أحد هذه الأمور فهو مذموم يؤدي إلى الضلال والخسران ، قال تعالى على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام : (قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) (٢)

وقال : (أفأمنوا مكر الله فلا يأمّن مكر الله إلا القوم الخسرون) (٣)

والرغبة وقرينتها الرهبة من آداب الدعاء ، سواء كان الدعاء عبادة أو مسألة ، فالدعاء إذا خلا من إحداهما يخشى على صاحبه ، ومن العبارات المشهورة عن السلف في هذا المعنى قول بعضهم : (من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجيء ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد) (٤)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (ولا يتصور أن يخلو داع لله - دعاء عبادة أو دعاء مسألة - من الرغبة والرهب من الخوف والطمع) (٥) وذلك لأن كل داع راغب في حصول مراده راغب من فوائده.

وأما الخشوع : فهو التدلل لله سبحانه وتعالى والإخبات إليه ، وأهو قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل (٦)

وهو معنى يلتئم من التعظيم والمحبة والذل والانكسار . (٧)

والخشوع في اللغة قريب من الخضوع ، وفرق بينهما بعض اللغويين بأن الخضوع في البدن والإقرار بالاستخدام ، والخشوع في البدن والصوت والجم (٨)

والخشوع لله عز وجل من صفات المؤمنين المادقين في إيمانهم ، وقد حث الله تعالى عباده على الخشوع لذكره ، فقال (الم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) (٩)

(١) سورة الأعراف الآية (٥٦)

(٢) سورة الحجر الآية (٥٦)

(٣) سورة الأعراف الآية (٩٩)

(٤) انظر مجموع الفتاوى ٨٢/١٠ و ٢٠٧/١٠ ، وقد بينا فيما سبق ما بين الرغبة والرهبية والرجاء والخوف من مناسبة

(٥) المصدر نفسه ٢٤٠/١٠

(٦) انظر مدارج السالكين ٥٥٨/١ مادة <خشع>

(٧) المصدر نفسه ٥٥٩/١

(٨) انظر تهذيب اللغة ١٥٢/٢ مادة <خشع>

(٩) سورة الحديد الآية (١٦)

وجعل الخشوع من شمعات تدبر كتابه والإيمان به، فقال تعالى : (إن الذين أوتوا
 بعداً ويقولون سمعنا واطعنا وما كان وعد ربنا لمفعولاً وعجزون للأدقان
 العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخزون للأدقان ليكونوا يزيدهم خشوعاً) (١)

وقال : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك
 الأمتل نضربها للناس لعلهم يتفكرون) (٢)

فإذا كان الجبل على صلابته سيكون خاشعاً متصدعاً من خشية الله ، فكيف بقلب
 الإنسان اللين الطرى لا يخشع لذكر الله ؟

قال ابن كثير : (أى فإذا كان الجبل فى غلظته وتساوته لوفهم هذا القرآن فتدبر
 ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل ، فكيف يليق بكم أيها البشر أن لاتلين
 قلوبكم وتخشع وتتمدع من خشية الله وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه؟) (٣)
 ويلاحظ فى هذا النص أن الباعث على الخشوع هو الخشية من الله عز وجل ، ومن
 هنا فسر بعضهم الخشوع هنا بالخشية (٤)

وإذا كان الخشوع مطلوباً من العبد كل حين وعند كل ذكر لله وتلاوة لكتابه
 العزيز فإنه فى الصلاة أكد، قال تعالى فى وصف المؤمنين المفلحين (قد أفلح
 المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون) (٥)

ومن هنا رأى جمهور العلماء أن الصلاة بدون خشوع وإن كانت تجزئ فإن أجرها
 ساقط بحسب ما فقد من الخشوع ، وقد اختلفت عبارات المؤلفين فى وجوب الخشوع فى
 الصلاة وعدمه ، ولعل هذا الخلاف يرجع إلى التعليل السابق، فإن أريد بوجوبه
 أن الصلاة باطلة بدونه ، فليس الأمر كذلك ، بل إن الصلاة مجزئة ، فلا يطالب
 صاحبها بالإعادة ،

وان أريد بالوجوب أن الصلاة اذا عدم منها الخشوع المرة سقط الأجر فهذا صحيح
 لأنه روح الصلاة (٦)

-
- (١) سورة (٢) سورة الحشر الآية (٢١)
 (٣) تفسير ابن كثير ٢٦٦/٤
 (٤) نقله ابن كثير فى تفسيره عن أبى العالية وأبى سنان ٢١٣/٣
 (٥) مفتح سورة المؤمنون الآيتان (١-٢)
 (٦) انظر مدارج السالكين ٥١٣/١ - ٥٦٣ وقد نقل حجة القائلين بالوجوب ولقائلين
 بعدمه ثم رجح القول بأن الصلاة بدون خشوع ولا يجبر صاحبها على الإعادة لكن
 مقصود الصلاة وهو الثواب يفوته فى العاجل بحيث لاتقوى هذه الصلاة إيمانه
 ولاتشرح مدره ولا يجد لها حلاوة ، ويفوته فى الآجل بفوات الأجر ، فان أراد الحصول
 على هذا الثوب فله ان يعيد الصلاة.

العبادات القولية

وردت العبادات القولية في السورة في الآيات التالية :-

- ١ - قوله تعالى عن الملائكة: (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) الآية (٢٠)
 - ٢ - قوله تعالى: (ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) الآية (٧٦).
 - ٣ - وقوله في قصة داود: (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل انتم شاكرون) الآية (٨٠).
 - ٤ - قوله تعالى: (وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) الآية (٨٣).
 - ٥ - قوله تعالى: (وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) الآية (٨٧).
 - ٦ - قوله تعالى: (وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) الآيتان (٨٩، ٩٠) فالآية الأولى وردت ضمن الحديث عن الملائكة وفيها وصفهم بأنهم يسبحون الله في الليل والنهار تسيحا متواصلا ليس بينهم فترة، فهم لا يفترون أى لا يضعون ولا يسيئون عن النشاط ولا ينامون فيه، بل هم متسبيح دائم. (١)
- قال الراغب: " وقوله: (لا يفترون) أى لا يسيئون عن نشاطهم في العبادة ". (٢)
- والآية الثانية وكذا الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة وردت في قصص الأنبياء، وفيها أن كلا من نوح وأيوب ويونس وهو ذوالنون وزكريا نادى ربه، وكان نداء بعضهم استغاثة بالله وطلباً للنجاة والفرج، وكان نداء بعضهم استنصاراً على القوم الظالمين، وبعضهم نداؤه كان طلباً لحاجة، وكل هذا داخل في الدعاء، إذ النداء دعاء مع صوت. (٣)
- فنوح عليه السلام نادى ربه واستنصره على قومه الذين كذبوه وسخروا منه، مع أنه ظل يدعوهم إلى الله ويلطف بهم في الدعوة مدة ألف سنة إلا خمسين عاماً،

(١) انظر تفسير القرطبي ٢٧٨/١١ .

(٢) المفردات ص/٣٧١ مادة (فتر)

(٣) انظر مادة (نداء) في الصحاح ٢٥٠٥/٦، والمفردات ص/٤٨٦ .

وقد صرحت آيات أخرى بالاستنمار، كقوله تعالى: (قال رب انصرني بما كذبون)(١).
وقوله تعالى: (فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر)(٢). فنصره الله ونجاه ومن معه
وأغرق المكذبين.

وأما أيوب فاستغاث بربه ^{أُتِ}يشفيه مما ألمَّ به من مرض، وما أصابه من موت أهله
وضياع أمواله(٣)، وهو المشار إليه هنا بالضر، وفي آية سورة (ص) قال تعالى
عنه: (واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب)(٤).

وبلاحظ أن أيوب عليه السلام وصف حاله فقط وأثنى على ربه واكتفى بذلك عن
التصريح بمطلوبه، وهذه الملاحظة سيأتي الكلام عليها فيما بعد.

وأما يونس وهو ذوالنون (٥) فقد استغاث بالله سبحانه وتعالى طالبا منه أن
ينقذه مما وقع فيه بسبب ظلمه لنفسه، حيث خرج من بين ظهرائه قومه ولم يصبر
على تكذيبهم إياه، فالتقمه الحوت لما ألقى في البحر من السفينة التي ركبها
لعبور البحر، فذكر ربه وهو في بطن الحوت، فناداه في تلك الظلمات ظلمة بطن
الحوت وظلمة البحر(٦) بقوله: (لا إله إلا أنت سبحنك إنى كنت من الظالمين) وقد
اكتفى بتوحيد الله وتنزيهه، ووصف نفسه بأنه كان من الظالمين، ولم يتعرض
لطلبه وقد استجاب الله له ونجاه مما وقع فيه، فنبذته الحوت بالعراء وهو سقيم
ثم رجع إلى قومه فأمنوا به.

(١) سورة المؤمنون الآية (٢٦)

(٢) سورة القمر الآية (١٠)

(٣) يلاحظ من النص القرآني الاكتفاء هنا بأن أيوب مسه الضر، وفي سورة "ص"
أنه مسه الشيطان بنصب وعذاب، وليس فيهما تفصيل كثير لما أصابه، لكن
قوله: (وأتيناه أهله ومثلهم معهم) إشارة إلى أنه كان فقد أهله، وقوله
تعالى في الآية الأخرى (اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) ص(٤٢) إشارة
إلى المرض، أما أنه كان ذا مال وذهب أمواله فهذا قد ذكره معظم
المفسرين والمؤرخين، ويمكن أن يستشهد له بالحديث الصحيح الذي رواه
البخاري مرفوعا (بينما أيوب يغتسل عريانا خر عليه رجل من جراد من ذهب
فجعل أيوب يحثى في ثوبه، فناداه ربه عز وجل: يا أيوب ألم أكن أغنيك عما
تري؟ قال: بلى يارب ولكن لاغنى لي عن بركتك) أخرجه البخاري في كتاب بدء
الخلق، باب قوله تعالى: (وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم
الرحمين) ٦/٤٢٠ وانظر قصص الأنبياء لابن كثير ١/٣١٢.

(٤) سورة (ص) الآية (٤١)

(٥) سمي يونس ذوالنون لأن النون كان قد التقمه، والنون الحوت العظيم، قال
تعالى في آية أخرى: (فالتقمه الحوت وهو مليم) الصافات الآية (١٤٢)، انظر
المفردات ص/٥١٠ مادة (نون)

(٦) قيل في الظلمة الثالثة أنها ظلمة الليل وقيل ظلمة حوت آخر التقم الحوت
الذي التقم يونس ولادليل من الكتاب أو السنة على القولين، انظر الطبري
٦٤/١٧.

وأما زكريا فكان نداؤه طلبا من الله سبحانه وتعالى أن لا يذره فردا، أي وحيدا لا ولد له ولا عقب(١)، وقوله: (وأنت خير الوارثين) رد للأمر إلى الله تعالى، حيث أنه قصد بالدعاء أن يجعل الله له عقبا يرثه ويخلفه في آل يعقوب في العلم والنبوة، ثم رد الأمر إلى الله بوصفه له أنه خير الوارثين.

وقد ورد دعاء زكريا بصيغة أخرى، وذلك في قوله تعالى: (ذكر رحمت ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفيا قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعايك رب شقيا وإني خفت المولى من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا)(٢).

ويلاحظ هنا أن زكريا صرح بمطلوبه وأثنى على ربه ثناء مناسبا لمسأله، وأما آيات سورة مريم فقد صرح بمطلوبه مع وصف حاله والتمهيد بذلك للطلب.(٣)

وأما الآية الثالثة وهي قوله تعالى: (وعلمناه صنعة لبوس لكم) فقد وردت في قصة داود عليه السلام، فقوله: (وعلمناه) أي وعلمنا داود (صنعة لبوس لكم) صنعة دروع لكم تلبسونها في الحروب، (لتحصنكم) لتقيكم وتحرزكم (مفأسكم)، أي من آلة بأسكم فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه(٤).

وقوله: (فهل أنتم شاكرون) استفهام المراد به الأمر أي اشكروا الله على هذه النعمة التي أولاكم إياها، ولولاها لكانت إصاباتكم في الحروب أكثر، فهي نعمة كبرى يستحق أن تشكروا الله سبحانه وتعالى عليها(٥).

وأما الآية الأخيرة ففيها حكاية لمقال الرسول صلى الله عليه وسلم، أو هو أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بقول ذلك، كما تفيد القراءة الأخرى [قل] (٦) (رب احكم بالحق) دعاء وتضرع إلى الله بأن يفعل بينه وبين قومه المكذبين بالحق، وقوله (وربنا الرحمن المستعان على ماتصفون) أي أن الله سبحانه هو الرب الرحمن بعباده، وهو الذي يستعان به على الكفار فيما يقولونه ويمفون من الكذب والبهتان.

(١) انظر: الطبري ٦٦/١٧، والقرطبي ٢٣٦/١١، وابن كثير ٢٠٣/٣.

(٢) مفتتح سورة مريم الآيات (٢ و٣ و٤ و٥ و٦)

(٣) وسيأتي الكلام عن هذه الملاحظة.

(٤) انظر: تفسير القرطبي ٣٢٠/١١

(٥) انظر: الطبري ٤١/١٧، والشوكاني ٤١٩/٣، وأضواء البيان ٧٣٦/٤

(٦) روى حفص عن عاصم القراءة بالماضي وقرأ الباقيون من السبعة بالأمر انظر: النشر في القراءات العشر ٣٢٥/٢.

ومن مجموع هذه الآيات نستخلص العبادات القولية التالية: الذكر، والدعاء، والشكر. وكلها عبادات بدليل أن الله سبحانه وتعالى أثنى على فاعليها، أو أمر عباده بها، وهذا هو معنى العبادة.

أما الذكر فهو عبادة يجتمع فيها عمل القلب وعمل اللسان، وإنما أدرجتها في العبادات القولية لأن نوع الذكر الوارد هنا وهو التسييح من أعمال اللسان، فذكر القلب يقابل الغفلة والنسيان عن الله، وإذا غفل الإنسان عن ربه سهل عليه انتهاك الحرمات واتباع هواه.

قال تعالى: (ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) (١).

وقال تعالى: (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطناً فهو له قرين) (٢).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره ومن يعرض عن ذكر الله فلم يخف سطوته ولم يخش عقابه (نقيض له شيطناً فهو له قرين)، يقول: نجعل له شيطناً يغويه (فهو له قرين) يقول: فهو للشيطان قرين أي يصير كذلك" (٣).

فذكر الإنسان لربه بقلبه ساج له وحماسة من إغواء الشيطان، فالمؤمن الحقيقي إذا هم بسيئة ثم تذكر وقوفه بين يدي ربه وتذكر عقاب ربه نقض همه واستغفر ربه، وفي هذه الحالة يكتب له عزمه حسنة، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: قالت الملائكة: رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة (وهو أصر به) فقال: ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة فأنما تركها من جرائي) (٤).

أما ذكر اللسان فهو أيضاً من أفضل الأعمال، وهو دليل ذكر القلب، فإن المؤمن مأمور بأن يذكر^(رله) دائماً وأن لا يزال لسانه رطبا من ذكره.

قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: (واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين) (٥).

(١) سورة الكهف الآية (٢٨)

(٢) سورة الزخرف الآية (٣٦)

(٣) تفسير الطبري ٤٢/٢٥

(٤) أخرجه مسلم في الصحيح كتاب الإيمان ١١٧/١ ح (٢٠٥)

(٥) سورة الاعراف الآية (٢٠٥)

فأمره بنوعي الذكر، فقوله: (في نفسك) إشارة إلى الذكر القلبي. وقوله: (ودون الجهر من القول) إشارة إلى الذكر القولي.

وقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وعشيا) (١).

وإذا كان الجراء من جنس العمل فإن الذي يذكر الله يذكره الله، والذي ينسى ربه ينساه ربه، قال تعالى: (فادكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) (٢).

وقال في حديث قدسي: (أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منهم) (٣) وهم الملائكة، يذكر الله من يذكره عندهم ويباهي الملائكة بهم. كما ثبت ذلك في صحيح مسلم في الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري بن معاوية وفيه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على حلقة من أصحابه فقال: "ما أجلسكم؟" قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومن به علينا. قال: "آله ما أجلسكم إلا ذاك؟" قالوا: آله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: "أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بك الملائكة" (٤).

والذكر باللسان قد يكون مجرد الشناء على الله أو تنزيهه، وقد يكون دعاء،

(١) سورة الأحزاب الآيتان (٤١ و ٤٢). (٢) سورة البقرة الآية (١٥٢)

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد باب قوله تعالى: (ويحذركم الله نفسه) ٣٨٤/١٢ عن أبي هريرة، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والاستغفار ٢٠٦١/٤ ج [٢] و ٢٠٦٧/٤ - ٢٠٦٨ ج [١٩ و ٢١] و كتاب التوبة ٢٠٧٥/٤ ج [٤٠]

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٠٧٥/٤ ج (٤٠)

قال ابن القيم في شرح قول شيخ الإسلام الهروي (١) (الذكر الظاهر ثناء أو دعاء أو رعاية) قال: (يريد بالظاهر الجارى على اللسان المطابق للقلب
فأما الثناء فنحو: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.
وأما ذكر الدعاء فنحو: (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن
من الخسرين) (٢).

وأما ذكر الرعاية فمثل قول الذاكر: الله معي، الله ناظر إلي، ونحو ذلك مما
يستعمل لتقوية الحضور مع الله) ثم قال: (والأذكار النبوية تجمع الأنواع
الثلاثة، فإنها متضمنة للثناء على الله والتعرض للدعاء والسؤال والتصريح
به والأذكار النبوية^{متضمنة} أيضا لكمال الرعاية ومصلحة القلب والتحرز من الغفلات
والاعتصام من الوسوس والشيطان) (٣).

ومما ينبغي أن يعلم هنا أن كل ما ورد هنا من فضل للذكر وثناء على الذاكرين
فإنما هو في الأذكار الشرعية المستمدة من الكتاب والسنة، أما غير ذلك من
الأذكار والأوراد التي اخترعتها أوهام الموفية وغيرهم فهي من البدع المذمومة،
لأنها زيادة على ما شرعه الله سبحانه وتعالى، والزيادة على الشرع مذمومة
مردودة على صاحبها، كما قال صلى الله عليه وسلم: (من أحدث في أمرنا هذا ما
ليس منه فهو رد) (٤).

وفيما شرع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم من الأذكار الكافية لمركب
قصده حقا وجه الله سبحانه وتعالى ومضاته.

(١) هو الحافظ أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي صاحب
كتاب " ذم الكلام " و " منازل السائرين " الذي شرحه العلامة ابن القيم في
مدارج السالكين وحل ما فيه من غموض (ت ٤٨١هـ) له ترجمة في الكامل
٥٢/١٨، والبداية والنهاية ١٤٤/١٢، وطبقات المفسرين للداودي ٢٤٩/١ .

(٢) سورة الأعراف الآية (٢٢)

(٣) مدارج السالكين ٤٥٢/٢ - ٤٥٣ .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الصلح باب إذا اصطحو أعلى صلح جور فالصلح مردود
عن عائشة ٣٠١/٥ ، ومسلم في كتاب الأفضية ١٣٤٣/٣ ح [١٧]

وأما الدعاء فهو وثيق الصلة بالذكر، وكما مر فهو أحد أنواع الذكر الثلاثة التي ذكرها الهرودي (١)، وهو لب العبادة بل هو العبادة نفسها، فإن الدعاء في لسان الشرع يطلق على العبادة كما يطلق على المسألة.

فمن إطلاقه على العبادة قوله تعالى: (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون) (٢).

وقوله تعالى: (قل أرى يتم ما تدعون من دون الله أرؤى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات اننوى بكتب من قبل هذا أو أثره من علم إن كنتم مدقين) (٣).

ومن إطلاقه على المسألة قوله تعالى: (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمه منه نسي ما كان يدعوا إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار) (٤).

وقوله تعالى هنا: (ويدعوننا رغبا ورهبا) يحتمل المعنيين وقد فسره بكل من المعني بعض المفسرين.

قال الطبري في تفسير الآية: "يقول تعالى ذكره : وكانوا يعبدوننا رغبا ورهبا وعنى بالدعاء في هذا الموضع العبادة كما قال: (وأعترلكم وماتدعون من دون الله وأدعوا ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا) (٥).

وقال القرطبي: (أى يفرعون إلينا فيدعوننا في حال الرخاء والشدّة، وقيل : المعنى يدعون وقت تعيدهم) (٦).

وكل من نوعى الدعاء متضمن للآخر، فدعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة لأنه يتضمن الثناء على الله واعتقاد أنه المالك للضر والنفع، ومرفه لغير الله فيما لا يقدر عليه شرك.

(١) وسبق قريبا في الصفحة (٩٤) من البحث

(٢) سورة النحل الآية (٢٠)، وانظر تفسيرها في تفسير الطبري ٦٤/١٤ .

(٣) سورة الأحقاف الآية (٤)، وانظر تفسيرها في الطبري ٢/٢٩ .

(٤) سورة الزمر الآية (٨).

(٥) سورة مريم الآية (٤٨)، وقد ذكر الطبري هذا الكلام في ٦٦/١٧ من تفسيره.

(٦) تفسير القرطبي ٢٢٦/١١ .

ودعاء العبادة متضمن للمسألة لأن فيه تعرضاً لرحمة الله وطلباً لمرضاته بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، فهو يتضمن أعلى المسائل وهو طلب رضوان الله والجنة.

ومما يوضح هذا الرباط الوثيق بين المعنيين أن من صيغ دعاء المسألة أن يثنى الداعي على ربه ويصفه بالمفات المناسبة لمسألته ويكتفى بذلك دون التصريح بالمطلوب، فالإنسان حين يقع في مصيبة أحياناً قد يكتفى بقوله: (حسبي الله ونعم الوكيل) فيقيه الله شر تلك المصيبة، وقمة الخليل إبراهيم عليه السلام في ذلك معروف فإنه حين ألقى في النار قال هذا القول، وقاله الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه حين خوفوا بالكفار وجمعهم وعددهم فكفاهم الله شر الكفار (١).

قال تعالى: (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) (٢).

وقد يضيف الداعي إلى الثناء على ربه وصف حاله هو وبيان احتياجه إلى ربه، كما في قصة أيوب ويونس، فقد اكتفى أيوب بوصف نفسه بأنه مسه الضر وأثنى على ربه بأنه أرحم الراحمين، واكتفى يونس بالثناء على ربه بقوله (لا إله إلا أنت سبحانك) ووصف حاله بقوله: (إني كنت من الظالمين) وقد نبهت إلى ذلك أثناء الحديث عن الآية (٣).

وقد يتضمن الدعاء بالإضافة إلى مامر التصريح بالمطلوب وهو الأكمل (٤) إلا إذا كان هناك ما يقتضي عدم التصريح، فمثلاً حال يونس هنا المناسب فيه هو الاكتفاء بمامر لأن المقام مقام اعتراف بالخطأ وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن الظلم، فلم يذكر صيغة طلب كشف الضر لاستشعاره بأنه مسيء ظالم وهو الذي أدخل الضر

(١) روى البخاري عن ابن عباس أنه قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقى في النار وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم) صحيح البخاري كتاب التفسير/سورة آل عمران باب (إن الناس قد جمعوا لكم) الآية ٢٢٩/٨.

(٢) سورة آل عمران الآية (١٧٤٦).

(٣) انظر: ص (٩٠) من هذا البحث.

(٤) لاشتمال على جميع عناصر الدعاء، ومن هذا النوع دعاء زكريا السابق في ص (٩١) من البحث، وانظر مجموع الفتاوى ٢٤٤/١٠ فما بعد.

على نفسه، فناسب حاله أن يذكر ما يرفع سيده من الاعتراف بظلمد (١).
وأيوب عليه السلام كان معروفا بالصبر، حتى مدحه الله تعالى عليه حيث قال
تعالى: (إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب) (٢) فلم يشأ أن يكدر صفو صبره
بإظهار الجزع ولا كان بإمكانه الاستغناء عن دعاء ربه إذ هو عبد له، ومن تمام
العبودية الخضوع والذل لله والافتقار إليه، فجمع أيوب عليه ^{السلام} بين الأمرين فوصف
حاله استرحاما من الله تبارك وتعالى، وأثنى على الله عز وجل ذلا له وخضوعا،
وفي هذا من حسن الأدب مع الله الغاية. (٣)

(١) مجموع الفتاوى ٢٤٧/١٠ فما بعد يتصرف يسيرا.

(٢) سورة (ص) الآية: (٤٤)

(٣) انظر المصدر السابق ٢٤٥/١٠ - ٢٤٦ .

وأما الشكر فهو من العبادات القولية أيضا لكن أثره يتعدى اللسان، فهو - كما يقول ابن القيم - : " ظهور أثر نعمد اللد على لسان عبده ^{تذام} واعترافا، وعلى قلبه شهودا ومحبة، وعلى جوارحه انقيادا وطاعة، فهو مبني على خمسة أمور هي: خضوع الشاكر للمشكور، وحيد، واعترافه بنعمته، وشناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره " (١).

وعلى هذا فالشكر يجمع عمل القلب واللسان والجوارح، وإنما عدته من العبادات القولية، لأن معناه الأملى يرجع إلى الثناء على الإحسان.

قال الجوهرى: " الشكر: الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف " (٢).
والشكر كالحمد في أن كلا منهما ثناء، ولكنه يختلف عن الحمد في شيئين:-

أولهما : أن الشكر لا يكون إلا على النعم، بينما الحمد يكون على محاسن المحمود مطلقا الإنعام وغيره.

وثانيهما : أن الشكر يكون باللسان والقلب والجوارح، أما الحمد فيكون باللسان والقلب دون الجوارح. (٣)

قال ابن القيم مبينا منزلة الشكر وما ورد بشأنه في كتاب الله عز وجل: " وقد أمر اللد به، ونهى عن ضده، وأثنى على أهله، ووصف به خواص خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سببا للمزيد من فضله، وحارسا وحافظا لنعمته، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته، واشتق لهم اسما من أسمائه فإنه سبحانه هو " الشكور، وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره بل يعيد الشاكر مشكورا، وهو غاية الرب من عبده وأهله هم القليل من عبادته " (٤). ثم استدل على كل فقرة بآية من القرآن الكريم مما يطول سرده هنا ونكتفى بذكر ثلاث منها.

فمنها قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا للذ إن كنتم إياه تعبدون) (٥).

-
- (١) مدارج السالكين ٢٥٤/٢ بتصرف يسير
 - (٢) الصحاح مادة " شكر " ٧٠٢/٢
 - (٣) انظر : مجموع الفتاوى (١١/١٣٣)، ومدارج السالكين ٢٥٦/٢ .
 - (٤) مدارج السالكين ٢٥٢/٢ .
 - (٥) سورة البقرة الآية (١٧٢).

ففي هذه الآية الكريمة أمر اللد سبحانه وتعالى بشكره على نعمة الرزق حيث أنه رزق عباده المؤمنين الطيبات وأباح لهم تناولها وهذه من أجل النعم، وقد ربط سبحانه وتعالى في الآية بين شكره وتوحيده، فمن كان يخص الله بالعبادة فليشكره وحدد دون من سواه على نعمه لأن كفران النعم قد يؤدي إلى الإشراك بالمنعم بأن يجعل معه شريك في تلك النعمة أو تنسب إلى غيره، فيشكر ذلك الغير، فشكر النعم من كمال التوحيد ومن سمات الموحدين الصادقين في إيمانهم.

الآية الثانية قوله تعالى: (وَإِذ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) (١).

وهذه الآية وردت في سياق تذكير موسى عليه السلام لقومه بنعم الله عليهم بإنجائهم من فرعون وبطشه، فقوله: (وَإِذ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ) أي آذنتكم ربكم وأعلمكم بوعده (لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) أي لئن شكرتموني على ما أنعمت به عليكم لأزيدنكم منها (وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) أي ولكن جحدتم نعمي وسترتموها ولم تشكروني عليا فسأعاقبكم بسليها عنكم لأن عذابي شديد (٢)، فالشكر سبب لزيادة النعم وعليه فعاقبة الشكر ترجع للشاكر فمن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فلا يضر إلا نفسه ولا يضر اللد شيئا لأن الله غني الغنى المطلق، وهو حين ما يأمرنا بالشكر إنما يأمرنا به لما فيه من مصلحة راجعة إلينا، ولذا قال تعالى بعد هذه الآية مباشرة: (وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد) (٣).

الآية الثالثة قوله تعالى: (اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور) (٤).

وهذه الآية وردت في قصة داود وسليمان بعد ذكر ما أنعم الله عليهما من تأييد

-
- (١) سورة إبراهيم الآية (٧)
 - (٢) انظر تفسير ابن كثير ٥٤٣/٢
 - (٣) سورة إبراهيم الآية (٨)
 - (٤) سورة سبأ الآية (١٣)

الجبيل والطيبر أى تسبيحهما أو إعادتهما التسبيح - وتليين الحديد لداود،
وتسحير الريح والجن وإذابيد عين الفطر - وهو النحاس - لسليمان.

قال ابن جرير في تفسير الآية: " وقوله: (اعملوا^٤ آل داود شكرا) يقول تعالى ذكره: وقلنا لهم اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكرا له على ما أنعم عليكم من النعم التي خصكم بها عن سائر خلقه مع الشكر له على سائر نعمه التي عمكم بها مع سائر خلقه ".
ثم قال ابن جرير بعد ذكر الروايات بذلك: " وقوله: (وقليل من عبادى الشكور) يقول تعالى ذكره: وقليل من عبادى المخلصو توحيدى والمفردوا طاعتي وشكرى على نعمتي عليهم "، وروى عن ابن عباس أنه قال في معنى الآية: (يقول: قليل من عبادى الوجدون توحيدهم)(١).

وقال ابن كثير: " وقوله تعالى: (اعملوا^٤ آل داود شكرا) أى وقلنا لهم اعملوا شكرا على ما أنعم به عليكم في الدين والدنيا، وشكرا مصدر من غير الفعل أوأنه مفعول له، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول والنية)(٢).

ومن شكر الله على النعمة شكر الناس إذا تسببوا في إيصال النعمة كما قال صلى الله عليه وسلم: (من لم يشكر الناس لم يشكر الله)(٣)، فشكر الناس إذا من كمال الشكر لله سبحانه وتعالى.

(١) تفسير الطبري ٥٠١/٢

(٢) تفسير ابن كثير ٥٣٦/٣

(٣) أخرجه الامام أحمد في المسند بهذا اللفظ ٢٥٨/٢ عن أبى هريرة، و٢٢/٣ عن أبى سعيد الخدرى، و٢٧٥/٣ عن النعمان بن بشير، والترمذى عن أبى سعيد في كتاب البر والملء/باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك ٢٣٩/٤ ح [١٩٥٥] وقال: حديث حسن صحيح.

٤-٣ = عبادات الجوارح، والعبادات المالية :

وقد ذكر من كلٍّ منهما هنا عبادة واحدة، هي الصلاة من عبادات الجوارح، والزكاة من العبادات المالية، وقد وردت في قوله تعالى: (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الملوأ وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عبيد) الآية (٧٣)

ومعنى الآية أن اللد سبحانه وتعالى أأير أنأ جعل إبراهيم وابنيه اسحاق ويعقوب المذكورين في الآية التي قبل هذه الآية أئمة هادين يقتدى بهم ويدعون الناس إلى اللد بإذنه، وأنه أوحى إليهم أن يفعلوا الخيرات ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وأنهم كانوا عابدين للذ وحدد وفاعلين لما يأمرون الناس به. (١)

وقد وردت في الآية عبادتان هما الصلاة والزكاة، وهما من فعل الخيرات وعطفهما عليه من باب عطف الخاص على العام (٢).

أما إقامة الصلاة فيمكن إدراجها في العبادات البدنية لأجل أن أركان الصلاة يتعلق أداؤها بالجوارح، ولكنها بالإضافة إلى ذلك شملت بعض أعمال القلب كالنية والخشوع، وبعض أعمال اللسان كقراءة القرآن والأذكار الواردة فيها من تكبير وتسبيح وتحميد، فالصلاة بهذا تكون عبادة جامعة لأعمال القلب واللسان والجوارح، ومن هنا كانت أشرف العبادات وأعلاها منزلة، وكانت الركن الثاني من أركان الإسلام. وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، وبصلاحها يفلح العبد وبفسادها يخسر، وهي العهد الذي بين العبد وبين الشرك والكفر.

وقد وردت في أهمية الصلاة ومكانتها في الإسلام نصوص كثيرة يطول المقام بسردها، وأكتفى منها بنصين من الكتاب وآخرين من السنة.

(١) انظر : تفسير الطبري ٣٦/١٧، وابن كثير ٣/١٩٤ .
(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٣/١٩٤ .

أما من الكتاب فقوله تعالى: (واستعينوا بالصبر والصلوة وإنها لكبيرة إلا على الخشعين الذين يظنون أنهم ملقوا ربهم وأنهم إليه راجعون) (١).

وقوله تعالى: (اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلوة إن الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون) (٢).

ففي الآية الأولى أمر سبحانه وتعالى عباده بالاستعانة بالصبر والصلوة على جلب المنافع ودفع المضار، فإنهما خصلتان من التزام بهما هانت عليه مصائب الدنيا وتحمل المشاق في سبيل مرضاة الله وسهل عليه التزام الطاعات.

وقوله تعالى فيها: (وإنها لكبيرة إلا على الخشعين) الضمير فيه راجع إلى الصلاة أي وإن الصلاة لشقيل ومشقة إلا على الخاشعين المتواضعين لله الخائفين منه، وقيل: إن الضمير يرجع إلى ما دل عليه الخطاب وهو الوصية بالاستعانة بالصبر والصلوة (٣).

قال ابن كثير: (يقول تعالى آمرا عبده فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة بالاستعانة بالصبر والصلوة كما قال مقاتل بن حيان في تفسير هذه الآية استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلوة) (٤).

ثم قال: (وقوله تعالى: (الذين يظنون أنهم ملقوا ربهم وأنهم إليه راجعون) هذا من تمام الكلام الذي قيل أي إن الصلاة أو الوصية لشقيلة إلا على الخاشعين (الذين يظنون أنهم ملقوا ربهم) أي يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة، معرضون عليه (وأنهم إليه راجعون) أي أمورهم راجعة إلى مشيئته يحكم فيها ما يشاء بعبده (٥) ولهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات) (٦).

(١) سورة البقرة الآيتان (٤٦، ٤٥)

(٢) سورة العنكبوت الآية (٤٥).

(٣) انظر: تفسير الطبري ٢٠٦/١ وقد رجح القول الأول وحكى قولاً آخر وضعفه وهو رجوع الضمير إلى إجابة محمد صلى الله عليه وسلم، وذكر ابن كثير القولين اللذين ذكرتهما في تفسيره ٩١١/١، وفي المسألة أقوال أخر ذكرها القرطبي في تفسيره ٣٧٤/١.

(٤) تفسير ابن كثير ٩٠/١.

(٥) لعل الحامل لابن كثير على تفسير الرجوع إلى الله هنا يرجع الأمور إلى مشيئة الله أن المعاد إلى الله يفهم من قوله: (أنهم ملقوا ربهم) فجعل لقوله (وأنهم إليه راجعون) معنى مغايراً على أساس أن التأسيس خير من التأكيد.

(٦) تفسير ابن كثير ٩١/١.

أما الآية التالية فقد أمر الله سبحانه وتعالى فيها نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بتلاوة القرآن وإقامة الصلاة وأخبر أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أي تحجز بين صاحبها وبين اقتراف العظائم من الذنوب، وذلك لما في الصلاة من معانى عظيمة، فالمصلى بتكبيره تكبيرة الإحرام يكون قد قطع علائقه بكل ما سوى الله عز وجل الذى أعلن الآن أنه أكبر من كل شيء، ثم يعيش مدة الصلاة في مناجاة ربه بتلاوة آيات كتابه وتسبيحه وتحميده واستغفاره ودعوته، وهو في كل ذلك مستحضر عظمة الله وجلاله، خائف من عذاب الله ومن رفض عمله، راج رحمة ربه وقبول عمله، فلا يتوقع والحال هذه أن يكون في قلبه موضع للتخطيط أو التفكير في اقتراف الآثام والمنكرات، وإذا حدث وأنه أتى شيئا منها بعد الصلاة فإن مداومته على الصلاة طهرة له، ومع استمرار الحال يصفو القلب وتتعود الجوارح على الطاعات وتتفر من المعاصي.

أما من كان مداوما على الصلاة وهو مع ذلك لا يتورع عن الفواحش أو المنكرات فإن صلاته ليست على منهج النبوة، وإنما هي صورة للصلاة، وهي وإن كان معتدا بها حكما- كما سبق في مبحث الخشوع - (١) إلا أنها قد فقدت روحها.

وقد قال ابن عباس في تفسير الآية: " من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد بها من الله إلا بعدا " (٢).

وقال أبو العالية: " إن الصلاة فيها ثلاث خصال فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة، الإخلاص والخشية وذكر الله، فالإخلاص يأمره بالمعروف والخشية تنهاه عن المنكر وذكر الله القرآن يأمره وينهاه " (٣).

(١) انظر: ص (٨٨) من البحث
(٢) أخرجه الطبري في التفسير ٩٩/٢٠ وقد أشار ابن كثير إلى صحت، انظر: تفسيره ٤٢٥/٣.
(٣) ذكره عنه ابن كثير في التفسير ٤٢٦، ٤٢٥/٣ .

وأما من السنة فقولد صلى الله عليه وسلم: (بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة) (١)

وقوله صلى الله عليه وسلم: (إن أول ما يحاسب به العبد بصلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر) (٢) الحديث.

فالحديث الأول صريح في أن الصلاة هي عنوان الإسلام فالذي لا يصلح يصح تسميته بالمشرك أو الكافر لأن الحائل بينه وبين إطلاق الكفر أو الشرك^{عليه} هو الصلاة، وقد اختلف العلماء في حكم تارك الصلاة تهاونا وكسلا بعد اتفاقهم على أن جاحدا كافر، وليس المكان مكان بسط لهذه القضية (٣)، والمقصود هنا بيان أهمية الصلاة في الإسلام وأنه لا مكان في الإسلام لمسلم لا يقيم الصلاة، وقد روى الترمذي والحاكم عن عبيد الله بن شقيق العبلي قال: " كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرون شيئا من الأعمال تركه كقر غير الصلاة " (٤).

فالصلاة إذا هي رأس الأمر وهي الأساس لغيرها من العبادات.

وأما الحديث الثاني فصريح في أن الصلاة هي أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة من أعماله وأن الفلاح والنجاح مرتبهان بصلاح الصلاة، والخيبة والخسارة بفساد الصلاة.

وأما إيتاء الزكاة فهو عبادة تتعلق بالأموال، وهو الركن الثالث من أركان الإسلام، ويأتي بعد الصلاة مباشرة، ومما يؤكد أهميته ومنزلته بين العبادات أنه قرين الصلاة في كثير من نصوص الكتاب والسنة.

فمن الكتاب الآية التي معنا، ففيها الجمع بينهما، وأيضا قوله تعالى: (واقموا الصلوة وءاتوا الزكوة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) (٥).

(١) أخرجه مسلم في الصحيح في كتاب الإيمان/باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة (٨٨/١ ج ١٢٤).

(٢) أخرجه الترمذي في المعجم الكبير (١٠٠٠٠ ج ١٠) والبيهقي في السنن (١٠٠٠٠ ج ١٠) وابن ماجه في المجتبى (١٠٠٠٠ ج ١٠) وابن خزيمة في المستدرج (١٠٠٠٠ ج ١٠) وابن عساکر في تاريخ دمشق (١٠٠٠٠ ج ١٠) وابن الجوزي في المحلى (١٠٠٠٠ ج ١٠) وابن أبي عمير في المعجم الصغير (١٠٠٠٠ ج ١٠) وابن أبي عمير في المعجم الوسيط (١٠٠٠٠ ج ١٠) وابن أبي عمير في المعجم الوسيط (١٠٠٠٠ ج ١٠) وابن أبي عمير في المعجم الوسيط (١٠٠٠٠ ج ١٠).

(٣) و خلاصة أن الإمامين مالكا والشافعي يريان أنه فاسق يستتاب فإن تاب وإلا قتل حدا، والإمام أحمد وإسحاق بن راهويه يرون أنه كافر، وأبو حنيفة فإنه لا يكفر ولا يقبل بل يعزز ويحبس حتى يصلح، وقد ذهب إلى كل من الأقوال الثلاثة جماع من العلماء، ولكن الجماهير من السلف والخلف على القول الأول. هذا ملخص ما ذكره النووي في المسألة في شرح مسلم ٧٠/٢.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان/باب ما جاء في تارك الصلاة ١٤/٥، والحاكم ٧/١ عن أبي هريرة، وقد صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ص ٥٦٤.

(٥) سورة البقرة الآية (١١٠).

وقوله تعالى: (فإن تابوا وأقاموا الصلوة وءاتوا الزكوة فأخركم في الدين) (١) ففي الآية الأخيرة ربط الأخوة الدينية بالتوبذ وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة مما دل على انتفاء هذه الأخوة ممن فقد شيئاً من الثلاثة، وكما ربط الأخوة بالثلاثة هنا، ربط عدم المقاتلة أيضا بها في آية أخرى فقال تعالى: (فإن تابوا وأقاموا الصلوة وءاتوا الزكوة فخلوا سبيلهم) (١).

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله عز وجل" (٣). وهذا الحديث كالأية فيد ربط بين خلال الثلاث : الشهادتان والصلاة والزكاة والمقاتلة، فالأولى بالثلاث لا يقتل إلا إذا ارتكب حداً يوجب القتل، والتارك للثلاث يقاتل، ولهذا قال الصديق أبو بكر رضي الله عنه حين راجعه عمر في مقاتلة مانعي الزكاة: (لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة) (٤). وعدّ الصديق مانعي الزكاة من المرتدين وحاربهم حتى عادوا إلى الإقرار بدفع الزكاة.

وكما أن الصلاة طهيرة من المعاصي والآثام، فالزكاة طهيرة للمال وتركية للنفس، وتطهير للمجتمع من الحقد والضغائن بين الموسرين والمعسرين.

قال تعالى: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها ومل عليهم إن ملوتك سكن لهم والله سميع عليم) (٥). أي خذ من أموالهم صدقة مطهرة لهم من الذنوب تركية لهم أي منمية لأموالهم أو مصلحة لهم ورافعة لإياهم من منازل المنافقين إلى منازل المخلصين المزكّين المطهرين أنفسهم (٦).

والخلاصة أنه قد وردت في السورة عدة أنواع من أنواع العبادات التي يجب إخلاصها لله وعدم صرف شيء منها لغيره سبحانه وتعالى، وهذه العبادات كلها مشروعة بدليل أن الله سبحانه وتعالى أمر بها أو أثنى على فاعليها، وهناك أنواع

(١) سورة التوبة الآية (١١) / (٢) سورة التوبة الآية (٥)

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان/باب قوله تعالى: (فإن تابوا وأقاموا الصلوة وءاتوا الزكوة فخلوا سبيلهم) ٧٥/١، ومسلم في كتاب الإيمان/باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمداً رسول الله ٥٢/١ ح (٣٦) كلاهما عن ابن عمر .

(٤) رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة/باب الافتداء - بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ٢٥٠/١٣، ومسلم في كتاب الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمداً رسول الله ٥١/١ - ٥٢ ح (٢٢).

(٥) سورة التوبة الآية (١٠٣)

(٦) معالم التنزيل، ٣٢٤/٢، وزاد المسير ٤٩٩/٢ .

أخرى من أنواع العبادات لم يرد لها ذكر في السورة لكنها تتفق مع المذكورة في الحكم وهو وجوب الإخلاص فيها، لأن العبادة لكي تكون مقبولة لا بد من تحقق شرطين فيها هما:

١ - الإخلاص . ٢ - المتابعة .

وسياتي مزيد بيان لهذين الشرطين فيما يلي.

شرطا قبول العبادة.

العبادة - كما سبق تعريفها - شاملة لكل أفعال العباد التي يرجون منها ثمرة عند الله عز وجل، ولكي تحقق العبادة هذه الثمرة المرجوة وهي الفوز برضى الله سبحانه وتعالى وسعادة الدارين فلا بد من تحقق شرطين فيها:-

١ - الشرط الأول : أن يكون العمل صالحا بمعنى أن يكون مشروعاً قد شرعه الله عز وجل في كتاب العزيز أو على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

٢ - أن ينبع العمل عن إيمان بالله سبحانه وتعالى وإخلاص له، فإذا لم يكن العمل مشروعاً لم يقبل من صاحبه أبداً بل يرد عليه لقوله صلى الله عليه وسلم: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) (١).

فهذا الحديث مريح في أن من عمل عملاً غير مشروع، فلا ثواب له فيه بل هو مردود عليه.

وإذا لم يكن العمل نابعا عن الإيمان والإخلاص لم يقبل لأن الإيمان هو الأساس الذي ينبني عليه الطاعات كلها وإخلاص العمل شرط أساسي في قبوله، يقول تعالى في حديث قدسي: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركت وشركه) الحديث (٢).

وقد ورد في السورة إشارة إلى هذين الشرطين، وذلك في قوله تعالى: (فمن يعمل من الملح وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون) الآية (٩٤).

(١) أخرجه البخاري في كتاب ^{الزهد} إذا اطلقوا على صلح جور فالصلح مردود عن عائشة ٣٠١/٥، ومسلم في كتاب الأفضية ١٣٤٣/٣ ح (١٧)
(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرفائق ٢٢٨٩/٤ ح (٤٦).

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ) إشارة إلى الشرط الأول، وهو كون العمل صالحاً، ولا يكون كذلك إلا إذا كان مشروعاً.

وقوله: (وهو مؤمن) إشارة إلى الشرط الثاني، فالمؤمن هو الموحد المخلص لله المصدق لوعده ووعيدته.

وقوله: (فلا كفران لسعيه وإنما له كُتَيْبُونَ) أي فلا يظلم بل يشكر على سعيه ويكتب له جميع عمله ثم يجزى به ولا يضيع أجره كما قال في آية أخرى: (إن الذين آمنوا وعملوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَنَضِيعُ لَهُمْ أَجْرًا وَأَنبَأُوا بِأَنفُسِهِمْ أَن هُمْ لَلْآبِتِينَ) (١)

قال ابن تيمية: "وهذان الإعلان (٢) هما تحقيق "شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله" كما قال تعالى: (ليلوكم أيكم أحسن عملاً) (٣)

قال الفضيل بن عياض: (٤) أظلم وأصوبه، قالوا: بأبى علي ما أظلم وأصوبه، قال: إن العمل إذا كان خالماً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالماً لم يقبل، حتى يكون خالماً صواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة (٥).

(١) سورة الكهف الآيتان (٣٠ و ٢١)

(٢) وهما: (أن لا يعبد إلا الله، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع) وقد مضى في كلام سابق في الصفحة نفسها.

(٣) سورة الملك الآية (٢)

(٤) هو أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر الإمام القُدوة الثابت المعروف بمواعظه وحكمه البليغة (ت ١٨٧ هـ) له ترجمة في التاريخ الكبير للبخاري ١٢٢/٧ وحلية الأولياء ٤٢١/٨ ووفيات الأعيان ٤٧/٤ وسير أعلام النبلاء ٤٢١/٨ وتهذيب التهذيب ٢٩٤/٨.

(٥) مجموع الفتاوى ٢٣٢/١.

المبحث الثالث

الشرك وخطره كما تعرضت له السرة

=====

تطرقنا في أول حديثي عن التوحيد إلى أنه كان الدين الأول بدليل أن أبا البشر آدم عليه السلام كان موحدًا، فقد أخرج من الجنة وأهبط إلى الأرض بسبب معصية الأكل من الشجرة لكنه استغفر به فغفر له وهواه كما قال تعالى: (وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتنبه ربه فتاب عليه وهدى) (١).

وقد كان بنوه على دينه ولكن الشرك بدأ يذبح فيما بعد.

قال ابن عباس: " كان بين نوح و آدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين " (٢).

وقد روى ابن حبان عن أبي أمامة حديثًا مرفوعًا يفيد أن المدة بين آدم ونوح عشرة قرون (٣) ومع تصحيح الأئمة لهذين الحديثين (٤) فإنه يبقى تحديد المراد بالقرن هل هو مائة سنة - كما هو المتبادر، أو هو الجيل (٥) وحتى يتبين المراد فإن البداية المحددة للشرك في بني آدم يبقى غير معلوم، لكن مما لا شك فيه أنه قبل نوح، بل يمكن القول بأن أمة نوح هي أول أمة الشرك، بدليل أن نوحًا هو أول المرسلين، وقد قال تعالى: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولًا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطغوت) (٧).

-
- (١) سورة طه الآيتان (١٢١، ١٢٢) وانظر ص (٤) من هذا البحث
 - (٢) أخرجه ابن جرير في التفسير ١٩٤/٢، والحاكم في المستدرک ٥٤٦/٢ عن ابن عباس وصححه علي شرط البخاري ووافقه الذهبي.
 - (٣) انظر موارد الذهب ص ٢٥٠٩ [٢٠٨٥]
 - (٤) انظر قصص الأنبياء لابن كثير ٨٢/١ وتفسيره ٢٥٧/١ .
 - (٥) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير ٨٢/١، وقد اختلف علماء اللغة في تحديد القرن، وذكروا فيه أقوالًا كثيرة أميلها إلى أنه الجيل من الناس، انظر مادة (قرن) في تهذيب اللغة والمصاح، والقاموس.
 - (٦) وبدل على أنه أول المرسلين حديث الشفاعة الكبرى وفيه أن أهل الموقف يقولون لنوح: (أنت أول رسل الله إلى الأرض) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء (باب قول الله عز وجل (ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه) ٢٧١/٦، وكتاب التفسير (باب ذرية من حملنا مع نوح.. الآية ٢٩٤/٨، ومسلم في الإيمان ١٨٤/١ ج (٣٢٧).
 - (٧) سورة النحل الآية (٣٦) سورة الإسراء

فأخبر سبحانه وتعالى أنه بعث في كل أمة من يحذرهما من الشرك ويدعوها إلى التوحيد فلو كان الشرك موجودا في الأمم قبل نوح لكان الله قد بعث إليها رسولا حسب منطوق الآية، وحيث أن نوحا أول المرسلين، فأمنته إذاً أول أمم الشرك. وقد ذكر بعض المؤرخين أن أصنام قوم نوح ودأوسواعا ويغوث ويعوق ونسرا، أسماء لرجال صالحين من أولاد آدم (١) فاستنبط منه بعض العلماء النتيجة التي ذكرتها، وهي أن قوم نوح هم أول المشركين، وأن عبادة أصنامهم هي أول شرك وقع في الأرض (٢).

وعلى كل حال فأقدم حالات الشرك التي وصلنا خبرها يقينا هي حالة قوم نوح، وقد أغرقهم الله عز وجل بالطوفان، وجعل ذرية نوح هم الباقين، كما قال تعالى: (وجعلنا ذريته هم الباقين) (٣) وبعد طول الزمن ظهر الشرك أيضا في ذريته، فكانت هناك أمم كثيرة أشركت، فبعث الله إليها من يحذرهما وينذرهما، وكان من بين أولئك المرسلين إبراهيم عليه السلام، وستأتي مناقشاته لقومه فيما بعد، وقد خلف ذرية صالحين كان منها العرب أولاد إسماعيل الذين بقوا على دين إبراهيم فترة من الزمن، ثم حدث الشرك بينهم أيضا وفشا، حتى صار الغالب، فبعث الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ليعيد الأمة إلى دين إبراهيم وهو التوحيد الخالص، وقد مكث النبي صلى الله عليه وسلم في مكة بضع عشرة سنة ودعوته منصبية في المقام الأول على الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك، وذلك لما للشرك من خطر على المجتمع البشري في عاجله وآجله، وقد تحدث القرآن عن الشرك موضحا خطره في غير ما آية. وفي سورة الأنبياء آيات توضح ذلك، وهي: **اقوله تعالى: (ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين) الآية (٢٩).**

(١) انظر صحيح البخاري مع الفتح ٦٦٢/٨، وتفسير الطبري ٦٢/٢٩.
(٢) هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه (كتاب التوحيد) انظر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص/٢٢٢.
(٣) سورة الصافات الآية (٧٧).

٢ = قوله تعالى: (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون لو كان هؤلاء الهة ما وردوها وكل فيها خلدون لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون) الآيات (٩٨، ٩٩، ١٠٠).

فالآية الأولى وردت بشأن من يدعى الألوهية من دون الله، وذلك أعظم الشرك وأقبحه، وقد أوعد الله صاحبه بدخول جهنم، وهذا الوعيد قد صدر في حق الملائكة مع أنهم يعبدون كل البعد عن اقتراف مثل هذه الجريمة، وذلك بهدف التنبيه على أن شرف المكانة وعلو المنزلة لا أثر له عند وجود الشرك فمن أشرك بالله فهذا جزاؤه ولو كان من الملائكة المقربين.

وقوله تعالى: (كذلك نجزي الظالمين) تأكيد لهذا المعنى أي كذلك نجزي كل ظالم، والمراد بالظلم هنا الشرك.

قال ابن جرير: "يقول تعالى ذكره: ومن يقل من الملائكة إني إله من دون الله فذلك الذي يقول ذلك منهم نجزيه جهنم، يقول: نثيبه على قيله ذلك جهنم كذلك نجزي ذلك كل من ظلم نفسه فكفر بالله، وعبد غيره" (١)

والآيات التالية تدور حول المضمون نفسه وتؤكدده، ففيها أن من أشرك بالله غيره فإنه سيلقى معبوده في النار ويكونان معا حطبا لجهنم يعذبان فيها عذابا يضيق منه نفسيهما حتى يكون لهما فيها زفير، ويزاد على ذلك العذاب الحسي عذاب معنوي آخر متمثل في المم حيث أنهم يحرمون نعمة السمع، فالشرك إذا سبب رئيسي لورود جهنم، فلو كانت معبودات المشرك مستحقة للعبادة لما ورد المشرك ومعبوداته النار، وورودهما النار دليل على بطلان الشرك.

وقد وردت في القرآن الكريم آيات أخرى حول المضمون نفسه من أصرحها به قوله تعالى على لسان نبيه عيسى بن مريم عليه السلام: (وقال المسيح يئس إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) (٢)

ففي الآية تصريح بأن المشرك خالد في النار وأن الجنة محرمة عليه، وذلك لأن الشرك يحبط كل أعمال العبد، وهو ذنب لا يغفره الله أبدا كما قال تعالى: (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) (٣) وقال تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (٤). فالشرك إذا خطره عظيم، وضرره فادح، وهو أعظم الذنوب وأقبحها.

(١) تفسير الطبري ٣/١٧ . (٢) سورة المائدة الآية (٧٢)
(٣) سورة الأنعام الآية (٨٨) (٤) سورة النساء الآية (٤٨) والآية (١١٦).

المبحث الرابع

عرض السورة لتنزيه الله عن الشريك ومناقشة المشركين ونقض شبههم

وردت في سورة الأنبياء عدة آيات عرضت تنزيه الله سبحانه وتعالى عن أن يكون له شريك في الملك أو الألوهية، أو تكون له صاحبة أو ولد، وتعرضت تلك الآيات لذكر الحجج العقلية على بطلان الشرك، والرد على المشركين ونقض شبههم في اتخاذ الآلهة من دون الله، كما ورد فيها مطالبة المشركين - على سبيل التحدي - أن يبرهنوا على دعواهم بوجود آلهة غير الله. والآيات الواردة بهذا الشأن هي :-

١ - قوله تعالى: (لو أردنا أن نتخذ لها لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون أم اتخذوا ءالهة من الأرض هم ينشرون لو كان فيهما ءالهة إلا الله لفسدتا فسيقن الله رب العرش عما يصفون لا يستل عما يفعل وهم يسئلون أم اتخذوا من دونه ءالهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون). الآيات من (١٧) الى (٢٤).

٢ - قوله تعالى: (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) الآيات (٢٦، ٢٧، ٢٨).

٣ - قوله تعالى: (أم لهم ءالهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون) الآية (٤٣).

٤ - قوله تعالى: (ولقد ءاتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به علمين..). إلى قوله: (وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخرين) الآيات من (٥١) إلى (٧٠).

٥ - قوله تعالى: (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون لو كان هؤلاء ءالهة ماوردوها وكل فيها خالدون) الآيتان (٩٨، ٩٩).

ففي المجموعة الأولى من الآيات رد على من زعم أن الله اتخذ صاحبة أو ولداً وبيان لبطلان الشرك بالحجج العقلية، وتنزيهه لله سبحانه وتعالى عن اتخاذ الولد أو الشريك، فقوله تعالى: (لو أردنا أن نتخذ لهواً) الخ الآية، قال المفسرون: إن الله سبحانه وتعالى كنى هنا عن الزوجة أو الولد باللها، لأنهما مما ينتهي به .

قال ابن جرير: " يقول تعالى ذكره: لو أردنا أن نتخذ زوجة وولداً لاتخذنا ذلك من عندنا ولكننا لانفعل ذلك، ولايصلح لنا فعله ولاينبغي، لأنه لاينبغي أن يكون لله ولد ولا صاحبة " . ثم ساق عدة روايات عن المفسرين بهذا المعنى. (٢)

وقال ابن كثير: " هو كقوله تعالى: (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار)، فتنزهه نفسه عن اتخاذ الولد مطلقاً ولاسيما عما يقولون من الإفك والباطل من اتخاذ عيسى أو العزير أو الملائكة سبحانه الله عما يقولون علواً كبيراً " (٤) .

وقد حكى ابن الجوزي (٥) أقوال المفسرين في الآية ولخصها في ثلاثة أقوال هي:

١ - أن المراد باللها الولد قال: رواه أبو صالح عن ابن عباس وبه قال السدي .

وقال الزجاج (٦): المعنى: لو أردنا أن نتخذ ولداً ذا لها نلهى به .

٢ - أن المراد باللها المرأة، رواه عطاء عن ابن عباس وبه قال الحسن وقتادة .

٣ - أن المراد به اللعب رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس (٧) .

ولامتنافاة بين الأقوال الثلاثة، وحاصلها أن الآية ردت على من زعم أن الله سبحانه وتعالى اتخذ صاحبة أو ولداً، سواء من قال: إن مريم صاحبة وعيسى ولده أو أن الجن صاهرتة، والملائكة بناته منهم، أو أن عزيراً ابنه .

- (١) تفسير الطبري ٨/١٧
 (٢) انظر المصدر نفسه ٨/١٧
 (٣) سورة الزمر الآية (٢٤)
 (٤) تفسير ابن كثير ١٨٣/٣ - ١٨٣ .
 (٥) هو جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي المعروف بابن الجوزي القرشي التميمي الإمام العلامة الحافظ المفسر (ت ٥٩٧هـ) له ترجمة في الكامل لابن الأثير ٢٥٥/٩ ووفيات الأعيان ١٤٠/٣ وسير أعلام النبلاء ٢٦٥/٢١ والمستفاد من ذيل تايخ بغداد ص/١٥٥ والبداية والنهاية ٣١/١٢ .
 (٦) هو أبو اسحاق إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج البغدادي النحوي (ت ٣١١هـ) له ترجمة في تايخ بغداد ٨٩/٦ ومعجم الأدباء ١٣٠/١ ووفيات الأعيان ٤٩/١ والنجوم الزاهرة ٢٠٨/٣ .
 (٧) انظر زاد المسير لابن الجوزي ٢٤٢/٥ .

وقد نفى الله عن نفسه كل هذا بقوله: (إن كنا فعلين) و" إن " هنا النافية على قول معظم المفسرين (١) أى ما كنا فاعلين ذلك، لأنه مناف للربوبية التي تقتضى أن يكون صاحبها مالك الجميع وخالفه.

وجوز البعض أن تكون " إن " شرطية، ولأمانع من تعليق أمر على مستحيل (٢).

وقوله: (بل نقذف بالحق على الباطل) الخ الآية فيه إضراب عن المسألة وبيان لشأن الله، أى ليس من شأن الله اتخاذ الولد أو المأخوذة، بل شأنه أن يرمى بالحق على الباطل فيقهره فإذا هو ذاهب هالك مضمحل، والحق هو كتاب الله وما فيه من بيان للتوحيد وإحقاق للحق، والباطل هو ما يملئه إبليس وجنوده على أوليائه من الإفك والفجور (٣).

وقوله: (ولكم الويل مما تصفون) تهديد لأهل الباطل الذين يصفون الله عز وجل بما لا يليق به من الصفات، والويل: قيل: هو العذاب والهلاك، وقيل: واد في جهنم (٤).

ثم رد سبحانه وتعالى على إفكهم بقوله: (وله من في السموات والأرض...) أى أن جميع من في السموات والأرض ملك وعبيد لله فكيف يكونون شركاء له أو كيف يتخذ منهم صاحبة أولاد!

قال ابن جرير: " يقول تعالى ذكره: وكيف يجوز أن يتخذ الله لهوا وله ملك جميع من في السموات والأرض والذين عنده من خلقه لا يستنكفون عن عبادتهم بإياه ولا يعيون من طول خدمتهم له، وقد علمتم أنه لا يستعبد والد ولده ولا صاحبه، وكل من في السموات والأرض عبده فأنى يكون له صاحبة وولد. يقول: أولاً تتفكرون فيما تفترون من الكذب على ربكم " (٥).

وقال القرطبي: " (وله من في السموات والأرض) أى ملكا وخلقاً فكيف يجوز أن يشرك به ما هو عبده وخلقه " (٦).

-
- (١) انظر المسير لابن الجوزي ٢٤٢/٥ .
(٢) انظر: المصدر السابق ٢٤٢/٥ .
(٣) انظر: تفسير الطبري ٩-٨/١٧ ، والشوكاني ٤٠١/٣ .
(٤) انظر: تفسير الطبري ٣٠٠-٢٩٩/١ وابن كثير ١٢٢-١٢١/١ والمفردات للراغب مادة (ويل) ص/٥٢٥ .
(٥) تفسير الطبري ٩/١٧ .
(٦) تفسير القرطبي ٢٧٧/١١ .

أما قوله تعالى: (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) فقد سبق (١) وأعيد هنا لشدة ارتباطه بما قبله وما بعده، فقد ورد في تأكيد عبودية الملائكة وأنهم متفانون في العبادة فليسوا بنات لله كما يزعم المشركون.

وكذا قوله: (أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون) تقدم تفسيره أيضا (٢)، وأوردته هنا لأن فيه إنكاراً على المشركين كيف اتخذوا آلهة من دون الله لا قدرة لها على إحياء الموتى، مما يشهد العقل ببطلان ألوهيتها لكونها ضعيفة، والضعف مانع من الألوهية.

وقوله تعالى: (لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا) إبطال للألوهية غير الله بدليل التمانع، أي الألوهية لا تصلح إلا للإله واحد، فلو كان في الكون آلهة سوى الله لأدى ذلك إلى فساد في سير المجتمعات، فالتوحيد هو النظام ^{الصالح} لبناء المجتمع وإسعاده في العاجل والآجل، أما الشرك فلا يصلح أساساً لبناء مجتمع متماسك سعيد في دنياه وأخراه، ونظرة واحدة إلى مجتمعات الشرك والكنفر قبل الإسلام وبعده دليل حي على هذا، فحيث ترى مجتمع الشرك ترى الفرقة والانقسام والتناحر والتقاتل لآتفه الأسباب، وحيث ترى مجتمع التوحيد ترى العدل والإنصاف والحب والوفاء (٣).

وقوله: (فسبحن الله رب العرش عما يصفون) تنزيه لله سبحانه وتعالى عما وصفه به المشركون والكفار.

وقوله تعالى: (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) برهان عقلي على التوحيد وإبطال الشرك، فالإله هو الملك الجبار الذي لا يوجد من هو أقوى منه، فهو لا يسأل عن شيء فعله، لم فعله؟ (٤) بل هو الذي يسأل الجميع عن أفعالهم، لأنه ملك الجميع ومالكهم، والذي يسأل عن أفعاله مخلوق ضعيف لا يستحق أن يصرف له أي نوع من أنواع العبادة (٥).

(١) انظر ص (٨٩) من البحث

(٢) انظر ص / ١٩ من البحث

(٣) انظر ما كتبتّه فيما مضى في مبحث دليل التمانع ص (٤٠) من هذا البحث.

(٤) وهذا لا يعني أنه سبحانه وتعالى لا يفعل ما يشاء لحكمة وغاية حميدة، بل مذهب أهل السنة والجماعة أن لأفعاله سبحانه وتعالى كلها حكمة وغاية سواء علمناها أو جهلناها، وانظر ما كتبتّه حول هذا الموضوع في هذا البحث ص (٦٠)

(٥) انظر: تفسير الجبيري ١١/١٧ والقرطبي ١١/٢٧٩.

وقوله تعالى: (أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم) الآية، فيه مطالبة للمشركين أن يثبتوا ما يدعون من أن آلهتهم تستحق الألوهية بوجه من الوجوه فإن كان عندهم نقل عن الله بواسطة أحد رسله أو كتبه فليأتوا به، فهاهنا القرآن بين أيديهم، وهامي ذي الكتب المنزلة من قبله، وهم يعرفون أهلها من اليهود والنصارى، فليأتوا ببرهان من هنا أو من هناك على دعواهم.

قال ابن الجوزي: " والمعنى : هذا القرآن وهذه الكتب التي أنزلت قبله فانظروا هل في واحد منها أن الله أمر باتخاذ إله سواه، فبطل بهذا البيان جواز اتخاذ معبود غيره من حيث الأمر به .

قال الزجاج: " قيل لهم: هاتوا برهانكم بأن رسولا من الرسل أخبر أمته بأن لهم إله غير الله " (١).

وهذه المطالبة للتحدى، فإن الشرك لم ينزل الله به سلطانا وليس لدى المشرك أى برهان اللهم إلا التقليد، قال تعالى: (ومن يدع مع الله إلهاء آخر لا يبرهن له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون) (٢).

وقال على لسان الظليل إبراهيم عليه السلام: (وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا) الآية (٣).

ولما كانوا لاجبة لهم إطلاقا أضرب سبحانه وتعالى عن مطالبتهم بالبرهان، فقال: (بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون) أى أن سبب ضلالهم وبعدهم عن الحق ليس لأن معهم برهانا، وإنما لأنهم لا يعلمون الحق لإعراضهم عنه.

قال الشوكاني: " ثم توجهت الحجة عليهم ذمهم بالجهل بمواضع الحق، فقال: (بل أكثرهم لا يعلمون) وهذا إضراب من جهته سبحانه وانتقال من تبكيتهم بمطالبتهم بالبرهان إلى بيان أنه لا يؤثر فيهم إقامة البرهان لكونهم جاهلين للحق لا يميرون بينه وبين الباطل " (٤).

والمجموعة الثانية من الآيات رد على فئة خاصة ممن زعم أن لله ولدا وهم الخاطلون بأن الملائكة بنات الله.

قال ابن كثير في تفسيرها: " يقول تعالى ردا على من زعم: أن له - تعالى وتقدس - ولدا من الملائكة كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكة بنات الله،

(١) زاد المسير ٢٤٦/٥
(٢) سورة المؤمنون الآية (١١٢)
(٣) سورة الانعام الآية (٨١)
(٤) فتح القدير ٤٠٣/٣

فقال: (سبحانه بل عباد مكرمون) أى الملائكة عباد الله مكرمون عنده في منازل عالية ومقامات سامية وهم في غاية الطاعة قولاً وفعلاً، (لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) أى لايتقدمون بين يديه بأمر، ولايخالفونه فيما أمرهم به بل يبادرون إلى فعله وهو تعالى علمه محيط بهم فلايخفى عليه منهم خافية) (١).

وقوله: (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولايشفعون إلا لمن ارتضى) بيان لإحاطة علمه سبحانه وتعالى بالملائكة، فهو محيط بكل شئونهم يعلم صغيرها وكبيرها، فإذا كان المشركون قد ادعوا ما ادعوه من أن الملائكة بنات الله أو أنها تشفع عنده، فإن المحيط بهم العليم بجميع أحوالهم يضرب بأن الملائكة لاتملك الشفاعة، وإن كانت تشفع فإنما يتم بعد إذن الله لهم بذلك، فالشفاعة مردها إلى الله لا إليهم.

وقوله: (إالمن ارتضى) قال ابن عباس: "الذين لهم شهادة أن لاإله إلا الله" (٢) وهو إشارة منه - رضى الله عنه - إلى أن الشفاعة لاتكون إلا للموحدين، ولهذا نفاها الله سبحانه وتعالى عن المشركين بقوله: (ماللظالمين من حميم ولاشفيع يطاع)" (٣).

قال ابن كثير: "أى ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولاشفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير" (٤).

كما جاء نفي الشفاعة مطلقاً في آيات، وإثباتها في أخرى. فالنفي جاء في مثل قوله تعالى: (واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولايقبل منها شفاعة ولايؤخذ منها عدل ولاهم ينصرون) (٥).

أما الإثبات ففي مثل الآية التي معنا هنا وقد زيد فيها شرط الرضى. وفي قوله تعالى: (من ذا الذى يشفع عنده إلا بادننه) اشترط الإذن وهذاان هما شرطا الشفاعة المثبتة، فالشفاعة لله وحده، وإن كان بعض خلقه يشفعون لبعض فإنما يتحقق ذلك بأمرين:

١ - إذن الله للشافع أن يشفع. ٢ - رضاه عن المشفوع له.

(١) تفسير ابن كثير ١٨٥/٣ .

(٢) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/١٧ .

(٣) سورة غافر الآية (١٨).

(٤) تفسير ابن كثير ٨٢/٤ .

(٥) سورة البقرة الآية (٤٨).

(٦) سورة البقرة الآية (٢٥٥).

وهذا لا يتحقق إلا لأهل التوحيد، فقد بين سبحانه وتعالى أنه لا يغفر للمشرك وأن الشفاعة لا تنفعد يوم القيامة، فبطل إذا شبهة المشركين في تعلقهم بغير الله لقصد شفاعتهم لهم عند الله، فإن هذا التعلق نفسه يكون مانعا من الشفاعة.

قال ابن تيمية: " فهذا القول والعبادة (١) الذي يقصد به المشركون الشفاعة يحرم عليهم الشفاعة، فالذين عبدوا الملائكة والأنبياء والأولياء والمالحين ليشفَعوا لهم كانت عبادتهم إياهم وإشراكهم بربهم الذي به طلبوا شفاعتهم به حرموا شفاعتهم، وعوقبوا بنقيض قصدهم، لأنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا " (٢)

ثم قال: " بل الشفاعة: سببها توحيد الله وإخلاص الدين والعبادة بجميع أنواعها له، من كان أعظم إخلاصا كان أحق بالشفاعة كما أنه أحق بسائر أحد إلا بإذنه وهو الذي يأذن للشافع، وهو الذي يقبل شفاعته في المشفوع له " (٣).

أما المجموعة الثالثة ففيها إبطال للشرك بحجة عقلية هي أن هذه الآلهة التي يعبدونها لا تصلح للالوهية لأنها لا تملك لنفسها - فضلا عن غيرها - نصرا فهي إما جماد لا حراك فيه، أو ضريح يرجو ساكنه من إخوانه الأحياء أن يدعوا له أو ملك مشغول بطاعة ربه، فالجميع عبيد لله، واقع في ملكه، لن يجير أحدا منهم من الله أحد، ولا عصم لهم من أمر الله إلا رحمته ورافته سبحانه وتعالى.

فقوله: (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) استفهام إنكاري أي هل اتخذوا آلهة من دون الله قادرة على منعهم وحمايتهم من بأس الله، والجواب لا، فالهتيم أضعف من ذلك، ولذا عطف عليه بقوله: (لا يستطيعون نصر أنفسهم) أي أن هذه الآلهة لا تملك لنفسها نصرا فكيف تنصر غيرها (ولاهم منا يمحون) أي ولا يمتنعون ويجارون إن أراد الله بهم ضرا (٤).

(١) وهو القول بتولى الملائكة والأولياء ليشفَعوا لهم عند الله.

(٢) مجموع الفتاوى ٤١٢/١٤ .

(٣) المصدر نفسه ٤١٤/١٤ .

(٤) انظر تفسير الطبري ٢٣/١٧ والقرطبي ٢٩١/١١

وأما المجموعة الرابعة من الآيات ففي مناقشة إبراهيم لقومه، وإقامته الحجة عليهم في بطلان عبادة الأصنام، وقد نشأ إبراهيم في بيئة وثنية وكان قومه يصنعون التماثيل بأيديهم ثم يقصدونها ويعبدونها، وقد آتاه الله رشده فبان له ضلالهم وسخافة عقولهم منذ صغره كما يدل على ذلك مستهل الآيات هنا وهو قوله تعالى: (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل) أي في صغره (١) وقوله تعالى بعد ذلك: (وكننا به علمين) أي عالمين بأنه أهل لذلك كما قال تعالى في آية أخرى: (الله أعلم حيث يجعل رسالته) (٢) فقد علم الله أن إبراهيم أهل لتحمل أعباء الدعوة إلى التوحيد، فهداه وهو صغير، وهيأه لهذه المهمة العظيمة، وقد قام إبراهيم عليه السلام بمهمته خير قيام، فدعا أباه إلى التوحيد وتلطف معه وخاطبه باللين (٣)، ثم ناقشه مع قومه وأقام الحجة عليهم نظريا وعمليا، ثم لما لم يلق منهم بعد كل ذلك إلا العناد والمكابرة هجرهم وهاجر إلى الشام.

- (١) كما يرى أكثر المفسرين، انظر تفسير القرطبي (١١/٢٩٦) وابن كثير (٣/١٩٠)، وهذا ليس ببعيد على الأنبياء، فإنه وإن كانت العصمة ليست بواجبة لهم قبل النبوة فإن الله يهيئهم قبل النبوة فيكونون مثالا للسيرة المستقيمة، فلا يحتاج عليهم بعد النبوة - مثلا - باشتراكهم معهم قبلها في المعاصي، وقد هجر النبي صلى الله عليه وسلم منذ صغره العادات الجاهلية التي اعتادها قومه، كما أنه لم يشاركهم في عبادة الأصنام منذ صغره. انظر سيرة ابن هشام (١/٢٠٧) وقال تعالى عن يحيى (وآتيناه الحكم صبيا) سورة مريم الآية (١٣). ويرى بعض المفسرين أن المعنى من قبل إيتاء موسى وهارون الفرقان، وفسروا الرشد بالنبوة، ذكره القرطبي في تفسيره (١١/٢٩٦).
- (٢) سورة الأنعام الآية (١٢٤).
- (٣) وقد ورد ذلك في قوله تعالى: (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا إذ قال لأبيه ياأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ياأبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا) ومع أن أباه هدده بعد هذا التلطف واللين فقد أجابه بقوله: (سلم عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا) الآيت من سورة مريم وقمها على التوالى (٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤).

وقد قص الله سبحانه وتعالى مناقشته لقومه هنا فقال: (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عكفون) أى معتكفون ومقيمون على عبادتها (١) وقد سألهم عن ماهية التماثيل، ولعله كان يقصد السؤال عن الحجة أو هكذا فهموا من سؤاله، لأنهم علموا أن إبراهيم يعلم ماهية التماثيل ومم هي؟ ولما لم تكن لهم - شأنهم في ذلك شأن جميع المشركين - حجة يستطيعون إيرادها، تعلقوا بالتقليد لأبائهم، فقالوا (وجدنا آباءنا لها عابدين) أى فقلدناهم، وهذه ليست بحجة، فمجرد وجود الآباء على شيء ليس دليلا على صحته، ولذا رد عليهم إبراهيم بقوله: (لقد كنتم وءابؤكم في ضلال مبين) أى الكلام مع آباءكم الذين احتججتم بمنعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم) (٢).

ولما كان قد استقر في أذهانهم أن ما هم عليه هو الحق والحقيقة - أو هكذا تظاهروا -، سألوا إبراهيم إن كان فعلا جادا فيما يقول، فإنهم لآعهد لهم بمثل هذا الأفكار لفعل شيوا عليه وشابوا، فقالوا: (أجئتنا بالحق أم أنت من اللعابين) فأجابهم إبراهيم بما يفيد أنه جاءهم بالحق وأنه جاد ليس بهازل. فقال: (بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطر السموات والأرض هو ربكم

فاستدل بالربوبية على الألوهية، أى أن الله الذى فطر السموات والأرض هو ربكم وهو المستحق للعبادة، لا هذه الأصنام التى تنحتونها بأيديكم وقوله: (وأنا على ذلكم من الشاهدين) أى وأنا شاهد على أنه هو الرب وهو الإله المستحق للعبادة.

وهنا انتهى هذا الفصل بعد أن أثبت إبراهيم بالبرهان النظرى بطلان عبادة غير الله ووجوب صرف العبادات كلها لله وحده، بينما لم يستطع قومه أن يقيموا لعلمهم حجة إلا التقليد لآبائهم الضالين.

(١) انظر: تفسير الطبرى ٢٧/١٧، وابن كثير ١٩١/٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ١٩١/٣ .

(٣) مضى تفسير هذه الآية من (٢٥) من هذا البحث.

وقد أحسن إبراهيم أن قومه لا يقنعهم الدليل النظري، فقرر أن يثبت لهم بالبرهان العملي أن أصنامهم لا تستحق أن تعبد لأنها لا تملك الدفاع عن نفسها فضلا عن غيرها، فقال في نفسه أو على مسمع من بعض قومه (١): (وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) أي لأجتهدن في تكسير أصنامكم بعد أن تخرجوا وتولوا عنها، وكان لهم عيد يخرجون إليه كل سنة حسبما قال المفسرون، قالوا: وطلبوا منه أن يخرج معهم لعله يعجبه دينهم (٢) فيكف عنهم وتنتهي المسألة (٣)، فصرفهم عن نفسه بادعاء السقم وهو المرض، ولكي لا يثير شكوكهم نظر نظرة في النجوم - قال بعض المفسرين - وذلك ليوهمهم أنه تنجم وأن هيئة النجوم أرائته أنه سيسقم وكانوا يتعاطون علم النجوم (٤). فتركوه وخرجوا لعيدهم فلما خلا له الجو دخل بيت أصنامهم فحطمها جميعا إلا كبيرا منها، قال تعالى: (فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون) أي جعل أصنامهم حطاما مكسورة قطعاً إلا كبيرا منها تركه لعلهم يرجعون إليه، أي إلى الصنم الكبير، يرجعون فيسألونه عن الكاسر، لأن من شأن المعبود أن يرجع إليه في المهمات، فإذا رجعوا إليه لم يجدوا عنده خيرا، فيعلمون حينئذ أنها لا تجلب نفعا ولا تدفع ضرا (٥)، ولما رجع القوم ووجدوا أصنامهم مكسورة تسألوا فيما بينهم، فقالوا: (من فعل هذا بثألتنا إنه لمن الظالمين).

فقال الذي سمع إبراهيم يقول مقالته: (سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) أو أنهم قالوا هذا بناء على المناقشة التي مرت بينهم وبين إبراهيم، فقد علموا من ذلك أنه الشخص الوحيد الذي يمكن أن يفعل هذا (٦).

-
- (١) انظر الطبري ٢٨/١٧ والقرطبي ٢٩٧/١١ وابن كثير ١٩١/٣ وقد ذكر الطبري والقرطبي القولين بينما ذكر ابن كثير القول الثاني.
 - (٢) ممن ذكر ذلك الطبري ٢٨/١٧ وابن كثير ١٩١/٣ وغيرهما.
 - (٣) وهكذا يظن كثير من أهل الباطل أن زخرفتهم لباطلهم تغري أهل الحق.
 - (٤) انظر تفسير الطبري ٤٥/٢٣ وزاد المسير ٦٧/٧ ومعالج التنزيل ٣٠/٤.
 - (٥) فتح القدير ٤١٣/٣ وقيل إن الضمير يرجع إلى إبراهيم أي لعلهم يرجعون إليه فيحاججهم أولعلمهم يرجعون إلى دينه إذا تبين لهم أن أصنامهم لا تدفع عن نفسها شيئا، انظر زاد المسير ٣٥٨/٥ وتفسير القرطبي ٢٩٨/١١.
 - (٦) انظر الطبري ٢٩١/١٧ - ٣٠ وقد ذكر القولين أما ابن كثير فذكر الأول فقط في تفسيره ١٩٢/٣.

فبدلاً من أن يعودوا إلى رشدهم ويستحيوا من إبراهيم أن يعلم ما حدث، لأنه كان ناقشهم وأوضح لهم أن الأصنام لا تملك لهم نصراً، فكان الواجب عليهم أن يخفوا الأمر على إبراهيم حتى لا يشمت بهم ويحتج عليهم، ولكن الجهل الذي طغى عليهم وجعلهم ينحتون حجراً أو خشباً ثم يعبدونه هذا الجهل جعلهم يجهرن بالامر وينادون بأعلى صوتهم: (فأثتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون).

وكان هذا مقصود إبراهيم الأعظم أن يبين لهم في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام التي لاتدفع عن نفسها ضراً ولا تملك نصراً فكيف تعبد ويطلب منها شيء (١).

ولما جاء إبراهيم (قالوا: أنت فعلت هذا بعالمهتنا يا إبراهيم) وهكذا وبدون حياء يسمون هذه الأشياء المحطمة آلهة ثم يسألون إبراهيم هل هو الذي أحدث هذا الدمار بالآلهة، إن كانت آلهة حقاً فلم لم تصب إبراهيم بأذى، ولم قبلت أن تتحطم هكذا؟ حقاً إن الشرك ليحجب العقول ويجعل القلوب في أكنة.

وكان جواب إبراهيم: (بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون) أراد استدراجهم وأن يستكشفوا بأنفسهم قلة عقلهم وشذاجة تفكيرهم أي هذا كبيرهم حصل ما حصل وهو شاهد فاسألوه فعلى الأقل سيجيبكم بالفاعل، وهذا أقل ما يرجى منه من خير أن ينطق فقط، وإلا فالمفروض أن يدافع عن الآلهة المغارة، وقد نسب إبراهيم الكسر إلى الصنم الكبير زيادة في التهكم، وقيل: أراد أن كبير الأصنام قد غار وغضب لأنكم عبدتم معه هذه الأصنام المغيرة فحطمها، فاسألوا الأصنام المحطمة إن كانوا ينطقون فسيجيئون (٢).

(فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون) أي رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته المتفطن لحجة خصمه المراجع لعقله، وذلك أنهم تنبهوا وفهموا عند هذه المقالة بينهم وبين إبراهيم أن من لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الإضرار بمن فعل به ما فعله إبراهيم بتلك الأصنام يستحيل أن يكون مستحقاً للعبادة، ولهذا قالوا: إنكم أنتم الظالمون^(٣) أي قال بعضهم لبعض: أنتم الظالمون لأنفسكم بعبادتكم "من لا ينطق بلفظة ولا يملك لنفسه لحظة، وكيف ينفع عابديه ويدفع عنهم البأس من لا يرد عن رأسه الفأس" (٢).

(١) تفسير ابن كثير يتصرف بسير ١٩٢/٢ .
(٢) انظر الطبري ٣٠/١٧٢ والقرطبي ٣٠٠/١١ .
(٣) فتح القدير ٤١٤/٣ .
(٤) تفسير القرطبي ٣٠١/١١ .

وليس الظالم من نسبتهم الظلم إليه بقولكم : إنه لمن الظالمين(١).

ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون)، أى أن المنطق السليم الذى ظهر منهم كان سحابة سيف لم تلبث أن تقشعت، فنكسوا على رؤوسهم ورجعوا إلى جهلهم وعنادهم واحتجوا على إبراهيم بما هو حجة له حيث قالوا: لقد علمت أن أمنامنا لاتنطق، (٢) وهنا حصل إبراهيم على مراده منهم، حيث اعترفوا بأن أمنامهم لاتستطيع أن تخبر حتى عن أساء إليهما، فما يرجى بعد ذلك منها؟.

فقال لهم: (أفتعبدون من دون الله كغلايينكم شيئا ولايضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) أى اعقلوا وارجعوا عن غيركم بعد أن تبين لكم وأقررتم أن آلهتكم لاتنفع شيئا ولاتنضر، ولكن الضلالة والغي كان قد استحکم فيهم فلم تقنعهم حجج إبراهيم الدامغة، فلجأوا إلى العضلات ملجأ المتسلطين والمتحكمين في الناس بدون حجة ولا منطق سليم، فأزادوا بإبراهيم كيذا فلم يفلحوا ثم إن إبراهيم لما رأى أنه لم يعد هناك أمل في هدايتهم بعد كل هذا البيان هاجر إلى الشام.

والمجموعة الأخيرة من الآيات فيها حجة أخرى على بطلان الشرك(٣) وهي أن المشركين وءالهتهم التى كانوا يعبدونها سئلوا في جهنم ويكونون حطبا لها، فلم ينجوا من شركهم شيئا في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الدنيا فقد أفنوا أعمارهم في خدمتها رجاء أن تنفعهم في الآخرة، وأما في الآخرة فقد حشروا معها إلى النار، كما قال تعالى في آية أخرى: (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم وقفوهم إنهم مسئولون مالكم لاتنامرون بل هم اليوم مستسلمون)(٤).

فلو كان ما عبده آلهة حقا ما وردت جهنم أو ما ورد لها عابدها، وهذا الورد الذى حصل دليل على أنها ليست آلهة حقا، وهذه الحجة وإن كان المشركون تصديقها لا يتحققها الآن إلا بعد ثبوت إعجاز القرآن الذى يؤكد أنه من عند الله، وإذا كان كذلك فكل ما فيه حق وصدق.

- (١) فتح القدير ٤١٤/٣ أما الطبري ٣١/١٧ فجعل المعنى أنهم رجعوا إلى عقولهم وقالوا: الأمر كما قال إبراهيم وقد ظلمناه حين سألناه. وابن كثير ١٩٢/٣ جعل المعنى أنهم لاموا أنفسهم حين لم يضعوا لآلهتهم من يجرسها وقالوا: إنكم الظالمون في ترككم لآلهتكم مهملة لاحفاظ عندها.
- (٢) انظر الطبري ٣١/١٧ - ٣٢ والشوكاني ٤١٤/٣.
- (٣) مضى تفسير آيات هذه المجموعة في المبحث السابق ولم أر داعيا لإعادته انظر ص ١١٧ من البحث.
- (٤) سورة الصافات الآيات من (٢٢) إلى (٢٦).

وخلاصة القول فيما سبق من الكلام حول الآيات أنها احتجت على المشركين الذين يزعمون أن الله اتخذ صاحبة أولاد، فأقامت لهم البراهين والحجج العقلية على بطلان قولهم ^{على} وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن إفكهم وما يفترون، وقليل من التفكير والتعقل ينير الطريق لمن أراد، ويوضح له أن الشرك هو أقبح ما على الأرض من جريمة، وأنه النهاية القصوى لإدلال العقل وإبطال دوره في سير حياة الإنسان، وإلا فكيف يوصف عمل قوم إبراهيم مثلا، ينحتون حجرا من الأحجار أو قطعا من الأخشاب ويجعلونه تمثالا ثم يقصدونه، ثم يتخذونه إليها فبين عشية وضحاها ينقلب هذا المصنوع من مخلوق ضعيف كان قبل قليل بين رحمة المطرقة والسندان . إلى إله قوى يرهب جانبه وتقدم له القرابين وينحني الإنسان الذي صنعه أمامه .

وبم أن الشيطان قد يوهمهم أن هذا التمثال قد حل فيه قوة خفية تؤهله لأن ^{يؤله}، إلا أن كسر إبراهيم لها وتحويلها إلى حطام دون أن تحرك ساكنا كان يكفي لتبديد هذا الوهم لو كان للقوم مسكة من عقل، ولاتحسب أن قوم إبراهيم أسوأ حالا من مشركي العرب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، أو من قبوريي عهدنا هذا، فالجميع ينهل من مورد واحد، وإن كان ينسب متفاوتة، فالقبوريون تراهم يطوفون حول قبر = قد يكون في الواقع مجرد رسم وضع لخداع الناس دون أن يكون فيه من يسمونه وليا، وحتى لو كان قبر ولي معروف، فمن أدرى هؤلاء أنه موجود هناك؟ ثم لم لا يراجعون أنفسهم حيث أنهم بعد الطواف الطويل ^{حول} والصراخ والعيول لا يجنون إلا التعب فقط، ولو وجد مثل إبراهيم عليه السلام (١) فحطم قباب تلك القبور بعد توكله على الله وثقتة به فلن يصيبه أي أذى، ولن يستطيع ذلك الولي الموهوم أن يصيبه بأي أذى، وسيرة دعاة التوحيد دليل صدق لهذا (٢) نسأل الله أو يوفقنا لما فيه الخير والملاح.

- (١) المراد بالتمثلية هنا ليس في النبوة، وإنما في تحطيم الأصنام وتسوية القبور وتحطيم القباب .
- (٢) وأقرب مثال لذلك سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فقد قام بهدم القباب والمساجد المبنية على قبور الصحابة وقطع الأشجار التي كانوا يتركون بها ويعتقدون فيها النفع انظر: عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي ص/٤٩٠ .

الفصل الثالث

مباحث توحيد الأسماء والصفات / من غل بسبب الصلوة به الكلاذ الصغار
وتحت ثلاثة مباحث

المبحث الأول: تعريف هذا التصدير وبيان مذهب السلف في هذا الباب، ومذاهب كالصغير عليهم السلام
المبحث الثاني: دلالة آيات السورة على بعض صفات الله عز وجل
المبحث الثالث: شبه المخالفة للسلف في باب الصفات والرد عليها

المبحث الأول

تعريف توحيد الأسماء والصفات وبينان مذهب السلف في أسماء الله تعالى وصفاته ومذهب مخالفهم إجمالاً

تعريفه: هو إثبات ما أثبتته الله سبحانه وتعالى لنفسه وأثبتته له رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسماء الحسنی والصفات العلی إثباتاً بلا تكليف ولا تمثيل ولا تحريف، وتنزيهه سبحانه وتعالى عما نزهه نفسه ونزهه رسوله صلى الله عليه وسلم من صفات النقص تنزيهاً بلا تعطيل ولا إحداد (١).

مذهب السلف: وقد اتبع السلف الصالح - رضی الله عنهم - من الصحابة والتابعين ومن نهج منهجهم - طريق الكتاب والسنة في هذا الباب فلم يتجاوزوهما، فأثبتوا لله ما أثبتته لنفسه ونفوا عنه ما نفى عن نفسه، وقد حكى عنهم غير واحد من العلماء ذلك المذهب.

قال المابوني (٢) - مبيناً عقيدة السلف، وقد عبر عنهم بأهل الحديث: (أهل الحديث - حفظ الله أحياءهم ورحم أمواتهم - يشهدون لله تعالى بالوحدانية، وللرسول صلى الله عليه وسلم بالرسالة والنبوة، ويعرفون ربهم عزوجل بصفاته التي نطق بها وحيه وتنزيله، أو شهد له بها رسوله صلى الله عليه وسلم، على ما وردت الأخبار الصحاح به ونقلته العدول عنه، ويثبتون له - جل جلاله - ما أثبتته لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ولا يعتقدون تشبيهاً لمفاته بصفات خلقه، ولا يحرفون الكلام عن مواضعه وقد أعاد الله تعالى أهل السنة من التحريف والتكليف ومنّ عليهم بالتعريف والتفهم حتى سلكوا سبل التوحيد والتنزيه، وتركوا القول بالتعطيل والتشبيه، واتبعوا قول الله عزوجل: (ليس كمثل شيء وهو السميع البصير) (٣).

(١) انظر الرسالة التدمرية ص/٧، والفتوى الحموية الكبرى ص/٣١

(٢) هو أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن إسماعيل النيسابوري المابوني الحافظ الواعظ المفسر (ت ٤٤٩ هـ)، انظر ترجمته في: الكامل ٨/٨١ وسير أعلام النبلاء ١٨/٤٠ والبداية والنهاية ١٢/٨١ وطبقات المفسرين للسيوطي ص/٧

(٣) عقيدة السلف وأصحاب الحديث المطبوع ضمن الرسائل المنيرية ١/١٠٧-١٠٧ باختصار، والآية من سورة الشورى ووقمها (١١).

وقال ابن تيمية: "ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، يثبتون لله ما أثبتته من الصفات، وينفون عنه مماثلة المخلوقات، يثبتون له صفات الكمال وينفون عنه ضروب الأمثال، ينزهونه عن النقص والتعطيل وعن التشبيه والتتمثيل، إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل: (ليس كمثله شيء) رد على الممثلة (وهو السميع البصير) رد على المعطلة (١).

وهذه الآية أعنى قوله تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) من معتمد أهل السنة في هذا الباب، فقد نفى الله سبحانه وتعالى فيها عن نفسه مماثلة غيره من المخلوقات نفيا مجملا فقال: (ليس كمثله شيء) فهذا يكفي في الرد على من شبهه أو مثله بشيء من خلقه، ثم أثبت لنفسه صفتين من صفات الكمال على طريق التفصيل فقال: (وهو السميع البصير).

وقد اتبع أهل السنة طريق القرآن في هذا أيضا فسلكوا في النفي والتنزيه طريق الإجمال، واكتفوا بنفي المماثلة، ولم يتعرضوا لتفصيل في نفي أوجه المماثلة المختلفة.

وسلكوا في الإثبات طريق ^{التفصيل} فثبتوا لله كل ما أثبتته لنفسه من صفات الكمال على ظاهرها اللائق بجلال الله وعظمته. ^{رب}

(١) منهاج السنة النبوية ١١/٢ وانظر أيضا ٥٢٣/٢ منه.

والمخالفون للسلف في هذا الباب أربع طوائف:-

- (١) أهل التخييل .
- (٢) أهل التجهيل .
- (٣) أهل التأويل .
- (٤) أهل التمثيل .

فأما أهل التخييل فهم المتفلسفة ومن سلك سبيلهم من المتكلمين والتصوفين وغيرهم، وهم يرون أن آيات الصفات وغيرها من نصوص المعاد لم يقصد بها إلا التخييل لجمهور الناس، لأنهم لا يتحملون فهم المعاني الحقيقية لتلك الالفاظ، فلذا خيلها الشارع لهم بما يفهمون وأبرز لهم المعقول في صورة المحسوس.

قال ابن تيمية عنهم: ﴿ وقد وضع ابن سينا وأمثاله قانونهم على هذا الأصل كالقانون الذي ذكر في رسالته الأضحوية وهؤلاء يقولون : الأنبياء قصدوا بهذه الالفاظ ظواهرها، وقصدوا أن يفهم الجمهور منها هذه الظواهر، وإن كانت الظواهر في نفس الأمر كذبا وباطلا ومخالفة للحق، فقصدوا إفهام الجمهور بالكذب والباطل للمصلحة ﴾ (١).

وعلى هذا فهم ينفون صفات الله عز وجل، ولا يثبتون إلا ذاتا مجردة عن كل وصف تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وأما أهل التجهيل فهم بعض المنتسبين إلى السنة واتباع السلف يرون أن آيات الصفات من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله تعالى، فهم يؤمنون بالفاظ مجردة، ويرون البحث عن معاني أسماء الله تعالى وصفاته من اتباع المتشابه المنهي عنه في قوله تعالى: (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشبه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون: أئمانا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا ألوانا) (٢).

(١) درء تعارض العقل والنقل ٩/١ .
(٢) سورة آل عمران الآية (٧) .

وبعض هؤلاء قد يرى أن لهذه الآيات معاني غير المعاني الظاهرة منها ولكنها تجري على ظاهرها، وهذا من التناقض ما لا يخفى، فكيف يقال أن الظاهر غير مراد، ثم يقال : تجري على ظاهرها.

قال ابن القيم: لا هؤلاء قد غلطوا في المتشابه، وفي جعل هذه النصوص من المتشابه، وفي كون المتشابه لا يعلم معناه إلا الله، فأخطأوا في المقدمات الثلاث واضطروهم إلى هذا التخلص من تأويلات المبطلين وتحريفات المعطلين وسدوا على نفوسهم الباب، وقالوا: لانرضى بالخطأ ولاوصول إلى المواب (١).

وأما أهل التأويل فهم غالبية المتكلمين، ومذهبهم أن النصوص الواردة في الصفات لم يقصد به أن يعتقد الناس هذه المعاني الظاهرة منها، وإنما قصد بها معان أخرى لم يبينها الشارع، ولا دل عليها وإنما أراد من الناس أن ينظروا ويشغلوا أنفسهم بالبحث عنها.

أما هذه المعاني الظاهرة من النصوص فإن اعتقادها كفر لأنها توهم مشابهة الله تعالى لخلقه، فوجب صرفها عن ظاهرها إلى معان أخرى، زعموا أنها هي التي فيها التنزيه.

ثم هؤلاء قد تشعبت مشاربهم في تطبيق هذا المذهب، فمنهم من طبقه على جميع الصفات، ومنهم من طبقه على بعضها دون البعض الآخر.

وأما أهل التمثيل فهم الذين شبهوا الله تعالى بخلقه، وقالوا: لانفهم من نصوص الصفات إلا مثل ما عند المخلوق، ولم ينزهوا الخالق عن مشابهة المخلوق.

وقد سرى داء هؤلاء إلى أهل التأويل، فإن الذي قادهم إلى التأويل إنما هو اعتقاد التشبيه أولاً، ورأوا أن التنزيه لا يتم إلا بطرح معاني نصوص الصفات، وتأويلها بمعان أخرى، ومن ثم سموا كل من أثبت تلك المعاني مشبهاً من غير تفريق بين من اعتقدوا التشبيه وبين أهل السنة الذين لا يثبتون للهِ إلا المعاني اللائقة به من غير اعتقاد تشبيه (٢).

(١) الصواعق المنزلة على الطائفة الجهمية المعطلة ٢٥٠/١ - ٢٥١ .
(٢) ذكر الفرق الثلاث الأولى ابن تيمية في مواضع من كتبه، انظر درء تعارض العقل والنقل ٨/١ - ٩ ، ومجموع ٢١/٥ - ٢٢ ، والفهارس العامة للمجموع ١٠٣/٣٥
وذكر ابن القيم الفرق الأربع في: الصواعق المنزلة على الطائفة الجهمية المعطلة ٢٤٥/١ - ٢٥١ .

وهذه الطوائف الأربعة أخطأ كلٌ منها الطريق، لأنها خاضت في المسألة دون استرشاد بالنقل من الكتاب والسنة وما أجمع عليه سلف الأمة، بل وكلت الأمر إلى العقول. وقد تذرعت كل طائفة منها بشبهة رأت أنها تمنعها من القول بإثبات صفات الله تعالى، وسأعرض لتلك الشبه في مبحث لاحق (١) بعد أن أستكمل الحديث عن دلالة آيات سورة الأنبياء على بعض صفات الله سبحانه وتعالى، إن شاء الله تعالى.

(١) انظر ص (١٥١) من البحث.

المبحث الثاني

دلالة آيات السورة على بعض صفات الله عز وجل

وردت في سورة الأنبياء آيات فيها ذكر بعض صفات الله عز وجل، وفيها بعض الأفعال المنسوبة إليه سبحانه والتي اشتق منها أسماء لله تعالى في نصوص أخرى (١)، وهي جميعا داخلة في باب أسماء الله تعالى وصفاته، يجب الإيمان بها وإثباتها لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته، كما درج عليه سلف الأمة وخيارها.

والصفات الواردة في السورة هي: صفة العلم والسمع والرحمة والكلام والحفظ والحساب والإرث والحكم.

وسوف أتكلم عن هذه الصفات حسب ترتيب ورودها في السورة مع إضافة بعضها إلى بعض (٢).

١ - الآيات الدالة على صفتي العلم والسمع:

أ - قوله تعالى: (قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم)
الآية (٤)

(١) وتسمى هذه الصفات بصفات الأفعال، وقد قسم الباحثون أسماء الله تعالى وصفاته تقسيمات كثيرة باعتبار مختلفات، ومعظم هذه التقسيمات من وضع المتكلمين، ومن أحسنها ما ذكره ابن القيم في بدائع الفوائد حيث ذكر ستة أقسام:

الأول: ما يرجع منها إلى نفس الذات مثل أنه ذات وشيء موجود، وهذه أخبار عن الله وليس أسماء وصفاته له.

الثاني: ما يرجع إلى صفات معنوية كالعظيم والسميع.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله نحو الخالق الرازق.
الرابع: ما يرجع إلى التنزيه المحض، ولا يد من تضمنه ثبوتاً، إذ لاكمال في العدم المحض ومثل له بالقدوس السلام.

الخامس: ما يدل على جملة أوصاف نحو المجيد والعظيم، فإن كلا منهما يدل على صفات متعددة من صفات الكمال.

السادس: ما يحمل من اقتران الاسمين أو الوصفين نحو الغني الحميد، العفو القدير، انظر الكتاب المذكور ١٥٩/١ - ١٦١ وانظر الفقه الأكبر وشرحه ص/١٥٠ فما بعد ومجموع الفتاوى ١٤٤/٦ فما بعد.

(٢) جمعت بين صفتي العلم والسمع والمناسبة بينهما ولأن السمع ورد في الآية مقترناً مع العلم وأفردت الرحمة والكلام لطول الكلام على كل منهما وجمعت بين بقية الصفات لقصر الكلام عليها.

ب - قوله تعالى : (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشِيئَتِهِ مُسْتَغْفُونَ) الآية (٢٨).

ج - قوله تعالى : (وَلَسَلِيمٌ الرِّيحُ عَاصِفَةٌ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ) (٨١)

د - قوله تعالى : (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ) الآية (١١٠)

فالآية الأولى إخبار عن رد الرسول صلى الله عليه وسلم على المشركين الذين قابلوا دعوته بالرفض والتكذيب ونجى بعضهم بعضا قائلين عن القرآن إنه سحر، فرد عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر من الله سبحانه وتعالى - كما تفيد القراءة الأخرى وردت بصيغة الأمر " قل " (١).

قال ابن جرير بعد أن ذكر القراءتين في لفظ " قال " : (وكان الذين قرءوه على وجه الأمر أردوا من تأويله قل يا محمد للقائلين : أتأتون السحر وأنتم تبصرون: ربى يعلم قول كل قائل في السماء والأرض لا يخفى عليه منه شيء، وهو السميع لذلك كله ولما يقولون من الكذب، العليم بمدق وحقيقة ما أدعوكم إليه، وباطل ما تقولون وغير ذلك من الأشياء كلها) (٢).

وهذا الرد من الرسول صلى الله عليه وسلم يتضمن التسلية والتعزية له عما يلقى من عنت المشركين، لأن علم الله تعالى بذلك وسمعه له يقتضى أن يكفيه الله إياهم ويعاقبهم، فهو يتضمن التهديد والوعيد للكفار أيضا (٣).

ويتضمن أيضا تفنيد دعوى المكذبين بأن القرآن سحر لأن محمدا بشر مثلهم كما يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (٤) - رحمه الله - : (وقد رد الله عليهم دعواهم أن القرآن سحر بقوله هنا: (قال ربى يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم) يعنى أن الذى يعلم القول فى السماء والأرض الذى هو السميع العليم

(١) القراءة بصيغة الماضى لحفص عن عاصم وحمزة والكسائى وخلف العاشر، وبصيغة الأمر لباقي العشرة، انظر تحبير التيسير ١٤٣ وتقريب النشر في القراءات العشر ص/ ١٤٣ .

(٢) تفسير الطبري ٣/١٧ . (٣) انظر: تفسير ابن كثير ١٨٢/٣ .

(٤) هو الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر بن محمد الجكنى الشنقيطي نزيل المدينة المنورة العالم العلامة المفسر (١٢٩٣ هـ) انظر ترجمته في خاتمة الجزء الأخير من أضواء البيان، وقد كتبها تلميذه الفاضل الشيخ عطية سالم رواية عن الشيخ نفسه.

المحيط علمه بكل شيء هو الذي أنزل هذا القرآن العظيم، وكون من أنزله هو العالم بكل شيء يدل على كمال صدقة في الأضبار وعدله في الأحكام وسلامته من جميع العيوب والنقائص وأنه ليس بسحر، وقد أوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: (قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض) (١) الآية (٢).

وأما الآية الثانية ففي شأن الملائكة (٣) وفيها إخبار بأن الله يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، أي يعلم ما لم يبلغوه من الزمان ماذا سيفعلون فيه وكيف يكونون، ويعلم ما مضى مما خلفوه وراءهم من الأزمان ماذا قدموا فيه وكيف كانوا (٤) وهذا إخبار عن إحاطة علم الله سبحانه وتعالى وشموله لجميع أحوال الملائكة، وقد ورد مثل في الخلق جميعاً، قال تعالى في آية الكرسي: (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) (٥) وقال تعالى: (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً) (٦). فهو سبحانه وتعالى محيط بعباده عليم بجميع أحوالهم لا يخفى عليها شيء.

والآيتان بعد هذه مضمونهما لا يختلف عن المضمون السابق، فالأولى منها في قصة سليمان عليه السلام، والشاهد فيها قوله تعالى: (وكننا بكل شيء علمين) فقد أخبر تعالى فيها عن علمه بكل شيء، واللفظ وإن كان ورد في سياق خاص فالعبرة بالعموم فيشمل المعنى كل شيء في الوجود.

وأما الأخير ففيها أيضاً الإخبار عن إحاطة علم الله تعالى بجميع أحوال عباده، فهو يعلم ما أسروا به وما جهروا من الأقوال والأعمال.

قال ابن كثير: (أي إن الله يعلم الغيب جميعه، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون، ويعلم الضواهر والضمائر، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون في أجهارهم وإسرارهم وسيجزيهم على ذلك القليل والجليل) (٧).

-
- (١) سورة الفرقان الآية (٦)
 - (٢) أضواء البيان ٦٠٥/٤ .
 - (٣) وقد سبق الكلام عليه ص (١١٦) من البحث.
 - (٤) انظر تفسير الطبري ١٢/١٧ - ١٣ .
 - (٥) سورة البقرة الآية (٢٥٥)
 - (٦) سورة طه الآية (١١٠).
 - (٧) تفسير ابن كثير ٢١٢/٣ .

وبعد استعراض معانى هذه الآيات نجد فيها مفتيين من صفات الله سبحانه وتعالى وهما العلم والسمع.

أما صفة العلم فقد أثبتتها السلف المالح لله تعالى كما ورد إثباتا بلا تمثيل فلا يماثل علم المخلوقات بل هو علم محيط بما كان وما لم يكن، وما سيكون وما لا يكون لو كان كيف يكون، فهو علم محيط بالكلية والجزئيات، وهذا هو المذهب الصحيح كما قدمنا، ويدل لمحتة النصوص الكثيرة الواردة في الكتاب والسنة.

فمن نصوص الكتاب ما تقدم من آيات السورة حيث ورد فيها صفة العلم بصيغة الفاعل واسم الفاعل وصيغة المبالغة، كما ورد في آيات أخرى بصيغة المصدر (١)،

وهذا كله يدل على أن هذه الصفة ثابتة لله ولا تحتاج إلى أى تأويل كما أن إثباتها لا يقتضى مشابهة لله تعالى بخلقه.

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم: (مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله تعالى) (٢).

ففي هذا الحديث إثبات علم الله تبارك وتعالى، وأنه لا يعلم الغيب إلا هو، وإذا كان بالغيب عالما فما بالك بالشهادة، وهذا يدل على شمول علمه وإحاطته.

ولكثرة أدلة إثبات صفة العلم ووضوحها أثبتتها كثير من المتكلمين، ولم ينكرها إلا من أنكر المفات مطلقا كالجهمية، وقد حكى عن المتفلسفة أنهم أنكروا علم الله بالجزئيات (٣)، كما أنكروا بعض القدرية علم الله بأفعال العباد قبل وقوعها، والمعتزلة وإن كانوا لم يصرحوا بإنكار العلم إلا أن مذهبهم يؤول إلى ذلك، فقد أثبتوا اسم الله العليم والعالم، لكنهم أنكروا الصفة المشتقة منها،

(١) وقد تقدم ذلك في آية الكرسي من ١٣٦٤ من هذا البحث.
(٢) أخرجه البخارى في كتاب الاستسقاء باب لا يدري متى يجيء المطر إلا الله ٥٢٤/٢ والتفسير سورة الأنعام ٢٩١/٨ وسورة الرعد ٢٧٥/٨ وسورة لقمان ٥١٣/٨، والتوحيد باب قول الله تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا) ٣٦١/١٣
(٣) انظر ما كتبه د/سليمان دنيا عن هذه المسألة عند ابن سينا، وذلك في مقدمة تحقيقه للإشارات والتنبيهات لابن سينا ١٠١/٢ - ١٢٣.

واختلفوا في معنى كونه عليما وعالما فقال بعضهم : إنه عالم بنفسه، أو عالم بعلم هو نفسه أو أنه عالم لا يعلم، أو عالم بمعنى أنه ليس بجاهل إلى غير ذلك من الأقوال التي حكما كتب المقالات عنهم (١) .

ولعل السبب في أقاويلهم هذه اضطرابهم في مسألة كلامية مبتدعة أخرى هي هل صفات الله سبحانه وتعالى هي ذاته أم غيره؟ ثم فرعوا على هذه المسألة تفريعات أدت بهم إلى تفرير معظم صفات الله عز وجل عن معانيها (٢) .

وقد أثبتتها الأشاعرة ضمن صفات سبع أثبتوها لله، ولكنهم يخالفون أهل السنة في أنهم جعلوا علم الله قديما وشيئا واحدا يعلم به جميع المعلومات (٣) .

وأما صفة السمع فكغيرها من صفات الله عز وجل أثبتتها سلف الأمة وخيارها على معنائها اللائق بجلال الله وعظمته، فكما أحاط علم الله بكل شيء، وسع سمعه الأصوات كلها مهما دق .

وقد وردت هذه الصفة هنا بلفظ " السميع " ووردت في نصوص أخرى، بصيغ مختلفة كقوله تعالى: (قد سمع الله قول التي تجادل في زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) (٤) .

فقد وردت في هذه الآية الكريمة بصيغة الماضي والمضارع والصفة وهذا يقطع الطريق على من أثبت أن الله سميع لكنه لا يثبت له سمعا (٥) .

وقد عاب الله تعالى على من يعبد ما لا يسمع ولا يبصر قال تعالى حاكيا ما قاله خليله إبراهيم عليه السلام لأبيه (ياأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا) (٦) . فلو كان الله سبحانه لا يسمع لما كان لهذا وجه، وهذه الصفة كمفة العلم أنكراها من أنكر الصفات جميعها كالجهمية، والمعتزلة قالوا فيها كما قالوا في العلم، وكذا الأشاعرة قالوا فيها كما قالوا في العلم (٧) .

-
- (١) انظر شرح الأصول الخمسة ١٨٢ ، وكذا مقالات الإسلاميين ٢٤٤/١ فما بعد .
 - (٢) وسيأتي الحديث عن ذلك في مبحث لاحق انظر من (١٥٤) من هذا البحث .
 - (٣) انظر: أصول الدين للبغدادي ٩٥ - ٩٦، والتبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ص/٩٥ .
 - (٤) سورة المجادلة الآية الأولى .
 - (٥) وهم بعض المعتزلة .
 - (٦) سورة مريم الآية (٤٢) .
 - (٧) انظر أصول الدين للبغدادي ص/٩٦ .

٢ - الآيات التي تورد فيها صفة الرحمة

- ١ - قوله تعالى: (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون) الآية (٢٦)
- ب - قوله تعالى: (وإذ رءاك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي يذكر ءالهم وهم يذكر الرحمن هم كفرون) الآية (٣٦).
- ج - قوله تعالى: (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون) الآية (٤٢).
- د - قوله تعالى: (وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وءاتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعبدین) الآيتان (٨٣، ٨٤).
- هـ - قوله تعالى: (وأدخلنهم في رحمتنا إنهم من الصالحين) الآية (٨٦).
- و - قوله تعالى: (وما أرسلنك إلا رحمة للعالمين) الآية (١٠٧).
- ز - قوله تعالى: (قل رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) الآية (١١٢).

في هذه الآيات جميعا صفة الرحمة مضافة إلى الله سبحانه وتعالى فالآية الأولى وردت ردا على المشركين الذين ادعوا لله ولدا (١)، وفيها صفة "الرحمن" وهو المتصف بصفة الرحمة، ولعل ورود هذه الصفة في السياق هنا - والله أعلم - لإظهار شناعة قولة المشركين، حيث قالوا هذه المقالة الشنيعة في حق الملك المتصف بصفة الرحمة (٢) الشاملة لجميع الخلق الذين هم جميعا عبيد لهم، وهو ربهم الذي لا ينبغي له أن يتخذ ولدا، كما قال في آية أخرى: (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا إن كل من في السموات والأرض إلا ءاتى الرحمن عبدا) (٣).

(١) انظر ص (١١٥) من هذا البحث.
(٢) انظر تفسير أبي السعود ٥١٣/٣.
(٣) سورة مريم الآيات من (٩٠) إلى (٩٣).

وأما الآية الثانية فقد وردت في بيان موقف الكفار من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، وسيأتى الكلام عليها لاحقاً (١)، والشاهد فيها هنا الآن قوله تعالى: (وهم يذكرون الرحمن هم كفرون) أى أن الكفار المشتهزين بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم كفرون بذكر الرحمن، أى بما يجب أن يذكر به من التوحيد والتنزيه عن اتخاذ الشريك أو الولد، فهم " يعيبون عليه عليه الصلاة والسلام أن يذكر آلهتهم التي لاتضر ولاتنفع بالسوء، والحال أنهم يذكرون الرحمن المنعم عليهم بما يليق به من التوحيد أو بإرشاد الخلق بإرسال الرسل وإنزال الكتب، أو بالقرآن كافرون فهم أحقاء بالعيب والإنكار " (٢).

وجوز بعض أهل العلم أن يكون المراد أنهم كفرون بصفة الرحمن، حيث أنكروا هذه الصفة كما حصل في صلح الحديبية. وقال تعالى: (وهم يكفرون بالرحمن) (٣). وكما قال تعالى في شأنهم: (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا) (٤).

ومع أن هذا الإنكار قد حصل منهم فعلاً إلا أن سياق الآية هنا يفيد أن المراد القول الأول، وأنهم أنكروا ذكر الله مع أنهم عابوا على الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر آلهتهم بما يريدون، والمقصود أن الآية قد ورد فيها وصف الله سبحانه وتعالى بالرحمن.

والآية الثالثة ورد فيها أيضاً اسم "الرحمن" وذلك في سياق ذكر كلاءة الله سبحانه وتعالى لعباده في الليل والنهار من الكوارث والنوائب وورود هذه الصفة في (٥) السياق يفيد أن رحمة الله تعالى ورافته بعباده هي التي تحيط بالعباد وتقيم نوائب الليل والنهار.

قال الألوسي: " وفي التعرض لعنوان الرحمانية تنبيه على أنه لاحظ لهم إلا برحمته تعالى، وتلقين للجواب كما قيل في قوله تعالى: (ماغرك بربك الكريم) (٦)، وقيل: إن ذلك إيحاء إلى أن بأسه إذا أراد شديد اليم ولذا يقال: نعوذ بالله عزوجل من غضب الطليم، وتنديم (٧) لهم حيث عذبهم من غلبت رحمته، ودلالة على شدة خيبتهم) (٨).

(١) انظر من (٢٤٠) من هذا البحث (٢) تفسير أبي السعود ٥١٦/٢ .

(٣) سورة الرعد الآية (٣٠) وانظر أضواء البيان ٦٢٣/٤ .

(٤) سورة الفرقان الآية (٦٠) . (٥) ومضى تفسير الآية من (٢٢) من هذا البحث.

(٦) سورة الانقطار الآية (٦) . (٧) عطف على قوله "إيحاء" الواقع خباز عن اسم الإشارة، والتنديم: الإيقاع

(٨) روح المعاني ٥١/٩ وانظر تفسير أبي السعود ٥١٩/٣ .

في الحسرة والندامة .

وأما الآيتان الرابعة والخامسة ففيهما أيضا صفة الرحمة، ولكن بصيغة غير صيغة الآيات الثلاث الماضية، فقد وردت بصيغة أفعل التفضيل في قوله: (وهو أرحم الرّاحمين) وبصيغة المصدر مضافا إلى الله تعالى في قوله: (رحمة من عندنا)، والآيتان في قصة أيوب لما نادى ربه طالبا منه إزالة ما به من ضر، ولما كانت رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده تقتضى دفع الضر عنهم، وتفريج كرباتهم، ذيل دعاءه بصفة الرحمة، بل إنه اكتفى بذكر هذه الصفة عن التصريح بمطلوبه اعتمادا منه على رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء (١).

وأما الآية السادسة فقد وردت في ذكر إسماعيل وإدريس وذى الكفل (٢) وقد ورد فيها أيضا صفة الرحمة بصيغة المصدر مضافة إلى الله تعالى وقد فُتّرت هنا بالنبوة أو الجنة أو الخير كله (٣)، وذلك لأن الرحمة المضافة إلى الله تعالى نوعان:-

أحدهما: من إضافة المفعول إلى الفاعل وهذه الرحمة مخلوقة ومنه تسمية الجنة بالرحمة لأنها خلق للرحمة، وتسمية المطر رحمة.

والثاني: من إضافة الصفة إلى الموصوف، فالرحمة في الآية إذا من النوع الأول (٤).

وأما الآية السابعة فقد أخبر الله سبحانه وتعالى فيها أنه ما أرسل الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم إلا رحمة للعالمين، فرحمته سبحانه وتعالى العامة الشاملة هي التي اقتضت هذه البعثة التي كانت إنقاذا للبشرية من الهاوية التي كانت تتردى فيها، فقد بعث صلى الله عليه وسلم في وقت كانت البشرية فيه قد اصطلت بنار البعد عن منهج الله، فكانت الوثنية قد ضربت أطناجها في معظم أنحاء المعمورة، وكان أهل الكتاب قد غيروا وبدلوا وحرفوا دين الله، فبعث الله نبيه لرد الأمور إلى نصابها ولبيان سبيل الحق للجميع فسعد به من سعد

(١) انظر ما مضى ص (٩٠) من هذا البحث.
(٢) وقد تقدم تفسيرها ص (٩٦) من هذا البحث.
(٣) انظر زاد المسير ٢٨٠/٥.
(٤) انظر بدائع الفوائد ١٨٢/٢.

فدامت الرحمة والتوفيق لهم في الدنيا والآخرة وشقي من شقي فانقطعت عنهم الرحمة بعد فراقهم الدنيا، أما في الدنيا فإن الرحمة حاملة للجميع حتى المكذبين، فقد كانت بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إيذانا بانتها عذاب الاستئصال الذي كان يظال كل من كذب الرسل قال تعالى: (وما كان ليعذبهم وأنت فيهم) (١).

وأما الآية الأخيرة فقد ورد فيها اسم الله " الرحمن " وقد تقدم تفسيرها (٢).
والخلاصة أنه قد وردت في هذه الآيات صفة الرحمة مضافة إلى الله تبارك وتعالى وقد وردت بصيغ مختلفة مما يحول دون تأويلها، وقد أثبتنا أهل السنة لله سبحانه وتعالى على ما يليق بجلاله وعظمته من غير اعتقاد مشابهة بين الرحمة المضافة إلى الله والمضافة إلى المخلوق، وخالفتم الفرق الكلامية، فأولوا صفة الرحمة بإرادة الإنعام على العباد أو بنفس الإنعام عليهم (٣)، وعمدتهم في ذلك أن الرحمة ضعف وخور في الطبيعة وتآلم على المرحوم، وهذا باطل في حق الله تعالى، فلذا يجب صرف معنى الرحمة إلى الإرادة، أو الإنعام.
ويرد عليهم بأن من باب قياس صفات الله بصفات المخلوقين، وقد سبق غير مرة أن السلف رضوا الله عنهم لم يقولوا إن صفات الله كمصفات المخلوقين، بل أثبتوا الصفات لله على ما يليق به من غير اعتقاد تشبيه.
ثم إنه يلزم النفاة في إثبات الإرادة نظير ما فروا منه في إثبات الرحمة لأن الإرادة أيضا ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة، فإن قالوا هذه إرادة المخلوق، قيل: وتلك أيضا رحمة المخلوق (٤).

فلو قدر أن الرحمة تستلزم ما ذكر في حق المخلوق لم يلزم أن تكون كذلك في حق الخالق فلا داعى إلى نفي الصفات بمثل هذه التعليقات (٥).

- (١) سورة الأنفال الآية (٣٣).
(٢) انظر ص (٩١) من البحث.
(٣) انظر الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد للجوينى ص ١٣٨، والصفات الإلهية ص ٢٨٧.
(٤) انظر الرسالة التدمرية ضمن مجموع الفتاوى ١٧/٣ والرسالة الأكميلية ص ٥١/٥٢-
(٥) انظر ما كتبتة حول شبهة التشبيه ص (١٥٣) من هذا البحث.

٢ - الآيات الدالة على صفة الكلام

- ١ - قوله تعالى عن الملائكة: (لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) الآية (٢٧)
 - ٢ - قوله تعالى: (قلنا ينار كوني بردا وسلاما على إبراهيم) الآية (٦٩).
 - ٣ - قوله تعالى عن إبراهيم وبنيه: (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عبيدين) الآية (٧٣)
- فهذه الآيات فيها دلالة على إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى أما الآية الأولى وكذلك الثالثة فقد دلت على هذه الصفة بدلالة الالتزام، وأما الثانية فبدلالة المطابقة (١).

فقوله تعالى عن ملائكته: (وهم بأمره يعملون) معناه أن الملائكة يأتمرون بما أمرهم الله تعالى به، فالضمير في قوله: (بأمره) عائد على لفظ الرحمن الذي سبق في أول الكلام: (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه) وقوله تعالى: (يهدون بأمرنا) إخبار عن أنبيائه إبراهيم وابنيه إسحاق ويعقوب عليهم السلام بأنهم كانوا يرشدون الخلق إلى الطريق الحق، بأمر الله تعالى إياهم بذلك (٢).

وقوله تعالى: (وأوحينا إليهم فعل الخيرات...) فيه إثبات الوحي إلى الأنبياء بفعل الخيرات، فالآيتان دلتا على أن الله سبحانه وتعالى من شأنه أن يأمر الملائكة والرسول وأن يوحي إليهم ومن شأنهم أن يطيعوه، والأصل في الأمر والوحي أن يكونا بالكلام، كما قال تعالى: (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) (٣).

وقال تعالى: (وما كان ليشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء) الآية (٤).

(١) قال ابن القيم: "الاسم من أسمائه تبارك تعالى كما يدل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة فإنه يدل عليه دلالتين أخريين بالتضمن واللتزم، فيبدل على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة، وسمعه بالمطابقة، وعلى الذات وحدها، وعلى السمع وحده بالتضمن، ويدل على اسم "الحي" وصفة الحياة بالالتزم، وكذلك سائر أسمائه وصفاته، ولكن يتفاوت الناس في معرفة اللزوم وعدمه". مدارج السالكين ٣٩١. وبهذا النقل يتضح معنى قولنا أن الآية الأولى والثالثة تدل على الكلام بالالتزام والثانية بالمطابقة.

(٢) وقد تقدم معنى الآية في ص (١٠١) من هذا البحث.

(٣) سورة يس الآية (٨٢).

(٤) سورة الشورى الآية (٥١)

وقال تعالى : (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو

العلی الكبير) (١)

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله تعالى كأنه سلسلة على صفوان يسنفذهم ذلك، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق وهو العلي الكبير) (٢) وفي بعض روايات الحديث (تكلم بالوحي).

وهذا الحديث مفسر لمعنى الآية وأن الله سبحانه وتعالى إذا قضى أمرا تكلم بالوحي فإذا سمعت الملائكة رجفة السماء من خوف الله صعقوا وخروا سجدا لله فيكون جبريل أول من يرفع رأسه فيوحى الله إليه ما شاء، فإذا مر بالملائكة بعد أن يكونوا قد فزع عنهم وزال خوفهم سأله ماذا قال الله، فيجيبهم قال: الحق، ويسأل بعض الملائكة بعضا فيجيبون بقولهم : قال الحق وهو العلي الكبير.

والحديث بمجموع طرقه يدل على أن الله إذا أراد أمرا أوحى به إلى الملائكة، وكذلك الأمر بالنسبة لا وأمره لأنبيائه فإنه يتم أيضا عن طريق الوحي كما قال تعالى: (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مما يشاء إنه على حكيم) (٣).

فهذه مراتب الوحي الثلاث، وقد سماها كلها تكلما.

إذا فأمر الله سبحانه وتعالى متضمن لكلامه لأنه يتم عن طريق التكلم ومخاطبة المأمورين بما يهد منهم أن يفعلوه.

-
- (١) سورة سبأ الآية (٢٢).
(٢) رواه البخاري في مواضع صحيحة، وهي كتاب التفسير، باب "إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين" ٢٨٠/٨.
وباب (حتى إذا فزع عن قلوبهم الآية ٥٢٧/٨ - ٥٢٨، وكتاب التوحيد باب قوله تعالى: (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) ٤٥٣/١٢.
(٣) سورة الشورى الآية (٥١).

وأما الآية الثانية ففيها التصريح بنسبة القول إلى الله تعالى وهذا القول امر وهو قوله تعالى للنار: (كونى بردا وسليما على إبراهيم)

وفي قصة إبراهيم هنا دلالة أخرى على إثبات صفة الكلام لله عز وجل وهو أنه عاب على قومه كونهم يعبدون آلهة لا تنفع ولا تضر ولا تنطق وتهكم بهم حين قال لهم: (فسألوهم إن كانوا ينطقون) الآية (٦٣)، فما كان ردهم إلا أن قالوا: (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) الآية (٦٥) فلو كان إلهة أيضا لا ينطق لتغيرت صيغة الرد وقالوا: وربك أيضا لا ينطق، أو أنه لو كان ربه لا ينطق لما وجه إليهم هذا الكلام (١). وقد وردت نصوص أخرى كثيرة بهذا المعنى وسيأتى بعضها في استدلالات السلف.

وما دلت عليه هذه الآيات من إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى قد اتفقت عليه طوائف أهل الكلام في الجملة، ولكنهم اختلفوا في معنى هذه الصفة وتعلقها بالله عز وجل.

وسأذكر مذهب أهل السنة في المسألة مرفعا إياه بمذاهب غيرهم والرد عليها على وجه الاختصار.

١ - مذهب أهل السنة والجماعة: وهو أن الله سبحانه وتعالى يتكلم بما شاء كما يشاء متى يشاء، ولم يزل كذلك ولا يزال، فنوع كلامه قديم، بمعنى أنه لم يكن يوما من الأيام غير متصف بهذه الصفة، وآحاده متجددة فهو قد تكلم مع موسى عليه السلام، ويتكلم مع الملائكة، وسيكلم عباده يوم القيامة في العرصات، كما سيكلم كلا منهم ليس بينه وبينه ترجمان، وسيكلمهم في الجنة والنار، ومن مذهبهم أن كلامه سبحانه وتعالى بصوت وحرف، وأنه صفة له ليس بمخلوق، وأن القرآن الكريم وكذلك الكتب المنزلة الأخرى على الأنبياء والرسل، كلام الله غير مخلوق.

وقد توافرت نصوص الكتاب والسنة بكل الذي تقدم ذكره من مذهبهم كما دل عليه العقل السليم.

فمن نصوص الكتاب قوله تعالى: (وإن قال ربك للملائكة إنى جاعل في الأرض خليفة) الآية (٢).

١١) انظر الرد على الجهمية للدارمي ص/١٢٢ - ١٢٤ .
٢) سورة البقرة الآية (٣٠).

وقوله تعالى: (وكلم الله موسى تكليماً) (١).

وقوله تعالى: (ونديناه من جانب ^{الطُّورِ} الأيمن وقربناه نجياً) (٢).

وقوله تعالى: (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) الآية (٣).

ففي هذه الآيات دلالات على الأمور التالية:-

- ١ - أن الله يتكلم متى شاء ومع من شاء فقد كلم الملائكة قبل خلق آدم وكلم موسى وفي هذا دلالة على أن آحاد كلامه متجددة.
- ٢ - أن كلامه سبحانه وتعالى بصوت وحرف، أما الصوت فلأن موسى عليه السلام سمعه حين نودى، وأما الحرف فلأن مقول القول مكون من حروف باللغة التي فهمتها الملائكة، والتي فهمها موسى أيضاً، والقرآن أيضاً مؤلف من حروف وكلمات.
- ٣ - أن القرآن كلام الله، لأنه هو الذي يتلى على المشرك المستجير فيسمعه ثم يظن سبيله ليقرر ماذا يفعل.
- ٤ - أن تلاوتنا للقرآن لاتخرجه عن كونه كلام الله فقد سمي الله سبحانه وتعالى ما يتلى على المشرك كلاماً له، لأن الكلام ينسب إلى من قاله ابتداءً وإن حكاه غيره بعد ذلك.

ومن نصوص السنة :

قوله صلى الله عليه وسلم: (مامنكم أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان ولا حجاب يوجبه) (٤).

-
- (١) سورة النساء الآية (١٦٤)
 - (٢) سورة مريم الآية (٥٢)
 - (٣) سورة التوبة الآية (٦).
 - (٤) أخرجه البخارى في مواضع من صحيحه وهي: كتاب الزكاة باب الصدقة قبل الرد ٢٨١/٣، وكتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام ٦١٠/٦ - ٦١١، وكتاب الرقاق باب من نوقش الحساب عذب ٤٠٠/١١ وكتاب التوحيد باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ٤٧٤/١٣، ومسلم في الصحيح كتاب الزكاة ٧٠٢/٢ - ٧٠٤ ح (٦٧).

٢ - قوله صلى الله عليه وسلم : (يقول الله تعالى: يا آدم فيقول: لبيك وسعديك، فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار)(١).

٢ - قوله صلى الله عليه وسلم : (إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبدا نادى جبريل: إن الله قد أحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل) الحديث (٢).
ففي هذه الأحاديث وأمثالها إثبات لهذه الصفة، ودليل على صحة ما ذهب إليه أهل السنة في الباب.

وأما دلالة العقل فإن الكلام صفة كمال، وإذا كان متعلقا بالمشيئة كان أكمل فمن يتكلم بمشيئته وقد رتبته أكمل ممن يكون الكلام لازما لذاته، ليس له فيه قدرة ولا له فيه مشيئة (٣).

وإذا كان أهل السنة يشيئون الكلام لله تعالى فإنهم يشيئون له على ما يليق بجلاله وعظمته من غير اعتقاد أنه يعاثر كلام المخلوقين.

قال البخاري - بعد أن علق حديثا - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله ينادى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب) -: (فليس هذا لغير الله جل ذكره وفي هذا دليل أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق لأن صوت الله جل ذكره يسمع من بعد كما يسمع من قرب، وأن الملائكة يصعقون من صوته، فإذا تنادى الملائكة لم يصعقوا)(٤).

(١) أخرجه البخاري في أربعة مواضع من صحيحه وهي: كتاب الأنبياء باب قصة ياجوج وماجوج ٢٨٢/٦ والتفسير باب (وترى الناس سكارى) ٤٤١/٨ والرقائق باب قوله عز وجل (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) ٢٨٨/١١ والتوحيد باب قول الله تعالى: (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) (٤٥٣/١٣) ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان ٢٠١/١ - ٢٠٢ ح (٢٧٩).

(٢) أخرجه البخاري في ثلاثة مواضع من صحيحه وهي: كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة ٢٠٣/٦ والآداب باب المقفة من الله تعالى ٤٦١/١٠ والتوحيد باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة ٤٦١/١٣ ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب ٢٠٣٠/٤ ح (١٥٨).

(٣) انظر مجموع الفتاوى ٥٢/١٢ وكذا ٥٨٤/١٢ ومنهاج السنة النبوية ٣٦٢/٢ - ٣٦٣

(٤) خلق أفعال العباد للبخاري ١٤٩ .

٢ - المذاهب المخالفة لمذهب السلف :-

ذهب الذين خاضوا في علم الكلام وتركوا مذهب السلف في هذه المسألة مذاهب شتى، حكاهما العلماء عنهم وردوماً، ومن أهم تلك المذاهب مايلي :-

١ - مذهب من يرى أن كلام الله هو ما يخلقه في غيره، فما ورد من النصوص من أن الله ينادى معناه أنه يأمر ملكاً أن ينادى، وما سمعه موسى عليه السلام هو ما خلقه الله من كلام في الشجرة، وهكذا.

وهذا قول الجهمية والمعتزلة ومن سار على طريقتهم (١)، والفرق بين الجهمية والمعتزلة في هذه المسألة أن الجهمية أنكرت أن الله متكلم حقيقي، بينما المعتزلة يقولون : إن الله متكلم حقيقة (٢)، ولكن هذا ليس فرقاً ذابالاً، لأن الله إذا خلق الكلام في غيره، فالكلام كلام ذلك الغير لا كلام الله، ولذا فنحن لانسمى ما نتكلم به الآن كلام الله وإن كنا نعتقد أننا وما نتكلم به من خلق الله، وهذا من أقوى ما يرد به على هذا المذهب، فكل ما يتكلم به البشر من كلام أنفسهم مخلوق لله تعالى، وإذا كان كلام الله هو ما يخلقه في غيره، فكيف يفرق إذا بين كلام الله وكلام غيره؟ ولماذا ينسب بعض كلام المخلوقين إلى أنفسهم وبعضه إلى الله؟ مع العلم بأنه إذا خلق الله في بعض الأجسام حركة أو طعماً أولوناً كان ذلك الجسم هو المتحرك المطعوم المتلون، وإذا خلق بمحل علماً وقدرة وكلاماً كان ذلك المحل هو العلم القادر المتكلم، فلو كان الله خلق في الشجرة التي سمع موسى النداء عندها كلاماً لكانت هي المتممة بذلك الكلام، وكما لاتنسب قدرة المخلوقين وألوانهم وحركاتهم إلى الله تعالى، فكذلك ما قام بهم من كلام لا ينسب إلى الله (٣)، فإذا لازم مذهب هؤلاء وقد أثبت الله لنفسه الكلام، وأثبتته له رسوله صلى الله عليه وسلم وأجمع عليه سلف الأمة، وفي ذلك كفاية لما كان قصده السير على الصراط المستقيم والاعتصام بحبل الله المتين.

- (١) انظر شرح الأصول الخمسة ٥٢٨ والفرق بين الفرق ٧٩ ومجموع الفتاوى ٤٨/١٢ و١١٩ و١٦٢ ومنهاج السنة النبوية ٢/٢٥٩ - ٣٦٠ .
(٢) انظر مجموع الفتاوى ١٢/٣١١ - ٣١٢ .
(٣) انظر مجموع الفتاوى ١٢/٥١١ فما بعد .

قال الدارمي (١) مبيناً السبب الذي دعاه إلى إيراد النصوص لإثبات هذه الصفة: (الفنا هذه الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين من بعدهم ليعلم من بقى من الناس أن من مضى من الأمة لم يزلوا يقولون في ذلك كما قال الله عز وجل، لا يعرفون له تأويلاً غير ما يتلى من ظاهره أنه كلام الرحمن تبارك وتعالى، حتى تبغ هؤلاء الذين (اقتربوا) (٢) لرد كتاب الله عز وجل وتعطيل كلامه وصفاته المقدسة بهذه الأغلوطات التي لو ظهرت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما كان سييل من يظهرها بينهم إلا كسبيل أهل الردة، أولها الكلمة الملعونة التي فارقوا بها جميع أهل الصلاة، فقالوا: كلام الله مخلوق...) (٣) الخ.

فعد صرح بإجماع السلف على هذا حتى جاءت الجهمية بمقالتهم التي صرح بأنهم فارقوا بها جميع أهل الصلاة.

ب - مذهب من يرى أن كلام الله معنى نفسى قائم بذاته أزلا وأبدا ولا يتعلق بالمشيئة والقدرة، و أن هذا الكلام معنى واحد في الأزل، وهو الأمر والنهي والخبر، والكتب المنزلة على الرسل عبارة عن ذلك الكلام النفسى وحكاية له، وأصحاب هذا المذهب يرون أن كلام الله منزله عن أن يكون بصوت أو حرف، والقرآن المنظوم بلغة العرب المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم على هذا القول مخلوق، وإنما كلام الله الذى لا يسمونه مخلوقاً هو المعنى النفسى القائم بذاته وهو حقيقة الكلام عندهم.

وإلى هذا المذهب ذهبت الكلابية والأشعرية (٤).

-
- (١) هو عثمان بن سعيد بن خالد الإمام العلامة الحافظ الناقد أبو سعيد الدارمي السجستاني صاحب المسند الكبير والتصانيف (ت ٢٨٠هـ)، أنظر ترجمته في : الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١٥٢/٦، وسير أعلام النبلاء ٣١٩/١٣، وتذكرة الحفاظ للذهبي ٦٢١/٢ وشذرات الذهب ١٢٦/٢ .
- (٢) لم يظهر لى معنى هذه الكلمة .
- (٣) الرد على الجهمية للدارمي ١٥٤ .
- (٤) انظر مقالات الإسلاميين ٢٥٧/٢ - ٢٥٨، وتحفة المرید ٧١ والتبصير في الدين ١٠١، والإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ص/١٠٥ فما بعد، ومنهاج السنة النبوية ٣٦٠/٢ .

وهذا المذهب مردود لمخالفته لنصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

وتتضح هذه المخالفة مما تقدم من أدلة إثبات هذه المفة عن أهل السنة، فإن الله تعالى أخبر أنه كلم موسى نكليما وناداه فسمع موسى النداء، وجرى بينه وبين ربه من المخاطبة ما أخبرنا به سبحانه وتعالى في قوله: (وما تلك بيمينك يا موسى قال هي عماء أتوكؤا عليها وأمش بها على غنمي ولي فيها مغارب أخرى قال ألقها يا موسى فالتقمها فإذا هي حية تسعى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى) (١) الخ الآيات.

وفي هذا دلالة واضحة على أن كلامه سبحانه وتعالى بحرف وصوت وأن موسى سمعه حقيقة.

ويرد هذا المذهب أيضا ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله ينادي يوم القيامة بصوت (٢) ويخاطب الخلق كلهم بقوله : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون(٣)، وهذا كلام واضح لا يحتاج إلى أي تأويل.

وأما إجماع السلف على ذلك فقد اعترف به أهل هذا المذهب فهم يقولون : إن السلف لم يكلفوا أنفسهم في تأويل هذه النصوص وأن مذهبهم لذلك كان أسلم.

وفي المسألة مذاهب أخر لم أر داعيا للأشتغال بها، لوضوح بطلانها لأنها مبنية على القولين السابقين، وبعضها مبنية على أمور بعيدة عن روح الإسلام ومصادره (٤).

-
- (١) سورة طه الآيات من (١٧) إلى (٢١).
 - (٢) سبق تخريج هذا في ص (١٤٧) من هذا البحث.
 - (٣) ثبت ذلك في حديث ابن عمر الأعلف البخارى في كتاب التوحيد في صحيحه باب قول الله تعالى (ولاتنفع الشفعة عنده إلا لمن أذن له) الآية ~~والمسلم~~ في كتاب صفة المنافقين وأحكامهم في صحيحه ٢١٤٨/٤ ج [٢٤].
 - (٤) ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في منهاج السنة النبوية ثمانية أقوال في المسألة بالإضافة إلى مذهب السلف، فمن أراد المزيد فعليه بد ٣٥٨/٢، وكذا شارح الطحاوية ص/١١٩ فما بعدها.

٤ - الآيات الدالة على الصفات الأخرى:-

١ - الحفظ والكلاءة قال تعالى: (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون: الآية [٤٦])
وقال تعالى: (ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حفيظين) الآية (٨٢).

ب - الحساب، قال تعالى: (ونضع الموازين القسط ليوم القيمة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أثينا بها وكفى بنا حسيين) الآية (٤٧).

ج - الإرث: قال تعالى: (وزكريا إذ نادى ربه رب لاتذرنى فردا وأنت خير الوارثين) الآية (٨٩).

د - الحكم، قال تعالى: (قل رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) الآية الأخيرة من السورة (١١٢).

فالآية الأولى والثانية فيهما إثبات صفة الحفظ لله تعالى، فقوله تعالى: (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن) الآية فيه إثبات أن الله هو الكالء وأنه لا كالء للعباد غيره، والكلاءة الحفظ(١)

وقوله تعالى: (ومن الشياطين من يغوصون له...) في قصة سليمان وما سخر الله له من الجن الذين كانوا يعملون بين يديه بإذن ربه أنواع الأعمال التي لا يقدر عليها البشر.

والشاهد في الآية قوله تعالى: (وكنا لهم حفيظين) ففيه إثبات صفة الحفظ لله تعالى، وأنه سبحانه الحافظ، والآية وإن كانت وردت في مورد خاص هنا وقيدت الحفظ بالجن يقوله تعالى: (لهم) والضمير يرجع إلى الشياطين - وهم الجن - فقد وردت آيات أخرى عممت حفظ الله لعباده أجمعين، كالأية السابقة لهذه الآية هنا وكقوله تعالى - على لسان نبيه يعقوب عليه السلام - : (فالله خير حفيظا وهو أرحم الرحمين)(٢).

(١) وقد تقدم تفسير هذه الآية من (٣٢) من هذا البحث .
(٢) سورة يوسف الآية (٦٤).

فهو - سبحانه - الحافظ الحقيقي لعباده ، وهو خير الحافظين، لأنه - سبحانه - أعلم بمنافذ الضرر وأقدر على درءه من غيره من الخلق الذين كل منهم في أمس الحاجة إلى حفظه تبارك وتعالى لهم.

والآية الثالثة في ذكر وقائع يوم القيامة، فقوله تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيمة ..) أي الميزان العدل، وقد جمع باعتبار ما يوزن فيه فكان لكل صاحب عمل موزون ميزانا خاما به (١).

وقوله تعالى : (فلا تظلم نفس شيئا ..) أي أنه - سبحانه - سيجازى كل واحد على عمله من غير زيادة في سيئات المسيئين، ولانقمان في حسنات المحسنين بل يوفى كل ما يستحق، ولا يظلم شيئا مهما دق، وإن كان مثل وزن حبة الخردل في الدقة فلا يسقط. (٢)

ثم قال تعالى : (وكفى بنا حسيين) أي وكفى بنا محصين لأعمال العباد، فهو - سبحانه - يحصى كل أعمالهم لا يسقط منها شيء لكمال علمه وإحاطته بهم ثم يوفيهم جزاءها.

ومثل هذه الآية في نسبة الحساب إلى الله تعالى قوله عز وجل : (لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أوتخفوه يحاسبكم به الله) (٣) ..

(١) سيأتي تحقيق الكلام على الميزان ص (٣٠١) من هذا البحث.
(٢) انظر: تفسير الطبري ٢٥/١٧ وابن كثير ١٨٩/٢ .
(٣) سورة البقرة الآية (٢٨٤).

وقوله تعالى : (ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين) (١).

وهذه الآية الأخيرة توضح أن حساب الله تعالى ليس كحساب غيره، بل هو أسرع الحاسبين.

وأما الآية الرابعة ففي مناداة زكريا ربه وطلبه منه أن يرزقه من يخلفه من بعده ممن يحمل لواء النبوة في بنى إسرائيل (٢)، والشاهد فيها قوله تعالى : (وأنت خير الوارثين) فقد وصفه سبحانه وتعالى بأنه خير الوارثين فهو سبحانه الذى يرث جميع الخلق لأنه الباقي بعدهم فكل من على الأرض فان ولا يبقى إلا الله تبارك وتعالى.

وقد وردت هذه الصفة مضافة إلى الله تعالى في غير ما آية وبصيغ مختلفة فقد وردت هنا بصيغة اسم الفاعل وكذا في قوله تعالى : (وأنا لنحن نحي وننميت ونحن الوارثون) (٣).

ووردت بصيغة الفعل في نحو قوله تعالى : (إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون) (٤) كما وردت بصيغة التملك في قوله تعالى : (ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير) (٥).

وهذه الصفة من صفات الله تعالى الدالة على بقاءه وكمال ملكيته لما في السموات والأرض، فهو المالك الحقيقي لما فيهما، وإذا استخلف أحدا من عباده في شيء منه، فإنه سيعود إليه بعد فناء من عليهما، فكما أن له الجميع ابتداء فهو له انتهاء.

وأما الآية الأخيرة ففي دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ربه وسؤاله إياه أن يحكم بينه وبين قومه، فقوله : (قل رب احكم بالحق) أى قال الرسول رب احكم بينى وبين قومى بالحق، وقد قرئ بلفظ الأمر (٦) أى أن الله أمر نبيه أن يقول ذلك، وقوله : (وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) أى إنما استعين أنا ومن

(١) سورة الأنعام الآية : ٦٢ . (٢) وقد تقدم تفسيرها من (٩١) من هذا البحث.

(٣) سورة الحجر الآية : ٢٣ . (٤) سورة مريم الآية : ٤٠ .

(٥) سورة آل عمران الآية : ١٨٠ .

(٦) قرأه حفص وحده بلفظ الماضى وقرأه غيره من القراء العشرة ورواتهم بلفظ الأمر، انظر تقريب النشر من ٤٤/ .

اتبعنى بربنا الرحمن الذى وسعت رحمته كل شيء فهو المستعان على ما تقولون من الكذب في حقه سبحانه وتعالى وفي حق كتابه ورسوله (١).

وقد وردت في هذه الآية صفتان من صفات الله وهما صفة الرحمة والحكم، أما الأولى فقد سبق الكلام عليها (٢).

وأما الثانية فهي من أفعال الله تعالى، وقد وردت منسوبة إليه هنا بلفظ الفعل، ووردت في آيات أخرى بلفظ " الحاكم " كما في قوله تعالى: (واتبع ما يوحى إليك وامبر حتى يحكم الله وهو خير الحكمين) (٣).

وبلفظ المصدر مضافا إليه سبحانه وتعالى كما في قوله تعالى: (ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم) (٤).

وقد وردت في السنة بلفظ " الحكم " وذلك في حديث أبى شريح، وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله هو الحكم وإليه الحكم) وذلك أنه كان يكنى أبى الحكم فغير النبي صلى الله عليه وسلم اسمه وسماه " أباشريح " لأن أكبر أبنائه كان يدعى شريحا (٥).

وهذه الصفة ثابتة لله تعالى فهو الحاكم الحقيقي الذى له الحكم في الدنيا والآخرة، ولما عقب لحكمه ولا راد لأمره، فليس أمام العبد إلا أن يرضى بحكمه ويسلم لأمره.

-
- (١) انظر تفسير الطبري ٨٥/١٧ .
 - (٢) انظر ص (١٣٥) من هذا البحث .
 - (٣) آخر سورة يونس الآية : ١٠٩ .
 - (٤) سورة الممتحنة الآية : ١٠ .
 - (٥) الحديث أخرجه أبوداود في كتاب الأدب من سننه باب تغيير الاسم القبيح ٢٨٩/٤ ورقم الحديث : ٤٩٥٥ ، والنسائي في المجتبى كتاب آداب القضاة باب إذا حكموا رجلا ففضى بينهم ٢٢٦/٨ .

المبحث الثالث

شبه المخالفين للسلف في باب الصفات والرد عليها

أجملت القول فيما مضى في مذاهب المخالفين لسلف الأمة وخيارها في الصفات
عموماً، وفي الصفات الواردة في سورة الأنبياء على وجه الخصوص، وهي دائرة بين
نفي الصفات، أو إثباتها مع التمثيل أو التأويل أو التفويض.

ولكل طائفة ممن سلك أحد هذه المذاهب شبهة تعلق بها، ويمكن تلخيص تلك الشبه
في أربع :-

١ - شبهة التركيب

٢ - شبهة التشبيه

٣ - شبهة تعدد القدماء

٤ - شبهة حلول الحوادث بالله تعالى.

والشبه الثلاث الأول عائدة إلى شبهة التجسيم، وسأتناول كل شبهة بحديث مستقل
مبيناً من قال بها والرد عليها.

١ - الشبهة الأولى " شبهة التركيب " وهي للمتفلسفة الذين حاولوا الجمع بين
فلسفة اليونان وما جاء من حقائق الدين الإسلامي، وعلى رأسهم ابن سينا، وبسط
هذه الشبهة : أنه لو كان لله تعالى صفة لكان مركباً، والمركب مفتقر إلى
أجزاء وأجزاءه غيره، والمفتقر إلى غيره لا يكون واجباً بنفسه (١).

(١) انظر : تهافت الفلاسفة للغزالي ٤٠ ومنهاج السنة النبوية ٥٤١/٢ فما بعد
وكتاب المقضية ٢٤٣/١ .

وهذه شبهة قد تناولها العلماء بالرد المفحم، وممن أجاد هذا الرد الغزالي (١) في تهافت الفلاسفة، وشيخ الإسلام ابن تيمية في كتبه، وحاصل ردهما أن ألفاظ هذه الشبهة مجملة محتملة لعدة معان، ولا بد من توضيحها، فلفظا المركب والمفتقر يحتملان أكثر من معنى، فالمركب قد يراد به ما ركبه غيره، أو ما كان متفرقا فاجتمع، أو ما يقبل التفريق، والله تعالى منزّه عن هذه المعانى قطعاً، كما أن هذه المعانى ليست لازمة للقول باتصاف الله تعالى بصفاته.

لكن إن أريد بالمركب الذات الموصوفة بصفاتها اللازمة، وهذا الذى يلزم من القول باتصاف الله بصفاته، فلا دليل على أن هذا المعنى ممتنع في حق الله تعالى، بل الأدلة قائمة على نقيض ذلك، وتسميته هذا المعنى تركيبياً ليست تسمية لغوية ولا شرعية، وإنما هي اصطلاح، ونحن لانمانع من إطلاق هذا المعنى على الله تعالى، أما اللفظ "وهو المركب" فلانطلقه عليه سبحانه وتعالى لأنه يوهم باطلاً، ولأننا في هذا الباب ملتزمون بأن لانطلق على الله ولانصفه إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم.

ولفظ الافتقار إن أريد به أن الصفات غير الذات بمعنى أنها مباينة لها ومع ذلك فوجود الله متوقف عليها، فهذا باطل، فإنما الكلام في الصفات اللازمة لذاته ونحن لانقول : إنها مباينة للذات.

وإن أريد بالافتقار أن الصفات تعقل بدون الذات والذات تعقل بدون الصفات، ومع ذلك فالصفات لازمة للذات، فهذا لانرى أنه محذور فيه.

(١) هو الشيخ أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعى الغزالي صاحب التصانيف التي منها إحياء علوم الدين وتهافت الفلاسفة، غلافى التصوف وتجرد لنصرة مذهبهم هي أكثر المؤاخذات عليه. قال ابن العربي: شيخنا أبو حامد بلغ الفلاسفة وأراد أن يتقياهم فيما استطاع (ت ٥٠٥ هـ) انظر ترجمته في: الكامل لابن الأثير ٢٦٤/٨ وسير أعلام النبلاء ٢٢٢/١٩ والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد ٢٧ - ٢٨ والبداية والنهاية ١٢/١٨٥ - ١٨٦.

وإن أريد بالافتقار أن الصفات مفتقرة إلى الذات كافتقار المفعول إلى الفاعل أو الجسم إلى الحيز، فهذا لا يلزمنا فإننا لانقول: أن الله خلق صفاته، وليست العلاقة بين الصفة والموصوف علاقة فعل بفاعل أو جسم بحيز.

وخلاصة القول أنهم نفوا صفات الله عز وجل بدعوى أن الاتصاف بصفة معناه التركيب من الذات والصفة، وافتقار كل في وجوده إلى الآخر والواجب الوجوده لا يكون مفتقرا إلى غيره، لكنهم غفلوا عن أن وجود ذات مجردة عن كل وصف ممتنع في صريح العقل، وأن القول بوجوده معناه أن الله - تعالى عن ذلك - لا وجود له إلا في الأذهان، ويمتنع وجوده في الخارج فضلا عن أن يكون واجب الوجود (١).

الشبهة الثانية قول الجهمية: إن إطلاق الصفات على الله تعالى يقتضى مشابهته بخلقه، ولذا لا يوصف الله بأى صفة يوصف بها المخلوق، فلا يوصف بأنه عالم أو سميع أو مرید ونحوه، وإنما يقال في حقه: إنه قادر موجد فاعل خالق محي مميت، لأنه لا يصح وصف العباد بشيء من هذا (٢)، ولذا شاع عن الجهمية تسمية كل مثبت للصفات مشبها، وأكثروا من ذم التشبيه، حتى أن السلف «كانوا إذا رأوا الرجل يكثر من ذم المشبهة عرفوا أنه جهمي معطل، لعلمهم بأن هذا الاسم قد أدخلت الجهمية فيه كل من آمن بأسماء الله تعالى وصفاته» (٣).

والرد على هذه الشبهة أن مجرد الاشتراك في الاسم أو الصفة لا يوجب المشابهة فالاسم إذا أطلق على الله كان معناه مغايرا لما يطلق على العبد، وإن كان هناك اشتراك كلي في المضمون، ومن المعلوم أن الصفات تابعة للذات، وأن صفة كل ذات إنما هي بحسب ما يليق بها، وكما أن ذات الله ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس المخلوقات، فصفاته ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس صفات المخلوقات.

ثم إن اتفاق المسميين في بعض الأسماء والصفات ليس هو التشبيه والتمثيل الذي نفته الأدلة السمعية والعقلية، وإنما نفت تلك الأدلة ما يستلزم اشتراكهما فيما يختص به الخالق، فلا يشركه أحد في شيء من خصائصه - سبحانه وتعالى " (٤).

- (١) انظر رد الشبهة في: تهافت الفلاسفة للغزالي ٤٠ ، ومنهاج السنة النبوية ١١٦/٢ فما بعد ٥٤١ فما بعد .
(٢) انظر: التبصير في الدين وتمييز الفرق الناجية عن الفرق الهالكين ٦٤ .
(٣) بيان تلبس الجهمية ١٠٤/١ - ١٠٥ .
(٤) مجموع الفتاوى ٢٥/٢ .

وهؤلاء الذين نفوا الصفات فرارا من التشبيه وقبعا في تشبيه أقيح مما فروا منه فقد شبهوا الخالق حين نفوا صفاته بالمعدومات والممتنعات، لأن وجود ذات متجردة عن كل صفة يمتنع وجودها، والمعدوم هو الذي لاصفة له لأنه لاوجود له فضلا عن أن يتصف بشيء (١).

الشبهة الثالثة والرابعة : أطلقها المعتزلة وجعلوها سببا في نفي صفات الله وإن كانوا لم يصرحوا بنفي الصفات، وإنما قالوا: إنها هي الذات وأنه ليست هناك صفات زائدة على الذات.

وقالوا في بسط الشبهتين: إنه لو كانت هناك صفات زائدة على الذات للزم أحد محالين، المحال الأول: أن تكون قديمة فيلزم تعدد القدماء، وقد كفرت النصارى لادعائهم أن القدماء ثلاثة. المحال الثاني: أن تكون الصفات محدثة فيلزم قيام الحوادث بالبارئ، وهو محال.

وقد وافقهم الأشعرية في الثاني وجعلوه سببا لتأويل كثير من الصفات التي ادعوا أن إثباتها على ظاهرها يؤدي إلى القول بحلول الحوادث بالبارئ جل وعلا والحوادث لا تحل إلا بحدوث مثلها، فيكون الله حادثا تعالى عن ذلك (٢).

وللرد على الشبهتين أقول: إنهما مبنيتان على قضية ثالثة اختلف فيها رأى المتكلمين وهي: هل الصفات زائدة على الذات أم أنها هي الذات؟

وهذه المسألة فيها رأيان مشهوران (٣) يمثل المعتزلة الرأى الأول وهو القول بأنه ليست هناك صفات غير الذات، بل إن الصفات هي الذات بعينها، وهذا القول تحقيقه نفي الصفات، ولذا عد المعتزلة من نفاة الصفات لأن القول بأن الصفة هي الذات معناه أن الأسماء المشتقة من الصفات والتي ورد إطلاقها على اللد تعالى في كتابه العزيز وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم إنما هي مجرد الفاظ موضوعة للتسمية لاتدل على شيء زائد على إثبات وجود الذات، وقد صرح أكثر المعتزلة بنفي الصفات (٤) فقالوا: إن الله عالم قادر حى بنفسه لا يعلم وقدرة وحية، فأثبتوا الأسماء ونفوا معانيها.

-
- (١) انظر المصدر السابق ٢٥/٣ .
(٢) انظر المسائل الخمسين في أصول الدين للرازي ٤٣ .
(٣) أما الرأى الثالث القائم بأنه لا يقال أن الصفات الذات أو غيرها أو مباينة أو موافقة أو ملازمة لها أو متصلة أو منفصلة عنها إلى آخر تلك السلوب الممتنعة في صريح العقل، هذا الرأى إلى شمس غير معقول ولا يقبل المناقشة، ولذا أعرض عنه، انظر التبصير ١٠٠ .
(٤) انظر مقالات الإسلاميين ٢٤٤/١ .

وأما الرأي الثانى فهو قول السلف وجمهور الأشاعرة ، وهو أن الصفات زائدة على الذات، بمعنى أن المعنى الذى يفيد كل صفة معنى زائد على الذات المجردة التى افترض وجودها ذهنياً، والتى اثبتتها نفاة الصفات، وإن كان هذا الوجود ممتنعاً فى الخارج، (١) ولم يكن من عادة السلف التوسع فى مسائل من هذا القبيل لما فيه من تعمق وتعقيد لأمر العقيدة التى يجب أن تكون صافية نقية ، بسيطة غير معقدة ، ولكن لما أثار المتكلمون المسألة كان لابد من بيان وجه الحق فيها فانبرى علماء السلف للرد على المعتزلة ، وأوضحوا أن وجود حى بلا حياة ، وعالم بلا علم ، وسميع بلا سمع ، ونحو ذلك من أقاويل المعتزلة ممتنع فى صريح العقل ، كما أنه مخالف لنصوص الكتاب والسنة الكثيرة (٢) وقد تقدم فى المبحث السابق التنبية إلى أن ورود الصفات بلفظ الفعل تارة ولفظ المصدر تارة أخرى يبين صحة مذهب السلف ، وأن الصفات زائدة على الذات بمعنى أن كلاً منهما يعقل دون الآخر ، ولكن ليس معنى ذلك أن الصفات منفصلة عن الذات ، بل هى متعلقة بها ولازمة لها .

وإذا كانت القضية هكذا فهل إثبات صفات زائدة على الذات يؤدي إلى المحالين المذكورين ؟

والجواب لا ، أما فيما يخص القول بتعدد القدمات فإن المثبتين للصفات لم يقولوا إنها مستقلة عن الذات حتى يلزم من إثباتها تعدد القدمات بل يقولون إنها لازمة للذات قديمة بقدمها ، فإن الصفة لا تقوم بنفسها ولا تستقل بذاتها . ولكنها تكون قديمة بقدم موصوفها ، فإن الصفة لازمة للموصوف تابعة له ، تكون قديمة بقدمه ، وباقية ببقائه ، لأنها تكون قديمة بقدم خاص أوبقاء^{بأية} خاص (٣) أما القول بأن النصارى كفروا لقولهم بثلاثة قدمات فليس بصحيح ، بل سب تكفيرهم إثباتهم الألوهية للمسيح وأمه وقولهم : إن الله تعالى ثالث ثلاثة ،

(١) انظر: المواقف فى علم الكلام ٢٧٩ ومنهاج السنة النبوية ٤٨٩/٢ - ٤٩٠

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ٣٣٦/٣ فمابعد

(٣) انظر: منهاج السنة النبوية ١٢٩/٢ فمابعد ، وابن تيمية السلفى للأستاذ محمد خليل هراس ٩٢ ، والمراد بلزوم الصفة للموصوف أنها لا توجد بدونها ، فلا توجد هناك صفة مستقلة عن موصوف ، بل جميع الصفات لابد لها من موصوف

قال تعالى - : (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح

ابن مريم) الآية (١)

وقال تعالى: (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) الآية (٢).

وقال: (وإذ قال الله ليعيسى ابن مريم، أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله) الآية (٣).

والمثبتون للمفاتيح لم يقولوا: إن الصفات آلهة من دون الله، بل لم يقولوا: إن الذات المجردة عن الصفات هي الله المستحق للعبادة، فإن تلك الذات لا وجود لها حتى تكون مستحقة للعبادة، فإن الإله المستحق للعبادة هو الله المتمتع بصفات الكمال الذي لم يزل منتصفاً بها سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً، فليست صفاته خارجة عن مسمى اسمه (٤).

وهكذا نرى أنه لا يلزم من القول بإثبات الصفات تعدد القدماء إن قلنا إنها قديمة، لأنها ليست مستقلة، بل هي تابعة للموصوف.

أما المحال الثاني الذي ذكره ووافقهم عليه الأشاعرة، وهو أننا إن قلنا: إن الصفات حادثة فإنه يلزم القول بطول الحوادث بذات الله عز وجل، فإن الجواب عنه أن هذا القول أعنى القول بطول الحوادث بذات الله عز وجل هو مذهب سلف الأمة وخيارها كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال بأنه مذهب أكثر أهل الحديث، بل قوله أئمة الحديث، وهو الذي نقلوه عن سلف الأمة وأئمتها، وكثير من الفقهاء والموقية (٥)، وعلى هذا فنحن ملتزمون بالقول بقيام الحوادث بالله تعالى، ولانرى ذلك سبباً لنفي الصفات مادام أن اللازم منه غير باطل شرعاً، لكن المتكلمين لما اتفقوا على منع قيام الحوادث بالله عز وجل ثم وجدوا نصوص الكتاب والسنة تنطق بعكس ما ذهبوا إليه فتصف الله سبحانه وتعالى بأنه

(١) سورة المائدة الآية (٧٢)

(٢) سورة المائدة الآية (٧٢)

(٣) سورة المائدة الآية (١١٦)

(٤) انظر منهاج السنة النبوية ٤٩٤/٢

(٥) انظر بيان تلبيس الجهمية (١/٣٠٢)

يعلم ما يحدث الآن وفي المستقبل، ويريد ويفعل ما يشاء اضطربوا، وقالوا: قد ثبت عقلا منع قيام الحوادث باللذ عز وجل لأنه سبحانه وتعالى قديم، والقديم لا تقوم به الحوادث، وثبت شرعا قيام الحوادث باللذ تعالى، وإذا اختلف دليل العقل مع النقل، وجب تقديم الدليل العقلي لأنه الأصل - على حد رأيهم - وإيجاد مخرج للدليل النقل، ومن هنا حصل الافتراق، فالمخرج عند المعتزلة نفى الصفات، وعند الأشاعرة تأويلها ورجوعها إلى الصفات القديمة، فعلم اللذ واحد، والمعلومات الحادثة يعلمها اللذ بعلم قديم، والمرادات الحادثة يريدونها بإرادة قديمة، لكن هذا لم يحل المشكلة أبدا، بل زادها تعقيدا، ولهذا قال الرازي: إن القول بقيام الحوادث باللذ لازمة لكل من أنكره (١)، وليس معنى قيام الحوادث باللذ تعالى أن جميع صفاته حادثة، بل المعنى أن من صفات اللذ ما هي حادثة بالنسبة لأفرادها، أي أن اللذ سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء متى شاء، فهو سبحانه كما تكلم مع الملائكة قبل خلق آدم تكلم معهم بعد ذلك، ثم يكلم عباده يوم القيامة وفي الجنة، أي بعبارة أخرى أن اللذ سبحانه مازال يفعل ما يشاء.

وهكذا نجد أن هذه الشبه كلها واهية، ولا تصلح لنقص نظرية من النظريات فلا عن أن تنقض أصلا من أصول العقيدة الإسلامية وهو الإيمان بأسماء اللذ تعالى وصفاته، وإمرارها كما جاءت من غير تحريف ولا تمثيل ولا تعطيل على حد قوله تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (٢).

(١) انظر الأربعين في أصول الدين للرازي ١١٨ ، وكتاب ابن تيمية السلفى ١٢٥ ، والبيهقي وموقفه من الإلهيات ١٨٠ .
(٢) سورة الشورى الآية (١١)

الباب الثاني

مباحث الإيمان بالملائكة والنبوءات
وتحتة ثلاثة فصول

الفصل الأول : مباحث الإيمان بالملائكة

الفصل الثاني : مباحث الإيمان بالنبوءات

الفصل الثالث : الإيمان بالكتب

الفصل الأول

مباحث الإيمان بالملائكة

وتحت ثلاثة مباحث

- المبحث الأول: تعريف الملائكة.
- المبحث الثاني: صفات الملائكة.
- المبحث الثالث: الجهات المناطة بالملائكة.

أما بظنهم طيباً . . .
مكرمة

بين يدي الفصل

الإيمان بالملائكة هو أحد أركان الإيمان وهو الركن الثانى حسب ترتيب حديث جبريل المشهور ،وقدورد وجوب الإيمان بهم واقتترانه بالإيمان بالله تعالى فى آيات كثيرة منها :

١ = قوله تعالى : (ليس البرأن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملئكة والكتب والنبيين) الآية (١)

٢ = قوله تعالى : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملئكته وكتبه ورسوله) الآية (٢)

كماورد ذلك فى أحاديث كثيرة منها :

قوله صلى الله عليه وسلم لجبريل لما سألته عن الإيمان فقال : (أن تؤمن بالله وملئكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر خير وشره) (٣)

وقدورد ذكر الملائكة فى بعض آيات سورة الأنبياء ، كما ورد فيها ذكر بعض الأمور المتصلة بهم من أوصاف لعبادتهم وذكر بعض الأعمال التى وكلوا بها ، ولما كان الإيمان بكل ذلك داخلا فى الإيمان بالملائكة عقدت هذا الفصل لبيان ذلك ،

وقد قسمت لذلك بمبحث أوضحت فيه المعنى اللغوى للفظ الملائكة وكذا السمات البارزة للملائكة التى من خلالها تتم معرفة الإطلاق الشرعى للملائكة ، ثم أتبع ذلك بمبحثين :

الأول : فى ذكر أوصاف الملائكة التى وردت فى السورة .

والثانى : فى ذكر المهمات المناطة بهم .

فأقول : وبالله التوفيق

(١) سورة البقرة الآية (١٧٧)

(٢) سورة البقرة الآية (٢٨٥)

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه ٣٦١/١ ح (١) عن عمر بن الخطاب

كتاب الإيمان

المبحث الأول

تعريف الملائكة

١ - الملائكة جمع ملك، وقد اختلف في أصل المفرد، فبينما رجعه الكثير إلى مادة الألوكسة، والميم فيه زائدة، يرى البعض أنه راجع لمادة الملك والميم فيه أصلية.

وماك نقولا لبعض أئمة أهل اللغة تبين ذلك.

قال الأزهرى: (قال الليث: الملك واحد الملائكة وإنما هو تخفيف الملأك، واجتمعوا على حذف همزه وهو مفعول من الألوك) (١).

ونقل عن الليث أيضا قوله: (الألوك: الرسالة، وهي الملائكة على مفعلة سميت ألوكا لأنه يؤلك في الفم، مشتق من قول العرب: الفرس يالك اللجام) (٢).

وقال الجوهري: (والملك من الملائكة واحد وجمع، قال الكسائي: (٣) أصله مالك يتقدم الهمزة، من الألوك وهي الرسالة، ثم قلبت وقدمت اللام فقبل ملاك...

ثم تركت همزته لكثرة الاستعمال فقبل ملك، فلما جمعوا ردوها إليه، فقالوا ملائكة، وملائك أيضا، قال أمية بن أبي الملت.

(فكان يرقع والملائك حوله .: سدرتو اكله القوائم أجرب) (٤).

وقال الراغب: (وأما الملك فالنحويون جعلوه من لفظ الملائكة، وجعل الميم فيه زائدة، وقال بعض المحققين هو من الملك، قال: والمتولى من الملائكة شيئا من السياسات يقال له:

(١) تهذيب اللغة ٢٧٢/١٠ مادة (ملك).

(٢) المعجم نفسه ٣٧٠/١٠ مادة (الك).

(٣) هو على بن حمزة بن عبد الله الأسدي مولاهم الكوفي الكسائي الإمام شيخ الفراء العربية وهو الأما السابع من أئمة القراء السبعة (ت ١٨٩ هـ) له ترجمة في التاريخ الكبير ٢٦٨/٦ وتاريخ بغداد ٤٠٣/١١ ومعجم الأدباء ١٦٧/١٢ ووفيات الأعيان ٢٩٥/٢ ومعرفة القراء الكبار ١٢٠/١. (٤) الصحاح ١٦١١/٤ مادة (ملك) يرى صواب إنشاده (أجرب) بالبدال لأن قبله:

(فانم ستا فاستوت أطباقها .: وأتى بسابعة فأتى تورد)

وقال: شبه السماء بالبحر لملاستها بالجريها، ألا ترى قوله: تواكله القوائم:

أي تواكلته الرياح فلم تموج، فذلك وصفه بالجرد وهو الملاسة. انظر التبيين والإيضاح ١٢٢/٢ مادة (سدر)

وأمية بن أبي الملت شاعر جاهلي كان مستقيما، وقد أعجب النبي صلى الله عليه وسلم بشعره وقال عند: وكاد أمية بن أبي الملت أن يسلم. انظر ترجمته موقاة في البراهين والزبارة ٢٠٥/٢

ملك بالفتح ، ومن البشر يقال :ملك بالكسر ، فكل ملك ملائكة ، وليس كل ملائكة ملكا بل الملك هو المشار إليه بقوله : (فالمديرات أمرا) (١) (فالمقسمت أمرا) (٢) (والنارعت) (٣) ونحو ذلك . ومنه ملك الموت، قال تعالى : (والملك على أرجائها) (٤) (على الملكين ببابل) (٥) (قل يتوفكم ملك الموت الذى وكل بكم^(٦)) (٧)

ومن هذه النقول يتضح أن لفظ الملائكة له صلة بمعنيين لغويين هما : الرسالة -والتصرف فى الكون المعبر عنه بتولى السياسات ، وهما جزء مهم من علاقة الملائكة بهذا الكون، فهم رسل الله تعالى إلى الخلق يحملون الوحي الإلهي إلى الأنبياء والمرسلين ليؤدوه إلى سائر الخلق، كما أنهم هم المديرون لشئون الكون بأمر الله تعالى ، فالعلاقة إذا ظاهرة بين هذين المعنيين اللغويين والعرف الشرعى .

-
- (١) سورة النازعات الآية (٥)
 - (٢) سورة الذاريات الآية (٤)
 - (٣) سورة النازعات الآية (١)
 - (٤) سورة الحاقة الآية (١٧)
 - (٥) سورة البقرة الآية (١٠٢)
 - (٦) سورة السجدة الآية (١١)
 - (٧) المفردات فى غريب القرآن ص ٤٧٣ مادة (ملك)

٢ = الإطلاق الشرعى

عالم الملائكة من عوالم الغيب التى لاسبيل إلى العلم بها إلا من طريق الكتاب أو السنة، ومن خلال تتبع نصوص الكتاب والسنة التى وردت بشأن الملائكة تتضح المعالم الرئيسية لهذا العالم والتى تميزه عن غيره ، ومن أبرز تلك المعالم :

(١) أنهم خلقوا من نور، ويدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم (خلقت الملائكة من نور وخلقت الجن من مارح من نار وخلق آدم معاومف لكم) (١)

(٢) أنهم وراء الحس البشرى فهم مع وجودهم وانتشارهم فيما حوالى الإنسان وتوليهم شئونه ومراقبتهم لحركاته وسكناته ، لا يحس بهم بواسطة حواسد التى يحس بها ما حواليه من مخلوقات (٢)

(٣) أن الله أعطاهم قدرة على التشكل والظهور بأشكال مختلفة ، ومن أدلة ذلك قصة أضياف إبراهيم عليه السلام حيث نزل إليه الملائكة الذين أرسلوا لإهلاك قوم لوط على هيئة ضيوف فقرا هم إبراهيم بعجل سمين حيث لم يعلم أنهم ليسوا من البشر إلا حين لم يأكلوا، ثم أخبروه أنهم من الملائكة ،

قال تعالى : (هل أتيتك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلماً قال سلّم قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون) الخ الآيات (٣)

(١) أخرجه مسلم من حديث عائشة رضى الله عنها فى كتاب الزهد ٢٢٩٤/٤ ح <٦٠>

(٢) ورؤية النبى صلى الله عليه وسلم للملائكة إنما كان على غير صورتهم، بل بأشكالهم التى تشكلوا بها، ولم ير النبى صلى الله عليه وسلم جبريل على صورته؛ لامتريين كما قيل فى تفسير قوله تعالى : (ولقد رآه نزلة أخرى) (النجم الآية ١٣) وهذا خاص بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ولا ينقض كون الملائكة لا يرون، لأن عدم الرؤية هو القاعدة والرؤية الحاصلة للنبى صلى الله عليه وسلم استثناء. انظر: تفسير آية النجم فى تفسير الطبرى ٣٠١/٢٧ وابن كثير ٢٧٠/٤ (٣) سورة الداريات الآيات من (٢٤) إلى (٢٧)

(٤) أن الله كلّفهم فى القيام بتتصريف شؤون الكون وتدبير أمور الخلق (الفهم الموكلون بالسموات والأرض ، فكل حركة فى العالم فهى ناشئة عن الملائكة ، كما قال تعالى : (فالمديرتُ أمرا) (١) (فالمقسمتُ أمرا) (٣) وهم الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل وقد دل الكتاب والسنة على أنصاف الملائكة وأنها موكلة بأنصاف المخلوقات ، وأنه سبحانه وكل بالجناب ملائكة وبالسحاب والمطر وبالرحم ، وبالعبد ملائكة لحفظ ما يعمل وإحصائه وكتابتد ، ووكل بالموت وبالسؤال فى القبر ملائكة ، وبالأفلاك وبالشمس والقمر ، وبالنار والجنة) (٢) فالملائكة إذا عباد من عباد الله خلقهم الله تعالى من نور وأقدرهم على التشكل بأشكال مختلفة وجعل إليهم كثيرا من شؤون تدبير الكون ، وجعل منهم رسلا إلى الأنبياء والمرسلين.

-
- (١) سورة النازعات الآية (٥)
(٢) سورة الذاريات الآية (٤)
(٣) شرح الطحاوية ص ٢٧٥- ٢٧٦

المبحث الثاني

صفات الملائكة

١ - قال تعالى: (وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون) الآيتان (١٩-٢٠).

٢ - وقال تعالى: (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين) الآيات من (٢٦) إلى (٢٩).

وقد وردت في هذه الآيات بعض صفات الملائكة الكرام، وهي الصفات التي تؤكد عبادتهم لله تعالى وعبوديتهم الكاملة وطاعتهم المطلقة له سبحانه وقد جاء هذا ردا على المشركين الذين زعموا أن الملائكة بنات اللد (١) ولذا ورد التأكيد في الآيات على أن الملائكة عباد لله مطيعون له قانتون له.

فأما صفة عبادتهم لله تعالى فقد وردت في المجموعة الأولى من الآيات فقوله تعالى: (ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون) الخ الآيات، يعني أن الملائكة الذين هم عند الله تعالى من صفاتهم عدم الاستكبار عن العبادة وعدم السأم والملل أو التعب فيها بل هم في تسبيح دائم ليل نهار دون انقطاع.

وهذا الوصف قد يصدق على جميع الملائكة لأنهم جميعا عند اللد و هم جميعا لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون (٢).

وقد يستفاد من قوله تعالى: (ومن عنده) أن هذا الوصف خاص بمن عنده من الملائكة وهم المقربون كما قال تعالى في آية أخرى: (لن يستكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون) (٣).

(١) كما سبق في الصفحة (١١٦) من هذا البحث.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٠/١٨ وتفسير ابن كثير ١٨٤/٣ .

(٣) سورة النساء الآية (١٧٢)

ولأن غير المقربين من الملائكة لهم وظائف أخرى مثل القيام بحماية العبد ومراقبة أعماله وتسجيلها، ومثل عمل ملائكة الموت الموكلين بقبض الأرواح والموكلين بغيرها من الأعمال فهؤلاء قد لاينطبق عليهم أنهم في تسبيح دائم.

وقد روى ابن جرير عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: (إن الله خلق عشرة أجزاء فجعل تسعة أجزاء الملائكة، وجزءاً الملائكة عشرة أجزاء، فجعل تسعة أجزاء يسبحون الليل والنهار لا يفترون وجزءاً لرسالته) الحديث بمعناه (١) وهذا إن صح يفيد أن هذا الوصف ينطبق على تسعة أعمار الملائكة، وذلك لأن هذا الكلام لا يقال عن رأى فهو موقوف في حكم المرفوع.

وأما عبوديتهم وطاعتهم المطلقة فقد وردت في المجموعة الثانية من الآيات التي أوضحت أنهم مع كمال عبوديتهم وطاعتهم خائفون وجلون، وأن ذلك لا يحول دون مؤاخذتهم بجرائرهم إن ارتكبوها.

فقوله تعالى: (بل عباد مكرمون) الخ الآيات يعنى أن الملائكة ليست بنات لله كما زعم المشركون بل هم عباد لله عز وجل أكرمهم وجبلهم على طاعته، فهم لا يعملون إلا بما يؤمرون به فلا يعصون الله طرفة عين، وهم مع ذلك وجلون من خشيتهم لله تعالى، فلا تحملهم طاعتهم وعملهم المتواصل على الأمن من مكر الله، بل هم في عبادة دائمة مع خشية مستمرة.

فالآيات إذا تؤكد عبودية الملائكة لله سبحانه وتعالى وعبادتهم إياه لتوضح أن الإيمان بوجود الملائكة لا يكفى وحده، بل لابد من الإيمان بأنهم عبيد لله خاضعون له منقادون لأوامره، وهم مكرمون بإكرام الله تعالى لهم، وأن هذا الإكرام لا يكون سبباً في استحقاقهم شيئاً من العبادات، ولا يحول دون مؤاخذتهم بجرائرهم لو قدر أنهم أشركوا بالله، كما في آخر أية من المجموعة (ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين).

فالإيمان بهذا كله يزيد إيمان العبد بربه قوة وصلاة ويقوى من عزامة العبد في العبادة لأنه سيكون على يقين من أن عبادته وعدمها يرجع النفع والضرر فيها عليه وحده، وأنه سواء عبد الله أم لم يعبده فإن لله عبداً غيره لا شغل لهم إلا العبادة، وهم أكثر من البشر وأقوى منهم،

ولذا قال تعالى في الآية الأخرى: (فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسئمون)(١).

ومن آثار إيمان العبد بما وصفت الملائكة به من صفات هنا أنه سيكون على يقين من أن القربى من الله تعالى متوقفة على العمل الصالح وأنه مهما كان قدر العبد فإنه لن يكون بمنأى عن المؤاخدة على المعصية، فالملائكة - رغم ما هم عليه من المنزلة والرفى عند الله - لو قدر أنهم ادعوا الألوهية فإن مقامهم لن يشفع لهم، بل سيلقون المصير الذي يلقاه كل مشرك، وقد ورد مثل هذا التحذير في حق الأنبياء والمرسلين أيضا كما في قوله تعالى: (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخسرين)(٢).

فالإيمان بالملائكة إذا وبصفتهم مما يزيد إيمان العبد ويقوى صلته بربه، ويجعل الإنسان يعرف قدر نفسه وموقعه ضمن الخلائق.

وقد وردت صفات أخرى للملائكة في نصوص الكتاب والسنة غير هذه الصفات، ومنها:-
١ - أنهم أولو أجنحة، فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة أجنحة ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أزيد من ذلك. قال تعالى: (الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير)(٣).

وقد ورد في الصحيح موقوفا أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام وله ستائة جناح(٤)،

٢ - أن لهم من القوة مافوق المعهود لدى الخلق غيرهم، قال تعالى عن جبريل: (ذى قوة عند ذى العرش مكين)(٥).

وقصة إهلاك قوم لوط دليل آخر على هذه القوة، فقد قامت الملائكة بقلب أرضهم وجعل عاليها سافلها كما قال تعالى: (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها) (٦) وملك الموت يقبض أرواح الناس في مشارق الأرض ومغاربها في اللحظة الواحدة، فقوة الملائكة لاتقارن بقوى البشر أو الجن أو غيرهم من المخلوقات .

(١) سورة فصلت الآية : ٢٨ (٢) سورة الزمر الآية : ٦٥ .
(٣) سورة فاطر الآية : ١ . (٤) أخرجه البخارى موقوفا على ابن مسعود في كتاب بدء الخلق الباب السابع ٣١٢/٦ وكتاب التفسير باب (فكان قاب قوسين أو أدنى) ٦١٠/٨ وباب (فأوحى إلى عبده ما أوحى) ٦١٠/٨ ومسلم في كتاب الإيمان ١/١٥٨ ح: [٢٨٦] ومثل هذا لايقال عن رأى فله حكم الرفع .
(٥) سورة التکوین الآية (٢٠)
(٦) سورة هود الآية (٨٢)

المبحث الثالث

المهمات المناطة بالملائكة

وردت في سورة الأنبياء آيات تدل على بعض الأعمال التي أنيطت بالملائكة وهي :
الشفاعة، ونفخ الروح، وكتابة الأعمال، وتلقى المؤمنين وتبشيرهم يوم
القيامة، وسأفرد لكل منها عنوانا لبيان دلالة الآيات عليه.

١ - الشفاعة

قال الله تعالى : (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم
من خشيته مشفقون) الآية (٢٨).

والشاهد في الآية قوله : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) فإنه يعنى أن الملائكة لا تشفع
إلا لمن رضى الله عنهم وهم أهل شهادة أن لا إله إلا الله، كما روى عن ابن
عباس (١) فنفى الشفاعة عن غير المرضى عنهم دليل على إثباتها للمرضى عنهم.

فمن مهمات الملائكة إذا الشفاعة للمؤمنين، وتتضمن تلك الشفاعة الاستغفار
للمؤمنين، والدعاء لهم بدخول الجنة ورفع الدرجة والنجاة من المكروه، كما
قال تعالى في آية أخرى : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم
ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر
للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم حنت^{إعدن} التي وعدتهم
ومن صلح من آباؤهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم) (٢).

وكما قال تعالى : (والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض) (٣).

وهذه الشفاعة حاصلة لكل المؤمنين إن شاء الله تعالى، وهي من ثمرات إيمانهم
الذى لا يتم بدون الإيمان بالملائكة، فمنكر وجود الملائكة من المتفلسفة وغيرهم
محرومون من هذه الشفاعة.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٣/١٧ .
(٢) سورة غافر الآيتان (٧ - ٨)
(٣) سورة الشورى الآية (٥).

وقد ورد ذكر شفاعة الملائكة في حديث قدس جاء فيه: (فيقول الله عز وجل شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين) .
وفي رواية: (فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون، فيقول الجبار: بقيت شفاعتى) الحديث (١) .

٢ - نفخ الروح

قال تعالى: (والتي أحصنت فرجها فننفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آيةً للعلمين) الآية [٩١]

وهذه الآية وردت في الحديث عن مريم وابنها عيسى عليهما السلام، وفيها أن مريم أحصنت فرجها فنفخ الملك فيها الروح بإذن الله تعالى، وإنما نسب فعل النفخ في الآية إلى الله تعالى لكونه الأمر بذلك فهو الذى أرسل جبريل عليه السلام إلى مريم، كما يفيد قوله تعالى: (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا) الخ الآيات (٢) .

فمعنى الآية إذا أن مريم الحمان الرزان تنحت عن قومها واعتزلتهم (٣)

فأرسل الله تعالى إليها جبريل وهو المعبر عنه بالروح (٤) في ذلك المكان فنفخ في جيبها من روح الله التي خلقها لتنفخ في أجساد بنى آدم فحملت مريم من تلك النفخة بعيسى عليه السلام وبهذا كان عيسى وأمه آية للعالمين حيث أنه

ولد من أم بلا أب

وفي نسبة النفخ إلى الله تعالى في آية الأنبياء تشريف وتكريم لجبريل حيث نسب الله فعله إلى نفسه ، ومثل هذا كثير في شأن الملائكة وغيرهم .

(١) أخرجه البخارى في صحيحه كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: (وجوه يومئذ

ناضرة إلى ربها ناظرة) الآية ١٦ - ١٩ من سورة مريم الآيات من ١٦ إلى ١٩ .

(٢) لم يرد سبب اعتزالها في نص عن المعصوم يجب اتباعه، وقد ذكر بعض

المفسرون أسبابا لذلك ومنها أنها حاضت، وقيل لتفرغ للعبادة، والله أعلم

انظر تفسير ابن كثير ١٢١/٣ .

(٤) ويسمى أيضا روح القدس ، قال تعالى: (قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا) الآية (١٠٢) من سورة النحل

والآية وما فى معناها من الآيات والأحاديث تدل على أن من الملائكة من هو موكل بتعهد نمو الإنسان منذ اللحظة الأولى لوجوده ، وحتى قبل أن يخرج إلى الدنيا ، فى هذه الآية نجد أن جبريل عليه السلام تولى نفخ روح المسيح عليه السلام ، وفى حديث ابن مسعود رضى الله عنه نجد أن الله سبحانه قد وكل بالنفطة ملائكة يتولون نفخ الروح فيها بعد تخلقة فى بطن أمه ، ثم يكتبون ماسيحل له فى المستقبل .

وهذا الحديث متفق على صحته وفيه : (إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً نطمة ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات ويقال له : اكتب أجله ورزقه وعمله وشقى أو سعيد) (١)

وروى مسلم عن حذيفة بن أسيد مرفوعاً: (إذا مر بالنفطة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً ، فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ، ثم قال : يارب أذكراً أم أنثى ؟ فيقضى ريبك مايشاء ويكتب الملك ، ثم يخرج الملك بالصحيفة فى يده ، فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص) . (٢)

فى هذين الحديثين دلالات فى هذا الموضوع وهى :

١ = أن الله سبحانه وتعالى وكل الملائكة فى نفخ أرواح بنى آدم .

٢ = أنه وكلهم فى تصوير النفطة وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها .

٣ = أنه وكلهم فى كتابة ما سيحدث لها من عمل ورزق وأجل وسعادة أو شقاوة .

والحاصل أن من الأعمال الستى وكلت للملائكة القيام على النفطة وتعهدها حتى يخرج الإنسان إلى دار الدنيا ، وهذا عام فى جميع بنى آدم ، وقد خص المسيح عليه السلام بأن الملك الذى تولى نفخ روحه هو سيد الملائكة جبريل عليه السلام .

٣ = كتابة الأعمال :

قال تعالى: (فمن يعمل من الملأت وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنه له كاتِبون) الآية (٩٤)

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه فى كتاب بدء الخلق - باب ذكر الملائكة ٣٠٣/٦ وكتاب أحاديث الأنبياء - باب خلق آدم وذريته ٣٦٣/٦ وكتاب القدر الباب الأول ٤٧٧/١١ وكتاب التوحيد باب قوله تعالى: (ولقد سبقت كلمتنا العبادنا المرسلين) ٤٤٠/١٢ ومسلم فى صحيحه فى كتاب القدر ٢٠٣٦/٤ الحديث الأول .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب القدر ٢٠٣٧/٤ ح (٣)

ومعنى هذه الآية أن من عمل صالحا حالة كونه مؤمنا فإن الله يشكر عمله ويشيبه

عليه ، وعمله كله مكتوب صغيرة وكبيرة وهو مجزى عليه جميعا(١)

فقوله تعالى فى الآية: (وإناله كُتِبُونَ) الكلام فيه كما سبق فى قوله تعالى: (فنفخنا فيها من روحنا) حيث نسب سبحانه وتعالى أعمال الملائكة إلى نفسه تشريفا لهم ، ولأن سبحانه هو الأمر بذلك والممكن لهم من فعله ، فالملائكة هم المتولون لكتابة أعمال العباد صغيرها وكبيرها، وقد وكل بكل عبدا ملكا لتسجيل أعماله كما قال تعالى : (إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) (٢)

قال الحسن : (يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكّل بك ملكا كريما أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك وأما الذى عن شمالك فيحفظ سيئاتك ...) (٣)

وهذا الذى قتاله الحسن وافقه عليه كثير من المفسرين (٤) ولعله مأخوذ من كون اليمين أشرف من الشمال .

ومما يدل على أن الملائكة يتولون كتابة الأعمال قوله تعالى : (أم يحسبون أنا لانسمع سرهم ونجوههم بلى ورسلنا لديهم يكتبون) (٥)

وهذه الآية تدل على أن الله سبحانه وتعالى قد ألهم هؤلاء الملائكة معرفة ما يجهر به العبد ويسره فهم يعلمون كل ما يعمله الإنسان بل وحتى ما يجول بخاطرهم ، ولذا إذا هم بالحسنة ثم لم يتمكن من عملها كتبوها له ، وإنهم بسيئة فلم يعملها كتبوها له حسنة كما ورد ذلك فى الحديث الصحيح المتفق عليه وفيه : (قال الله عز وجل : إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه ، فإن عملها فاكتبوها سيئة ، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة ، فإن عملها فاكتبوها حسنة) (٦)

- (١) انظر تفسير الطبرى ٦٨/١٧
(٢) سورة ق الآية (١٨)
(٣) أخرجه ابن جرير فى تفسيره ١٠٠/٢٦ وذكره ابن كثير ٢٣٩/٤ عن ابن أبي عمير
(٤) انظر أقوال المفسرين فى ذلك فى المصدرين السابقين عز تفسير آية سورة (ق) فى الصفحات ذاتها
(٥) سورة الزخرف الآية (٨٠)
(٦) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الرقاق باب من هم بحسنة أو بسيئة ٣٢٣/١١ ومسلم فى كتاب الإيمان ١١٧/١ ح (٢٠٢) و(٢٠٤)

وفى رواية لمسلم: (قالت الملائكة: رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة (وهو أبحر به) فقال: ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة ، إنما تركها من جرائي) (١)

وهذا من عظيم فضل الله عز وجل على عباده ولطفه بهم، حيث لا يؤاخذهم على الهمة بالسيئة بينما يجزيهم على الهمة بعمل الخير، وفقنا الله للعمل بما يرضيه عنا .

٤ = تلقى المؤمنون وتهنئتهم بفرزهم بالجنة :

قال تعالى: (لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقىهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون) الآية (١٠٣)

وهذه الآية في وصف حال المؤمنین يوم القيامة ، فقوله تعالى: (لا يحزنهم الفزع الأكبر) الضمير فيه عائد على اسم الموصول في قوله تعالى قبله: (إن الذين سبقوا لهم منا الحسنی) وهم جميع من سبقوا لهم السعادة من الله عز وجل من المؤمنین الذين وعدهم الله بالجنة يوم القيامة، (٢) فهؤلاء جميعا مبعثون عن النار لا يسمعون لها حسا ولا صوتا ، وهم آمنون من فزع يوم البعث، وهو الفزع الأكبر كما قال تعالى: (من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون) (٣)

والإشارة بقوله: (يومئذ) إلى يوم ينفخ في الصور كما في الآية قبلها

وقوله تعالى: (وتلقىهم الملائكة....) معناه أن الملائكة يتلقون المؤمنین يوم القيامة ويبشرونهم ويهنئونهم على فوزهم بالجنة، ويؤمنونهم من الفزع الذي يحصل عند سماع نفخة الصور، قائلين لهم (هذا يومكم الذي كنتم توعدون) أي هذا هو يوم الجزاء الذي وعدكم الله بأن يجزيكم فيه بأحسن ما كنتم تعملون، وبأن تكونوا آمنين من فزعه ،

قال ابن جرير: (وقوله: (وتلقىهم الملائكة) يقول: وتستقبلهم الملائكة يهنئونهم ، يقولون: هذا يومكم الذي كنتم توعدون فيه الكرامة من الله والحباء والجزيل من الثواب على ما كنتم تنصبون في الدنيا لله في طاعته) (٤)

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان ١١٧/١ ج (٢٠٥)

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢٠٧/٣

(٣) سورة النمل الآية (٨٩)

(٤) تفسير الطبري ٧٨/١٧

فألاية دليل على أن الملائكة موكلون بالقيام بمهمة استقبال المؤمنين وتأمينهم من الفرع الذي يحصل عند نفخة الصور ، وتبشروهم بالجنة ، وتهنئتهم على فوزهم بها مما يزيد في فرح المؤمنين وسرورهم .

وإظهار أن هذا الاستقبال والتبشير يكونان عند ماينفخ في الصور ويقوم الناس لرب العالمين ، لأن الفرع عندئذ أكبر من كل فرع قبله ومن أمن من فرعه أمن من كل فرع بعده (١) .

وقد ورد في هذا المعنى آيات وأحاديث كثيرة وهي تظهر أن التبشير ليس خاصا بهذا المواطن بل هو حاصل في مواطن أخرى منها:

١ = عند الموت ، قال تعالى: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون) (٢)

فقوله تعالى: (تتنزل عليهم الملائكة) قال ابن جرير في تفسيره: (يقول: تهبط عليهم الملائكة عند نزول الموت بهم) (٣) وهذا التفسير مروى عن مجاهد والسدى وزيد بن أسلم وابنه (٤) وروى عن زيد أيضا أنه قال: (يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث) قال ابن كثير: (رواه ابن أبي حاتم عنه وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جدا وهو الواقع) (٥)

٢ = وفي القبر ، ويدل له ما فسرت به الآية السابقة وكذلك أحاديث سؤال القبر فإن فيها أن المؤمن إذا أحسن الإجابة تبشره الملائكة وتريه مقعده من الجنة والنار مباشرة أن الله قد أبدله مقعدا من الجنة بمقعد من النار (٦)

(١) انظر المصدر نفسه ٧٨/١٧

(٢) سورة فصلت الآيتان (٣٠) و(٣١)

(٣) تفسير الطبري ٧٤/٢٤

(٤) أخرجه ابن جرير روية مجاهد والسدى في تفسيره ٧٤/٢٤ وذكر ابن كثير أنه مروى أيضا عن زيد بن أسلم وابنه ، انظر تفسير ابن كثير ١٠٧/٤

(٥) تفسير ابن كثير ١٠٧/٤

(٦) أخرجه البخاري الحديث بمعناه عن أنس في صحيحه في كتاب الجنائز /باب الميت يسمع حق النعال ٢٠٥/٣ وباب ما جاء في عذاب القبر ٢٢٢١٣- ٢٢٢٣ ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٢٠٠/٤ ج(٧٠)

٣ = وعند دخول الجنة . قال تعالى: (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلم عليكم طبتم فادخلوها خالدين)^(١)

ففى هذه المواطن وغيرها من مواطن الشدة تستقبل الملائكة المؤمنين وتبشرهم بما أعد الله لهم من جزيل الثواب ، زيادة فى الإكرام لهم ،

ومن شمرات إيمان المؤمن بهذا أنه سيكون حافظا قويا له على الزيادة من الأعمال الصالحة حتى يكون ممن تستقبلهم الملائكة فى هذه المواطن، ويفوز برضوان الله تبارك وتعالى . جعلنا الله منهم .

(١) سورة الزمر الآية (٧٢)

الفصل الثاني مباحث الإيمان بالأنبياء وتحت ستة مباحث

- المبحث الأول: تعريف النبي والرسول وما قيل في التفرقة بينهما ولبيانها وكم عدد الأنبياء والرسل
- المبحث الثاني: النبوات الواردة في السورة
- المبحث الثالث: صفات الأنبياء عليهم السلام ووظائفهم
- المبحث الرابع: الوحي
- المبحث الخامس: دلائل صدق الأنبياء والرسل عليهم السلام
- المبحث السادس: وجوب متابعة الرسل وبيانها في غير محالفتهم

تمت
تحريراً
الشيخ

المدخل إلى الفصل

سبق في أول هذا البحث أن البشرية بدأت طريقها بالتوحيد، وأنه طرا عليها ما غير فطرتها، فنشأ الانحراف والبعد عن المنهج الرباني في المجتمعات البشرية، وذلك بسبب سيطرة الهوى والحرص على النفوس، وغلبة داعيها على داعى الحق، ذلك أن النفس البشرية تواقفة إلى ما فيه المنفعة العاجلة، أما الآجلة فإنها تستبطنها، قال تعالى: (كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة) (١)، ولذا اختار أكثر الناس الدنيا العاجلة، إلا من رحم الله وعمم (٢).

والعقل البشري رغم أنه مفطور ومجبول على الاعتراف بالخالق والانقياد له، إلا أنه مهما صفا ومقل فإنه لا يستطيع الوصول إلى معرفة ما هو مطلوب منه شرعا حتى ينال رضى ربه وخالفه، إذ ليس لذلك إلا طريق واحد، وهو طريق الوحي الإلهي الذى يتم بواسطة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ومن هنا كانت الحاجة إلى بعث الأنبياء والمرسلين ماسة لكى يهتدى الناس إلى السبيل الموصل إلى مرضاة الله عز وجل ونعيمه، ولكى لا يعتذر معتذر يوم القيامة بالجهل وعدم معرفة سبيل الهدى، قال تعالى: (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) (٣).

وقال تعالى: (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما) (٤).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الناس في أمس الحاجة إلى إقامة نظام اجتماعى واقتصادى يحكم العلاقات فيما بينهم، ويضمن لكل فرد من أفراد المجتمع حقوقه، ويرسم له طريق التعامل مع الآخرين وهذا النظام العام الشامل لا يستقل بوضعه العقل البشري مهما أوتى من الفطنة والذكاء، ذلك أن ^{العقل} البشرى تتجاذبه المؤثرات النفسية والخارجية، وتحكمه بعض الأطر الاجتماعية، ويتعذر عليه إن لم نقل يستحيل - أن يتخلص من كل تلك المؤثرات، ثم إن تصورهِ للقضايا التي

(١) سورة القيامة الآيتان (٢٠) و (٢١)
(٢) انظر تفسير الطبري ١١٩/٢٩ وتفسير أبى السعود ٧٩٧/٥ .
(٣) سورة طه الآية (١٢٤)
(٤) سورة النساء الآية (١٦٥).

يحاول طرح حلولها تصور ناقص دائما لأنه إنسان (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) (١).

فلا بد للناس إذا لكى يهتدوا إلى النهج الصحيح في كيفية تنظيم العلاقات فيما بينهم من الوص الإلهي الذي يتضمن شريعة الله التي وضعها لما فيه ^{صلاح} البشرية، فإن حاجتهم إلى تلك الشريعة أشد من حاجتهم إلى الطعام والماء بل وحتى النفس (٢).

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله تعالى - ملخصا حاجة البشر إلى الرسائل السماوية: (فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفضيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضى الله البتة إلا على أيديهم، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، فأى ضرورة وحاجة فرضت ضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير) (٣).

فما نرى في العالم من تخبط في النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي سببه البعد عن منهج الله الذي أرسل به رسله، والاستعاضة عن ذلك بمنهاج وضعية بشرية، ومهما قيل عن تلك المنهاج وأنها حققت للبشرية الرقي والتقدم، فإنها تبقى عاجزة عن تحقيق السعادة للإنسان، والعدالة الاجتماعية في المجتمع، وأكبر دليل على ذلك ما نسمعه يوميا من عمليات الانتحار والانهيئات في الشركات الكبرى وفي أسواق المال، والفضائح السياسية التي تطيح بكبار مانعي القرارات، فكل هذا إعراب عن الشقاوة النفسية والخواء الروحي الذي تعيشه المجتمعات غير الإسلامية.

وأما الوضع المأساوي الذي يعيشه بعض المجتمعات الإسلامية فلا يرجع قطعا إلى الإسلام، بل إلى بعد المسلمين عن منهج الله، ومحاكاتهم للمنهاج المستورة من شرق العالم أو غربه. فالله جل جلاله أعلم بالخلق وبما يصلحهم، فلا سبيل إذا إلى الصلاح والفلاح والسعادة الدنيوية والأخروية إلا باتباع المنهج الذي شرعه على لسان أنبيائه ورسله.

-
- (١) سورة الإسراء الآية (٨٥)
(٢) انظر مجموع الفتاوى ٥/١ والاعتصام للشاطبي ٢٥ - ٢٦
(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد ٦٩/١ باختصار.

المبحث الأول

تعريف النبي والرسول وما قيل في التفرقة بين مدلوليهما
وكم عدد الأنبياء والمرسلين

أولا : التعريف اللغوي:

أما النبي فقد ورد مهموزا وغير مهموز (١).

فأما المهموز فالأظهر فيه أنه من النبأ وهو الخير (٢)، فالنبيء هو المخبر عن
الله عز وجل بما أوحاه إليه، فيكون فعيل فيه بمعنى مفعول كما هو الحال في
بصير بمعنى مبصر، فأصل النبيء المنبىء (٣).

وأما غير المهموز فيحتمل أنه مثل المهموز وإنما خفف لكثرة دوره
واستعماله (٤) فأبدلت الهمزة فيه باء وأدغمت في الياء قبلها.
ويحتمل أنه من النبوة أو النبأوة وهي الرفعة في المنزلة والشرف، فيكون
النبي هو المرتفع في قومه شرفا ومنزلة (٥).

وكلا المعنيين صحيح في حق الأنبياء، فهم مخبرون عن الله عز وجل ورفيعو القدر
والمنزلة، ولكن الاحتمال الأول وهو كونه من النبأ أوضح لأن استحقاق صفة النبوة
إنما حصل بسبب كونهم مخبرين بما أوحى إليهم، وإنما اكتسبوا الشرف والمنزلة
بذلك، فكل مخبر رفيع المنزلة وليس كل رفيع مستحقا لصفة النبوة (٦).

وأما الرسول فهو اسم من الإرسال بمعنى التوجيه (٧)، يطلق على المرسل بفتح

(١) قرأ نافع كل ما جاء في القرآن من هذا اللفظ مهموزا وقرأ غيره بدون همز،
انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢٤٣/١ والتيسير للدانسي ٧٢ والنشر
٤٠٠/١ و٢٠٧/٢.

(٢) انظر تهذيب اللغة ٤٨٦/١٥ مادة (نبا) حيث ذكر أن قراءة أهل المدينة
اشتقاقه من (نبا) و(أنبا) أي أخبر، والمصاحح ٧٤/١ مادة (نبا).

(٣) انظر التنبيه والإيضاح عما وقع في الصحاح ١٦٢/١ مادة (نبا).

(٤) انظر تهذيب اللغة ٤٨٦/١٥ مادة (نبا) والكشف عن وجوه القراءات السبع
وعلمها ووجهها ٢٤٤/١.

(٥) انظر تهذيب اللغة ٤٨٦/١٥ مادة (نبا) والمصاحح ٢٥٠/٦ مادة (نبا).

(٧) انظر لسان العرب ٢٨٣/١١ مادة (رسل).

(٦) انظر: النبوات لابن تيمية ص ٣٣٦ وعقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية ص ٤٤

السين، وعلى الرسالة (١)، وأصله من الرّسل وهو الانبيعات على التّؤدة، أو هو المتابعة.

قال ابن الأنباري: "والرسول معنا في اللغة الذي يتابع أخبار الذي بعثه أخذاً من قولهم جاءت الأبل رسلاً أي متتابعة" (٢).

وقال الراغب: "أصل الرسل الانبيعات على التّؤدة.... ومنه الرسول المنبئ وتصور منه تارة الرفق، فقييل: على رسلك، إذا أمرته بالرفق، وتارة الانبيعات فاشتق منه الرسول، والرسول يقال تارة للقول المتحمل كقول الشاعر:

"ألا أبلغ أباحفص رسولا" (٣).

وتارة لمحمّل القول والرسالة" (٤).

ثانياً: التعريف الشرعي وما قيل في التفرقة بين مدلوليهما:

يتفق معظم الباحثين في هذه المسألة على أن هناك فرقاً بين مدلول النبي والرسول في لسان الشرع، ولكن وجهات نظرهم تتباين حول تعيين هذا الفرق، وذلك لأنها مبنية على دراسة واستقراء أحوال الأنبياء والمرسلين الذين ورد ذكرهم في نصوص الشرع، لا على نص صريح في المسألة، ولما كان التعمق في المسألة خارجاً

عن مقصودي هنا أقصر على ذكر رأيين أراهما أقرب إلى الصواب.

الرأي الأول رأى من يقول: (إن النبي هو الذي ينبئه الله وهو ينبيء بما أنبأ الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول، قال تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) (٥).

(١) انظر تهذيب اللغة ٣٩١/١٢ والمفردات ص ١٩٥.
(٢) نقله الأزهرى عنه في تهذيب اللغة ٣٩١/١٢ مادة (رسل).
(٣) لم أطلع على قائل البيت إلا على ما ذكر.

(٤) المفردات ١٩٥.
(٥) سورة الحج الآية (٥٢).

وقوله : (من رسول ولانبيى) فذكر إرساله يعم النوعين، وقد خص أحدهما بأنه رسول فإن هذا هو الرسول المطلق الذى أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف الله كنعوح، وقد ثبت في الصحيح أنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض، وقد كان قبله أنبياء كيث وإدريس عليهما السلام وقبلهما آدم كان نبيا مكلما(١).

الرأى الثانى وهو المنسوب إلى الأكثر وهو أن النبى من أوحى إليه ولم يؤمر بالتبليغ، والرسول من أوحى إليه وأمر بالتبليغ(٢). والرأىان متفقان فى أن من الفروق بينهما وجوب التبليغ وعدمه وقد أوضح صاحب الرأى الأول وهو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ما الذى يجب تبليغه، لأنه إن كان الشريعة السابقة فالمهمة تقتصر على التبيين والتوضيح لأن رسول تلك الشريعة يكون قد بلغها من قبل، فليس على النبى حينئذ إلا الإيضاح.

أما إن كان شرعا جديدا فهذا الذى يجب تبليغه، أو إن كان القوم مخالفين لدين الله فيجب تبليغه إليهم.

فالرسول إذا هو المكلف بتبليغ أوامر الله ونواهيه إلى الخلق، والنبى هو الذى يوضح ويبين الشريعة السابقة عليه، فيشترى كان فى أن كلا منهما موحى إليه من قبل الله، ويفترقان من حيث مضمون الموحى به، فهو للرسول شرع جديد - ولو كانت الجدة نسبية - وللنبى ليس بجديد، أو من حيث المرسل إليهم فالرسول إلى قوم مخالفين، والنبى يبعث فى المؤمنين - والله أعلم.

(١) النبوات لابن تيمية ص/٢٥٥ .
(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ١٠٧ ولوامع الأنوار البهية ٤٩/١ وروح المعانى للألوسى ١٧٢/١٧

ثالثا : عدد الأنبياء والمرسلين:

قال تعالى: (ورسلا قد قمصنهم عليك من قبلك ورسلا لم نقصهم عليك وكلم الله موسى تكليما) (١)

وقال تعالى : (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقص عليك) (٢)

وهاتان الآيتان تشيران إلى أن الله سبحانه وتعالى أرسل رسلا كثيرين منهم من ذكر قصته لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ومنهم من لم يقص خبره عليه، فالأنبياء والرسل إذا كثيرون، ولم يرد ذكر عددهم في القرآن الكريم، بل ورد فيه ذكر خمسة وعشرين منهم، وهم : آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريا ويحيى وذوالكفل وعيسى وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم.

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم عدة أحاديث في عدد الأنبياء والمرسلين أشهرها حديث أبي ذر الطويل وفيه أنه قال: (قلت: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، قلت: كم الرسل منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جما غفيرا) (٣) وفي رواية أن الرسل ثلاثمائة وخمسة عشر جما غفيرا) (٤).

وهذا العدد هو المشهور عند أكثر العلماء حتى أن البغدادى حكى الإجماع على ذلك (٥).

(١) سورة النساء الآية (١٦٤)

(٢) سورة غافر الآية (٧٨)

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢٦٥/٥ وابن حبان في صحيحه، انظر: موارد الظمان في زوائد ابن حبان ص/٥٢ ج [٩٤] وص/٥٠٨ ج [٢٠٧٩].

(٤) زبده الحاكم في المستدرک ٢٦٣/٢ وليس فيه ذكر عدد الأنبياء وإنما فيه عدد المرسلين، وقد صرح على شرطه (٥) انظر : كتاب أصول الدين ١٢٠ .
سلم وواقفه الذهبى .

المبحث الثاني

النبوات الواردة في السورة

ورد في سورة الأنبياء ذكر بعض الأنبياء مع التعرض لبعض فصول حياتهم ومواجهاتهم لأقوامهم، وما أعقب ذلك من نمر اللد وتأييده لهم، كما ورد ذكر بعضهم مجملا مع الثناء عليهم، وفي ثنايا ذلك كله بعض صفاتهم وخصائصهم ومعجزاتهم، وما كانوا يقومون به من وظائف في تيسير أمور أممهم (١) وسأعرض في هذا المبحث قصصهم مقتصرًا على الفصول التي تعرضت لها السورة من سير حياتهم ومواقف أقوامهم منهم مدمجا قصص بعضهم في بعض كما وردت في السورة، والأنبياء الذين ورد في السورة ذكرهم هم:

موسى وهارون وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ولوط وشوح وداود وسليمان وإيوب وإسماعيل وإدريس وذوالكفل ويونس وزكريا ويحيى وعيسى، عليهم الصلاة والسلام.

واليك بيان ما ورد عنهم في السورة:-

١ - ذكر موسى وهارون :-

قال الله تعالى : (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرنا للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون) الآيتان (٤٨ - ٤٩) ومعنى الآيتين أن الله سبحانه وتعالى يضر أن أعطى موسى وأخاه هارون الفرقان وضياء وذكرنا للمتقين، والفرقان قيل: هو التوراة لأن فيها الفرق بين الحلال والحرام (٢)، وعلى هذا جَوَّز بعضهم أن يكون (ضياء) حالا وذكرنا معطوفا عليه (٣)

(١) وقد خصمت لذلك مبشرين بعد هذا المبحث انظر ص ١٩٦ وص ٢١٧ من هذا البحث.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٢٦/١٧ وابن كثير ١٩٠/٣ .

(٣) انظر معاني القرآن للفراء ٢٠٥/٢ .

كما حكى عن ابن عباس وعكرمة القراءةُ بغير واو(١)، وهذا . يؤيد ما تقدم فيكون (ضياء) حالاً من جهة المعنى (٢). وقيل إن الفرقان هو النصر على الأعداء والضياء والذكر هو التوراة(٣). وقوله تعالى: (للمتقين يخشون ربهم بالغيب) الخ الآية يعنى أن المستفيدين من التوراة والفرقان هم المتقون، وإن كان الواجب على الجميع أن يعملوا بما في التوراة إلا أن المنفذين لهذا الواجب كانوا المتقين الذين من وفهم أنهم يخشون ربهم بالغيب، وهم وجلون خائفون من الساعة. وهكذا نرى أنه لم يرد من سيرة موسى وهارون هنا إلا قمة إيتائهما التوراة ونصرهما على الأعداء، وقد وردت جملة هنا، وفصلت في أماكن أخرى من القرآن الكريم.

وحاصل القمة أن الله سبحانه وتعالى نجى بنى إسرائيل من استرقاق فرعون لهم، وجاوز بهم البحر مخرجاً إياهم من مصر، فأتبعهم فرعون بجنوده، فلما وصلوا البحر أمر الله موسى عليه السلام بضربه، فضربه فانحصر الماء عن طريق لهم فجاوزوا وعبروا إلى الشاطئ الآخر، ولما دخل فرعون ومن معه البحر أطبق عليهم فغرقوا جميعاً(٤).

ثم بعد نجات بنى إسرائيل واعد الله موسى ثلاثين ليلة وأتمها بعشر، وذلك ليكلمه ويعطيه التوراة(٥)، فلما انتهت المدة جاء موسى لمكان المبعاد فكلمه الله سبحانه وتعالى وآتاه التوراة فيها هدى ونور وبيان للشرائع التي يجب عليهم السير عليها، وكانت مكتوبة على ألواح كما قال تعالى: (وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء)(٦). وأمرهم الله بالعمل بما فيها وأخذها بقوة، فعملوا بما فيها مدة، ثم حرفوها وبدلوها بأهوائهم فيما بعد.

٢ - ذكر إبراهيم عليه السلام مع ابنه إسحاق ويعقوب.

قال تعالى: (ولقد آتينا إبراهيم رشداً من قبل وكنا به علمين)، (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الملوثة وإيتاء الزكوة وكانوا لنا عبدين) الآيات من (٥١) إلى (٧٣). وقصة إبراهيم من أطول القصص في السورة وقد تناولت محاورته مع قومه وهجرته إلى الشام وهبة اللد له إسحاق ويعقوب.

(١) نكره القرطبي في تفسيره (٢٩٥/١) ونسبه في الدر إلى مسند سعيد بن منصور، وابن المنذر، انظر المنثور ٢٢٠/٤. (٢) انظر روح المعاني ٥٧/١٧.
(٣) نكره ابن جرير عن ابن زيد ورجحه انظر تفسيره ٢٦/١٧.
(٤) اقرأ الآيات (٩٠، ٩١، ٩٢) من سورة يونس و (٧٧، ٧٨) من سورة طه.
(٥) اقرأ الآيات (٥١) من سورة البقرة ومن الآية (١٤١) إلى (١٤٥) من سورة الأعراف.
(٦) سورة الأعراف الآية (١٤٥).

أما محاورته قومه فقد مضى ذكرها في مبحث سابق بما يغنى عن الإعادة (١).

وأما هجرته إلى الشام فقد كانت بعد أن يئس من قومه ولقى منهم العناد والمكابرة بعد أن بين لهم بالبرهان القولى والفعلى فساد مذهبهم، وتغلب عليهم بالحجة، ثم نُجى من النار التي أرادوا احراقه فيها، وقد كانت هذه النجاة كافية لأن يعلموا أن مذهبهم هو الصحيح، ولكنهم لم يفعلوا، فهاجر مع لوط إلى الأرض المباركة وهي أرض الشام (٢) حيث وهب الله له إسحاق ويعقوب وجعلهم أنبياء صالحين.

هذا هو الفصل الذى ورد من قصة إبراهيم عليه السلام في السورة، وهو من أهم الفصول في سيرة الخليل، إذ هو تلخيص لكفاحه الطويل في سبيل تحقيق التوحيد وإبطال الشرك، هذا الكفاح الذى جعله إماما للموحدين وقُدوة لمن يريد أن يسير فى الطريق الصحيح كما قال تعالى: (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده) الخ الآية (٣)

وقال تعالى: (لقد كان لكم فىهم أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر) الخ الآية (٤).

كما أن فى الفصل تلخيصا لموقف المشركين من دعوة التوحيد ودعائه على مر العصور، وهو موقف يتسم بالعنف والغلظة ومحاولة التخلف من الخصم بشتى الطرق والوسائل المتاحة.

فنرى هنا أنهم حاولوا تحريق إبراهيم عليه السلام نصرة لأصنامهم المحطمة، وقد نفذوا العملية فعلا لولا أن الله سبحانه وتعالى كان لهم بالمرصاد، فأفشل كيدهم وجعلهم الأضرين.

(١) انظر ص (١١٨) من هذا البحث.
(٢) انظر: تفسير الطبري ٣٤/١٧ و ٣٦/١٧ ، وابن كثير ٣/١٩٤ .
(٣) سورة الممتحنة الآية (٤)
(٤) سورة الممتحنة الآية (٦)

ويلاحظ أن الله تعالى لم يخبر بهلاك قوم إبراهيم في القرآن الكريم، ولعل السبب في ذلك هجرته من بينهم وعدم دعوته عليهم، فإن أكثر هلاك الأمم سببه إقامة النبي بينهم وإصرارهم على تكذيبه وأذاه، ودعوة النبي عليهم، كما في قصة نوح ولوط وغيرهما (١).

٣ - ذكر لوط عليه السلام:

قال تعالى: (ولوطا أتينا حكما وعلما ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فسقين وأظننا في رحمتنا إنه من المخلصين) الآيتان (٧٤-٧٥).

وقد ورد ذكر لوط عليه السلام هنا مختصرا، حيث ذكر سبحانه وتعالى أنه أتى لوطا حكما وعلما، والحكم هو النبوة والعلم معرفة أمور الدين وفهمها (٢) وقد أرسله الله تعالى إلى أهل قري ذكر المفسرون والمؤرخون أنها سدوم، وعدة قري أخرى تابعة لها (٣) وهي تقع في الشام حيث كان لوط هاجر مع إبراهيم فنزل هو بتلك القري فدعاهم إلى الله سبحانه وتعالى ونصحهم طالبا منهم الكف عن الخبائب التي كانوا يأتونها، وهي إتيان الرجال وقطع السبيل وغيرها من الأمور المنكرة الخبيثة، ولكنهم لم يطيعوه، فأهلكهم الله تعالى بأن أرسل إليهم ملائكة قلبوا أراضيهم، فجعلوا عاليها سافلها وأمطروا عليها حجارة من طين، ونجى الله سبحانه وتعالى نبيه لوطا عليه السلام وأهلكه إلا امرأته التي لم تؤمن به ولم تتبعه، بل مالات قومها، فهلكت معهم، قال تعالى: (فأنجيناه وأهلكه إلا امرأته كانت من الغابرين) (٤) وقال تعالى عن قومه: (فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) (٥).

(١) انظر: النبوات لابن تيمية ص ٤٢/
(٢) انظر: تفسير القرطبي ٣٠٦/١١ .
(٣) انظر: تفسير الطبري ٢٧/١٧ وتاريخه ٣٠٢/١ و ٣٠٦ و ٣٠٧ .
(٤) سورة الأعراف الآية (٨٣).
(٥) سورة الحجر الآيتان (٧٣ و ٧٤)، وانظر القصة كاملة في تاريخ الطبري ٢٩٢/١ .

٤ - ذكر نوح عليه السلام

قال تعالى: (ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ونمرنه من القوم الذين كذبوا بثأيتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) الآيتان (٧٦ - ٧٧).

وقد ورد ذكر نوح مختصرا أيضا، حيث ذكر الله سبحانه وتعالى أن نوحا عليه السلام ناداه مستنصرا به على قومه الذين كذبوه وأصروا على تكذيبه، بعد أن ظل يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاما، فلم يتبعه منهم إلا قليل، فنادى ربه طالبا منه أن يهلكهم، فاستجاب الله له فأغرقهم جميعا، ونجى نبيه نوحا ومن آمن به من الغرق وهو الموصوف هنا بالكرب العظيم (١).

ويبدل لفظ الكرب أيضا - الذى يعنى في اللغة شدة الغم الذى يأخذ بالنفس - (٢) ووصفه بالعظم على مدى ما عانى نوح من قومه من أذى وعنت وتمادٍ في الغى، فهو من أوفر المرسلين في هذا المجال إن لم يكن أوفرهم على الإطلاق، لأن الله تعالى لم يصرح في القرآن الكريم بمدة لبث رسول على أذى قومه كما صرح بمدة نوح في قومه، حيث ذكر سبحانه أن نوحا لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، ولم يقع التصريح بذكر المدة إلا لبيان مدى إصرار قومه على التكذيب والأذى، ومدى صبره عليه السلام وتحمله، قال تعالى: (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) (٣).

وقوله تعالى في القصة هنا (إذ نادى من قبل) إشارة إلى تقديم رسالة نوح على من ذكر معه هنا، ويستفاد من نصوص أخرى تقدمها على جميع الرسائل فقد ورد في حديث الشفاعة قول أهل الموقف لنوح عليه السلام: (أنت أول الرسل إلى أهل الأرض) (٤).

- (١) انظر تفسير الطبري ٣٧/١٧ وقد فسر ابن كثير الكرب العظيم بالشدة والتكذيب والأذى، انظر تفسيره ١٩٤/٢٥.
- (٢) انظر تهذيب اللغة ٢٠٥/٩ مادة (كرب) والمصاحح ٢١١/١ مادة (كرب).
- (٣) سورة العنكبوت الآية (١٤).
- (٤) رواه البخارى عن أبى هريرة في كتاب الأنبياء باب قول الله عز وجل (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه) ٣٧١/٦ والتفسير باب (ذرية من حملنا مع نوح) ٣٩٤/٨ ورواه مسلم في كتاب الإيمان ١٨٤/١ ج [٣٢٧].

وقد عورض هذا بما ثبت من نبوة آدم وإدريس عليهما السلام، وقد كانا قبل نوح،
ومن أحسن الأجوبة عن ذلك أن نوحا أول الرسل، أما من كان قبله فكانوا أنبياء
ولم يكونوا رسلا (١)، وفي هذا ما يدل على أن هناك فرقا بين النبي والرسول.

٥ - ذكر داود وسليمان

قال تعالى: (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفثت فيه غنم القوم وكنا
لحكمهم شُهدين ففهمناها سليمان وكلا ءاتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال
يسبحن والطيور وكنا فعلين وهما صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم
شكرون وللسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التي بركنا فيها وكنا بكل
شء علمين ومن الشياطين من يفوضون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حُفَظِينَ)
الآيات من [٧٨] إلى [٨٤]

وقد ورد من ذكرهما في هذه الآيات قصة حكمهما بين متخاصمين في حرث وغنم، وذكر
ما خص الله سبحانه وتعالى كلا منهما من خصائص وآيات.

١ - حكمهما بين المتخاصمين :-

كان داود وسليمان من الأنبياء الملوك، وقد بعثا بعد موسى عليه السلام، وكان
داود في جيش طالوت الذي بعثه الله ملكا على بنى إسرائيل لما طلبوا من
نبيهم في ذلك الوقت ملكا يقودهم في القتال في سبيل الله، وقد نبغ داود في
هذا الجيش، وتمكن من قتل قائد الكفار وهو جالوت، فآتاه الله الملك والحكمة
وعلمد مما يشاء (٢)، فكان رسولا ملكا، ثم خلفه ابنه سليمان في الملك، وكان ملكه
أوسع من أبيه وأمكن، وقد تحدث القرآن عن داود بوصفه حاكما في أكثر من آية،
ومنها الآية التي معنا هنا، ففيها أنه تراقع إليه خصمان صاحب حرث وصاحب غنم،
نعتت غنم الثاني في حرث الأول، أي رعته ليلا فأفسدته (٣)، فحكم داود في القضية
حكما رأى ابنه غير ذلك، فصوب الله حكم سليمان حيث قال: (ففهمناها سليمان)
ولكنه أنسى عليهما جميعا، فقال: (وكلا ءاتينا حكما وعلما)، وذلك لأن خطأ الحاكم
إذا اجتهد لا يقتض الجرح فيه، فالمجتهد مشابح سواء أصاب أم أخطأ،

(١) انظر فتح الباري ٢٧٢/٦

(٢) ابرا الآيات من ٢٤٦ إلى ٢٥١ من سورة البقرة.

(٣) انظر تفسير الطبري ٢٨/١٧، وزاد المسير ٢٧١/٥ وابن كثير ١٩٤/٣.

كما قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر) (١) وكان حكم داود أن يأخذ صاحب الحرث الغنم تعويضا عن حرثه، وحكم سليمان أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث فينتفع بها وينتاجها على أن يعيدها إلى صاحبها بعد أن يكون صاحب الغنم قد أملح الحرث حتى يكون على حاله يوم أفسدته غنمه (٢).

ب - فضائل داود وآياته :

وفي الآيات بيان لما خص الله سبحانه وتعالى داود من خصائص، فقوله تعالى : (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير) يعنى أنه سبحانه وتعالى أعطى داود من طيب الصوت وسهولة القراءة ما كان يؤثر على الجماد فتسبح معه الجبال والطير، « فكان داود إذا ترنم بكتابه تقف الطير في الهواء فتجاوبه وترد عليه الجبال تأويبا » (٣) كما قال تعالى في الآية الأخرى : (ولقد آتينا داود منا فضلا يـُـجـبـال أوبى معه والطير) (٤).

وقال تعالى : (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق والطير محشورة كل له أواب) (٥).

ثم قال تعالى مبينا آية أخرى من الآيات التي خص بها : (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم) أى وعلمنا داود صنعة لبوس لكم لتتقيكم وتحرزكم من بأسكم أى في القتال، والمراد بالللبوس الدروع، فكان داود حادقا لهذه الصنعة بتعليم الله له وإلانتة الحديد له كما قال تعالى في آية أخرى : (وألنا له الحديد أن يعمل سبغت وقد ر في السرد) (٦)

-
- (١) رواه البخارى عن عمرو بن العاص في كتاب الاعتصام باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ ٣١٨/١٣، ومسلم في كتاب الأضحية ١٢٤٢/٣ ح ١٥ .
 - (٢) هذا على ما ذكره غير واحد من المفسرين، انظر: تفسير الطبرى ٢٨/١٧ وزاد المسير ٢٧١/٥، وابن كثير ١٩٤/٣ .
 - (٣) تفسير ابن كثير ١٩٦/٣ بتصرف يسير.
 - (٤) سورة سبأ الآية (١٠)
 - (٥) سورة ص الآيتان (١٨ و ١٩).
 - (٦) سورة سبأ الآيتان (١٠) و (١١).

قال المفسرون إنه كان لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط فيعمل منه الدروع (١).

وقوله تعالى: (فهل أنتم شُكروُن) حَصَّ عَلَى الشُّكْرِ عَلَى كُلِّ نِعْمَةٍ وَمِنْهَا نِعْمَةٌ هَذِهِ الصَّنِيعَةُ الَّتِي تَخَفُّ مِنْ آثَارِ الْحُرُوبِ .

ج - فضائل سليمان وآياته:

وقد وردت هذه في قوله تعالى: (ولسليمان الريح عاصفة ...) أي أنه سبحانه وتعالى سخر لسليمان الريح العاصفة التي تجرى بأمره إلى الأرض المباركة وهي أرض الشام ، وورد وصف الريح أيضاً بأنها رخاء وتجرى حيث أراد، قال تعالى: (فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أواها) (٢).

كما وصفت في آية أخرى بالسرعة البالغة، قال تعالى: (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر) (٣) .

فيستفاد من مجموع الآيات أن الريح كانت مسخرة لسليمان بحيث يستخدمها كما يريد، تارة عاصفة وتارة رخاء، وتجرى به من الشام حيث مقره إلى حيث يشاء من أنحاء المعمورة، وقد ذكر المفسرون أنه كان له بساط يجمع عليه ما يريد ثم يأمر الريح فتطير به إلى حيث يريد (٤).

ثم قال تعالى مبيناً آية أخرى مما خص به سليمان: (ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك...) الخ الآية أي وسخرنا له من الشياطين وهم الجن من يغوصون له لاستخراج اللؤلؤ والدرر من أعماق البحار، ويعملون له أعمالاً أخرى غير ذلك، وقد ورد ذكر هذه الأعمال في قوله تعالى: (يعملون له ما يشاء من محراب وتمثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات...) (٥). أي أنهم كانوا يبنون له البنائيات الشامخة الجميلة، والتمثيل والجفان العظيمة التي كالحياض التي يجبي فيها الماء (٦)، وكذا القدور الثابتة التي لا تتحول عن أماكنها لعظمتها (٧).

- (١) انظر: تفسير القرآن لعبد الرزاق المنعاني القسم الثاني ص/١٢٧ والطبري ٤٦/٢٢، وزاد المسير ٤٣٦/٦ ونسبوا القول به لقتادة ونسب ابن كثير في تفسيره ٥٢٥/٣ له وللحسن البصري والأعمش وغيرهم.
- (٢) سورة ص الآية (٣٦).
- (٣) سورة سبأ الآية (١٢).
- (٤) ومن ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره ١٩٦/٢ .
- (٥) سورة سبأ الآية (١٣).
- (٦) انظر تفسير الطبري ٤٩/٢٢ ، وابن كثير/٥٢٦ .
- (٧) انظر المصدرين السابقين والصفحات ذاتها.

« وتسخير الأقسام لداود عليه السلام وهو الحجر والحديد، وتسخير الطفها لسليمان عليه السلام وهو الريح، وكذا الجن الذين خلقوا من نار يغوصون في الماء، دليل واضح على باهر قدرته سبحانه وتعالى، وأنه لا حدود لقدرته عز وجل»^(١).

٦- ذكر أيوب عليه السلام:

قال تعالى عنه: (وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وءاتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعبدین) الآيتان (٨٣) و (٨٤).

ومجمل قصة كما يفهم من هذه الآيات وآيات أخرى أن الله ابتلاه بهلاك ماله وموت أهله ومرضه مرضاً مضمياً^(٢)، فصبر على هذا البلاء صبراً منقطع النظير فلما تفاقم أمره واشتد كربيه نادى ربه قائلاً: إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين، فاكتمى بذكر بلائه المقتضى طلب الكشف، وذكر رحمة الله المقتضى أن يرحم عبده فيكشف ما به ضره، فاستجاب الله له فكشف ضره، ورد عليه أهله ومثلهم معهم^(٣)، رحمة به، وذكرى للعابدين، ليتعظوا ويعلموا أن من توكل على ربه فهو حسبه.

وكان هذا الضر الذى أصاب أيوب من الشيطان الذى أراد أن يجزع إذا ابتلى، وذلك حسداً وبغياً، لأن الله وصف عبده أيوب بالصبر، فقال عنه: (إننا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب)^(٤)، فأراد إبليس اللعين أن يزول عن أيوب هذا الوصف، فأصابه بما أصابه.

وقد ورد قصة أيوب في سورة (ص) أيضاً حيث قال تعالى: (وانكر عبادنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب اركض برجلك هذا مفتسل بارد وشراب ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب)^(٥).

(١) روح المعانى بتصرف ٧٩/١٧.
(٢) أفاض المفسرون في ذكر مرضه عليه السلام، وأوصلوه درجة، أشارك غيرى في الرأى في أنه لا يلىق بمقام النبوة والرسالة فالرسل يبتلون، ولكنه لا يكون بلاء منفراً، كما ذكرود في مرض أيوب، حيث ذكروا أن المرض وصل به درجة أنه ألقى على مزبلة من المزابل لمدة سنين عديدة، اختلفوا في تحديدها. انظر تفسير الطبرى ٤٢/١٧ - ٥٧، وزاد المسمى ٢٧٥/٥ - ٢٧٧ وابن كثير ١٩٧/٢ - ١٩٨.

(٣) وقد اختلف في كيفية ذلك، هل كان بإحياء الموتى منهم، أو بإعطائه أهلاً آخر غير الذين ماتوا، ولم يأت نص صريح مؤيد لأحد هذين القولين، والله على كل شيء قدير، وعنده العلم سبحانه.
(٤) سورة (ص) الآية (٤٤)، (٥) سورة (ص) الآيات (٤١ و ٤٢ و ٤٣).

٧- ذكر إسماعيل وإدريس وذئ الكفل:

قال تعالى: (وإسماعيل وإدريس وذئ الكفل كل من الصّبرين وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصّالحين) الآيتان (٨٥) و (٨٦).

وفي الآيتين ذكر ثلاثة من الأنبياء وهم إسماعيل وإدريس وذئ الكفل عليهم السلام.

أما إسماعيل فهو ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وقد سكن مكة مع أمه وهو رضيع حين ما تركهما إبراهيم هناك بأمر اللد سبحانه وتعالى، ثم سكن معهما ناس من جرهم وعمروا مكة، فتزوج منهم وأنجب (١) فكان من نسله العرب المستعربة الذين منهم قريش التي منها سيد الخلق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (٢)، ويقال: إن جميع العرب من نسله (٣)، وهو الذبيح في قول أكثر أهل العلم، لأنه الذي سكن مكة حيث مناسك الحج، ولم يروا أن إسحاق زار مكة، وقصة الذبح كانت بمكة (٤).

وقد ساعد إسماعيل أباه في بناء الكعبة في إحدى زيارات أبيه له في مكة (٥)، وهو من الأنبياء والمرسلين وقد وصفه الله تعالى بذلك، وأثنى عليه في قوله تعالى: (واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكان بأمر أهله بالصلوة والزكاة وكان عند ربه مرضيا) (٦).

ولكن لم يرد في القرآن الكريم ذكر لقومه وموقفهم من رسالته.

-
- (١) انظر قصة ترك إبراهيم إياه كاملة في صحيح البخارى كتاب أحاديث الأنبياء باب (يزفون) النسلان: المشي ٢٩٦/٦.
 - (٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٢٢/١.
 - (٣) انظر المصدر نفسه ٢٢/١ وجمهرة أنساب العرب لابن جرم ص/٩، ٨، ٧.
 - (٤) انظر تفسير ابن كثير ٢١-١٦/٤ حيث استقصى المسألة ورجح بالدليل أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق.
 - (٥) روى البخارى في الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنه أن إبراهيم زار أبيه ثلاثة، وفي المرة الثالثة وجده فأخبره بأمر الله ببناء الكعبة، فبنيها معا. انظر كتاب أحاديث الأنبياء باب (يزفون) ٣٩٦.
 - (٦) سورة مريم الآيتان (٥٤، ٥٥).

وأما إدريس فقد تكرر ذكره في القرآن الكريم دون الإشارة إلى قومه، ومعظم المؤرخين على أنه كان بين آدم ونوح وإن اسمه حَنُوح (١)، وقد روى عن ابن مسعود وابن عباس أنه هو إلياس، فيكون من أنبياء بنى إسرائيل (٢)، وإيَّامًا كان الأمر فإنه كان من الأنبياء، بدليل قوله تعالى عنه: (وإذ ذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقًا نبيًا ورفعناه مكانًا عليا) (٣).

وقد روى في معنى هذه الآية أنه رفع حيا إلى السماء الرابعة ثم قبض هناك (٤)، وفي حديث الإسراء والمعراج أن النبي صلى الله عليه وسلم وجده في السماء الرابعة (٥)، أما كونه رفع هناك ثم قبض فهو مما نقل عن كتب بنى إسرائيل والله أعلم بصحته.

قال ابن كثير بعد ذكره أثر كعب في رفع إدريس حيا إلى السماء: (هذا من أخبار كعب الأخبار الإسرائيلية، وفي بعضه نكارة والله أعلم) (٦).

وأما ذوالكفل فقد ورد ذكره مع الأنبياء هنا، وكذا في قوله تعالى: (وإنك إن لم تكن نبيا بل كان رجلا صالحا، وسمى ذالكفل إما لأنه تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمرهم ويقضى بينهم بالعدل، أو لأنه تكفل لليسع بأن يصوم ويقوم الليل ولا يغضب، ووفى بذلك، أو أنه تكفل لرجل من قومه أن يصلح مائة صلاة كل يوم) (٩).

والظاهر من ذكره مع الأنبياء والثناء عليه معهم أنه منهم، وهذا هو المشهور (٨)، وقد ذكر البعض أنه لم يكن نبيا بل كان رجلا صالحا، وسمى ذالكفل إما لأنه تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمرهم ويقضى بينهم بالعدل، أو لأنه تكفل لليسع بأن يصوم ويقوم الليل ولا يغضب، ووفى بذلك، أو أنه تكفل لرجل من قومه أن يصلح مائة صلاة كل يوم (٩).

-
- (١) انظر قصص الأنبياء لابن كثير ٨٠/١ .
 - (٢) علقه البخاري عنهما، في الصحيح كتاب أحاديث الأنبياء باب (وإن إلياس لمن المرسلين) الآية ٣٧٣/٦ قال ابن حجر: أما قول ابن مسعود قوله عبد بن حميد وابن أبي حاتم بإسناد حسن عنه، وأما قول ابن عباس قوله جويبير في تفسيره عن الضحاك عند وإسناده ضعيف، فتح الباري ٣٧٣/٦ .
 - (٣) سورة مريم الآيتان (٥٦، ٥٧).
 - (٤) روى ابن جرير موقوفا على كعب الأخبار أنه رفع إلى الرابعة وعن ابن عباس أنه رفع إلى السادسة، انظر تفسيره ٧٢/١٦، ولا شك أنه موجود في السماء الرابعة كما ثبت على النبي صلى الله عليه وسلم.
 - (٥) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة ٣٠٢/٦ وكتاب مناقب الأنصار باب المعراج ٢٠١/٧ ومسلم في الصحيح كتاب الإيمان ١٤٥/١ - ١٤٦/١ ح (٢٥٩) وح (٢٦٤) في ١٤٩/١ - ١٥٠ .
 - (٦) تفسير ابن كثير ١٣٣/٢ (٧) سورة ص الآية (٤٨).
 - (٨) انظر قصص الأنبياء لابن كثير ٣٢٠/١ .
 - (٩) انظر تفسير الطبري ٥٨/١٧ - ٥٩ - ٦٠، وقد روى هذه الأقوال عن أبي موسى الأشعري ومجاهد وعبد الله بن الحارث ومحمد بن قيس موقوفا عليهم، وزاد المسير ٢٧٩/٥ وتفسير ابن كثير ١٩٩/٣ - ٢٠٠ .

نسخة من
تفسير ابن كثير
نسخة من
تفسير ابن كثير

٨- ذكر يونس عليه عليه السلام وهو ذو النون(١).

قال تعالى: (وذا النون إذ ذهب مغضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين) الآيتان (٨٧، ٨٨).

وكان من أمره - كما ذكر المفسرون والمؤرخون: أن الله بعثه إلى أهل نينوى من أرض الموصل، فدعاهم إلى اللد عز وجل فأبوا عليه ففؤعدهم بالعذاب، وخرج من بينهم مغاضبا لهم، وببدو أن صبره نفذ سريعا، ولذا أمر الله سبحانه وتعالى نبيينا محمد صلى الله عليه وسلم بالصبر ونهاه عن أن يكون كـيونس، فقال تعالى: (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم) (٢)، ولما خرج يونس من بين ظهران قوميه مُتوعدا بإيامهم بالعذاب، وتحقق القوم من صدقه آمنوا قبل طول العذاب بهم، فكشفه الله عنهم، كما قال تعالى عنهم: (فلولا كانت قرية آمنات فنقعها إيمانها إلا أقوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحيوة الدنيا ومتعناهم إلى حين) (٣).

(١) أي صاحب النون وهو الحوت، وقد نسب إليه لأنه التقمه كما هو واضح في القصة.

(٢) سورة القلم الآية (٤٨)

(٣) سورة يونس الآية (٩٨).

أما يونس عليه السلام فإنه لما خرج ظن أن لن ينسيق الله عليه لعدم صبره على أذى قوميه وهذا معنى قوله تعالى هنا (فظن أن لن نقدر عليه) (١) ولكن الله عزوجل عاقبه على ذلك فحبسه في بطن الحوت، وذلك أنه لما خرج ركب سفينة خشي أهلها الغرق لشغل الحمل فقرروا تخفيف الحمل بالقاء أحد الركاب في البحر واقتنعوا في ذلك فوقع القرعة على يونس فألقى في البحر والتقمه الحوت وهنا أدرك خطاه فتداركته رحمة الله تبارك وتعالى وألهم التسبيح فنأدى في تلك الظلمات ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر (٢) معترفا بخطئه، مقرا بظلمه لنفسه قائلا: (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) فاستجاب الله له ونجاه من ذلك الغم، فلفظه الحوت على الساطل وهو سقيم، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين أظلته حتى عادت إليه قواه كما قال تعالى في الآية الأخرى: (فنبذناه بالعراء وهو سقيم وأنبطنا عليه شجرة من يقطين) (٣).

ففي قصة يونس عليه السلام هنا من الدروس وجوب الصبر على الأذى في سبيل الدعوة إلى الله عز وجل، وعدم تعجل النتيجة، وفيها الحرص على الرجوع إلى الله تعالى والاعتراف بالذنب، والتوسل في الدعاء بالثناء على الله سبحانه وتعالى، وقد ورد أن من دعا بدعوة يونس استجاب الله له (٤).

٩- ذكر زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام:

قال تعالى: (وزكريا إذ نادى ربه رب لاتذرني فردا وأنت خير الورثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأملنا له زوجه إنهم كانوا يسرعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعلمين) الآيات : ٩١، ٩٠، ٨٩ .

- (١) اختلف المفسرون حول معنى قوله تعالى: (فظن أن لن نقدر عليه)، وما ذكرته هو اختيار ابن جرير وغيره من كبار المفسرين انظر تفسير الطبري ٦٢/١٧-٦٣ وتفسير ابن كثير ٢/٢٠١ وروح المعاني ١٧/٨٤ .
- (٢) ميفة الجمع هنا (الظلمات) تشير إلى ظلمات ثلاث على الأقل، والمستفاد من السياق الأشنتان المذكورتان أما الثالثة فقليل إنها ظلمة الليل، وقيل إن حوتا آخر ابتلع الأول وقيل غير ذلك انظر تفسير الطبري ٦٤/١٧ وزاد المسير ٢٨٢/٥ وابن كثير ٢/٢٠١ .
- (٣) سورة الصافات الآيتان : ١٤٥ - ١٤٦ .
- (٤) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات ١٩١/٥ ج: ٢٥٧٢ .

وهؤلاء الأنبياء الثلاثة هم أواخر أنبياء بنى إسرائيل، وقد ارتبطت قصة بعضهم مع بعض في عدة مواضع من القرآن، لما فيها من توافق في الزمن والمكان والحوادث، فزكريا أبو يحي وهو الذى كفل مريم أم عيسى، وقد رزق الله زكريا يحي بعد الياس وولد عيسى بلا أب، وفي ولادة كل من يحي وعيسى آية .

وتبدأ القصة بنذر امرأة عمران أم مريم إن رزقها الله مولودا أن تحرره لخدمة بيت المقدس، فرزقها الله مريم، وكانت أمانياتها أن يكون المولود ذكرا، ولذا تحسرت لكنها رضيت بما قسم الله لها وقالت: (رب إنسى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنسى سميتها مريم وإنى أعيدما بك وذريتها من الشيطان الرجيم) (١) .

ثم إنها سلمت مريم للعباد في المسجد لكفالتها، حتى تنشأ نشأة رهبانية، فتنازعوا أيهم يكفلها، ثم اقتنعوا فكانت من نصيب زكريا - وكان تحته خالتها - كما يقول المؤرخون (٢)، وكفلها زكريا، وكان زكريا قد أسن وكانت امرأته عاقرا لاتلد، وكان كلما دخل على مريم المحراب وجد عندها رزقا لا يدري من أين لها ذلك، فيسألها فتقول: (هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) (٣) فكان قول مريم هذه هيبت زكريا لطلب الولد مع علمه بأن حالته غير مواتية، لكنه كان على يقين من قدرة الله التي لا حدود لها، فهناك وعند قول مريم دعا زكريا ربه سائلا إياه أن يرزقه ذرية صالحة يرثه في النبوة والعلم قائلا: (رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنى أسمع الدعاء) (٤) (رب لاتذرنى فردا وأنت خير الوارثين) وهذا الدعاء هو الذى ورد في قصة زكريا هنا في سورة الأنبياء،

(١) سورة آل عمران الآية : ٣٦
(٢) ومن هنا قيل ليحي وعيسى ابنا الخالة، وقد ثبت في الصحيح في كتاب الأنبياء من صحيح البخارى باب (ذكر رحمة ربك عبده زكريا) الآية ٤٦٧/٦ وباب مناقب الأنصار ٢٠٢/٧ .
(٣) سورة آل عمران الآية : ٣٧
(٤) سورة آل عمران الآية : ٣٨

فاستجاب الله له ووهب له يحي وجعله نبيا صالحا وحصورا، وأصلح له زوجة التي كسانت لاتلد فجعلها سالحة للإنجاب وقد مدحهم الله تعالى ضمن الأنبياء بقوله: (إنهم كانوا يسرعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين).

ويروى المؤرخون أن يحي قتل في عهد أبيه (١) أما زكريا فاختلّفوا في أمره فمنهم من قال إنه قتل أيضا، ومنهم من قال إنه مات حتف أنف (٢).

أما مريم فإنها قد اشتهرت بالعبادة والانقطاع لها حتى اعتزلت قومها واتخذت من دونهم حجابا، فبينما هي كذلك إذ بشرتها الملائكة بأنها ستكون أمًّا لولد زكي وجيه في الدنيا والآخرة ومن المقربين ومن الصالحين، فتعجب لذلك وقالت: (أأنس يكون لي غلم ولم يمسنى بشر ولم أك بغيا) (٣) فأجابها الملك: (كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا) (٤) أي أنه أمر مفروغ منه ولا رجعة عنه، وهذا ما حكاه الله علينا في سورة الأنبياء فقال تعالى: (والتي أحصنت فرجها) وهي مريم (فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنة آية للعالمين) حيث ولد الابن من غير أب، ولم يرد في السورة ذكر لنبوة عيسى عليه السلام ولا لموقف بنى إسرائيل منه، وخلاصة القول في ذلك أنهم اختلفوا في شأنه، فمنهم من رمى مريم بالفاحشة، وهم اليهود عليهم لعائن الله، ومنهم من غلا في المسيح فقالوا إنه هو الله أو أنه أحد الأقانيم الثلاثة (٥) (الأب والابن وروح القدس) أو أنه ابن الله (٦).

ثم إن اليهود أرادوا قتله فعصمه الله منهم ورفعوه حيا، ووضع شبهه على أقدامهم ققتلوه وطلبوه، ظنا منهم أنه هو عيسى عليهم السلام، قال تعالى: (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما طلبوه ولكن شبه لهم) (٧)

والنصارى لجهلهم صدقوا اليهود في إفكهم هذا، ومن ثمّ قدسوا الصليب لأنه رمز التضحية عندهم، حيث يزعمون أن الله نزل من فوق السماء إلى الأرض، أو أنزل ابنه ليقتل على الصليب فداء للبشر من خطيئة أبيهم آدم.

- (١) انظر قصص الأنبياء لابن كثير ٦٤٠/٢-٦٤٣. (٢) انظر المصدر نفسه ٦٣٦/٢ .
 (٣) سورة مريم الآية: ٢٠ (٤) سورة مريم الآية: ٢٠ .
 (٥) وقد كفر الله كلتا هاتين الطائفتين فقال عن الأولى: (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) سورة المائدة الآية: ٧٢ . وقال عن الثانية: (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) سورة المائدة الآية: ٧٣ . انظر الفضل في الملل والأهواء والنحل ٤٨/١ وقصص الأنبياء لابن كثير ٦٧/٢ .
 (٦) قال تعالى عنهم: (وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله) التوبة الآية: ٣٠ .
 (٧) سورة النساء الآية: ١٥٧ .

المبحث الثالث

صفات الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ووظائفهم

أولا : صفات الأنبياء والرسل :-

تعرضت سورة الأنبياء لذكر بعض صفات الأنبياء والرسل عليهم الصلاة

والسلام ومنها صفات خلقية وصفات خلقية.

فمن الصفات الخلقية التي تعرضت لها السورة: البشرية، والذكورة.

ومن الصفات الخلقية : الرشد والملاح والعلم والخضوع والاستكانة لله تعالى
والمبر.

وسأفرد لكل منها حديثا خاصا موضحا دلالة الآيات عليها.

١ - المفات الخُفية :

١ - قال تعالى : (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاستلوا أهل الذكور إن كنتم لاتعلمون وما جعلناهم جسدا لياكلون الطعام وما كانوا خُلدين) الآيتان (٨,٧).

٢ - وقال تعالى : (وما جعلنا للبشر من قبلك الخلد أفأبى من فهم الخلدون كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) الآيتان (٢٥,٢٤)

٣ - وقال تعالى : (فإن تولوا فقل ءانذرتكم على سواء وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون) الآية (١٠٩)

ففي الآيات الأولى يخبر الله سبحانه وتعالى أنه ما أرسل قبل النبي صلى الله عليه وسلم رسولا إلا من الرجال، فليسأل من يشك في ذلك أهل الذكور وهم العلماء(١)، ويخبر تعالى أيضا أنهم لم يكونوا بشرا غير آكلين، بل كانوا يأكلون الطعام ولم يكونوا خالدين، بل ذاقوا الموت كما يخوقد كل امرئ من البشر، وهذه القضية - أي الموت - هي بعينها التي أكدتها الآيتان التاليتان، .

فقول تعالى : (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد...) الآية تعميم للمرسلين وغيرهم، أي لم يخلد بشر من لدن آدم إليك يا محمد، ولن تخرج أنت أيضا عن هذه السنة الكونية، وكذلك مكذبوك لن يخرجوا عن هذه القاعدة، فكل نفس ذائقة الموت، مهما تكن منزلتها من الرفعة أو الخسة، والمعدة التي يقضيها المرء في الدنيا إنما هي للابتلاء والاختبار، ثم يرجع الجميع إلى بارئ لكى ينال جزاء ما عمل.

(١) اختلفت عبارات المفسرين في معنى أهل الذكور، ولكن معانيها متقاربة ويجمع بينها أنهم العلماء العالمون بما في الكتب السماوية المؤمنون بها، انظر: تفسير الطبري ٧٤/١٤ - ٧٥ وزاد المسير ٤٤٩/٤ والقرطبي ١٠٨/١٠ .

أما الآية الأخيرة فتؤكد بشرية الرسول بنفي علمه للغيب فهو لا يعلم متى يأتي ما يوعد به الكفار، أقرب هو أم بعيد، لأنه بشر مثلهم لا يعلم الغيب.

ومن هذا العرض الموجز نجد أن الأنبياء وصفوا هنا بصفات تؤكد أنهم بشر بما يترتب على البشرية من تعرض للعوارض، كالموت والحاجة إلى الطعام، وأنهم جميعا من الرجال .

وبالنسبة للقضية الأولى وهي كونهم بشرا يصيبهم ما يصيب البشر، من مرض وموت وحاجة إلى الطعام والماء فقد جاء ذكرها هنا ردا على الكفار الذين يرون أن الرسول يجب ألا يكون بشرا، وأن البشرية تناقض الرسالة، وطالبوا بأن يكون معه من الآيات الحسية ما يرفعه عن درجة البشرية، : (وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبععون إلا رجلا مسحورا) (١).

وهؤلاء لما كانوا مؤمنين بجنس الرسالة وأنه وجد رسل من قبل بدليل أنهم طلبوا آيات كآيات الرسل السابقين، كما حكى اللد تعالى ذلك بقوله: (بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) الآية (٥) من سورة الأنبياء فالقضية معهم إذا هو إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وقد رد الله عليهم بأن تقريرهم وجود رسالات سابقة يناقض دعواهم هنا، فإن المرسلين السابقين جميعا كانوا من البشر، وكانوا يأكلون الطعام ويشون في الأسواق، قال تعالى: (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق) (٢).

فالبشرية إذا لاتناقض الرسالة، بل هي الموافقة، لأن الجنس يتوافق مع جنسه أكثر من توافقه مع غير جنسه، فالبشر يناسبهم الرسول البشري، والملائكة يناسبهم الرسول الملكي، كما قال تعالى: (قل لو كان في الأرض ملكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) (٣).

(١) سورة الفرقان الآيتان (٧، ٨)

(٢) سورة الفرقان الآية (٢٠)

(٣) سورة الإسراء الآية (٩٥).

وهذا الشبهة قديمة قالها أتباع كثيرين من الرسل قبل هذه الأمة ، وحالت دون إيمانهم ، كما قال تعالى : (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا ،) (١)

وقال تعالى : (ذلك بأند كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشريهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد) (٢)

والحديث فى الآية عن الكفار الذين كانوا قبل كفار هذه الأمة ، والإشارة فيها إلى ما أصابهم من هلاك وعذاب . والحقيقة أن هذه الشبهة يرددها الكفرة فقط حين يعجزون ويبهتون ، وإلا فحتى لو جاءهم رسول من الملائكة لم يكونوا ليؤمنوا ، لأنهم بقوامهم البشرية لا يمكنهم أن يتخاطبوا مع الملائكة إلا اذا تصورت الملائكة بصور البشر ، حينئذ يلتبس الأمر عليهم ، فيقولون : هذا بشر وليس ملكا ، قال تعالى (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون) (٣)

قال ابن كثير فى معنى هذه الآية : (أى لو أنزلنا مع الرسول البشرى ملكا ، أى لوبعثنا إلى البشر رسولا ملكيا لكان على هيئة الرسول ، ليتمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه ، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما هم يلبسون على أنفسهم فى قبول رسالة ^{الرسول} البشرى ، كقوله تعالى : (قل لو كان فى الأرض ملكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) (٤) فمن رحمته بخلقة أنه يرسل إلى كل صنف ، من الخدائق رسلا منهم ، ليدعو بعضهم بعضا وليمكن بعضهم أن ينفع ببعض فى المخاطبة والسؤال ،

كما قال تعالى : (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فىهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم) (٥) الآية ، قال الضحاك عن ابن عباس فى الآية يقول :

لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا فى صورة رجل ، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور (٦)

(١) سورة الاسراء الآية (٩٤)

(٢) سورة التغابن وآية (٦)

(٣) سورة الأنعام الآية (٩)

(٤) سورة آل عمران الآية (١٦٤)

(٥) هو الضحاك بن مزاحم الهلالى البلخى المفسر ، وثقه أحمد وابن معين وأبو زرعة ، وهو من المشهورين بالتفسير ، وقد تكلم فيه فى الحديث (ت ١٠٥هـ)

وقيل (١٠٦هـ) انظر ترجمته فى طبقات ابن سعد ٢٠٠/٦ وميزان الاعتدال ٢٩/٢ - وسير النبلاء ٥٩٨/٤ - والبداية والنهاية ٢٢١/٩

(٦) تفسير ابن كثير ١٢٩١٤ ، والأثر أخرجه الطبرسى فى تفسيره ٩٧/٧

فالحكمة الإلهية اقتضت أن يكون الرسل بشرا ككل البشر ، يتعرضون لما يتعرض له البشر من جوع ومرض ومن سائر مصاعب الحياة ، وقد مر قصص داود وأيوب ويونس شاهدةً على ذلك (١)

وما يميز الرسل عن غيرهم في هذا المجال هو أنهم يوحى إليهم ، وأنهم متمفون ببعض الخصال الفاضلة التي وفقهم اللد لها ، لكي تتحقق فيهم القدوة الحسنة . وأما القضية الثانية وهي كون الأ نبياء والرسل جميعا من الرجال ، فهذا مما اتفق عليه بالنسبة للرسل، فهم جميعا من الرجال، لأن تبعات الرسالة لاتتحملها طبيعة النساء فالرسول مكلف بتبليغ الدعوة إلى أقصى مايمكنه ، وهو مكلف بقيادة الأمة في سلمها وحربها، ويتحمل ما يلقي من أذى وعنت من أعدائه الكفار، وهذه مهمات شاقة تحتاج إلى جلد ومكابدة ، وطبيعة النساء اللينة والميوعة، فهن لايتحملن الشدة والضيق، ولذا لم يكن لهن نصيب من الرسالة، وقدوردت آيات كثيرة في هذا المضمون ،

ومنها قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فسلوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون) (٢)

أما بالنسبة للأنبياء فجمهور العلماء على أنهم جميعا من الرجال أيضا (٣)

ولكن بعض العلماء يرى أن النساء اللاتي أخبرنا اللد أنهن كلمهن الملائكة أو أوحى إليهن نبيات، وهن أم إسحاق ومريم وأم موسى، وممن ذهب إلى ذلك ابن حزم (٤) قالوا: إن كل من أوحى إليه بواسطة الملك فهو نبي ، وكل من أعلمه اللد بما يكون قبل أن يكون فهو نبي ، وعلى ذلك فقد بشرت الملائكة أم إسحاق بإسحاق قبل مولده وخاطبوها ، وكذلك مريم أم عيسى بشرتها الملائكة باصطفاء اللد لها وتطهير إياها، ويعيسى عليه السلام ، ثم إن اللد ذكرها في سورة مريم في سياق قصص الأنبياء

(١) انظر من (١٨٩١٨٧) من هذا البحث > حيث أن داود كان يعمل حدادا يصنع الدروع وابتلى أيوب بالمرض ، ويونس غاص قومده ، وهذا كلها من صفات البشر ونوازع البشرية

(٢) سورة النحل الآية (٤٢)

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٤٩٧/٢

(٤) انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل ١٧/٥ - ١٨ - ١٩ - وابن حزم هو الإمام أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن جزم الأنطلس القرطبي الحافظ الفقيه الظاهري المتكلم صاحب التمانيف (ت ٤٥٦ هـ) انظر ترجمته في الملة لابن بشكوال ٤١٥/٢ وبغية الملتبس من ٤١٥ ووفيات الأعيان ٢٢٥/٢ وتذكرة الحفاظ ١١٤٦/٣ وسير أعلام النبلاء ١٨٤/١٨ والبداية والنهاية ٩٨/١٢

فقال تعالى : (واذكر في الكتاب مريم) كما قال : (واذكر في الكتاب إبراهيم)

(واذكر في الكتاب موسى) (١)

وأما أم موسى فقد قال تعالى عنها : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم .. الآية) (٢)

والحق ابن حزم بهن امرأة فرعون لإخبار النبي صلى الله عليه وسلم بأنها ممن كملت من النساء (٣) ومعنى هذا أنها ومريم أفضل النساء ، ولا يكون غير النبي أفضل من النبي فإذا قد ثبتت النبوة لبعض النساء وآسية أفضل منهن فلا بُدَّ من ثبوتها لها أيضا (٤)

ويرد على هذا القول بأن مناط النبوة ليس مجرد الوحي حتى يدخل فيه الوحي المذكور لهؤلاء النساء ، وإنما الوحي الذي يتعلق به النبوة هو الوحي بالتشريع (٥) وهذا لم يحصل لأحد من النساء ، ولم يرد وصف أي امرأة بالنبوة في نصوص الشرع ،

قال ابن كثير - بعد أن نقل قوله من قال بنبوة بعض النساء وأدلة أصحابها ومنها بشارة الملائكة لمريم باصطفاء الله لها على نساء العالمين : (وهذا القدر (٦) حاصل لهن، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك ، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف فهذا لا شك فيه ، ويبقى الكلام معه في أن هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرد أم لا؟ الذي عليه أهل السنة والجماعة وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعري عنهم (٧) أنه

(١) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل ١٨/٥ ، والآيات من سورة مريم وأرقامها على الترتيب (١٦- ٤١- ٥١)

(٢) سورة القصص الآية (٧)

(٣) ورد ذلك في حديث صحيح أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ٤٤٦/٦ و٤٧١/٦ وكتاب فضائل الصحابة ١٠٦/٧ وكتاب الأَطعمة باب فضل الشريد ٥٥١/٩ ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ١٨٨٦/٤ ح (٧٠)

(٤) انظر: الفصل ١٨/٥

(٥) انظر : ص (٢١٢) من هذا البحث لمزيد من البيان

(٦) أي التعظيم والاصطفاء والتفضيل على النساء

(٧) هو على بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم وينتهي نسبه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : كان في أول أمره معتزليا ثم رجع عن الاعتزال ، واستقر أمره على اتباع مذهب السلف ومن أشهر كتبه في ذلك (الإبانة) إليه ينتسب الفرقة الكلامية المعروفة "الأشعرية" وهو منهم براء (ت ٢٢٤ هـ) على اختلاف فيه انظر ترجمته في تاريخ بغداد ٢٤٦/١١ والكامل لابن الأثير ٢٨٩١/٦ وسير أعلام النبلاء ٨٥/١٥ والبدلية والنهاية ١٩٥/١١ و ٢١٧/١١

ليس فى النساء نبىة ، وإنما فىهن صديقات كما قال تعالى مخرجا عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال تعالى : (ماالمسيح ابن مريم إالرسول قدظت من قبله الرسل وأمه صديقةكانا يأكلان الطعام) (١) فوصفها فى أشرف مقاماتها بالصديقة فلوكانت نبىة لذكرتك فى مقام التشريف والإعظام فهى صديقة بنص القرآن (٢)

ويمكن الرد على القول بنبوة النساء بنص الآية التى معنا ، وذلك لأن النبوة الشرعية ينطبق عليها الإرسال العام ، وقد سبق فى مبحث الفرق بين النبى والرسل قول ابن تيمية فى معنى قوله تعالى : (وماأرسلنا من قبلك من رسول ولانبى إلاإذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ..) الآية (٣) وأن الأنبياء أيضا مرسلون ، فىكون قوله تعالى هنا : (وماأرسلنا قبلك إلارجالا نوحى إليهم) كقوله تعالى هناك : (وماأرسلنا من قبلك من رسول ولانبى إلاإذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) ويكون فى كليهما دلالة على أن الأنبياء أيضا مرسلون ، ولكن لا يطلق عليهم أنهم رسل تفريقا بينهم وبين الرسل ، ويكون فى الآية التى معنا دلالة على أن المرسلين سواء كانوا أنبياء أورسلا من الرجال وليست فىهم امرأة واحدة ، وهو الصحيح إن شاء اللد .

(١) سورة المائدة الآية (٧٥)
(٢) تفسير ابن كثير ٤٩٧/٢
(٣) انظر ص (١٧٨) من هذا البحث

ب- الصفات الخاقية

وردت الصفات الخاقية للأنبياء والرسل عليهم السلام في ثنايا قصصهم في السورة حيث أثنى الله سبحانه عليهم بتلك الصفات التي تطوابعها وأسهمت في نجاح دعوتهم وهذه الصفات هي :

١ = الرشد ، قال تعالى عن إبراهيم : (ولقد آتينا إبراهيم حكيم رشده من قبل وكنابا علمين) الآية (٥١)

ومعنى الآية قد سبق (١) والمراد بالرشد <<الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار وهو الامتداء الكامل المستند إلى الهداية الخاصة الحاملة بالوحي ، والاقتران على إصلاح الأمة باستعمال النواميس الإلهية >> (٢) وذلك لأن الرشد هو ضد الغي ، والغي الضلالة ، فالرشد إذاً هو المهتدي للحق البعيد عن الباطل وقائد الأمة لا بد أن يكون رشيداً ، ولذا كان الرسل عليهم السلام أرشد الناس إلى سبيل الله عز وجل ، وكان أتباعهم يرشدون الناس في جميع الأمور، أما مخالفوهم فهم من أغوى الناس وأبعدهم عن سلوك الصراط السوي .

٢ = الملاح ، قال تعالى عن إبراهيم وبنيه : (وكلا جعلنا صلحين) الآية (٧٢)

وقال عن لوط : (وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين) الآية (٧٥)

وقال عن إسماعيل وإدريس وذو الكفل : (وأدخلناهم في رحمتنا، إنهم من الصالحين) الآية (٨٦)

والملاح ضد الفساد ، والوصف بالملاح يعني بعد صاحبه عن كل ما فيه فساد في الدين والدنيا ، وهو مستلزم للعمل بالطاعات واجتناب المحرمات (٣)

٣ = العلم والحكم : قال تعالى : عن لوط : (ولوطاً آتينا حكماً وعلماً) الآية (٧٤)

وقال عن داود وسليمان : (وكلا آتينا حكماً وعلماً) الآية (٧٩)

فالأنبياء جميعاً كانوا علماء بشرع الله لأنه نزل عليهم ، وكانوا حكماء

يعرفون أمثل الطرق للتصرف ، وقد وصفهم الله تعالى بذلك في غير ما آتية فقال تعالى بعد ذكر الأنبياء والمرسلين في سورة الأنعام : (أولئك الذين

آتيناهم الكتب والحكم والنبوة) (٤)

(١) انظر: ص (١١٨) من هذا البحث

(٢) تفسير أبي السعود ٥٢٢/٣

(٣) انظر: تفسير الطبري ٣٦/١٧

(٤) سورة الأنعام الآية (٨٩)

ولا يعنى كونهم علماء حكماء أنهم اكتسبوا النبوة بذلك (١) بل إن الله أعطاهم ذلك عونا لهم على تحمل عبء الرسالة التى هى أيضا هبة من الك لمن يشاء من عباده وهو أعلم حيث يجعل رسالته .

٤ = الخضوع والا ستكانه للذ تعالى

قال تعالى عن أيوب: (وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين)
الآية (٨٣)

وقال عن يونس: (فنادى فى الظلمت أن لا إله إلا أنت سبحانك أنى كنت من الظالمين) الآية (٨٧)

وقال عن زكريا وأهله: (إنهم كانوا يسرعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) الآية (٩٠)

ومن هذذ الآيات نجد أن الأنبياء والمرسلين خاضعون لله مستكينون له ليس عندهم أدنى تكبر أو تجبر ، فهم حالما تصيبهم النوائب يفزعون لله مستكينين له متوسلين برحمته ، وحين ما يخطئون يعترفون بخطئهم ويرجعون إلى الله .

(١) كماتدعى المتفلسفة بأن النبوة مكتسبة

٥ = الصبر : قال تعالى -عن إسماعيل وإدريس وذى الكفل : (وإسماعيل وإدريس
وذا الكفل كل من الصبرين) الآية (٨٥)

فأثنى -سبحانه وتعالى -عليهم بالصبر ، وفى قصة أيوب نجد خير مثال على صبر
الأنبياء والرسل على قضاء الله وقدره ، فقد أصابه البلاء واكتنفته الممائب من
كل جانب ، فصبر على البلاء ، وأصاب إلى ربه ، كما نجد فى قصة نوح خير مثال
على صبر الأنبياء على قومهم ، وتحملهم لأذاهم فقد ظل -كما تقدم فى قصته
(١) يدعوهم لمدة ألف سنة لإخمسيتق عاماً يدعوهم ويتحملهم رجاء أن يعودوا يوماً
إلى صوابهم ،

ويعذبنا محمد صلى الله عليه وسلم من أكثر الأنبياء صبرا على البلاء وتحملاً
للأذى ، وقد حثه الله سبحانه على ذلك فى مواقف كثيرة فكان كلما حث عليه
استجاب ،

قال تعالى : (واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون) (٢)

وقال تعالى : (واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا ..) (٣)

وقد سبق الكلام حول الصبر بما يغنى عن الإعادة هنا (٤)

هذه هى الصفات التى وردت للأنبياء هنا ، وقد وردت لهم صفات أخرى فى القرآن
الكريم غير هذه الصفات ومن أبرزها :

١ = الصدق ، قال تعالى : (واذكر فى الكتب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً) (٥)

(واذكر فى الكتب إدريس إنه كان صديقاً نبياً) (٦)

وهذه الصفة ضرورية للأنبياء ، حتى يثق الناس فيهم وفى جميع أقوالهم .

٢ = الأمانة ، قال تعالى : (كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أئوهم نوح ألا

تتقون إني لكم رسول أمين) (٧)

وقال تعالى : (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم أن أدوا إلى

عباد الله إني لكم رسول أمين) (٨)

(١) انظر : ص (١٨٥) من هذا البحث

(٢) سورة النحل الآية (١٢٢)

(٣) سورة الطور الآية (٤٨)

(٤) سورة مريم الآية (٤١)

(٥) انظر : ما تقدم ص (٨٤) من هذا البحث

(٦) سورة مريم الآية (٥٦) وانظر تفسير الآيتين فى الطبرى ١٦/٢٢

(٧) سورة الشعراء الآيات ١٠٥- ١٠٦- ١٠٧ - وأقرأ قصص هود وصالح ولوط وشعيب
بعدها فى الآيات (١٢٥) - ١٦٢ - ١٧٨ - تجد الصفة نفسها .

(٨) سورة الحخان الآيتان (١٧- ١٨)

٢ = الرحمة واللين والشفقة : قال تعالى : (فبما رحمة من اللد لنت لهم ولو كنت
فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ..) (١)

وفى هذه الآية بيان لحكمة اتمام الانبياء بهذه الصفة خصيما وبجميع الأطلاق
الحميدة عموما ، وهى أنهم لو كانوا غليظى القلب منفرى الطباع لانفض الناس
من حولهم ، وتركوهم وحيدين ، ولكن الله سبحانه رحيمهم ، فجعلهم لينى القلوب
حريصين على أممهم رحماء بهم ، كما قال تعالى : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز
عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) (٢)

-
- (١) سورة آل عمران الآية (١٥٩)
(٢) سورة التوبة الآية (١٢٨)

ثانيا: وظائف الأنبياء والمرسلين عليهم السلام .

١ = قال تعالى : (قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما يندرون)

الآية (٤٥)

٢ = وقال تعالى : (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عبيدين) الآية (٧٣)

٣ = وقال تعالى : (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفثت فيه غم القوم وكنا لحكمهم شهدين ففهمناها سليمان وكلا ءاتيناحكما وعلمنا وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين) الآيتان (٧٨- ٧٩)

تشير هذه الآيات إلى بعض المهمات التي كان الأنبياء والمرسل عليهم السلام يقومون بها ، وقد سبق أن بينت أن حاجة البشر إلى الرسائل السماوية ليست منحصرة فيما يتعلق بالأمور الدينية فقط ، بل يتعداها إلى تنظيم شؤون حياتهم العامة والخاصة ، وعليه فإن مهمات الأنبياء ليست قاصرة على تمييز الناس بشؤون دينهم فقط بل يشمل كذلك رعاية شؤونهم الدنيوية ، فنجد في هذه الآيات الإشارة إلى أن الأنبياء كانوا يقومون بمهمة الدعوة إلى الله تعالى ، بالإضافة إلى القضاء وفصل الخصومات بين أممهم ،

فقوله تعالى : (قل إنما أنذركم بالوحي) أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يقول لقومه أن مهمته هو إنذارهم بما أوحى الله إليه لا بشيء من عنده ، وهو لا يملك لهم الهداية والتوفيق فذلك من شأن الله تبارك وتعالى

والإنذار هو التخويف والتحذير من المحذور المتوقع ويقابل التبشير فالإنذار للكفار يندرون من الوقوع في العذاب الأليم ، والتبشير للمؤمنين ، والإنذار والتبشير أسلوبان مهمان من أساليب الدعوة إلى الله تعالى ، ولذا كثيرا ما يقصر القرآن مهمة الرسل عليهما لهما من أثر في تشويق النفوس إلى رحمة الله عزوجل وتخويفها من غضب الله تعالى .

قال تعالى : (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) (١)

وقال تعالى : (وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا) (٢)

(١) سورة الكهف الآية (٥٦)

(٢) سورة الشرحان الآية (٥٦)

ولما كان العناد وتكذيب الرسل شائعا فى قومهم نجد الإنذار سمة بارزة لدعوة بعض المرسلين ، فنوح عليه السلام ورد فى قصته الإنذار كثيرا حتى كأنه أرسل للإنذار فقط ،

قال تعالى : (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين أن لاتعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) (١)

وقال عنه أيضا : (بسم الله الرحمن الرحيم إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم قال يقوم إنى لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون) الخ الآيات (٢)

فكأن مضمون رسالة نوح عليه السلام كان الإنذار قبل التبشير ، وما ذلك إلا لأن قومه كان قد غلب عليهم العناد والمكابرة ، وإلا فإن المرسلين يرسلون مبشرين ومنذرين ،

وأما قوله تعالى: (ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون) فهو تنبيه على أن مهمة الرسول عليه السلام هو التبليغ والإنذار ، ^{وأنه} ~~وأنه~~ لا يملك إيصال الهداية إلى قلوب الضالين

وأما قوله تعالى : (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) الخ الآية فقد سبق الكلام على معناه (٣) والشاهد فيه هنا قوله تعالى : (يهدون بأمرنا) ومعناه أن الأنبياء يهدون الناس بأمر الله تعالى لهم بذلك ، ^{معى} ~~معى~~ ومصطلح الهداية هنا الدعوة إلى الله وإلى عبادته (٤) لاهدائية التوفيق فإن تلك من خصائص الله تعالى ، كما قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وهو أفضل الأنبياء : (إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) (٥)

فهداية القلوب وتوفيقها للعمل بما يرضى الله عزوجل ليس من شأن الرسل عليهم السلام ، بل شأنهم الدعوة إلى الله تعالى فمن وفقه الله اتبعهم ومن خذله الله بقى فى الضلالة ،

(١) سورة هود الآيات (٢٥-٢٦)
(٢) مفتح سورة نوح الآيات (١-٢-٣)
(٣) انظر ماضى :ص (١٠١) من هذا البحث
(٤) انظر تفسير الطبرى ١٧/٢٦-٢٧-وزاد المسير ٣٦٩/٥
(٥) سورة القصص الآية (٥٦)

والدعوة إلى الله تعالى هي المهمة الأساسية للأنبياء والرسل ولاجلها بعثوا إلى الخلق ، وكل ماكانوا يقومون به في الدنيا إنما كان على هذا السبيل
قال تعالى : (قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) (١)
والمطالع لقصص الأنبياء عليهم السلام يجد ذلك جليا ، ويجد أن الأنبياء قد بدّلوا جميع ما يوسعهم في هذا السبيل ،

فعند ما نقرأ قصة نوح عليه السلام نجد أنه قد سلك كل ما أمكنه من سبيل في طريق دعوة قومه ، قال تعالى عند : (قال رب إنى دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يردهم دعاءى إلا فرارا وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ثم إنى دعوتهم جهارا ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا) الخ الآيات (٢)

وقد مكث على هذا الحالة لم يمل ولم يسأم إلى أن لُبت ألف سنة لإخمسين عاما ، حيث أدرك أنه لم يعد هناك أمل ، ومن ثم دعا عليهم

وحيث نقرأ قصة الخليل إبراهيم عليه السلام نجد كذلك أنه استخدم الوسائل المتاحة له فى دعوة قومه ، فعند دعوته أباه ، حرك فيه عاطفة الأبوة وخاطبه بالطرف الخطاب والين العبارات ، حتى يتمكن من استمالة قال تعالى **كَفَى** دعوة إبراهيم لأبيه : (وانكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا إذ قال لأبيه ياأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ياأبت إنى فدجاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا) الخ الآيات (٣) وحين دعا قومه ناقشهم وجادلهم وقارعهم بالبرهان النظرى والعملى ، محاولا إقناعهم بفساد رأيهم ، حتى يكون ذلك أدعى لقبولهم الحق واتباعهم إياه (٤)

وحيث نقرأ قصة شعيب عليه السلام نجد أنه قد تدرج مع قومه من بيان الحق ودعوتهم إلى التوحيد ، إلى ترغيبهم فيما عند الله ، ثم بيان أنه لا يدعوهم إلا إلى مسافيه الخير والملاح لهم ، ولا يدعوهم إلى ما لا يسير هو عليه ثم عالم يؤثر فيهم ذلك تدرج إلى الإندار والتخويف من أن يصيبهم ما أصاب الذين من قبلهم من العذاب ، ثم إلى الوعيد الشديد ،

-
- (١) سورة يوسف الآية (١٠٨)
(٢) سورة نوح الآيات (٥) إلى (٩)
(٣) سورة مريم الآيات (٤٧ - ٤٢ - ٤٢ - ٤٢) - واقرا ما بعد ما إلى الآية (٤٧)
(٤) انظر ما سبق فى مجادلة إبراهيم قومه فى الصفحة (١١٩) من هذا البحث

اقرأ قوله تعالى : (وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تنقموا المكيال والميزان إني أرىكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط) الخ الآيات (١)

وفى سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أروع الأمثلة على طرق الدعوة إلى الله تعالى ، فما من سبيل مشروع فى الدعوة إلى الله تعالى إلا سلكه نبينا عليه السلام فلم يكن شئ يعوقه عن الدعوة، ولم يدع فرصة مواتية للدعوة إلا انتهرها، ولقد بذل الغالى والنفيس فى سبيل الدعوة فصبر على أذى قومه صبرا منقطع النظير ، رجاء أن يأتى منهم أو من أبنائهم أو من أحفادهم من يؤمن بالله ، وغادر بلده مهاجرا إلى الله فى سبيل الدعوة وغزا الغزوات الكثيرة التى جرح فيها وفقد فيها الكثير من أظمن أصحابه وأقربائه ، كل ذلك فى سبيل الدعوة إلى الله عز وجل ،

فما أحوضا الآن إلى استخلاص أساليب دعوة المرسلين إلى الله، لنسير على نهجهم ونقتفي أثرهم ، فهم القدوة فى ذلك ، وأسألبيهم فيها من أنجح الأساليب ،

فالآيتان إذا تشيران إلى المهمة الأساسية للأنبياء الرسل عليهم السلام وهى الدعوة إلى الله تعالى بأساليبها المختلفة التى منها الإنذار والتبشير وبيان أوجه الخيرات الواجبة المستحبة ، مع التطبيق الذى يشير إليه قوله تعالى : (وكانوا لنا عبيد) أى كانوا مطبقين لما يدعون إليه من الأمر بعبادة الله عز وجل .

وأما قوله تعالى : (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث) الآية فيشير إلى أن الأنبياء كانوا يقومون إلى جانب الدعوة إلى الله تعالى -بسياسة أممهم ، فيقومون بمهام القضاء وهو مظهر من أهم مظاهر سياسة الأمم ، ولما كانت مهمة قيادة الأمم مناطة بالأنبياء والرسل كان القضاء موكولا إليهم ، فكانوا هم الحكام بين الناس فى جميع أمورهم ، وكان التحاكم إليهم واجبا على أممهم ، بل هو من شروط الإيمان بهم ، كما قال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) (٢)

(١) سورة هود الآية (٨٤) وقرأ ما بعدها الى تمام القصة الآية (٩٥) تجد الدروس الواعية فى الدعوة والإرشاد.
(٢) سورة النساء الآية (٦٥)

قال الشوكاني (١) رحمه الله في تفسير الآية: (وفي هذا الوعيد الشديد ما تقشعر له الجلود وترجف له ، فانه أولا أقسم سبحانه بنفسه مؤكدا لهذا القسم بحرف النفس بأنهم لا يؤمنون ، فنفس عنهم الايمان الذي هو رأس مال صالح عبادة الله، حتى تحصل لهم غاية هي تحكيم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم لم يكتف سبحانه بذلك حتى قال: (ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت) فضم إلى التحكيم أمرا آخر ، هو عدم وجود حرج ، أي حرج في صدورهم ، فلا يكون مجرد التحكيم والإذعان كافيا ، حتى يكون من صميم القلب عن رضى واطمئنان وانتلاج قلب وطيب نفس ، ثم لم يكتف بهذا كله ، بل ضم إليه قوله: (ويسلموا) أي يذعنوا وينقادوا ظاهرا وباطنا ، ثم لم يكتف بذلك ، بل ضم إليه المصدر المؤكد فقال: (تسليما) فلا يثبت الإيمان لعبد حتى يقع منه هذا التحكيم ولا يجد الحرج في صدره بما قضى عليه ويسلم لحكم الله وشرعه ، تسليما لا يخالطه رد ولا تشديه مخالفة) (٢)

(١) هو القاضي محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني الصنعاني المفسر المحدث الفقيه الأصولي (ت ١٢٥٠هـ) له ترجمة في كتاب البدر الطالع ٢/٢١٤ ونيل الوطر ٢/٢٩٧ والمجددون في الإسلام ص ٤٧٢ ومعجم المؤلفين ١١/٥٢
(٢) فتح القدير ١/٤٨٤

المبحث الرابع : الوحي

قال تعالى : (وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم فمعلوا اهل الذكر ان كنتم

لاتعلمون) الآية (٧)

وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه انه لا اله الا انا

فاعبدون) الآية (٢٥)

وقال تعالى : (قل انما اُنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء اذا ما ينذرون)

الآية (٤٥)

وقال تعالى : (وجعلناهم ائمة يهدون بامرنا وأوصيناهم فعمل الخيرات وإقام

الملوة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عبيد) (الآية (٧٣)

وقال تعالى : (قل انجا يوحى الى انما الحكم لله وحده) (الآية (١٠٨)

ورد الحديث فى سورة الانبياء عن الوحي باعتباره ظاهرة من الظواهر الملازمة
للنبوة ، ومن ثم لا يتم الإيمان بالانبياء والثقة بهم والركون الى اقوالهم
وأفعالهم مبعثاً للإيمان بأن ذلك كله نابع من الوحي الإلهي ، فالإيمان بالوحي
هو أساس الإيمان بالشرائع الإلهية ، ولذا حاول أعداء الاسلام قديما وحديثا
التشكيك فى الوحي ، وحاولوا أن يلبسوا على العقول بادعاء أن ما جاءت به
الانبياء إنما هو من الوحي النفس النابع عن وجدانهم ، وذلك لكى يضعفوا ثقة
الناس بالانبياء وما جاءوا به ويجعلوا للشرائع الدينية مصادر بشرية حتى
تتساوى غيرها من القوانين البشرية .

وحديث السورة عن الوحي كان فى بيان كونه من شروط النبوة ، وأن الوحي الإلهي
لجميع الانبياء قد تضمن التوحيد والأمر بفعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء
الزكاة ،

فالآية الأولى : ورد فيها ذكر الوحي مجردا عن المفعول، فمعناه إذا أن كل من
أرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم من الرجال ، وقد أوحى اليهم جميعا، أى أن
الوحي قد حصل لهم ، فحصول الوحي إذا شروط لابد من تحققه حتى يكتسب الشخص صفة
النبوة أو الرسالة .

أما الآية الثانية: ففيها أن كل المرسلين قد أوحى إليهم أنه لإله، إله الله - أي أن التوحيد والأمر بعبادة الله وحده دون من سواه كان من ضمن ما أوحى إلى جميع المرسلين مما يؤكد المكانة الرفيعة للتوحيد في دعوات المرسلين .

وأما الآية الثالثة: فقد ورد فيها الوحي بصيغة المصدر ومعنى المفعول، فالوحي فيها بمعنى الموحى به وهو القرآن الكريم الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم ينذر الكفار بآياته المعجزة التي فيها الوعد لمن عصى الله وخالف أوامره. (١)

والآية الرابعة: فيها أن الله سبحانه وتعالى قد أوحى إلى إبراهيم وبنيه فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وقد خصهما بالذكر لمزيد فضلهما على سائر أفعال الخيرات البدنية والمالية، إذ هما أركان الإسلام بعد الشهادتين، والآية الأخيرة: فيها أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يعلن للكفار أن التوحيد الخالص هو الذي يوحى إليه.

وهذا العرض السريع لحديث السورة عن الوحي قد يساعد على القول بأن الوحي المعتبر الذي يكتسب به صفة النبوة هو هذا النوع من الوحي، الذي يتضمن الأمور الشرعية، لأن لفظ الوحي له إطلاقات لغوية كثيرة، فأصل الكلمة اللغوية يدل على عدة معان منها:

(١) = الإشارة: قال الراغب: (أصل الوحي الإشارة السريعة) (٢)

ومن ذلك قوله تعالى عن زكرياء: (فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) (٣)

قال الطبري: (وقوله: (فأوحى إليهم) يقول أشار إليهم وقد تكون تلك الإشارة باليد وبالكتاب وبغير ذلك مما يفهم به عنه ما يريد) (٤)

وهذا يعني أنه يدخل في الإشارة الإشارة باليد، أو بالكتاب أو بالكلام على وجه التعريف والرمز،

٢ = الإلهام: ومنه قوله تعالى: (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال

بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون) (٥)

(١) انظر تفسير الآية في: تفسير الطبري ٢٤/٧٥ والقرطبي ١١/١٩٣
(٢) المفردات في غريب القرآن ص ٥١٥
(٣) سورة مريم الآية (١١)
(٤) تفسير الطبري ٤١/١٦
(٥) سورة النحل الآية (٦٨)

فمعنى الوحي إلى النحل إلهامها أن تتخذ بيوتها من الجبال والشجر والعروض
(١) ومنه إلهام الخواطر بما يلقيه الله في روع الإنسان السليم الفطرة الطاهر
الروح كما حصل لأم موسى فقد ألقى الله في قلبها أن تلقي ابنها في اليم إذا خافت
من رضاعه ، قال تعالى : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه
فألقيه في اليم) الخ الآية (٢) وقد فسر الوحي إلى أم موسى بأن ذلك كان بإرسال
ملك إليها (٣) ولكن حتى في هذه الحال فلا تكون الآية دليلا على نبوتها كما قيل
ذلك ، لأن الأمر حينئذ لا يعدو أن يكون من باب تكليم الملائكة للأقرع
والأبرص والأعمى وغيرهم .

قال الشوكاني : (وإنما كان إرسال الملك إليها عند من قال به على نحو تكليم
الملك للأقرع والأبرص والأعمى ، كما في الحديث الصحيح الثابت في الصحيحين
وغيرهما (٥) . وقد سلمت على عمران بن حصين الملائكة كما في الحديث

الثابت في الصحيح (٦) فلم يكن بذلك نبيا) (٧)

٣ = وسوسة الشياطين إلى أوليائهم ومريديهم ، قال تعالى : (وإن الشياطين ليوحون
إلى أوليائهم ليجللوكم) (٨) ويمكن رجوع هذه المعانى إلى معنى واحد هو الإعلام في
خفاء (٩) هذا هو معنى الكلمة وإطلاقته اللغوية ، وواضح أن صفة النبوة لا تنال
بمجرد حصول أحد هذه المعانى اللغوية .

المعنى الشرعى : أما الوحي في الشرع : فهو الإعلام بالشرع (١٠) أي إعلام الله
تعالى الأنبياء بشرعه ، وهذا يتم بعدة طرق

- (١) انظر تفسير الطبرى ٩٢/١٤ وابن كثير ٥٩٦/٢
- (٢) سورة القصص الآية (٧) وانظر تفسيرها في: تفسير الطبرى ٢٠/٢٠ وزاد
المسير ٢٠١/٦ وابن كثير ٢٩٢/٣
- (٣) انظر : زاد المسير ٢٠١/٦ وتفسير القرطبي ١٦٦/١٣
- (٤) انظر ماسبق ص (٢٠٠) من هذا البحث
- (٥) أخرج البخارى هذا الحديث في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى
وأقرع في بنى إسرائيل ٥٠٠/٦ ومسلم في كتاب الزهد والرقائق ٢٢٧٥/٤ ح (١٠)
- (٦) أخرج مسلم عن عمران بن حصين قال : (كان يسلم على حتى اكنوتت فتركت ثم
تركت الكى فعاد) ومعناه كما ذكر النووى وغيره : أنه كانت به بواسير فكان
يصر على ألمها فتسلم عليه الملائكة، ثم لما اكنوتى انقطع سلامهم عنه، ولما ترك
الكى عادوا ويسلمون عليه. انظر صحيح مسلم بشرح النووى ٢٠٦/٨
- (٧) وقد أخرج مسلم الحديث في كتاب الحج باب جواز التمتع ١٨٩٩/٢ ح [١٦٧ - ١٦٨]
- (٨) فتح القدير ١٥٩/٤ وانظر أصل الكلام للقرطبي في تفسيره ٢٥٠/١٣
- (٩) سورة الأنعام الآية (١٢١)
- (١٠) انظر: المفردات للرغب ص (٥١٥) مادة (وحي) وفتح البارى ٩/١
- (١٠) انظر فتح البارى ٩/١

كما قال تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء وإنه على حكيم) (١) .

ففى هذه الآية ذكر ثلاثة مقامات من مقامات الوحي ،

الأول : أن يقذف الله تبارك وتعالى فى روع النبى صلى الله عليه وسلم شيئا لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل ، كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إن روح القدس نفثه فى روعى (٢) أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها) الحديث (٣)

الثانى : أن يكلم الله النبى من وراء حجاب كما كلم موسى عليه السلام ،

قال تعالى : (وكلم الله موسى تكليما) (٤)

وكما كلم نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء بلا واسطة (٥)

الثالث : أن يرسل رسولا من الملائكة إلى النبى فيبلغه كلام الله تعالى وهذا هو الغالب على الأنبياء عليهم السلام ، وبالنسبة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإن الملك النازل بالوحي عليه كان جبريل عليه السلام ، وكان يأتيه على صورته شتى ، وقد سأل الحارث بن هشام النبى صلى الله عليه وسلم هكّن كيفية إتيان الوحي إليه فقال صلى الله عليه وسلم : (أحيانا يأتينى مثل ملامة الجرس وهو أشده علن ، فيفصم عنى وقد وعيت ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول) (٦)

وتم نوع رابع لم يرد ذكره فى الآية، وهو الرؤيا فى المنام فإن رؤيا الأنبياء حق وما يؤمرون به فيها مثل ما يؤمرون به فى اليقظة، ويدل لذلك قوله تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام : (فلما بلغ معه السعى قال يبينسى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى) (٧)

-
- (١) سورة الشورى الآية (٥١)
 - (٢) الروع : بضم الراء / القلب والعقل ، يقال : وقع ذلك فى روعى أى فى ظدى وبلى ، الصحاح ١٢٢٢/٣ مادة <روع>
 - (٣) نكر ابن حجر فى الفتح (١/٢٢٠) أن هذا الحديث أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتابه الفتناء والطكم ، ولكن لم أجده فى المستدرک
 - (٤) سورة النساء الآية (١٦٤)
 - (٥) انظر البراية والنمابة ١١/٤ حيث ذكر بكثير الإلهام على ذلك عند أهل العلم
 - (٦) أخرجه البخارى فى كتاب بدء الوحي ١٨/١
 - (٧) سورة الطافات الآية (١٠٢)

ولولم يكن مارأى وحيا لما أقدم على مباشرة نبج ولده وفلذة كبده فهو وابنه
قد استسلما لما علما أن هذه الرؤيا أمرٌ ^{ولنا إلهامه الله بقوله:} (ستجدنى إن شاء الله من الصبرين) (١)

وبدل لذلك أيضا حديث عائشة رضى الله عنها حيث قالت: (أول ما بدىء به
رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا المألحة فى النوم ، فكان لا يرى
رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح) الحديث (٢)

هذا وليس الوحي الإلهى للأنبياء من قبيل الوحي النفس الذى يجده الشخص
فى نفسه ، كما ذكر ذلك بعض أعداء الإسلام (٣) واغتربهم بعض المسلمين حيث
حاولوا تقريب المفاهيم الإسلامية للسامانيين ، وإظهار الإسلام وكأنه لا يتعارض مع
الطروحات الفكرية للغربيين (٤)

ذلك أن الوحي النفس - كما يفهم من عبارات القائلين به - (معرفة مباشرة
لموضوع قابل للتفكير ، أو خاص فيه التفكير فعلا) (٥) أو هو عرفان يجده الشخص
فى نفسه مع اعتقاده صحته وأنه من الله ، (٦) فلو فسر الوحي للأنبياء بهذا
التفسير لا يكون ثمة فرق بينهم وبين غيرهم من الذين يؤسوس لهم الشياطين
ويلقون إليهم ما يعتقدون أنه حق من الله مع أنه ليس كذلك (٧)

ثم إنه واضح من النصوص السابقة أن النبى صلى الله عليه وسلم وإخوانه
الأنبياء كذلك - كانوا يتلقون الوحي غالبا من الملك فالوحي إذا خارج أنفسهم
ليس من داخلها، (٨)

ومهما يكون من أمر فإن المؤمن الصادق بالله ويقدرته على كل شيء ، والمقر
بصدق الأنبياء حيث ظهرت دلائل الصدق الكافية عليهم لا يجد أى صعوبة فى الإيمان
بوحى الله تعالى إلى أنبيائه

أما الملحد الكافر فإن القضية معه لها وجد آخر ، إذ هو مطالب أولا بالإيمان
بالله تعالى وبقدرته على كل شيء ، ومن ثم يأتى الإيمان بالرسالات والوحي .

-
- (١) سورة الطافات الآية (١٠٢)
 - (٢) أخرجه البخارى فى كتاب بدء الوحي ، الباب الثالث ٢٣/١
 - (٣) انظر: حاضر العالم الإسلامى للأمركى لوشروب ستودارد ٢٩/١ والوحي المحمدى
لمحمد رشيد رضا ص ٢٥
 - (٤) انظر: منهج
المدرسة العقلية الحديثة فى التفسير ٤٨٥/٢ - ٤٨٦
 - (٥) الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي ص ١٤٠
 - (٦) انظر: رسالة التوحيد لمحمد عبده ص ١٠٨
 - (٧) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٦٧/١٢ - ٦٨
 - (٨) انظر: الظاهرة القرآنية ص ١٣٩ إلى ١٤٢ ومنهج المدرسة العقلية الحديثة
فى التفسير ٤٨٦/٢ فما بعد

المبحث الخامس

دلائل صدق الأنبياء (عليهم السلام)

بعث الله سبحانه وتعالى الأنبياء والرسل عليهم السلام إلى الأمم لكي يطيعوهم ويعملوا بموجب ما يوحى إليهم، وقد أيدهم الله بما يؤكد لقومهم أنهم حقاً مرسلون من عنده، وأنهم صادقون فيما يخبرون به، وقد اختلفت أفراد تلك المؤكّدات لاختلاف مشارب المرسل إليهم وظروفهم، ولكنها اتفقت في كونها جاءت تأييداً للأنبياء.

وقد ورد ذكر بعض تلك المؤيّدات في سورة الأنبياء في ثنايا قصص الأنبياء ويمكن تصنيفها إلى:-

أ - الآيات والمعجزات .

ب - نصر الله وتأييده لهم على قومهم .

وقد ورد في السورة وجه آخر من أوجه الدلالة على صدق الأنبياء وهو الاستدلال بثبوت جنس النبوة على نبوة النبي المعين، فتلك أمور ثلاثة سنتناولها ببعض التحليل في ما يأتي :

أ - الآيات والمعجزات :

هي ما يجريه الله عز وجل على أيدي أنبيائه ورسله من الأمور الخارقة للعادة تصديقاً لهم وتأييداً، ويغلب على كتب العقيدة تسميتها بالمعجزات، ولكن يتبين من تعريف المعجزة أنها خاصة بنوع من الآيات التي يجريها الله على أيدي الأنبياء والرسل.

تعريف المعجزة:

قال صاحب لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية: (وتعريف المعجزة هي اسم فاعل مأخوذ من العجز المقابل للقدرة، وفي القاموس: "معجزة النبي ما أعجز به الخصم عند التحدي، والغناء للمبالغة".....)

وقال ابن حمدان: المعجزة هي ما خرق العادة من قول أو فعل إذا وافق دعوى الرسالة وقارنها وطابقها على جهة التحدى ابتداء بحيث لا يقدر أحد عليها ولا على مثلها ولا على ما يقاربها.

وقال الفخر الرازي(١): المعجزة عرفا أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى مع عدم المعارضة(٢).

وخلاصة تعريف المتكلمين للمعجزة: أنها الأمر الخارق للعادة السالم من المعارضة المقرون بالتحدى المقصود منه بيان صدق من ادعى أنه رسول الله(٣).

وواضح من هذه التعاريف أن المعجزة أخص من الآيات لأنها تتعلق بما وقع به التحدى فقط، وهذا على ما اطلقوا عليه وإلا فإن الآيات الدالة على صدق الأنبياء لا يشترط فيها التحدى كما حقق ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى حيث قال: لا إن آيات الأنبياء ليس من شرطها استدلال النبي بها ولا تحديه بالإتيان بمثلها، بل هي دليل على نبوته وإن خلت عن هذين القيدين(٤)، ثم استشهد على ذلك بأن كثيرا من معجزات الأنبياء لم يتحدوا بها ولا استدلوا بها كتكشير الطعام للنبي صلى الله عليه وسلم حتى كفى أضعاف أضعاف من كان محتاجا إليه(٥)، ونبع الماء بين أصابعه(٥)، وغير ذلك من دلائل النبوة فلم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يظهرها للاستدلال بها، ولا يتحدى بمثلها، بل لحاجة المسلمين إليها، وكذلك إلقاء إبراهيم عليه السلام في النار إنما كان بعد نبوته ودعائه لهم إلى التوحيد(٦).

(١) هو العلامة فخرالدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي صاحب التمانينيف، كان رأسا في علم الكلام ثم رجع عنه في آخر عمره وقال قوله المشهور: "لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى غليلا، وتزوى غليلا ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات (الرحمن على العرش استوى) (إليه يصعد الكلم الطيب) وأقرأ في النفي (ليس كمثله شيء) ومن جرب تجربتي عرف مثل معرفتي" (ت ٦٠٦ هـ). انظر ترجمته في تاريخ الحكماء ص/٢٩١ ووفيات الأعيان ٤/٢٤٨ وسير أعلام النبلاء ٢١/٥٠٠ وطبقات الشافعية للسبكي ٨/٨١ والبداية والنهاية ١٢/٦٠.

(٢) لوامع الأنوار البهية ٢/٢٨٩ - ٢٩٠، وما نقله عن القاموس موجود في ٢/١٨١ مادة (عجز).

(٣) انظر منهج القرآن في الدعوى إلى الإيمان ص/٢٧٤.

(٤) وقد ورد ذلك في حديث أنس الذي أخرجه البخارى في الصحيح كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام ٦/٥٨٦ - ٥٨٧.

(٥) وقد ورد ذلك في حديث أخرجه البخارى في كتاب المناقب أيضا باب علامات النبوة في الإسلام ٦/٥٨٠ ومسلم في كتاب الفضائل ٤/١٧٨٢ ح (٦).

(٦) انظر النبوات لابن تيمية ص/١٥٦.

وبالنظر في آيات الأنبياء نجد أنهم لم يكونوا كلما ظهر شيء منها يحتجون به ويتحدّثون، فالنبي صلى الله عليه وسلم مثلاً لم ينقل عنه التحدى إلا في هي القرآن خاصة، ولم ينقل التحدى عن غيره أيضاً كموسى والمسيح وصالح عليهم السلام، غاية ما نقل عن موسى عليه السلام أن السحرة لما عارضوه أبطل معارضتهم (١).

ومن هنا يتضح أن جميع ما أجراه الله سبحانه وتعالى على أيدي أنبيائه من الأمور الخارجة عن حدود الأسباب المعروفة، فإنه يعتبر دليلاً على صدقهم، ومما ورد من ذلك في سورة الأنبياء : القرآن الكريم، نجات إبراهيم من النار، وتسخير الجبال والطير والحديد لداود وتسخير الريح لسليمان.

١ - القرآن الكريم:

قال تعالى : (لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون) الآية (١٠).

والكلام حول الآية في مسألتين :-

الأولى : وجه دلالة الآية على كون القرآن الكريم آية .

الثانية : أوجه الإعجاز في القرآن على وجه الإجمال .

أما عن المسألة الأولى: فإن وجه دلالة الآية على كون القرآن آية يتضح من النظر فيما قبل هذه الآية، فإن الآيات السابقة عليها تحدثت عن موقف الكفار من النبي صلى الله عليه وسلم ومن القرآن الكريم، وقد تضمن ذلك الموقف عيب النبي صلى الله عليه وسلم لكونه يشرا مثلهم، وموقف القرآن بما لا يليق وطلب آية كآيات الرسل السابقين، وقد رتبوا طلب الآية على موقفهم من القرآن، مما يوحي بأنهم لم يروا في القرآن الكريم الآية العظمى المغنية عن كل آية.

فجاء الرد عليهم بأن الرسل السابقين أيضاً كانوا من البشر مثل رسولهم محمد صلى الله عليه وسلم، وأن آياتهم لم تكن سبباً في إيمان أقوامهم، فلا يبعد أن لا تكون سبباً في إيمان هؤلاء الطالبين أيضاً، ومن سنن الله تعالى أن من كذب آية حسية فرأها ثم لم يؤمن أنه يهلك، كما أهلك ثمود، وكما توعد الحواريين لو كفروا بعد رؤية المائدة.

(١) انظر المصدر السابق ص/١٧٧ - ١٧٨ .

ولما كان الله سبحانه - من رحمتد بهذه الأمة - قد قضى بأنه لا يهلكها بعمامة لم يجبهم إلى ما اقترحوه من الآى، بل نبههم إلى أن القرآن الكريم كفى معجزة وذلك بقوله تعالى: (لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم) أى يكفيكم هذه الآية العظمى التي أنزلناها عليكم وفيها ذكركم أى شرفكم ورفعتمكم (أفلاتعقلون) ذلك فتتبعون النبي صلى الله عليه وسلم لأنه قد ظهر لكم صدقه ونبوته لأنكم عجزتم أن تأتوا بمثل قرآنه ولو بسورة منه مع تحديه لكم وأنتم أرباب الفصاحة والبلاغة.

ونظير الآية في كون القرآن الكريم معجزة مغنية عن الآيات التي اقترحوها قوله تعالى: (وقالوا لولا يأتينا بثابة من ربه أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى) (١) أى كيف يطلبون آيات وقد جاءهم القرآن الذى هو أعظم آية « وعبر عنه بأنه بينة ما في الصحف الأولى لأنه بينة واضحة وبرهان قاطع على صدق ما في تلك الصحف الأولى (٢)»، « وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدهور بما يوافق عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها » (٣).

وكذا قوله تعالى: (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) (٤).

فآيات إذا تقارن بين الآيات الحسية التي كملبوها، وآية القرآن الكريم، موضحةً أن آية القرآن فوق كل آية .

ومثل هذه الآيات في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (مامن الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة) (٥).

-
- (١) سورة طه الآية (١٣٣)
 - (٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٦٠٠/٤-٦٠١ بتصرف يسير.
 - (٣) تفسير ابن كثير ١٨٠/٣ .
 - (٤) سورة العنكبوت الآيتان (٥٠ - ٥١)
 - (٥) الحديث أخرجه البخارى في الصحيح عن أبى هريرة في كتاب الفضائل باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل ٣/٩ وكتاب الاعتصام باب قول النبي صلى الله عليه وسلم (بعثت بجوامع الكلم) ٢٤٢/١٢ ومسلم كذلك في كتاب الإيمان ١٣٤/١ ح (٢٣٩).

المسألة الثانية

وأما عن المسألة الأخرى وهي أوجه الإعجاز في القرآن الكريم فقد بين العلماء أنها متعددة الجوانب فمنها ما يرجع إلى الألفاظ وحسن نظمها وسبكها، ومنها ما يرجع إلى المعانى. فأما ما يرجع إلى نظم الألفاظ فهو الجانب الذى أعجز العرب جميعهم حيث تحدوا أن يأتوا بمثل القرآن أو أقصر سورة منه، وذلك أنهم كانوا برعوا في بلاغة الكلام، وكانوا يقيمون الأسواق من أجل المصارعة في حسن الكلام وجودة نظمها، فجاءهم القرآن الكريم من الباب الذى برعوا فيه، وتحداهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتوا بمثل القرآن فعجزوا، وبعشر سور منه فعجزوا، وبسورة واحدة ولو كانت قصيرة، فعجزوا، ولازال التحدى قائما، ولازال الآيات التي نزل فيها التحدى تتلى، قال تعالى: (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صدقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) (١).

وهذه الآية من أدل الآي على إعجاز القرآن فإنها مع وجود التحدى فيها توضح أنهم لن يفعلوا، وهذه معجزة أخرى إذ أنه «أخبر خيرا جازما قاطعا مقدما غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبدا الأبدية ودمر الظالمين، وكذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن» (٢).

وعجز العرب - وهم في ذروة الفصاحة والبلاغة - عن معارضة القرآن دليل واضح على أن أسلوبه في النظم والبلاغة خارج عن نطاق قدرة البشر، وقد أفاض علماء البلاغة في بيان أوجه إعجاز القرآن البلاغي، وأوضحوا أن القرآن بلغ القمة في كل أبواب البلاغة (٣)، كما حكى كتب التاريخ عن البلغاء والفصحاء انبهارهم بالقرآن الكريم، وعدم تمالكهم عند سماعه عن قول المواب في أمره حتى ولو كانوا غير مؤمنين.

(١) سورة البقرة الآيتان (٢٣ - ٢٤)

(٢) تفسير ابن كثير ٦٣/١ .

(٣) اقرأ مثلا: كتب إعجاز القرآن للزمانى ت ٢٨٤ هـ والخطابي (ت ٢٨٨) والرسالة الشافعية للجرانى (ت ٤٧١ هـ) المطبوعة في مجموعة واحدة بعنوان: رسائل في إعجاز القرآن، وكذا كتابى الجرجانى الآخرين أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، ولعل أوفى من كتب في هذا المجال هو البلاغى (ت ٤٠٣) في كتابه: إعجاز القرآن فقد فصل أوجه الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم وبخاصة في ما بين ص/٥٧-١٢٢).

ومن ذلك ما ذكره ابن اسحاق (١) عن عتبة بن ربيعة أنه اقترح على قريش أن يعرض بعض الأمور على النبي صلى الله عليه وسلم لعله يقبل بعضها فيتمالحوها فرضوا بذلك، فعرض على النبي صلى الله عليه وسلم المال والشرف والملك وأن يداووه. إن كان ما به من الجن، فقرأ عليه النبي صلى الله عليه وسلم أول سورة فصلت: (بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته فراءنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون) (٢) حتى بلغ السجدة عند الآية (٢٨) فسجد، ثم قال لعتبة الذي كان يستمع إليه مندهشا مما يسمع - : «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك» . فلما رجع عتبة إلى قريش قال لهم لما سألوه : ما وراءك؟ : (ورا ئي أنى قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة يامعشر قريش أطيعوني واجعلوا هابي وخطوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به) (٣) وهذه شهادة من مشرك من أعداء النبي صلى الله عليه وسلم، لكنه كان عربيا فصيحاً لم يتمالك أن يحكم في القرآن بالرأى الصحيح، ومع ذلك لم يسلم (٤).

(١) ستأتي ترجمته في الصفحة (٣٩٩) من هذا البحث.

(٢) سورة فصلت الآيات من (١) إلى (٤)

(٣) أورد ابن هشام القصة كاملة في السيرة النبوية ١/٢٢٢-٢٢٤، وذكرها الجرجاني في الرسالة الشافية مع قصص أخرى مماثلة ينبغى الاطلاع عليها ص/١٢٢-١٢٥.

(٤) قتل عتبة بن ربيعة مشركاً يوم بدر حيث تبارز هو وأخوه شيبة وابنه الوليد مع عبيدة وحمرزة وعلي بن أبي كالب، فقتلهم المسلمون الثلاثة، انظر القصة في سيرة ابن هشام ٢/٢٦٧-٢٦٨ وتاريخ الطبري ٢/٤٤٥.

وأما ما يرجع إلى المعانى فهو أيضا باب واسع فمنه إخبار القرآن عن المفيات المستقبلية التي لم تحدث، ثم حدثت على وفق ما أخبر كقوله تعالى: (لسم الله الرحمن الرحيم ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفليون في بضع سنين) الآيات (١) -

فقد ذكر المفسرون أن فارس غلبت الروم في الحروب التي كانت دائرة بينهما، ففرح المشركون لذلك لأن الروم أهل كتاب، وفارس لم يكن لهم كتاب، فقالوا للمسلمين إنكم أهل كتاب والنماری كذلك ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم فإن قاتلتمونا لنظهرن عليكم، فنزلت هذه الآيات، تبشيرا للمؤمنين مخبرة بأن الغلبة ستعود للروم على فارس في بضع سنين أى في سنوات يقل عددها عن عشر ويزيد على ثلاث (٢)، فظهرت الروم خلال تلك السنين (٣).

والإعجاز في هذا ظاهر، فإن التنبؤ بالمستقبل على هذا التحقيق والتحديد مع عدم ظهور أى أثر دال عليه، دليل واضح على أن هذا الخبر من علام الغيوب.

وكقوله تعالى: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) (٤).

(١) سورة الروم الآيات (١ - ٤).
 (٢) لأن البضع ما دون العشر وفوق الثلاث، انظر تهذيب اللغة مادة (بضع) ٤٨٨/١ والمفردات ص/٥ وقد ذكر في المسألة أقوالا أخر.
 (٣) وممن أورد هذا في سبب نزول الآية عبد الرزاق الصنعانى في تفسيره القسم الثانى ص/١٠١ عن مجاهد وقتادة والشعبي، وابن جرير عن ابن وقتادة والشعبي وغيرهم انظر تفسيره ١١/٢١-١٥، وابن الجوزى في زاد المسير ٦/٢٨٦-٢٨٧ وقد أخرجه الترمذى في السنن كتاب التفسير باب ومن سورة الروم ٢٤٤-٢٤٢/٥ ح ٣١٩٢ عن ابن عباس ونيكاز بن مكرم الأسلمي، وقال عن الأول حسن صحيح غريب، وعن الثانى صحيح حسن غريب.
 (٤) سورة النور الآية (٥٥).

فقد نزلت هذه الآية والمسلمون يخافون على أنفسهم من الأعداء الذين أحاطوا بهم من كل جانب، وجعلوهم ملازمين للسلاح، حتى كانت غاية أمني المسلمين أن يأمنوا في ديارهم، ويضعوا أسلحتهم، فجاءهم هذا الوعد المؤكد من اللد سبحانه وتعالى بأنهم سيصبحون آمنين في ديارهم، متمكنين من أداء شعائر دينهم، وفوق ذلك سيكون ملك البلاد بأيديهم، فيصبحون قاهرين بعد أن كانوا مقهورين ويفتحون البلاد، ويدين لهم أهلها بالطاعة والولاء^(١).

ومنه إخبار القرآن عما مضى من أخبار الأمم الغابرة مما كان النبي صلى اللد عليه وسلم وقومه يجهلها، وكان أهل الكتاب قد حرفوا معظمها وأدخلوا فيها ما ليس منها، فعلم النبي صلى اللد عليه وسلم بهذه الأخبار مع كونه أميًا لا يقرأ ولا يكتب دليل على كون القرآن من عند اللد، وأنه خارج عن قدرة البشر، لأن الإنسان لا يعلم إلا ما شاهد أو أخبره، قال تعالى: (وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبتلون)^(٢).

وقال تعالى عقب قصة نوح وقومه: (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العقبة للمتقين)^(٣).

ومنه ما احتوى عليه من المعاني الجليلة، والمواعظ البليغة، والأحكام السديدة،^{حيث} أقام مجتمعًا إسلاميًا متماسكًا عظيمًا على أنقاض مدم دولة الشرك والكفر، وجعل من تلك الأمة المتمزقة المتفرقة أشتاتًا أمة واحدة تقاتل تحت لواء واحد وفي سبيل واحد أسمى وأعلى من تلك السبل التي تتقاتل عليها تلك الأمة التي أصبحت خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

(١) انظر تفسير الآية في: تفسير الطبري ١٢٢/١٨-١٢٣ وزاد المسير ٥٧/٦-٥٨ وتفسير ابن كثير ٣/٣١١-٣١٣ والدر المنثور ٥٥/٥ وقد أخرج الحاكم سبب النزول هذا عن أبي بن كعب ٤٠١/٢ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) سورة العنكبوت الآية (٤٨)

(٣) سورة هود الآية (٤٩).

قال ابن كثير - رحمه الله تعالى - : (إنه ان تأملت أخبار القرآن وجدت في غاية الحلاوة سواء كانت مبسوطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا، وكلمة تكررت فلا وعلا، لا يخلق عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء، وإن أخذ في الوعيد والتهديد، جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن أتى بوعود أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن، كما قال في الترغيب (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) (١).

وقال في الترغيب: (أفأنتم أن يخسف بكم جانب البر) (٢).

وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي اشتملت على الأمر بكل معروف حسنٍ نافع طيب محبوب، والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء، وإن جاءت في وصف المعاد وما فيه من الأهوال بشرت وحذرت وأنذرت، ودعت إلى فعل الخير واجتناب المنكرات وهدت إلى الصراط المستقيم (٣).

وقد روى الترمذي عن علي بن أبي طالب حديثاً مرفوعاً في وصف القرآن منه: (كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقض عجايبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: (إننا سمعنا قرأنا عجايباً يهدي إلى الرشد) (٤) من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم) (٥).

هذا عن القرآن وإعجازه، واليك الحديث عن الآيات الأخرى.

-
- (١) سورة السجدة الآية (١٧)
 - (٢) سورة الإسراء الآية (٦٨).
 - (٣) تفسير ابن كثير (١/٦٣ - ٦٤ مختصراً).
 - (٤) سورة الجن الآية (١) و (٢).
 - (٥) أخرجه الترمذي في السنن في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن ١٧٢/٥ ح (٢٩٠٦) وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفيه الحارث (وهو الراوي عن علي) مقال. فالحديث على هذا ضعيف، ولكن معناه صحيح مطابق للواقع، ولهذا أوردته.

٢ - نجاة إبراهيم عليه السلام من النار:

قال تعالى: (قالوا حرقوه وانمروا الهتكم إن كنتم فعلين قلنا يأنار كوني بردا وسلما على إبراهيم وأرادوا به كيذا فجعلناهم الأخرين) الآيات من (٦٨) إلى (٧٠).

وقد سبق الحديث حول السبب الذي دعا قوم إبراهيم إلى إرادة إحراقه وكيف جمعوا له الحطب الكثير، وبنوا له بنيانا وألقوه في النار (١).

والإعجاز في مثل هذا واضح جلي، فإن النجاة من مثل هذه النار مع الحصر فيها معجزة، فإذا انضاف إلى ذلك تحول هذا الجسيم إلى برد فإن أهدأ من العقلاء لن يشك في أن هذا من فعل خالق النار ومودعها خصائصها، والذي بيده الأمر كله القادر على كل شيء، فهو الوحيد ^{القادر} على سلب النار تلك الخصائص، وتحولها إلى ضدها.

٣ - تسخير الجبال والطيور والحديد لداود عليه السلام:

قال تعالى: (ففهمناها سليمان وكلاهما أتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطيور وكلاهما فعلمنا صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شكرون) الآيتان (٧٩ - ٨٠).

وقد سبق معنى الآيتين (٢)، ووجه الإعجاز هنا أن الجبال والطيور ليس من شأنها النطق فإنطاقها بالتسبيح مع داود معجزة له، وليس صحيحا أن التسبيح هنا كان بلسان الحال لابلسان المقال، لأن ذلك خروج عن ظاهر اللفظ بغير مقتضاه، وبخاصة أن التسبيح بلسان الحال ليس خاصا مع داود، بل يمكن أن يفهم في كل مناسبة، والمقصود هنا ذكر منة الله سبحانه على عبده ورسوله داود عليه السلام.

(١) كما يدل لذلك قوله تعالى: (قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم) سورة الصافات الآية ٩٧.

(٢) انظر ص (١٨٦) من هذا البحث.

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله تعالى - : (والتحقيق أن تسبيح الجبال والطيير مع داود المذكور تسبيح حقيقي، لأن الله جل وعلا يجعل لها إدراكات تسبح بها يعلمها هو جل وعلا ونحن لانعلمها، كما قال : (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم) (١) إلى أن قال بعد أن ذكر عدة نصوص : (والقاعدة المقررة عند العلماء أن نصوص الكتاب والسنة لايجوز صرفها عن ظاهرها المتبادر منها إلا بدليل يجب الرجوع إليه) (٢). وحيث لادليل هنا فيبقى التسبيح على ظاهره .

وأما وجه الإعجاز في تسخير الحديد فهو مبني على ما قيل في تفسير الآية من أنه كان لا يحتاج أن يدخله نارا، ولا يضربه بمطرقة، بل كان يقتل بيده كالخيوط (٣)، فهذا إن ثبت لاشك أنه معجزة فإنه خروج للحديد عن خاصيته وهي الصلابة إلى اللينة .

٤ - تسخير الريح لسليمان عليه السلام:

قال تعالى : (ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي بركنا فيها وكنا بكل شيء علمين) الآية (٨١).

وقد مضى الحديث حول الآية أيضا (٤)، والإعجاز فيها أيضا واضح، وبخاصة في تلك الأزمنة الساحقة، أما الآن فقد يحمل الوضع الحالي والتقدم الحاصل في مجال الطيران على القول بأن هذا ليس بمعجز، ولكن هذا القول سيكون قصورا في النظر، وفهما خاطئا لمعنى آية سليمان والوضع الحالي معا، ذلك أن الطائرات لا بد لها من آلات محركة ووقود وأجهزة للتحكم ومدارج للهبوط والإقلاع ومراقبة دقيقة، وحمولتها محددة، وهي مع ذلك عرضة للمخاطر في أي لحظة، بينما كانت ريح سليمان عليه السلام تسير بأمره من دون محركات ولا وقود ولا مرافق للهبوط والإقلاع

(١) سورة الاسراء الآية (٤٤)

(٢) أضواء البيان ٧٢٤/٤ باختصار وانظر روح المعاني للألوسي ٧٦/١٧ .

(٣) انظر ما سبق في تفسير الآية ص (١٨٧) من هذا البحث.

(٤) وذلك في الصفحة (١٨٨) من هذا البحث.

بل كان سليمان يأمر الريح فتحمله إلى أين يشاء، وهو آمن من غوائلها فلا يخاف سقوطا ولا ارتطاما، ولا حدود لحمولتها، بل كانت تحمل سليمان وجنوده من الجن والإنس والطير وآلة حربه.

وعلى العموم كما أنه لا مقارنة بين فعل البشر وخالق البشر، كذلك لا مقارنة بين صناعات البشر وريح سليمان التي سخرها الله له، فصناعة البشر خاضعة دائما للقوانين الكونية التي يخضع لها جميع ما في الكون، بينما كانت معجزة سليمان خارجة عن هذا النطاق.

ب - نمر الله سبحانه الأنبياء والرسل عليهم السلام وأتباعهم على الأعداء
وإنجائهم إياهم وأهلك أعدائهم

قال تعالى: (ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين) الآية (٩).

وقال: (وأرادوا به كيذا فجعلناهم الأخرين ونجيناهم ولوطا إلى الأرض التي بركنا فيها للعلمين) الآيتان (٧٠ - ٧١).

وقال: (ولوطا أتينا حكما وعلما ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبيث إنهم كانوا قوم سوء فسقين) الآية (٧٤).

وقال سبحانه: (ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرم العظيم ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) الآيتان (٧٦ - ٧٧).

وقد ذكرت هذه الآيات في مباحث سابقة، والشاهد فيها هنا ما ذكر فيها من نصر الله وتأييده لرسله وأتباعهم، وإهلاك مخالفيهم، ففي ذلك دلالة على صدق المرسلين في ما يخبرون به ويدعون إليه، وإصابة متبعيهم الحق، ومجانبة مخالفيهم الصواب.

ووجه ذلك أنه من غير اللائق بحكمة الله عز وجل ورحمته بعباده أن يتقول عليه متقول فيدعى أنه مرسل من عنده، ثم ينصره ويؤيده على ذلك، ويجعل العقاب له ولأتباعه، فهذا لو فعله ملك من ملوك الدنيا لعيب عليه فكيف يفعله أحكم الحاكمين

والمطالع لكتاب الله عز وجل مجد لأنه سبحانه أخبر بأنه لا يفعل ذلك فلا يؤيد الكذاب بل يظهر كذبه وينتقم منه، كما قال تعالى: (ولوتقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حزين) (١).

قال ابن كثير في تفسير هذه الآيات: (أ يقول تعالى: (ولوتقول علينا) أي محمد صلى الله عليه وسلم، لو كان كما يزعمون مفترياً علينا، فزاد في الرسالة أو نقص منه، أو قال شيئاً من عنده فنسبه إلينا وليس كذلك لعاجلناه بالعقوبة، ولهذا قال تعالى: (لأخذنا منه باليمين) قيل معناه لانتقمنا منه باليمين، لأنها أشد في البطش، وقيل لأخذنا منه بيمينه (ثم لقطعنا منه الوتين) قال ابن عباس: "وهو نياط القلب" (٢) وهو العرق الذي القلب معلق فيه "....." وقوله تعالى: (فما منكم من أحد عنه حزين) أي فما يقدر أحد منكم على أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئاً من ذلك، والمعنى في هذا بل هو صادق بار راشد لأن الله عز وجل مقرر له ما يبلغه عنه، ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات) (٣).

وهذا إن قدر أنه تقول بعض الأقاويل، فكيف يتقول الرسالة كلها (٤) ولهذا شواهد من الوقائع فإن الدجالين الذين ادعوا النبوة كان مصيرهم الفشل، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، فقتلوا على أيدي أمراء الإسلام ودالت دولهم بموتهم (٥)، وهذا بخلاف الأنبياء والرسل فهم وإن كانوا يبتلون بأشد أنواع الابتلاء فإن الدولة لهم، والعاقبة لهم ولأتباعهم دائماً، فإن الله سبحانه وتعالى قد كتب على نفسه أن ينصر الرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة، ويجعلهم غالبين على أعدائهم، قال تعالى: (ولقد سبقنا كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون) (٦).

-
- (١) سورة الحاقة الآيات من (٤٤) إلى (٤٧).
(٢) أخرجه الحاكم عن ابن عباس بإسناد قال فيه: صحيح ووافقه الذهبي انظر المستدرک ٥٠١/٢.
(٣) تفسير ابن كثير ٤٤٥/٤.
(٤) انظر النبوات لابن تيمية ص/٣٤٥.
(٥) انظر عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية ص/٦٣.
(٦) سورة الصافات الآيات من (١٧١) إلى (١٧٣).

وقال تعالى : (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من

الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين) (١)

وقال تعالى : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز) (٢)

ج - الاستدلال بثبوت جنس النبوة على نبوة النبی المعین .

وماخذ هذا الدليل من السورة من قوله تعالى : (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فستلوا أهل الذکر إن كنتم لاتعلمون وما جعلناهم جسدا لا ياكلون الطعام وما كانوا خلدین ثم صدقهم الوعد فأنجيتهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين) الآيات [٧٨-٩٠] ففى هذه الآيات استدلال بثبوت جنس النبوة على نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ،

وبيان ذلك أن هذه الآيات جاءت فى سياق الرد على مطالبة قريش أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم آية كآيات الرسل السابقين ، كما أخبر الله عنهم قبل هذه الآيات فقال : (فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) فجاء الرد بأن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم من جنس الرسالات السابقة ، فالرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم كانوا من الرجال وأوحى إليهم ، وكانوا يأكلون الطعام ولم يخذلوا ، ثم صدقهم الله الوعد فأنجاهم ومن اتبعهم وأهلك المسرفين ، فالرسل لم يختلفوا عن البشر إلا فى أنهم يوحى إليهم وأن العاقبة لهم ولمتبعيهم ، وهكذا النبي صلى الله عليه وسلم بشر مثل كل البشر ، ولكن الله يوحى إليه ، وسيكون العاقبة له ولأتباعه ، وقد لا يكون هذان واضحين لقريش أول الأمر ، ولكن بعد تأمل يسير سيجولهم ذلك ، فالنبي صلى الله عليه وسلم عاش بينهم أربعين سنة لم يجربوا عليه كذبا ، وقد كانوا يسمونه الأمين ، (٣)

وكانوا يعرفون عنه كل شيء من صفاته ، كانوا يعرفون أنه أمى لا يقرأ ولا يكتب ، وكانوا يسمعون كلامه ويعلمون أنه من جنس كلامهم المعتاد ، وفجأة يتغير الوضع فيقرأ عليهم كلاما ويخبر بأنه وحى من الله ، ويفحص هذا الكلام يعلمون فى أن له ممدرا آخر غير النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم يعلمون فى قرارة أنفسهم أن هذا المصدر غير بشرى ، لأنهم أولا يعرفون أن محمدا لا يكذب .

(١) سورة الروم الآية (٤٧)

(٢) سورة المجادلة الآية (٢١)

(٣) انظر: سيرة ابن هشام ٢٠٧/١ - ٢٠٨

وثانيا : أنهم - وهم الفمحاء اليلغاء - لا يستطيعون معارضته ولو بأدنى معارضة ، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم تحداهم بأن يأتوا بمثلد ، فهذا يتبين لهم أن هذا من جنس ماسمعوا عند في الأمم الأخرى من الرسالات ، وبخاصة أنهم كانوا يسمعون بقرب زمان نبي من الأنبياء (١) وهذا كله لمن كان منهم سمع عن الرسالات السابقة ، وأمامن كان جاهلا بذلك فليسأل أهل الذكر وهم العلماء ، وقد كان بينهم علماء من النصرارى واليهود في المدينة والشام واليمن وغيرها من البلاد التي ير تادونها .

فإثبات جنس النبوة إذا يمهد الطريق لإثباتها للنبي المعين ، وذلك لأن الكلام سيقى على ما إذا كان هذا النبي نبيا حقا أم لا ؟

وبللنظر في أحواله وما يدعوا إليه ومقارنته بأحوال الرسل السابقين يتبين صدقه من كذبه لمن رزقه الله النظر الثاقب والفكر النافذ، ومثل هذه الآيات في الاستدلال على ذلك قصص الأنبياء الذي ورد في القرآن ، فإنه ورد لإثبات جنس النبوة تمهيدا لإثباتها للنبي صلى الله عليه وسلم . (٢)

ولهذا يعقبالله تعالى على ذكر الأنبياء بذكر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى هنا - بعد ذكر التوراة - : (وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون) الآية <٥٠>

وقوله تعالى : (وإنه لتنزِيل رب العلمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين) (٣) بعد ذكر قصص موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب .

ولهذا نجد بعض المؤمنين بالرسالات السابقة لما سمعوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم آمنوا بها ومدقوها .

فنجاشى الحبشة لما سمع القرآن الكريم قال : (إن هذا الذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة) (٤)

(١) انظر: المصدر السابق ٢٣٠/١ - ٢٣١
(٢) انظر: كتاب النبوات لابن تيمية ص ٢٧ وص ٣٩
(٣) سورة الشعراء الآيات من (١٦٢ الى ١٦٥)
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ٣٦٢/١

وكذا ورقة بن نوفل لما أخبرته خديجة بنزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لقد جاءه الناموس (١) الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة) (٢) والجن لما سمعوا القرآن قالوا- كما أخبر الله تعالى عنهم - : (يقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم) (٣)

-
- (١) الناموس هو صاحب السر ، وأهل الكتاب يسمون جبريل عليه السلام الناموس
انظر الصحاح ٩٨٦/٣ مادة <نمس >
(٢) انظر: سيرة ابن هشام ٢٧٠/١
(٣) سورة الأحقاف الآية (٣٠)

المبحث السادس

وجوب متابعة الرسل وبيان خطر مخالفتهم

الإيمان بالأنبياء والرسل ركن من أهم أركان الإيمان إذ هو الطريق إلى معرفة الأركان الأخرى وكيفية الإيمان بها، فالرسل هم الذين أبلغوا الأمم جميع الأمور الاعتقادية والتعبدية التي بها فلاحهم وملاحهم في الدنيا والآخرة، فالإيمان بهم هو أساس الإيمان كله.

وقد ورد الحديث في سورة الأنبياء عن أهمية الإيمان بالأنبياء والرسل وبيان خطر مخالفتهم، وذلك من خلال عرض مواقف^{كل} من أتباع الرسل ومخالفيهم ثم ذكر مصير كل منهم من جراء تلك المواقف، ليبين بذلك وجوب متابعة الرسل وخطر مخالفتهم.

١ - موقف السعداء وعاقبته:

قال تعالى: (ثم صدقناهم الوعد فأنجينهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين) الآية (٩).

وقال تعالى: (ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهلكنا من الكرم العظيم ونمرته من القوم الذين كذبوا بثأيلتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) الآيتان (٧٦ - ٧٧).

وقال تعالى: (وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون فمن عمل من الملحوت وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون) الآيتان (٩٣ - ٩٤).

الآية الأولى تتحدث عن أمرنا محمد صلى الله عليه وسلم، فالضمير في (صدقناهم) راجع إلى أولئك المرسلين، أي أن الله سبحانه صدق المرسلين الوعد الذي قطعده لهم بأن ينصرهم على أعدائهم ويمكن لهم في الأرض ويهلك أعداءهم، وقد ورد ذكر هذا الوعد في غير ما آية كقوله تعالى: (وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أولتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد) (١).

وقوله: (فأنجينهم ومن نشاء) أي أنجيننا الرسل ومن شئنا إناجاءهم معهم وهم الذين آمنوا بهم وصدقوهم كما قال غير واحد من المفسرين.

قال ابن جرير: «وقوله: (فأنجينهم) يقول تعالى ذكره فأنجيننا الرسل عن إصرار أممها على تكذيبها بعد الآيات (ومن نشاء) وهم أتباعها الذين صدقوها وآمنوا بها» (٢).

وقال ابن الجوزي: «قوله تعالى: (ثم صدقناهم الوعد) يعنى الأنبياء، أنجزنا وعدهم الذي وعدناهم بإنجائهم وإهلاك مكذبيهم (فأنجينهم ومن نشاء) وهم الذين صدقوهم» (٣).

(١) سورة إبراهيم الآيتان ١٣ - ١٤ .

(٢) تفسير الطبري ٥/١٧ - ٦ .

(٣) زار المسير ٣٤١/٥ .

ففي هذه الآية إجمال لذكر مصير من اتبع الرسل ومن خالفهم، وقد ورد تفصيل هذا الإجمال في آيات أخرى من السورة ومن سور أخرى، ومن تلك الآيات الآية الثانية والثالثة هنا وهي في قصة نوح وقومه، ففيها أن نوحا نادى ربه من قبل من ذكر من الرسل مستنصرا به على قومه، فاستجاب الله له ونجاه وأهله والمراد بهم من آمن به من آله وقومه، كما قال تعالى في الآية الأخرى: (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معد إلا قليلا) (١)، فقوله تعالى في هذه الآية: (إلا من سبق عليه القول) يوجب أن جميع أهله لم ينج معه بدليل أنه قد سبق القول على بعضهم بسعد الإيمان، وهذا البعض هم ابنه وزوجه (٢) فهما لم ينجوا معه لأنهما لم يؤمنا به، فالمراد بأهله هنا هم المؤمنون به، ومن هنا يتضح أهمية الإيمان، فهو الطريق الوحيد للنجاة من الهلاك في الدنيا ومن العذاب الأليم في الآخرة، وبدونه لا تنفع أى وسيلة أخرى ولا تجدى قرابة ولا نسب .

أما الآيتان الأخيرتان فتتحدث أيضا عن موقف الأمم بعامة من دعوة الرسل وموقف المؤمنين بخاصة، فقوله: (وتقطعوا أمرهم بينهم) أى أن أمم الرسل تفرقوا شيعا وأحزابا، وسلك كل حزب طريقا غير طريق الحزب الآخر، وكل بما لديهم فرحون يحسبون أنهم هم المصيبون، وأن غيرهم هم المخطئون، ولكن ليس الأمر كذلك، فالجميع راجع إلى أحكم الحاكمين، وهو الذى يفعل بينهم فيعطى كلا ما يستحق، وقد أوضح سبحانه وتعالى أن المؤمنين هم المصيبون فقال: (فمن يعمل من الصلوات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه) أى من يعمل منهم الأعمال الصالحة، وهي التي أمر بها الأنبياء والمرسلون، وهو مؤمن مصدق بقلبه ومحسب الأجر من الله سبحانه فلا كفران لسعيه، أى فلا جحود لعمله فلا يضيع جزاؤه، بل يثاب عليه الثواب الذى وعد أهل الطاعة .

(١) سورة هود الآية (٤٠) .
(٢) قال تعالى عن ابنه: (ونادى نوح ابنه وكان في معزل يبنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سئوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقيين) سورة هود الآيتان: ٤٢ - ٤٣ . وقال عن زوجته: (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرات نوح وامرات لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين) سورة التحريم الآية ١٠ .

قال ابن جرير: " (فلا كفران لسعيه) يقول : فإن الله يشكر عمله الذي عمل له مطيعا له وهو به مؤمن فيثيبه في الآخرة ثوابه الذي وعد أهل طاعته أن يثيبهموه، ولا يكفر ذلك له فيجده ويحرمه ثوابه على عمله الصالح(١).
وقال ابن كثير: (وقوله: ﴿وتقطعوا أمرهم بينهم﴾ أي اختلفت الأمم على رسلها فمن بين مصدق لهم ومكذب، ولهذا قال: " كل إلينا راجعون " أي يوم القيامة فيجازى كل بحسب عمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر(٢).

٢ - موقف الأشقياء وعاقبته:

أولا : موقفهم من الأفتياء والرسل ودعوتهم.

- قال تعالى: (ما يأتيتهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون) الآيتان ٢ - ٣ .

- وقال: (بل قالوا أضغث أحلم بل افتربه بل هو شاعر فليأتنا بغاية كما أرسل الأولون) الآية (٥).

- وقال: (وإذا قرء القرآن كفروا إن يتخذونك إلا هزوا لهذا الذي يذكر الهتكم وهم يذكر الرحمن هم كفرون) الآية (٣٦) .

- وقال: (ولقد استهزؤا برسلك من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون) الآية (٤١).

- وقال تعالى حكاية عن قول قوم إبراهيم: (قالوا وجدنا آباءنا لها عبيدين) الآية (٥٣).

- وقال تعالى عنهم أيضا: (قالوا حرقوه وانصروا الهتكم إن كنتم فعلين) الآية (٦٨).

(١) تفسير الطبري ٦٨/١٧ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٠٣ - ٢٠٤ وقد فسر التقطع في الآية بمعنى تفرق الأمم ما بين مشرك ويهودى ونصرانى ومجوسى، انظر تفسير الطبري ٦٨/١٧ والقرطبي ١١/٢٢٤ - ٢٢٥ وأضواء البيان ٤/٧٥٣ .

هذه الآيات السبع من السورة تنبئنا ببعض مواقف الأشقياء من دعوات المرسلين، وهي مواقف تدور بين التكذيب والاستهزاء والتحقير لأصحاب الدعوات، ومد الناس عن دعوتهم وتغييرهم عنها بوصفهم ووصف دعوتهم بمفاتيح غير لائقة بها.

فالآيتان الأوليان فيهما إخبار من الله تعالى عن الكفار المعاصرين لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومن شابههم ممن سار على خطاهم، أخبر تعالى أنهم ما يأتئيم ذكر محدث أى جديد في الإنزال إلى النبي صلى الله عليه وسلم (١) (إلا استمعوه وهم يلعبون) أى لايهتمون لسماعه، بل يتشاغلون عنه ويلهون بقلوبهم عنه، لايتدبرون ما فيه من حكم، ولايفكرون فيما فيه من مواعظ وحجج ، وهذا إن كان الذكر بمعنى القرآن كما ذكر بعض المفسرين، أو بمعنى التذكير بالقرآن وغيره (٢).

وقد قيل إن الذكر هنا النبي نفسه، بدليل قوله تعالى بعد هذا حكاية عنهم : (هل هذا إلا بشر مثلكم) (٣).

وعلى كلا القولين فإن المعنى متحد في النهاية، فإن موقفهم من الدعوة هو الموقف نفسه من صاحب الدعوة، فهم أحياناً يقابلون الدعوة بعدم الإكتراث، إمعاناً في تحقير شأن صاحبها وتهوينه، وهذا الموقف دليل على تبئيتهم التكذيب وعدم استعدادهم لقبول الحق، لأن طالب الحق يصفى باهتمام إلى الأفكار، ويقارن ويقيس ويحلل ليخرج بنتيجة، كما أن هذا الموقف ينم عن قسوة القلب تجاه القرآن الكريم الذى صرف فيه من الآيات والأمثال ما يحيى القلوب ويلينها، ومن الوعيد ما تقشعر منه الجلود.

قال تعالى : (وكذلك أنزلناه قرءانا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلمهم يتقون أويحدث لهم ذكرا) (٤).

(١) انظر تفسير الطبري ٢/١٧ ومعالم التنزيل للبغوي ١٢٨/٣ وزاد المسير ٣٢٩/٣
(٢) انظر المصادر السابقة والتفسير السابق لكلمة محدث مفرع على هذا القول.
(٣) انظر معالم التنزيل ٢٢٨/٣ وزاد المسير ٣٢٩/٣ وتفسير القرطبي ١١/١٧٨ وقد نسب الأخيران القول به للحسن بن الفضل.
(٤) سورة طه الآية (٧٣).

فالذي يستمع إلى هذا الذكر الحكيم وهو لاسب لاهى القلب فهو بلاشك شقي محروم، وقلبه في أعلى درجات القساود، وقد مدح الله سبحانه الذين يستمعون القرآن وقلوبهم حاضرة خاشعة فقال: (الله نزل أحسن الحديث كتبا متشبهها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضل الله فما له من هاد)(١).

فهذا هو حال السعداء لدى استماع الذكر، وتلك هي حالة الأشقياء، وبينهما من البون ما بينهما.

وأما قول تعالى: (وأسروا النجوى الذين ظلموا...) الخ الآية فهو إخبار عن الكفار بأنهم تناحوا فيما بينهم وأخفوا هذا التناجى فائلين في شأن محمد صلى الله عليه وسلم: (هل هذا إلا بشر مثلكم) أي أنه مثلكم ولا فضل له عليكم، فكيف تتبعونه فتكونون كمن يتبع الباطل وهو يعلمه، وقد جعلوا اتباعه اتباعا للسحر.

وقوله تعالى: (بل قالوا أضغث أحلام...) الخ الآية إخبار عن موقف للكفار مماثل للموقف السابق، وهو وصف القرآن الكريم بما ينفر الناس عنه، أخبر أنهم اضطربوا فيما يصفون به القرآن الكريم والنبي صلى الله عليه وسلم من صفات تروج على العامة، فقال بعضهم: إن ما جاء به محمد أضغاث أحلام، وهي الرؤيا المختلطة التي يراها الرجل في المنام، أو هو الرؤيا الكاذبة(٢).

وقال بعضهم: إن محمدا اختلق القرآن من تلقاء نفسه، وقال بعضهم: بل هو شاعر والقرآن شعر، ثم نمادوا في غيهم وتعننتهم قائلين: إن كان صادقا فليأتنا بآية كما أتى بها الأولون.

قال ابن حريز في تفسير الآية: (يقول تعالى ذكره: ما صدقوا بحكمة هذا القرآن ولأعد من عند الله، ولا أقروا بأعد وحى أوحاد الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم، بل قال بعضهم: هو أهوويل رؤيا رأها في النوم، وقال بعضهم: هو فرية واختلاق افتراء واختلق من قبل نفسه، وقال بعضهم: بل محمد شاعر وهذا الذي جاءكم به شعر، (فليأتنا بثابة) يقول: قالوا: فليجئنا محمد إن كان صادقا

(١) سورة الزمر الآية (٢٣).

(٢) انظر زاد المسير ٢٤٠/٣ وتفسير القرطبي ١٢٩/١١ وكذا شهيد اللعد ٤/٨ مادة (ضعت) والصحاح ٢٨٥/١ مادة (ضعت).

في قوله إنه رسول والقرآن وحى من الله بحجة ودلالة على قوله كما جاءت به الرسل الأولون من قبله، من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وكسفاة صالح وما أشبه ذلك من المعجزات التي لا يقدر عليها إلا الله، ولا يأتي بها إلا الأنبياء والرسول. (١)

وهذا الاضطراب والاختلاف سببه أنهم يعرفون في قرارة أنفسهم براءة النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الأقاويل، لكنهم لما صمموا على التكذيب والإضلال كان لابد لهم من صرف أنظار العامة عن النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم بشيء يروج عليهم، ومما يدل على ذلك ما أورده ابن هشام (٢) في مختصره لسيرة ابن إسحاق (٣) عن الوليد بن المغيرة المخزومي (٤)، أنه اجتمع إليه نفر من قريش فقال لهم: يامعشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا، وبيد قولكم بعضه بعضا، قالوا: فأنت ياأبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقوله به، قال: بل أنتم فقولوا أسمع، قالوا: نقول كماهن، قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجع، قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته، قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزة وهزجة وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم، قالوا: فمانقول ياأبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعنق، وإن فرعه لجناة وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل) وهنا وقفة فقول الوليد هذا شهادة بأنهم إنما كان قصدهم أن يلبسوا على العامة، لا أن يقولوا حقيقة مقررة في أنفسهم، ولقد اضطربوا لأنهم - كما يقول الوليد - لن يقولوا

(١) تفسير الطبري ٢/١٧ - ٤ باختصار.

(٢) هو عبد الملك بن هشام بن أيوب العلامة النحوي الذهلي نزيل مصر، مهذب السيرة النبوية لابن إسحاق وقد اشتهرت السيرة لذلك باسمه (ت ٢١٨ هـ) انظر ترجمته في وفيات الأعيان ١٧٧/٣ وسير أعلام النبلاء ٢٢٨/١٠ والبداية والنهاية ٩٤/١٠ وحسن المحاضرة ٥٢١/١.

(٣) هو محمد بن إسحاق بن يسار العلامة الحافظ صاحب السيرة النبوية التي لخصها ابن هشام (ت ١٥١ هـ) على خلاف في ذلك له ترجمة في التاريخ الكبير ٤٠/١ وتاريخ بغداد ٢١٤/١ ووفيات الأعيان ٢٧٦/٤ وميزان الاعتدال ٢٨٨/٤ تهذيب التهذيب ٢٨/٩.

(٤) هو أبو خالد بن الوليد سيف الله، وكان من زعماء قريش زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وقد مات مشركا في السنة الأولى من الهجرة، انظر البداية والنهاية ٢٣٤/٣.

شيئا من هذا لإعرف أنه باطل ، ومع ذلك سمحوا لأنفسهم بالتقول ، لعل شيئا من أقاويلهم يروج على البسطاء والسذج ، حيث أكمل الوليد حديثه قائلا : (وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك -) (١)

وأما الايتان بعدها ففي بيان موقف آخر من مواقف الكفار من أنبياء الله ورسله ، فقوله تعالى : (وإذا رءاك الذين كفروا إن يتخذونك إلهزوا) أى أن كفار قريش كانوا إذا رأوا النبي صلى الله عليه وسلم يستهزئون به وينتقصون منه قائلين : (أهذا الذى يذكر ، الهتكم) أى أهذا الذى يتجاسر على الهتكم فيذكرها بالسوء ، والاستفهام هنا للتحقير والتقليل من شأن النبي صلى الله عليه وسلم كما يدل عليه أول الآية (إن يتخذونك إلهزوا)

وأما قوله تعالى وهم بذكر الرحمن هم كافرون فقد تقدم تفسيره ، والمعنى أن هؤلاء يستهزئون بالنبي لعيبه آلهتهم وذكره إياها بما فيها مع أنهم كافرون بالله الإله القادر ،

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله : (وفي هذه الآية الكريمة دلالة واضحة على سخافة عقول الكفار ، لأنهم عاكفون على ذكر أصنام لا تنفع ولا تضر ويسوءهم أن تذكر بسوء ، أو يقال إنها لا تشفع ولا تقرب إلى الله ، وأما ذكر الله وما يجب أن يذكر به من الوحدانية فهم به كافرون لا يصدقون به ، فهم أحق بأن يتخذوا هزوا من النبي صلى الله عليه وسلم الذى اتخذه هزوا فإنه محق وهم مبطلون) (٢)

وقوله تعالى : (ولقد استهزئ برسلك من قبلك) دليل على أن هذا الموقف ليس خاصا بكفار قريش مع النبي صلى الله عليه وسلم ، بل ان الكفار قبلهم أيضا وقفوا الموقف نفسه مع الرسل فاستهزؤا بهم وسخروا منهم كما قال تعالى عز قوم نوح مع نوح : (ويمنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون) (٣)

(١) السيرة النبوية ١ / ٣٠٢

(٢) أضواء البيان ٤ / ٦٢٢

(٣) سورة هود الآية (٢٨)

وكما قال تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم : (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم) (١)

وفي ذكر مثل هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ، وتهديد لقريش وتحذير بأنهم ليسوا ببعيدين من أن يصيبهم ما أصاب أولئك المستهزئين يرسلهم من جراء سخريتهم بهم ، فقد حاق بهم ما كانوا به يستهزؤن ، أي نزل بهم العذاب الذي كان الرسل يخوفونهم به فيستهزؤن بهم بسبب ذلك ، قال ابن جرير في معنى قوله تعالى : (وحق بهم ما كانوا به يستهزؤن) : (يقول فوجب ونزل بالذين استهزؤوا بهم وسخروا منهم من أممهم ما كانوا به يستهزؤون يقول جل ثناؤه : حل بهم الذي كانوا به يستهزؤون من البلاء والعذاب الذي كانت رسلهم تخوفهم نزوله بهم فيستهزؤون ، يقول جل ثناؤه فلن يعدو هؤلاء المستهزؤون بك من هؤلاء الكفرة أن يكونوا كأسلافهم من الأمم المكذبة رسلها فينزل بهم من عذاب الله وسخطه باستهزائهم بك نظير الذي نزل بهم) (٢)

والآية التي بعدها فيها بيان لموقف آخر من مواقف الكفرة من دعوة الأنبياء ، وهو الاعتماد على تقليد الأسلاف ، فقوم إبراهيم عليه السلام لما سألهم إبراهيم عما حاجتهم فيما هم عليه من عكوف على أسلافهم أجابوه بقولهم وجدنا عليه آباءنا فاتبعناهم ، وقد سلك غيرهم أيضا هذا المسلك مع أنبيائهم ، بل إن جميع الكفار كانوا يقابلون الرسل بمثل هذه المواقف ، فيحتجون على صحة مذاهبهم بكون آباؤهم كانوا عليها ، قال تعالى : (وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) (٣)

وهذه المقالة ليست بحجة - قطعا - لأن الكلام مع آباؤهم كالكلام معهم ، فآباؤهم ليسوا حجة في هذا المقام ، بل الحجة ما أنزله الله تعالى على لسان أنبيائه ورسله ، فمن وجد آباءه على ذلك فذاك ، أما من وجد آباءه ضالا فاتبعه فقد ضل مثله .

(١) سورة فعلت الآية (٤٣)

(٢) تفسير الطبري ١٧ / ٢٢

(٣) سورة الزخرف الآية (٢٣)

والآية الأخيرة إخبار عن موقف العناد والمكابرة الذي أظهره قوم إبراهيم عليه السلام حين أعياهم الاستدلال الصحيح والبرهان على صحة مذهبهم، وحين غلبهم إبراهيم، فلجأوا إلى القوة قائلين حرقوه وانتقموا منه لآلهتكم، وهذا الموقف يتكرر مع الدعاة حين يغلبون قومهم بالحجة والبرهان الساطع، فلا يجد الكفرة إلا القوة والعنف وسيلة لإظهار مذهبهم، فقوم نوح لما غلبهم نوح هددوه قائلين: (لئن لم تنته يَنوح لتكونن من المرجومين) (١)، وقوم صالح تأمروا عليه لما لم يبق في جعبتهم شيء بعد أن أراهم الآية التي كملبوها فقال رهط منهم: (تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصدقون) (٢) فأرادوا أن يبيتوه، أي يأتوه ليلا فيقتلوه وأهله ثم يجحدوا.

وقريش لما رأوا أن دين الله بدأ ينتشر وأن إيذاءهم لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وافتراءاتهم عليهم لم يحل دون نشر الدعوة الإسلامية قررت آخر الأمر استعمال القوة، فتآمرت على قتل النبي صلى الله عليه وسلم وصممت على ذلك، لولا أن الله سبحانه نجى نبيه فأخرجه من بينهم سالما وهاجر إلى المدينة.

قال تعالى: (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير المَكْرِين) (٣).

والخلاصة أن الكفار وقفوا ضد الأنبياء والرسول، من أولهم وإلى آخرهم، وقاوموا دعواتهم بكل ما لديهم من وسائل، بدءا بالسخرية والاستهزاء، إلى الإيذاء والملاحقة، ثم محاولة التخلف ولو بالقتل أو التحريق، ولكن الله سبحانه كان يحيط رسله وأنبياءه وأتباعهم بعنايته ورعايته، فكان يحميهم من كيد الكافرين، فلم يكن الكفار ينالون منهم إلا ما كتب الله لهم ابتلاء وامتحاناً، ولم يكن شيء من ذلك ليوقف حائلاً على طريق الدعوة إلى الله تعالى.

(١) سورة الشعراء الآية ١١٦

(٢) سورة النمل الآية ٤٩

(٣) سورة الأنفال الآية ٣٠ . وانظر قصة المؤامرة في السير النبوية لابن هشام ١٢١/٢ - ١٢٥ .

ثانيا: عاقبة موقف الأشقياء وجزاؤهم:

قال تعالى: (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وانشأنا بعدها قوماً آخرين فلما أصوا بأسنا إذا هم منها يركضون لا تتركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومسكنكم لعلكم تمشون قالوا يولينا، إنا كنا ظالمين فما زالت دعوتهم حتى جعلناهم حصيداً خمدين) الآيات من (١١) إلى (١٥).

وقال: (ولقد استهزئء برسلك من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون) الآية (٤١).

وقال: (ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ونصرناه من القوم الذين كذبوا بثايلنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) الآيتان: (٧٦) و (٧٧).

المجموعة الأولى من الآيات ذكر كثير من المفسرين أنها إخبار عن أهل قرية معينة، وقد حدوها بمدينة حضور وكانت إحدى مدن اليمن (١)، وذكر البيهقي (٢) أنها حضرموت (٣)، وقد ذكروا في قصة أهلها أن الله سبحانه بعث إليهم نبيا فكذبوه وقتلوه فسلط الله عليهم بختنصر فغزاهم وهزمهم وخرب مدينتهم (٤).

ولكن الظاهر من سياق الآية الإخبار عن كثرة وقوع ذلك لا عن حادثة معينة، وإن ثبتت قصة أهل حضور فإنها تدخل في معنى الآيات.

(١) انظر تفسير المنعاني ٢٢/٢ والقرطبي ١٨٢/١١ والشوكاني ٤٠١/٣ والألوسي ١٥/١٧.

(٢) هو الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البيهقي الشافعي المفسر، صاحب التمامين، كشرح السنة ومعالم التنزيل (ت ٥١٦ هـ)، انظر ترجمته في وفيات الأعيان ١٣٦/٢ وسير أعلام النبلاء ٤٢٩/١٩ وطبقات السبكي ٧٥/٧ والبداية والنهاية ٢٠٦/١٢ وطبقات المفسرين للدودي ١٥٧/١.

(٣) انظر معالم التنزيل للبيهقي ٢٤٠/٣.

(٤) انظر تفسير الطبري ٨،٧،٦/١٧ وقد روي عن مجاهد ضبط اسم المدينة بأنها حصون بالحاء والماد المهملتان والنون، وضبط كذلك في إحدى نسخ تفسير المنعاني ٢٢/٢ لكن مصادر أخرى ضبطتها بالحاء والضاد المعجمة والراء، وقال ياقوت في معجم البلدان: "حضور بالفتح ثم ضم وسكون الواو وراء بلدة باليمن من أعمال زييد" وذكر أن السهيلي ذكره بالمد (حضوراء) انظر المعجم ١٧١/٢ وانظر المصادر السابقة في الها مشن الأول.

فقله تعالى : (وكم قصمنا..) "كم" فيه خيرية، وهي مفيدة للتكثير (١) أى قصمنا كثيرا من القرى، والقصم في اللغة : الكسر حتى تبين الأجزاء (٢) وهو هنا عبارة عن الإهلاك.

(كلت ظالمة) هذا هو سبب الإهلاك، وهو ظلم أهل تلك القرى، وقد فسر الظلم هنا بتكذيب الرسل وغيره من أنواع الكفر، ولاشك أن تكذيب الرسل هو السبب المباشر لهلاك أكثر القرى، فإن الله تعالى لا يهلك قرية إلا بعث إليها رسولا أولا، فإن كذبت أهلكها، قال تعالى : (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) (٣).

وقال تعالى : (وأنشأنا بعدما قوماً آخرين) أى وأوجدنا بعد تلك القرية الظالمة المهلكة قوماً آخرين، وإذا لم يكن المراد هنا قرية معينة كما قررنا سابقا فالمعنى أنه وجد بعد كل قرية مهلكة قوم آخرون، فيكون المراد الإشارة إلى أن هذا من سنن الله الكونية أنه إذا أهلك قرية أوجد بعدها أخرى، فيستخلف الصالحين في الأرض كما قال تعالى : (وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم) (٤).

وقال في سورة الأنبياء : (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) الآية (١٠٥).

ثم قال تعالى : (فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون) أى فلما تيقن أهل القرى المهلكة نزول العذاب فروا من قراهم طالبين النجدة، ولكن بعد فوات الأوان، فإن عذاب الله إذا حل لا ينفع الهرب، ولهذا قال تعالى : (لا تركضوا..) والظاهر أن هذا قيل لهم تهكما بهم واستهزاء (٥) أو طلبا منهم أن يواجهوا الحقيقة ويتحملوا نتيجة كفرهم، فلا يفرّوا منها، والمراد بالركض الهروب والفرار (٦).

-
- (١) انظر تفسير الكبري ٦/١٧ والبحر المحيط ٣٠٠/٦ والألوسي ١٥/١٧
 - (٢) انظر تهذيب اللغة ٣٨٦/٨ مادة (قصم) والمصاح ٢٠١٣/٥ مادة (قصم) والمفردات في غريب القرآن ص ٤٠٥ والمادة نفسها.
 - (٣) سورة القصص الآية ٥٩ والجملة الأخيرة من الآية تشرح لتفسير الظلم بالتكذيب.
 - (٤) سورة إبراهيم الآيتان ١٣ - ١٤
 - (٥) انظر تفسير الطبري ٧/١٧ وقد ذكره عن قتادة، وابن كثير ١٨٣/٣ .
 - (٦) انظر الطبري ٧/١٧ .

(وارجعوا الى ما اترفتم فيه ومسكنكم) أى عودوا الى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة (١) (لعلكم تسئلون) أى عما كنتم فيه من أداء شكر النعم، أو تسألون أن تنفقوا وتصدقوا، أو عن أعمالكم القبيحة (٢).

ثم قال تعالى: (قالوا يويلنا إنا كنا ظالمين) أى أنهم هنالك بعد نزول العذاب اعترفوا بظلمهم وكفرهم ولكن بعد فوات الأوان، فقد كانوا في سعة من الأمر قبل حلول النقمة، أما بعد طولها فلا ينفع الاعتراف والإقرار. (فما زالت تلك دعوتهم حتى جعلناهم حصيداً خُدين) أى أنهم لما لم ينفعهم الهرب وأيقنوا بالهلاك اعترفوا بظلمهم ولم يزالوا مرددين لكلمات الاعتراف والإقرار حتى حصدهم العذاب حصدًا فصاروا خامدين أى ميتين كما تخذ النار إذا أطفئت (٣).

والآية التي بعدها وهي قوله تعالى: (ولقد استهزئ برسلك.. الخ الآية) قد تقدم ذكرها، والشاهد فيها هنا دلالتها على مصير من يستهزئ بالرسول وهو أنه يحيق به أى ينزل به ما كان يستهزئ به.

وأما قوله: (ونوحا إذ نادى من قبل.. الخ) فقد تقدم أيضا، والشاهد فيه ما ذكر فيه من إغراق قوم نوح بسبب تكذيبهم نوحا عليه السلام. فهذه الآيات وما في معناها من آيات القرآن توضح لنا مصير مكذبي الرسل وهو أنهم يخزون في الدنيا، ويذوقون العذاب الأليم في الآخرة فتكذيب الرسل والإصرار على ذلك من أسباب الهلاك الدنيوي والخسارة الأخروية، فالبشر لا يمكنهم معرفة الله وعبادته على الوجه المطلوب إلا مع الاستعانة بالوحي الإلهي إلى الرسل، والاسترشاد بأقوال الرسل وأفعالهم وتقريراتهم، وقد وعد الله بنى آدم أن هم اتبعوا الرسل أن يدخلهم الجنة وإن كذبوهم أن يدخلهم النار، وذلك حين أهبط آياهم آدم الى هذه الأرض فقال: (يبنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم

-
- (١) تفسير ابن كثير ١٨٢/٣ .
(٢) أقوال ذكرها المفسرون في معنى (تسألون) وكلها واردة، انظر تفسير المنعاني ٢٢/٢ ، والطبري ٧/١٧ ، وازاد المسير ٣٤٢/٥ ن وابن كثير ١٨٢/٣ .
(٣) انظر تفسير الطبري ٨-٧/١٧ وازاد المسير ٣٤٢/٥ وقد فسر بناء على القول السابق في كون الآية في أهل قرية معينة بأنهم حصدوا بالسيف حتى صاروا ميتين لآحراك فيهم، انظر تفسير المنعاني ٢٢/٢ بالإضافة إلى المصدرين المذكورين آنفا.

ءايأتى فمن اتقى وأصلح فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون والذين كذبوا بثأيتنا
واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون(١).
وبهذا يتضح لنا ضرورة اتباع الرسل وخطورة مخالفتهم فالسعيد من اتبع الرسل
والشقي من خالفهم، وفي قصص من تقدم من أتباع الرسل ومخالفهم عبرة لمن
اعتبر.

(١) سورة الاعراف الآيتان ٣٥ - ٣٦ .

الفصل الثالث
الإيمان بالكتب

الإيمان بالكتب التى أنزلها الله سبحانه على الرسل عليهم السلام هو أحد أركان الإيمان ، قال تعالى: (يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا) (١)

وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى جواب جبريل لما سأله عن الإيمان : (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره) (٢) فهذان النمان يدلان على أن الإيمان بالكتب السماوية من جملة أركان الإيمان التى لافلاح ولا نجاح إلا بالإيمان بها ،

والكتب السماوية المنزلة على الرسل كثيرة كما قال تعالى: (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ..) الآية (٣)

فهذه الآية تدل على أن الكتب نزلت مع النبيين ، فإن لم تكن مع كلهم فإنها كانت مع كثير منهم ، فيجب الإيمان بأن الله أنزل على النبيين الكتب، وأن ما حوت تلك الكتب كله حق وصدق ، كما يجب الإيمان على التعميل بالكتب التى ذكر اسمها فى القرآن الكريم وهى صفت إبراهيم وموسى والتوراة والزيور والإنجيل ، وقد ورد ذكر بعض هذه الكتب فى سورة الأنبياء مما استدعى عقد هذا الفصل :

(١) سورة النساء الآية (١٣٦)
(٢) سبق تخريجه ص (١٥٩) من هذا البحث
(٣) سورة البقرة الآية (٢١٣)

الكتب السماوية التي ورد ذكرها في السورة

قال تعالى : (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون) الآية (٩)

وقال تعالى : (لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلاتعقلون) الآية (١٠).

وقال تعالى : (أم اتخذوا من دونه الهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون) الآية (٢٤).

وقال : (ولقد أتينا موسى وهرون والفرقان وضياء وذكرنا للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون) الآية من (٤٨) إلى (٥٠).

وقال : (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون إن في هذا لبلغاً لقوم عابدين) الآيتان (١٠٥ - ١٠٦).

وقد سبقت جميع هذه الآيات في مباحث سابقة ما عدا الآية ^{السادسة} ~~السادسة~~ والأخيرة، وقد أعدت ذكر هذه الآيات لأنه قد ورد فيها ذكر الكتب السماوية.

فالآية الأولى فيها الإخبار عن القرآن الكريم بأنه ذكر محدث، أي يتجدد نزوله بهنئ الحين والحين.

وأما الآية الثانية ففيها كذلك وصف القرآن الكريم بأن فيه ذكراً للمنزل إليهم، ومن هنا سمي القرآن ذكراً، ففيه الذكر لمن اتبعه وهو الشرف وكذلك فيه التذكير بالله واليوم الآخر وفيه المواعظ البليغة، وفيه ذكر الأمم الخالية أي أخبارهم (١).

وفي الآية وصف آخر للقرآن وهو كونه منزلاً من الله سبحانه وتعالى فقد نزل من عنده سبحانه لفظه ومعناه، بواسطة جبريل عليه السلام منجماً في ثلاث وعشرين سنة، وذلك لتسهيل حفظه وفهمه وتطبيقه.

.....
(١) انظر البرهان في علوم القرآن ٢٧٩/١ والإنتقان ٦٨/١ .

والآية الثالثة فيها أيضا وصف القرآن وكذا الكتب السابقة (١) بالذكر، أما القرآن فلما مرَّ، وأما التوراة والإنجيل فقد سميا ذكرا لأن فيهما التذكير بالله وآياته وبأخبار من مضى، وكان فيها الشرف لمن اتبعهما قبل نسخهما.

قال تعالى: (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمت إلى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيت لكل صبار شكور) (٢).

وقال: (وقفينا على أثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وءاتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين) (٣).

والآية الرابعة فيها ذكر الكتاب الذي أوتى موسى وهو التوراة، إذ قد فسر الفرقان به، وكذا الضياء والذكر، (٤).

وأما الآية الخامسة فقد ذكر فيها القرآن بعد ذكر التوراة في ما قبلها، وذلك للإخبار بأنه كما أنزلت التوراة على موسى أنزل القرآن المبارك على النبي محمد صلى الله عليه وعلى إخوانه الأنبياء وسلم (٥).

وقد وصف فيها القرآن بأنه ذكر، ومبارك أي كثير الخير (٦) ومنزل من عند الله فكيف يليق بالكفار بعد هذا كله إنكاره ووصفه بما لا يليق به (٧).

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله تعالى - : (ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم (ذكر مبارك) أي كثير البركات لأن فيه خير الدنيا والآخرة، ثم ويخ من ينكرونها منكرًا عليهم بقوله: (أفأنتم له منكرون) (٨).

(١) والمراد هنا التوراة والإنجيل لأن سياق الآية يدل على الطلب من المشركين أن يأتوا ببرهان من الكتب السابقة على القرآن والمعروف لدى قريش حينئذ هو التوراة والإنجيل.

(٢) سورة إبراهيم الآية (٥).

(٣) سورة المائدة الآية (٤٦).

(٤) انظر ما مضى من ذلك ص (١٨١) من هذا البحث.

(٥) انظر تفسير الكبري ٢٦/١٧ - ٢٧.

(٦) انظر زاد المسير ٣٥٦/٥.

(٧) انظر الطبري ٢٦/١٧ - ٢٧.

(٨) أضواء البيان ٦٣٩/٤ - ٦٤٠.

وأما الآيتان الأخيرتان فقد ورد فيها ذكر الزبور والذكر، وقد اختلفت أقوال العلماء في المعنى المراد بهما، فروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد أن الزبور كتب الأنبياء كلها والذكر أم الكتاب وهو الذي كتب فيه كل شيء، وقد رجح ابن جرير هذا القول وقال بعد أن حكى الخلاف: (وأولى هذه الأقوال عندي بالمصواب في ذلك ما قاله سعيد بن جبير ومجاهد ومن قال بقولهما في ذلك من أن معناه ولقد كتبنا في الكتاب من بعد أم الكتاب الذي كتب الله كل ما هو كائن فيه قبل خلق السموات والأرض) (١).

وقد علل للترجيح بأن الزبور في اللغة هو الكتاب، فيصدق على كل كتاب أنزل أنه زبور، كما يصدق على جميع الكتب المنزلة أنه ذكر، فتعريف الذكر بالألف واللام العهدية مع تقييده بلفظ " بعد " دليل على أن المراد به ذكر معروف لدى المخاطبين بالآية، فلو حمل على غير أم الكتاب الجامع لكل ما كتبه الله لم يكن التوراة - مثلا - أولى به من صف إبراهيم ومن الكتب التي نزلت قبلها والتي يصدق على جميعها أنها قبل الزبور، فلم يبق إلا أن يحمل على أم الكتاب الذي كتب فيه كل شيء قبل جميع الكتب الأخرى (٢)، أي أن تخصيص الذكر بكتاب دون آخر تحكم، ولكن حمله على أم الكتاب له وجه صحيح وهو كونه سابقا لجميع الكتب.

وأما الأقوال الأخرى فمنها أن المراد بالزبور جميع كتب الأنبياء غير التوراة والذكر التوراة.

ومنها أن المراد بالزبور : زبور داود والذكر : التوراة.

ومنها أن الزبور : القرآن، والذكر: التوراة (٣).

والذي نخلص إليه من هذه الأقوال أن في الآية دليلا على وجود كتب سماوية أنزلت من عند الله الإخبار بأن الأرض يرثها عباد الله الصالحون وهم المؤمنون بالله ورسله، والمراد بالأرض أرض الجنة، وأرض الأمم الكافرة يرثها أمة

(١) تفسير الكبرى ٨١/١٧ .
(٢) المصدر السابق، وانظر كذلك أضواء البيان ٧٥٧/٤ .
(٣) ذكر هذه الأقوال الطبري ٨١/١٧ وابن الجوزي في زاد المسير ٣٩٧/٥ وابن كثير ٢١٠/٣ .

الإسلام (١) وهذا هو المقصود لإيراد الآية هنا.

وأما قوله تعالى: (إن في هذا لبلغاً لقوم عبدين) فالإشارة فيه للقرآن الكريم أى أن فيه كفاية لمن أراد أن يعبد الله سبحانه بما شرعه، فإن القرآن يهدى للتي هي أقوم في جميع المجالات التي يحتاج إليها البشر، وفيه من التشريع ما يكفى جميع الناس لبلوغ غاياتهم من خير الدنيا والآخرة، كما قال تعالى في آية أخرى (هذا بلغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب) فعمم هناك وخص هنا لأن القوم العابدين هم الذين انتفعوا به وبلغوا مناهم بخلاف غيرهم من سائر الناس الذين لم يتبعوا هدى القرآن الكريم (٢).

وبعد استعراض محتوى الآيات نجد فيها ذكر كتابين من الكتب السماوية على وجه التعيين، وهما القرآن الكريم والتوراة، فيجب الإيمان بكلها على الإجمال، كما يجب الإيمان على التفصيل بالكتب المذكورة منها في القرآن الكريم. وفيما يلي حديث موجز عن تلك الكتب على ضوء ما ذكر عنها في القرآن، وذلك لأن الإيمان بها يستلزم معرفتها ولو معرفة مجمل.

١ - صحف إبراهيم وموسى :

اقترن ذكر هذين الكتابين في القرآن الكريم، وقد ورد في القرآن ذكر بعض ما احتويا عليه.

قال تعالى: (أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى إلا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزئه الجزاء الأوفى) الخ. الآيات (٤).

(١) ويدل لكل من القولين دليل، فهما واردان ومحتملان، قال تعالى عن أهل الجنة (وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين) الزمر الآية (٧٤) وهذا شاهد للمعنى الأول، وأما شاهد المعنى الثاني فمثل قوله تعالى: (وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطعموها) الآية (٢٧) من سورة الأحزاب وانظر الكبرى ٨٢-٨١/١٧ وأضواء البيان ٧٥٨-٧٥٧/٤ . (٢) انظر أضواء البيان ٧٥٩/٤ . (٣) حرة إبراهيم الآية (٥٢) . (٤) سورة النجم الآيات من (٣٦) إلى (٤١) .

وقال تعالى : (إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى) (١) .

فهذه الآيات تدل على التوافق بين هذه الصحف وبين القرآن الكريم في الحقائق المذكورة هنا، ولم يرد في القرآن شيء عن صحف إبراهيم غير ما ذكر هنا، أما صحف موسى فيحتمل أن تكون ضمن التوراة أو تكون مستقلة عن التوراة، ويدل لذلك ما روى عن أبي ذر مرفوعاً: (إن الله تعالى أنزل على إبراهيم عشر صحائف وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف ..) الحديث (٢)، فإن صح هذا الحديث^{كلام} دليلاً على أنها غير التوراة (٣)، وقد صرح بعض المفسرين بأنها هي التوراة (٤) .

٢ - التوراة : وهي الكتاب الذي أنزله الله تعالى على نبيه موسى عليه السلام وفيها الشريعة التي أمر بنو إسرائيل بالسير عليها قبل أن تنسخ بالقرآن الكريم .

قال تعالى : (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشوا ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) (٥) . فالتوراة الموصوفة بهذه الصفات المنزلة على موسى عليه السلام هي التوراة التي يجب الإيمان بها وبأنها من عند الله، ولكن ما بأيدي اليهود الآن ليس هو التوراة، بل هو خليط منها ومما أضافوه إليها .

وقد وصف القرآن اليهود بأن من شأنهم تحريف الكلم عن مواضعه وكتابة ما ليس من عند الله ثم إضافته إلى الله .

قال تعالى : (وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتب لتحسبوه من الكتب وما هو

(١) سورة الأعلى الآيتان (١٨، ١٩)

(٢) نسب السيوطي هذا الحديث في الدر المنثور ٢٤١/٦ إلى عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر .

(٣) ولكن في صفة الحديث شكاً وإن كان ابن حبان رواه في صحيحه فصحه إلا أن جماعة من الحفاظ قد ردوا عليه ذلك / انظر لوامع الأنوار البهية ٢٦٤/٢ .

(٤) كالبيهقي وابن الجوزي وأبي حيان والشوكاني وغيرهم، انظر معالم التنزيل ٢٥٥/٤ وزاد المسير ٧٨/٨ والبحر المحيط ١٦٨/٨ وفتح القدير ١١٤/٥

(٥) سورة المائدة الآية (٤٤) .

من الكتب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون(١).

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : (يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله أن منهم فريقا يحرفون الكلم عن مواضعه ويبدلون كلام الله ويزيلون عنه عن المراد به، ليوهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك، وينسبونوه إلى الله وهو كذب على الله، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله)(٢).

ومن هنا لا وثوق بما في أيديهم اليوم، فقد طرأ عليها التحريف والتبديل والإهمال والإخفاء المقصود ولبس الحق بالباطل(٣)، حتى أصبحت التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام أكثر من واحدة مع أن المنزلة واحدة فقط(٤)، ومما يجدر ذكره هنا الإشارة إلى أن النصارى قد لفقوا من التوراة العبرية ومجموعة أخرى من كتب أنبيائهم - حسب زعمهم - كتابا واحدا أسموه العهد القديم، وهو محتو على خمسة أسفار(٥) منسوبة لموسى عليه السلام، بالإضافة إلى أربعة وثلاثين سفرا آخر منسوبة إلى سائر أنبيائهم، ومنها ما نسبوه لداود عليه السلام، وهو سفر المزامير، ولعله الزبور كما سيأتى في الفقرة التالية إن شاء الله .

٣ - الزبور :

وأما الزبور فهو الكتاب الذي أنزله الله على داود عليه السلام قال تعالى:

- (١) سورة آل عمران الآية (٧٨)
(٢) تفسير ابن كثير ١/٣٨٤ .
(٣) انظر الأسفار المقدسة قبل الإسلام للدكتور حابر طعيمة ص/ ١٧ ، ٨١ .
(٤) انظر المصدر نفسه من ص/٢٤ إلى ٢٨ وكذا التوراة دراسة وتحليل للدكتور محمد شلبي من ١٥ إلى ٣٦ حيث قرر أن توراة موسى ضاعت وأنه ظهرت توراة أخرى ضاعت ثم أخرى.
(٥) هي: سفر: التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية

(وأتينا داوود زبوراً) (١) .

وقد أتى الله داود عليه السلام من حسن الصوت والنعيم الجميل ما تقدم ذكره في قصته، ولعل هذا هو السبب في تسمية بنى إسرائيل سفر داود بالمزامير، ففي كتابهم المقدس سفر بهذا الاسم كما سبق (٢) .

وقد ورد في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبي موسى الأشعري: (لقد أوتيت مزامارا من مزامير آل داود) (٣) وذلك لأن أبا موسى رضى الله عنه كان حسن الصوت ، وكذلك كان داود عليه السلام ، فإن كان الزبور هو هذه المزامير فلا شك أنه قد تلقى مالقيه غيره من التحريف والتبديل ، كما هوشان اليهود ، وإن لم يكن هو هي ، فهو إذا من الكتب السماوية المفقودة .

٤ = الإنجيل

وأما الإنجيل فهو الكتاب الذي أنزله الله على المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، ويصفه القرآن بأن فيه الهدى والنور ، وأنه مصدق لما بين يديه .

قال تعالى : (وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وءاتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدق لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) (٣)

وهذا هو الإنجيل الذي يجب الإيمان به ، ولكن النصارى أضعوا ذلك الإنجيل كما أضع اليهود التوراة ، وجاءوا من عندهم بأنجيل أخرى وأضافوا إليها رسائل نسبوها إلى الأنبياء ، وسموا المجموع منها العهد الجديد ، ثم ضموا ذلك إلى العهد القديم الذي سبق ذكره عند الكلام على التوراة وأسماوا المجموع منها الكتاب المقدس ، ثم زعموا -كذبا وزورا- أن ذلك كلام الله ، وجعلوه مصدر ديانتهم التي نسبوها إلى المسيح عليه السلام ، وهو منها براء، ولقد اعترف النصارى أنفسهم بأن هذه الكتب لم تسجل في عهد المسيح عليه السلام ، بل بعده بقرن ونصف على الأقل ، وأنها لم تسجل في زمن واحد بل في أزمان مختلفة وعلى أيدي كتبة مجهولين في الغالب ،

-
- (١) الآية (١٦٣) من سورة النساء و(٥٥) من سورة الإسراء.
 - (٢) هو موجود في العهد القديم ص(٨٣٥) إلى(٩٣٧) الترجمة العربية
 - (٣) أخرجه البخارى في الصحيح كتاب فضائل القرآن ، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن ٩٢/٩ ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها: ٥٤٦/١ ح(٢٣٥) و(٢٣٦)
 - (٤) سورة المائدة الآيتان (٤٦- ٤٧)

فالأناجيل الأربعة على سبيل المثال منسوبة إلى أربعة أشخاص مختلفين، وهم متى ، ورفص ، ولوقا ، ويوحنا ، ومع وجود أسماء مطابقة لهذه الأسماء في التاريخ النصرانى إلا أن الشك موجود هل هؤلاء حقاً هم كتبه هذه الأناجيل ؟ أم ناس مجهولون نسبوا إلى هؤلاء ؟

وقد اختلف علماء النصرانية حول الجواب عن هذا الشك ، فبينما أكد البعض أن الأناجيل من كتابة هؤلاء المذكورين ، أكد البعض الآخر أن الكتابة أشخاص آخرون مجهولون ، نسبوا إلى هؤلاء ، لكى تكتسب القدسية ، أما الرسائل الأخرى فأمرها هين ، لأنها ليست منسوبة إلى عيسى عليه السلام ، ولا هى مسماة بأنجيل ، وإن كانوا قد ادعوا أنها جميعاً كلام الله ، وأن كُتِّبها قد كتبوها بإلهام من اللد تعالى. (١)

٥ = القرآن الكريم

وأما القرآن الكريم فهو الكتاب السماوى الوحيد الذى حفظ من الضياع ، ومن التحريف والتبديل ، لأن الله هو الذى تولى حفظه حيث يقول سبحانه : (إننا نزلنا الذكر وإنزاله لحفظون) (٢) ويقول : (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرءانه فإذا قرأته فاتبع قرءانه ثم إن علينا بيانه) (٣)

وقد نسخ الله تعالى بنزوله جميع الشرائع الميقدمة فى الكتب السماوية السابقة عليه ، فأصبح الإيمان بتلك الكتب مقتضراً على الإيمان بأنها من عند الله ، وبأن أخبارها صادقة ، ولكن لا يجوز العمل بما فيها من تشريع حتى يكون موافقاً لما فى القرآن ،

قال تعالى: (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيماً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جآك من الحق لكل جعلنا

(١) انظر ماكتبه موريس بوكاي عن الأنبا جيل الأربعة (مصادرها وتاريخها) فى كتابه : القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم من ص (٧٥) إلى (١٠٢) وكتاب محاضرات فى النصرانية لمحمد أبى زهرة ص (٤٢ - ٥٤) وكتاب : الإنجيل دراسة وتحليل للدكتور محمد شمس ص (٤٦ - ٧٥) وكتاب الأسفار المقدسة قبيل الإسلام من (٢٥٢) - إلى (٢٧٥) فقد أورد هؤلاء الكتاب من الشواهد والبراهين ما يفيد الباحث فى هذا الباب .

(٢) سورة الحجر الآية (٩)

(٣) سورة القيامة الآيات (١٦ - ١٧ - ١٨ - ١٩)

منكم شرعة ومنهاجا^(١).

فقوله تعالى في الآية (ومهيمننا عليه) أى أن القرآن أمينٌ وشاهدٌ وحاكم على كل كتاب قبله وهو آخرها وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها حيث جمع الله فيه محاسن ما قبله ، وزاده من الكمالات ما ليس فى غيره فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها ، وتكفل بحفظها^(٢)

وخلامة القول أن الإيمان بالكتب ركن من أركان الإيمان وهو ينتظم الإيمان بأنها من عند الله وأنها كلها حق وصدق وعدل، وكل واحد منها مصدق لما قبله من الكتب ومتفق معه فى الأصول والكلية ،

ويزيد الإيمان بالقرآن بأنه ناسخ لما سبقه من كتاب، ويجب العمل به دون غيره ، ويتعبد بتلاوته بخلافه غيره ، وهو المعجزة العظمى للرسالة الخاتمة. ^(٣)

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٦٨/٢
(٣) انظر : المنهاج فى شعب الإيمان للطيمى ٣١٢/١ - ٣٢١
(١) سورة المائدة الآية (٤٨)

الباب الثالث

مباحث الإيمان باليوم الآخر

وتحتة ثلاثة فصول :

الفصل الأول: أدلة قيام الساعة والبعث بعد الموت

الفصل الثاني: ميعاد قيام الساعة وأشراتها

الفصل الثالث: وقائع يوم القيامة وأهوالها

الفصل الأول

أدلة قيام الساعة والبعث بعد الموت
وتحت مبحثان

المبحث الأول: أدلة إظهار البعث من السورة
المبحث الثاني: أدلة وجوب قيام يوم الجزاء

الفصل الأول

أدلة قيام الساعة والبعث بعد الموت

الإيمان بالبعث بعد الموت هو أساس الإيمان باليوم الآخر في العقيدة الإسلامية وهو الفارق بين المؤمن والكافر، حيث دأب الكفار على إنكار البعث، وعده من الأساطير والعجائب واتهام مثبتيه بالجنون.

قال تعالى عن كفار مكة: (بل قالوا مثلاً قال الأولون وقالوا أءدامتنا وكنا تراباً وعظماً أءنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وءابائنا هذا من قبل إن هذا إلا أسطير الأولين)(١).

وقال تعالى: (وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد أفترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلل البعيد)(٢).

وقال تعالى: (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجب أءنا ذامتنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد)(٣).

ولما كان هذا الإنكار من الكفار ليس ^{مبتدئاً} على شيء إلا مجرد الاستبعاد رد الله عليهم مخبراً أن قولهم هذا هو المثير للعجب وليس البعث، لأنه قول بلا دليل وقياس لقدرة الله عز وجل على قدرة المخلوق.

قال تعالى: (وإن تعجب فعجب قولهم أءنا كنا تراباً أءنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغفل في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)(٤).

وقد أكثر الله سبحانه وتعالى من ذكر الأدلة الحسية والعقلية على إمكانية البعث، بل وعلى وجوبه ليلقى كل امرئ جزاء عمله، وقد وردت بعض تلك الأدلة في سورة الأنبياء مما استدعى عقد هذا الفصل لبيان ذلك من خلال مبشرين، الأول: أدلة إمكانية البعث من السورة. الثاني: أدلة وجوب قيام يوم الجزاء.

(١) سورة المؤمنون الآيات (٨١، ٨٢، ٨٣)

(٢) سورة سبأ الآيات (٧، ٨)

(٣) سورة ق الآيات (٢، ٣)

(٤) سورة الرعد الآية (٥).

المبحث الأول

أدلة إمكانية البعث من السورة

قال تعالى : (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) الآية (٣٠).

وقال تعالى : (يوم نطوى السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فعلين) الآية (١٠٤).

في هاتين الآيتين دليلان على إمكانية البعث بعد الموت

الأول : إنزال المطر وإحياء الأرض به بعد موتها .

الثاني : قدرة الله عز وجل على ما هو أعظم من البعث .

وبيان ذلك كالتالي :

١ - إنزال المطر :

ومأخذ هذا الدليل من الآية الأولى، فقد تقدمت هذه الآية في مبحث سابق حيث ذكرت أن كثيرا من المفسرين رجحوا أن معنى الفتق والرتق هنا أن السماء كانت رتقا أى لا تمطر والأرض كانت لا تنبت ففتق الله السماء بالمطر والأرض بالنبات(١)

وعلى هذا القول فالآية تنبيه للكفار إلى أن ينظروا إلى هذا الأمر لتبين لهم قضية البعث بعد الموت، فالأرض تكون قاطعة لا أثر لحياة عليها، فإذا نزل المكر عليها وارتوت إذا بها تنبت من كل زوج بهيج، وتصبح كأن لم تكن قاطعة مجدبة من قبل، وهكذا البعث بعد الموت، فإن الله سبحانه ينزل على الأرض ماء فتنبت منها أجسام الخلائق(٢) ويعود كل جزء من أجزاء الإنسان إلى مكانه منه فإذا نفخ

في الصور إياهم جميعا قيام ينظرون.

(١) انظر من (٦٧) من هذا البحث.

(٢) ورد هذا في حديث صحيح سيأتى نمه في الصفحة (٢٩٠) من هذا البحث.

وقد أكثر الله سبحانه من الاستدلال على البعث بهذا، وذلك لأنه واضح جلي ومتكرر يراه الناس دائماً، فالأولى بالكفار أن يأخذوا العبرة منه فيعلموا أن الذي يعيد الحياة إلى الأرض بعد موتها قادر على إعادتها إلى الناس أيضاً بعد موتهم.

قال تعالى: (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور) (١)
وقال تعالى: (ومن آياته أنك ترى الأرض خضرة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير) (٢).

٢ - قدرة الله عز وجل على ما هو أعظم مما لبعث

وماخذ هذا الدليل من الآيتين كلتيهما.

أما الآية الأولى فمأخذها منها بناء على القول بأن معناها أن السموات والأرض كانتا ملتصقتين ففصل الله تعالى بينهما وجعل كلا منهما سبعا، وهذا التفسير وجه قوى في الآية (٣).

فعلى هذا القول ففي الآية تنبيه للكفار المنكرين للبعث إلى أن ينظروا في ملكوت السموات والأرض ويتأملوا خلقهما لتتبين لهم القدرة الإلهية التي لا يعجزها شيء فقد خلق الله السموات والأرض ورتقهما ثم فتقهما بعد ذلك، ثم أودع في كل منهما مخلوقات أعظم من الإنسان، فزين السماء بالكواكب والنجوم وخلق فيها الملائكة، وخلق في الأرض الجبال والبحار والأنهار فالقادر على ذلك كله لا يعجزه شيء بل هو على كل شيء قدير.

وقد ورد الاحتجاج على منكري البعث بخلق السموات والأرض وكذا ببعض مراحل خلقهما في آيات كثيرة غير هذه الآية، ومن ذلك:-

١ - قوله تعالى: (أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعس بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شيء قدير) (٤).

٢ - وقوله تعالى: (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رؤسنا وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مبركا فأنبتنا به حنّ وحب

(١) سورة الحج الآيات (٥، ٦، ٧).
(٢) سورة فصلت الآية ٢٩.
(٣) انظر ص (٢٦) من هذا البحث.
(٤) سورة الأحقاف الآية (٢٣).

الحميد والنخل باسقت لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا بلدة ميتا كذلك الخروج(١).

وفي هذه الآيات الأخيرة توجيه لمنكري البعث الذين تعجبوا منه إلى أن ينظروا في السموات والأرض، ويتدبروا فيها ليجدوا أدلة البعث مبثوثة في ثنايا هذا الكون العظيم، ففي بناء السماء وتزيينها بالكواكب وإحكام بنائها، وفي خلق الأرض ومدّها وإلقاء الجبال الراسيات عليها وإنبات النباتات المختلفة فيها، وفي إنزال المطر من السماء وإحياء الأرض بها، دليل واضح على قدرة الله على البعث، إذ ليس بعث الناس بعد موتهم بأصعب من هذا كله، بل هذه أكبر كما قال تعالى: (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (٢).

قال ابن كثير رحمه الله - في تفسير هذه الآية: (يقول تعالى منيها على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة وأن ذلك سهل عليه يسير لديه بأنه خلق السموات والأرض، وخلقهما أكبر من خلق الناس بدأة وإعادة فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأخرى) (٣).

فالحاصل أن هذا الوجه وإن كان مرجوحا في تفسير الآية فإن هناك آيات أخرى في هذا المعنى تؤيده، وإذا كان الأمر كذلك، فيصح تفسير الآية به أيضا وبخاصة أن كثيرا من المفسرين من الصحابة فمن بعدهم فسروها به كما مر في مبحث سابق (٤).

-
- (١) سورة ق الآيات من ٦ إلى ١١ .
 - (٢) سورة غافر الآية (٥٧).
 - (٣) تفسير ابن كثير ٩١/٤ .
 - (٤) انظر ص (٦٧٤) من هذا البحث.

أما دلالة الآية الثانية على قدرة الله على ما هو أعظم من البعث، والاستدلال بذلك على قدرته على البعث بطريق الأخرى، فمن قوله تعالى: (كما بدأنا أول خلق نعيده) ففيه تشبيه للمعاد بالمبدأ، حيث أوضح سبحانه أنه يعيد الخلق كما بدأهم، وقد اختلفت عبارات المفسرين حول تحرير وجه الشبه هنا، فمنهم من جعله من حيث السهولة واليسر وعدم التعذر، ومنهم من جعله في الهيئة التي يعادون عليها، ومعنى الآية على هذا أن الناس كما أتوا الدنيا حفاة عراة غرلاً (١) كذلك يبعثهم الله تعالى يوم القيامة (٢).

وهذان القولان من أقوى ما قيل في تفسير الآية.

ويقوى القول الثاني ما أثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يحشر الناس حفاة عراة غرلاً، فأول من يكسى إبراهيم ثم قرأ: (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين) الآية (٣)).

وقد رجحه غير واحد من العلماء لهذا الحديث، ولا يخفى أن هذا الحديث ليس نما في تفسير الآية، بل هو استدلال به على هذه القضية، وغاية ما فيه أنه دليل لها، ولا يعنى ذلك أن لا يفهم منها معنى آخر إذا لم يكن ذلك المعنى مضاداً لهذا المعنى، ومن هنا فسر بعض العلماء الآية بالمعنى الأول.

ومما يقوى المعنى الأول قوله تعالى: (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) (٤).

- (١) جمع أغرل وهو الأقلف الذى لم يختن انظر الصحاح مادتى (غرل) و(قلف) ١٧٨٠/٥ والنهية فى غريب الحديث ٣٦٢/٣ ، ١٤١٨/٤ .
- (٢) انظر تفسير الطبرى ٧٩/١٧ وابن الجوزى ٢٩٧/٥ والقرطبي ٢٤٨/١١ وابن كثير ٢١٠/٣ والألوسى ١٠١/١٧ .
- (٣) أخرجه البخارى فى عدة مواضع من صحيحه عن ابن عباس فى كتاب الأنبياء مرتين الباب الثامن ٢٨٦/٦ وباب قوله تعالى (وأذكر فى الكتاب مريم) ٤٧٨/٦ وفى التفسير سورة المائدة ٢٨٦/٨ وسورة الأنبياء ٤٣٧/٨ - ٤٣٨ . والرقاق باب الحشر ٢٧٧/١١ ومسلم فهكتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢١٩٤/٤ ح ٥٨ .
- (٤) سورة الروم الآية (٢٧) .

ففي هذه الآية وأمثالها ربط بين بدء الخلق وإعادته وتنبيهه إلى أن الإعادة في العادة -أمون من البدء ، فالقادر على البدء قادر على الإعادة بطريق الأخرى ، فالله جلت قدرته الذي بدأ الخلق على غير مثال سابق ، لا يعجزه أن يعيدهم كما بدأهم ، ولهذا لما أنكر الكفار أن يبعضوا بعد أن أصبحوا عظاما ورفاتا فلما منهم أن الاستحالة إلى الرفات والعظام وتفتت العظام يكون عائقا وحائلا دون إعادتهم رد الله سبحانه وتعالى عنهم بأن نبههم إلى أن الذي فطرهم أول مرة لا يعجزه أن يعيدهم ،

قال تعالى : (وقالوا أءذا كنا عظاما ورفاتا أءنا لمبعوثون خلقا جديدا قل كونوا حجارة أو حديدًا أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسيفضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا) (١)

ففي هذه الآية أقوى الرد على هؤلاء المنكرين للمعاد ، فإن الذي فطرهم أول مرة خلقهم من تراب لم يسبق أن شم رائحة الحياة قبل ، فكيف يستبعدون أن يعيدهم من عظام ورفات سبقت لها الحياة ، أليس القادر على الأول بقادر على الثاني بطريق الأولى ، (٢) بل هو على كل شيء قدير ، فلوتحولوا ليس إلى العظام والرفات فقط لأن فيها رائحة البشرية وذكرى الحياة ، بل إلى حجارة أو حديد أو أى شيء آخر أو غل في البعد عن الحياة من الحجارة والحديد ، فإن الله قادر على إحيائهم لأن القدرة الإلهية لا يقف أمامها شيء ، والنشأة الآخرة ليست بحال من الأحوال بأعسر من الأولى، بل هما سواء ، وأمر الله إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . (٣)

(١) سورة الإسراء الآيتان (٤٩ - ٥٠) (٢) انظر: تفهيم السور ١٣/٢٢٣ (٣) انظر: في ظلال القرآن ١٥/٢٢٣٣ المجلد الرابع

المبحث الثاني

أدلة وجوب قيام يوم الجزاء

قال تعالى: (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لبعين) (١٦)

قال تعالى: (كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون)
الآية (٣٥)

تشير هاتان الآيتان الكريمتان إلى اقتضاء حكمة الله تعالى وعدله قيام يوم
الجزاء .

ففي الآية الأولى يخبر تعالى أنه ما خلق السماء والأرض وما بينهما عبثاً ولعباً
بدون حكمة وراء خلقها وإيجادها ،

فهذه السماء بعلوها وسمكها وما فيها من حياة وأحياء ، وما يزينها من النجوم
والكواكب المنتشرة في أرجائها ، والشمس والقمر وما ينتج عن تعاقبهما من
ليل ونهار وحروب برد ، وما هيئه الله تعالى في السماء من أسباب لنزول المطر ،
وما يعقب نزول المطر من رى الأرض والإنبات فيها من كل زوج بهيج ،

وهذه الأرض بجبالها ومضابها وسهولها ووديانها وأنهارها وبحارها وما عليها
من حيوانات ونباتات ، وما بينها وبين السماء من مخلوقات ، ثم تسخير جميع ذلك
لبنى آدم ، وملاءمتها لحياتهم بهذا الشكل الدقيق ، لوتأمل العاقل في ذلك كله
علم أن هناك غاية عظمى وحكمة بالغة في ذلك فلم يكن الله تعالى ليخلق كل ذلك
عبثاً ولعباً

ثم إذا كان الله سبحانه قد أكرم الناس بتسخير ما في السماء والأرض لهم ،
ثم وجد من الناس من جحدتلك النعم ونسبها إلى غير المنعم بها وتمصرف فيها
كما لو كان من خلقه هو وليس من خلق الله ، بل وجد من البشر من نفى خلق الله
سبحانه لهذه الموجودات . ووجد من الناس من شكر الله تعالى على تلك النعم ،
وتمصرف فيها كما أمره الله تعالى به على لسان أنبيائه ورسله عليهم السلام ،
فلو تساوى هذا وذاك لكان نصب دلائل القدرة والحكمة في خلق هذه المخلوقات
عبثاً لاطائل تحته ، والله تعالى قد نزه نفسه عن ذلك في هذه الآية فقال:
(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لبعين) .

وقد جاءت الآية تعقيباً على إهلاك الظالمين المكذبين ، فكأن الإشارة فيها إذاً إلى أنه سبحانه لم يخلق السماء والأرض ليفعل من شاء^{ما يشاء} ثم لا يؤاخذ عليه ،

قال القرطبي في تفسير الآية : (أى ما خلقنا السماء والأرض ليظلم بعض الناس بعضاً ، ويكفر بعضهم ، ويخالف بعضهم ما أمر به ، ثم يموتوا ولا يجازوا ولا يؤمروا في الدنيا بحسن ، ولا ينهوا عن قبيح ، وهذا اللعب المنفى عن الحكيم ضده الحكمة) (١)
فلاية إذ اتدل على اقتضاء العدل لقيام يوم الجزاء والمحاسبة ،

ومثل هذه الآية في الدلالة على أن الحكمة والعدل تقتضيان وجود يوم الجزاء قوله تعالى : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما بطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) (٢)
قال ابن كثير في تفسير هذه الآية الأخيرة : (ثم بين تعالى أنه عز وجل من عدله وحكمته لا يساوى بين المؤمنين والكافرين فقال تعالى : (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار)

أى لانفعل ذلك ، ولا يستوون عند الله ، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع ويُعاقب فيها هذا الفاجر ، وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء ، فإنا نرى الظالم الباغى يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك ، ونرى المطيع المظلوم يموت يكمد لآفلايد في حكمة الحكيم العليم العادل والذي لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا أو هذا ، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة) (٣)

وأما الآية الثانية فقد تقدم تفسيرها ، والشاهد فيها هنا قوله تعالى : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) الخ الآية ففيه إشارة إلى اقتضاء العدل لقيام يوم الجزاء وبيان ذلك أن الله سبحانه قد ربط في الآية بين الابتلاء والرجوع إليه سبحانه وتعالى والمقصود بالرجوع إليه القيام بين يديه يوم القيامة فينبىء كل نفس بما عملت ثم يجزيها عليه .

(١) تفسير القرطبي ٢٧٦/١١
(٢) سورة (ص) الآيتان (٢٧ ٢٨)

(٣) تفسير ابن كثير ٣١/٤

ومعنى الربط هنا ترتيب الرجوع على الابتلاء فكأنه سبحانه يقول لعباده: ما يصيبكم في الدنيا من الخير والشر إنما هو للاختبار والامتحان، لينظر ما هو موقفكم من أمره سبحانه ، هل تطيعونه فتعملون بما يرضى ربكم وتشكرونه على نعمه وتصيرون على بلائه وتعلمون أن ما عند الله خير وأبقى ، وأنه إن فاتكم ما تأملون في الدنيا فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ،

أم تعلمونه فتخالفون ربكم وتكفرون بنعمه وتجزعون عند البلاء وتقنطون من رحمته ولا يهتمكم إلا ما تنالون في هذا الدنيا ، فإذا رجعتم إلى فسأحكم بينكم على ضوء مواقفكم .

ومن المعلوم أن العدل يقتضى عدم المساواة بين أصحاب هذين الموقفين ، كما يقتضى عدم المساواة بين من قضى حياته في الدنيا في الثعم والترف وبين من قضاهما في الضيق والشدة ، قال تعالى: (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون) (١)

والاستفهام في الآية للإنكار على من حسب أن الله سبحانه يساوى بين المؤمنين والكفار ، والتعقيب بالآية الثانية للدلالة على أنه سبحانه وتعالى لوساوى بين المؤمن والكافر لكان إيجاده لهذه المخلوقات العظام السموات والأرض ونصبه دلائل قدرته وحكمته فيهما باطلاعاريا عن الحكمة، ولمكان ذلك ظلما للمحسنين .

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: (وخلق الله السموات والأرض بالحق) للعدل والحق، لالما حسب هؤلاء الجاهلون بالله من أنه يجعل من اجترح السيئات فعماه وخالف أمره كالذين آمنوا وعملوا الصالحات في المحيا والممات ، إذ كان ذلك من فعل غير أهل العدل والإنصاف، يقول جل ثناؤه: فلم يخلق الله السموات والأرض للظلم والجور ، ولكننا خلقناهما للحق والعدل ، ومن الحق أن نخالف بين حكم المسء والمحسن في العاجل والآجل ، وقوله: (ولتجزى كل نفس بما كسبت) يقول تعالى ذكره: وليثبت الله كل عامل بما عمل من عمل خلق السموات والأرض ، المحسن بالإحسان ، والمسء بما هو أهله ، لالنبض المحسن ثواب إحسانه ونحمل عليه جرم غيره فتعاقبه ، أو نجعل للمسء ثواب إحسان غيره فيكرمه ولكن لنجزى كلا بما

كسبت يده ، وهو لا يظلمون جزاء أعمالهم) (٢)

(١) سورة الجاثية الآيتان (١٢ - ٢٢)

(٢) تفسير الطبرى ٩٠/٢٥ - ٩١

فلا ابتلاء إذا في الدنيا مادة لتمييز المؤمن الصادق في إيمانه من غيره ،
ولتمييز المؤمن من الكافر ،

وتفيد الآية أنه ليس خاما بالشر بل قد يكون بالخير ، كما أنه ليس خاما
بفئة معينة ، بل إن الله سبحانه أضر أنه يبتلى الجميع ، كما قال تعالى : (الم
أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من
قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكذابين) (١)

وقال : (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور) (٢)
ومن هنا نرى أن تمتع الإنسان بالصحة والعافية ليس دليلا على محبة الله تعالى
له ، كما أن شدة البلاء ليس دليلا على عداوة الله لعبده ، بل إن كلامنا أحياء
الله وأعدائه يصيبه الخير والشر ، فما يصيب المؤمن من الخير قد يكون من
تسجيل بعض الأجر له ، كما قد يكون اختبارا له ليظهر موقفه ، لأن من الناس من
يستقيم إذا كان مبتلى بالشدة ، فإذا استغنى بغى وطغى ، وقد يكون من باب
البشرى والتطمين ، وما يصيبه من الشر قد يكون من تسجيل العقوبة له حتى ينقى
من آثامه وخطياه ، وقد يكون من باب الاختبار ليظهر صدقه من كذبه .
وأما الكافر فما ~~يصيبه من~~ ^{يصيبه من} الخير فديكون استدرجا ، حتى إذا تمادى في غيه
أخذته الله أخذ عزيز مقتدر ، وقد يكون تسجيلا للمثوبة له عن بعض ما يفعله من
أعمال البر كصلة الرحم والعطف على الفقراء ونحوهما ،

وما يصيبه من الشر قد يكون عقابا له لزيادة جرمه وكفره أو لاعتدائه على الخلق ،
أو لتكذيبه للرسول وإيذائه لهم ، وذلك لكي يتذكر ويقنع عن ذلك .

وفي كل هذه الأحوال تظهر النتيجة يوم القيامة ، فلولم يكن ثم قيامه لم يكن
للابتلاءات هذه معنى أو فائدة ، بل لكان الكافر مساويا للمؤمن ، وربما كان أفضل
منه ، لأنه قد يتمتع بدينه أكثر منه .

وخلاصة القول أن الدنيا دار ابتلاء واختبار ، ونتيجة هذا الاختبار لا يظهر
إلا يوم القيامة ، حيث يلقي كل جزاء ما عمل من خير أو شر ، فلا بد إذا من قيام
ذلك اليوم ، حتى يكون للا ابتلاء والاختبار معنى .

(١) سورة العنكبوت الآيات (١-٣-٢)
(٢) سورة الملك الآية (٢)

الفصل الثاني

ميعاد قيام الساعة وأشراتها
وَحَمَّ مَبْعُوثَاتِ

المبحث الأول : ميعاد قيام الساعة
المبحث الثاني : أشراتها

المبحث الأول

ميعاد قيام الساعة

١ = قال تعالى: (اقتربتم للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون) الآية (١)

٢ = وقال تعالى: (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صدقين لويلعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النارولا عن ظهورهم ولاهم ينصرون بل تأتيهم بغتة فتبهم فلا يستطيعون ردها ولاهم ينظرون) (الآيات < ٣٨ - ٣٩ - ٤٠ >

٣ = وقال تعالى: (فإن تولوا فقل ءاذنتكم على سواء وإن أدري أقريب أم بعيد ماتوعدون إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون وإن أدري لعله فتنة لكم ومتع إلى حين) (الآيات < ١٠٩ - ١١٠ - ١١١ >

عاجت هذه الآيات قضيتين مما يتعلق بميعاد قيام الساعة وهما :

الأولى : قرب قيام الساعة .

والثانية : خفاء هذا الميعاد عن الخلق ؛

فالآية الأولى: << تنبيه من الله عزوجل على اقتراب الساعة ودنوها وأن الناس فى غفلة عنها أى لا يعملون لها ولا يستعدون من أجلها >> (١)

فقوله تعالى: (اقترب للناس حسابهم) أى اقترب حساب الناس على أعمالهم وهو كناية عن قرب قيام الساعة لأنها وقت الحساب ، والإخبار عن قربها إمالانهاآت وكل آت قريب ، أولان ماضى من عمر الدنيا أكثر مما بقى (٢)

ويؤكد هذا المعنى الثانى قوله صلى الله عليه وسلم : (بعثت أنا والساعة كهذه من هذه أوكهاتين) (وقرن بين السبابة والوسطى (٣).

وفائدة الإخبار بهذا أن يتنبه الناس فيعملوا قبل فوات الأوان .

(فمن علم اقتراب الساعة قصر أمه ، وطابت نفسه بالتوبة ، ولم يركن إلى الدنيا فكأن ما كان لم يكن إذا ذهب ، وكل آت قريب ، والموت لامحالة آت ، وموت

كل إنسان قيام ساعة) (٤)

(١) تفسير ابن كثير ١٨١/٣

(٢) انظر زاد المسير ٢٢٩/٥ وتفسير القرطبي ٢٦٧/١١

(٣) أخرجه البخارى عن سهل بن سعد فى كتاب التفسير باب سورة والنازعات ٦٩١/٨ وكتاب الطلاق باب اللعان ٤٣٩/٩ وكتاب الرقاق/ باب قول النبى صلى الله عليه وسلم (بعثت أنا والساعة كهاتين) ٢٤٧/١١ وعن أبى هريرة وأنس بالفاظ متقاربة

وأخرجه مسلم عن جابر فى كتاب الجمعة ٥٩٢/٢ ح <٤٣> وعن سهل وأنس فى كتاب الفتنة ٢٢٦٨/٤ - ٢٢٨٩ - ح <١٣٢ - ١٣٣ - ١٣٤ - ١٣٥ > تفسير القرطبي ٢٦٧/١١

(٤) تفسير القرطبي ٢٦٧/١١

فلا ينبغي لعاقل أن يغتر بالدنيا وأن يشغل نفسه بطول الأمل، ولكن أكثر الناس لا يعقلون، ولذا فهم في غفلة معرضون، غفلوا في الدنيا لا عما الله فاعل بهم يوم القيامة، وعن دنو محاسنهم إياهم منهم واقترابه لهم، وأعرضوا عن ذلك، فتركوا الفكر فيه والاستعداد له والتأهب، جهلا منهم بما هم لاقوه عند ذلك من عظيم البلاء وشديد الأهوال" (١).

وأما الآيات الثلاث بعدما ففيها إخبار عن استبعاد الكفار لقيام الساعة، وبيان أنها لاتأتى إلا بغته.

فقوله: (ويقولون متى هذا الوعد...) أي أن الكفار يسألون وقصدهم الاستبعاد والإنكار فيقولون متى يأتي هذا الذي تعدنا به (٢) أي متى تقوم الساعة حتى نبعث ونساق إلى النار كما تقولون، فلو كنتم صادقين فإن الساعة آتية فأخبرونا متى هي؟ فرد الله سبحانه عليهم بقوله: (لو يعلم الذين كفروا...) الآية أي لو يعلمون ما سيلقون يومه من العذاب المحيط بهم لما سارعوا إلى الإنكار والتكذيب بل سارعوا إلى العمل بما ينجيهم من العذاب يومئذ.

ثم أخبر تعالى أنها لاتأتى إلا بغتة فقال: (بل تأتيهم بغتة فتبهتهم) أي بل تأتيهم الساعة فجأة دون أن يكون لهم علم فتحيرهم، أو تأتيهم النار (٣) فجأة فيبهتون، ولا يستطيعون ردما ولا ينظرون.

والآيات الأخيرة فيها أمر للنبي صلى الله عليه وسلم أن يقول: إنه لا يدري متى الساعة، أي أقرينة هي أم بعيدة؟ فإن علمها عند الله سبحانه، ولم يطلع عليه أحدا من خلقه، والنبي صلى الله عليه وسلم وإن كان أكرم الخلق على الله عز وجل فإنه لا يعلم متى الساعة، ولهذا أمره الله ببرد علمه إليه كما قال تعالى

(١) تفسير الطبري ٢/١٧ باختصار يسير.

(٢) اختلفت عبارات المفسرين في معنى الوعد هنا، وكل أقوالهم تنصب في المعنى

الذي ذكرت، لأن منهم من صرح بأن المراد به القيامة، ومنهم من ذكر أن

المراد ما وعدوا به من العذاب، والمراد بذلك عذاب الآخرة، فالاستعجال للعذاب

استعمال ليومه، انظر تفسير الطبري ٢١/١٧ وابن الجوزي وقد صرح بأن المراد

القيامة ٣٥٢/٥ والقرطبي ٢٨٩/١١.

(٣) انظر المصادر السابقة، ومعالم التنزيل ٢٤٥/٣.

في آية أخرى : (يسئلونك عن الساعة أيان مرسها قل إنما علمها عند ربي لايجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لاتأتاكم إلا بغتة يسئلونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لايعلمون)(١).

ولما سأل جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة قال : (ما المسؤل عنها بأعلم من السائل)(٢).

ونخلص من هذا إلى أن قيام الساعة مما استأثر الله تعالى بعلمه، فلم يطلع عليه أحدا من خلقه، لكنه أخبر بدنوها ووضع بعض العلامات على ذلك كخروج يأجوج ومأجوج، ليتأهب الناس ويعملوا لما فيه الخير لهم يوم يقومون لربهم، ولكن أكثر الناس غافلون عن ذلك، ولاينتبهون إلا حين تأتيهم بغتة فلا يجدون حينئذ ما يقولونه أو يفعلونه لرد العذاب عنهم.

(١) سورة الأعراف الآية (١٨٧)

(٢) هذا جزء من حديث جبريل المشهور وقد سبق تخريجه في ص(١٥٩) من هذا البحث.

المبحث الثاني

أشراط الساعة

أشراط الساعة هي الأمور التي تسبق قيام الساعة وتدل على قرب انتهاء الدنيا، ولأن قيام الساعة مما استأثر الله بعلمه ولا سبيل لأحد إلى معرفته، فقد وضع الله تلك العلامات رحمة بالعباد، وتنبيهها لهم من رقدتهم وحشا لهم على الاحتياط لأنفسهم بالتوبة والإنابة، كي لا يباغتوا بالحول بينهم وبين تدارك العوارض منهم، فينبغي للناس أن يكونوا بعد ظهور أشراط الساعة قد نظروا لأنفسهم، وانقطعوا عن الدنيا واستعدوا للساعة الموعود بها (١).

وأشراط الساعة كثيرة، منها ما ظهر وانقضى، كبعثة النبي صلى الله عليه وسلم فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (بعثت أنا والساعة كهاتين) ويشير بأصبعيه فيمدها (٢) ومنها ما ظهر ولم ينقض، بل يتزايد ويكثر ككثرة المال واستفاضة، وهاتان من العلامات المغرى.

وهناك العلامات الكبرى، وهي التي تعقبها الساعة وتكون غير معتادة الوقوع (٣).

وهذه العلامات هي المقصودة بالمبحث، وهي التي توذن بانتهاء الدنيا، وقد ورد من تلك العلامات في سورة الأنبياء خروج يأجوج ومأجوج، مما استدعى عقد هذا البحث وسوف أقفل القول حول خروج يأجوج ومأجوج، ثم أجمل الحديث حول العلامات الأخرى.

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ٧٠٩/٢ بتمرف.

(٢) سبق تخريج هذا الحديث في ص (٧٤) من البحث.

(٣) انظر التذكرة ٧٠٩/٢ - ٧١٠ وفتح الباري ٤٨٥/١٣ ولوامع الأنوار البهية ٦٦/٢ وأشراط الساعة ليوسف الوابل ص/٧٧ - ٧٨.

أولاً : خروج يأجوج ومأجوج :

قال تعالى : (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق فإذا هي شاختمة أبصر الذين كفروا يويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين) الآيتان (٩٦ - ٩٧).

والكلام على الآيتين يتضمن بيان دلالتهما على كون خروج يأجوج ومأجوج من أشراف الساعة، ومن هم يأجوج ومأجوج؟ ومتى يخرجون؟ وما هي صفة خروجهم؟.

فأما دلالة الآيتين على كون خروجهم من أشراف الساعة فبيانها أن الآيتين فيهما التصريح بأنه إذا فتحت يأجوج ومأجوج فإن ذلك دليل على اقتراب الوعد الحق والمراد به يوم القيامة.

فقوله تعالى : (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج..) " حتى " فيه متعلقة بما قبل الآية أي كل قرية أهلكت تبقى في الهلاك حتى قيام الساعة، أو تبقى في عدم الرجعة إلى الدنيا، أو إلى التوبة حتى قيام الساعة، وهذه الأقوال مفرعة على معنى الآية السابقة (١) وهي قوله تعالى : (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون) الآية (٩٥)، وقيل: إن " حتى " متعلقة بقوله : (وتقطعوا أمرهم بينهم..) أي استمر الخلاف بين الأمم حتى قيام الساعة (٢)، وقوله : (إذا فتحت يأجوج ومأجوج) المراد إذا فتح الردم عن هاتين القبيلتين العظيمتين وتمكنوا من الخروج، فيخرجون من كل حدب وهو المرتفع من الأرض (٣) يسرعون في المشي إلى الفساد.

وقوله : (واقتراب الوعد الحق) هذا هو جواب إذا في قوله (إذا فتحت) والواو فيه مقحمة فالمعنى إذا فتح الردم عن يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق،

وعلى هذا القول جل المفسرين (٤) فتكون الآية صريحة الدلالة في كون خروجهم من علامات

الساعة ، لأن المراد بالوعد الحق قيام الساعة (٥)

- (١) انظر تفسير أبي السعود ٥٢٥/٣ والألوسي ٩٢/١٧ .
- (٢) انظر البحر لمحيط ٢٣٩/٦ وقد نسب القول به إلى ابن عطية، والألوسي ٩٢/١٧ .
- (٣) انظر تفسير الطبري ٧٢/١٧ - ٧٣ والقُرطبي ٢٤١/١١ وانظر المفردات للراغب ص ١١٠ .
- (٤) انظر تفسير الطبري ٧٣/١٧ وتفسير ابن كثير ٢٠٦/٣ .
- (٥) انظر المصادر السابقة وتفسير ابن كثير ٢٠٦/٣ .

ومناك قول آخر فى تفسير الآية للمفسرين وهو أن الواو عاطفة فيكون جواب <<إذا>> مقدرًا بعده أى إذا فتحت ياجوج وماجوج واقترب الوعد الحق تشخص أثمار الكفار ويقولون ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا (١).

وقوله تعالى: (فإذا هي شاخته أثمار الذين كفروا) أى أنه إذا اقتربت الساعة ودخلت علاماتها الكبرى التى تزيل الشك، وتورث اليقين بوقوعها، تظهر علامات الندم والحسرة على الكفار، وذلك بشخوص أثمارهم، وهوبروزها حتى لا تكاد تطرف، ويظهرون ندمهم بقولهم: (ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين)

قال ابن جرير: " وقوله: (ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا) يقول تعالى ذكره فإذا أثمار الذين كفروا قد شاخت عند مجيء الوعد الحق بأمواله وقيام الساعة بحقائقها وهم يقولون: ياويلنا قد كنا قبل هذا الوقت فى الدنيا فى غفلة من هذا الذى نرى ونعائين، ونزل بنا من عظيم البلاء " (٢).

فخروج ياجوج وماجوج إذا من علامات قرب الساعة، وقد عدّها الرسول صلى الله عليه وسلم من العلامات العشر الكبرى.

فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إنها (٣) لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات) فذكر: الدخان، والدجال، والدابة وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم، وياجوج وماجوج، وثلاثة خسوف خسف بالشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم) (٤).

أما من هم ياجوج وماجوج فهما علمان على قبيلتين عظيمتين من بنى آدم، وقد اختلف اللغويون حول الاسمين، فقليل هما أعجميان وعليه فلا اشتقاق لهما فى اللغة العربية (٥).

(١) انظر زاد المسير ٢٨٩/٥ والقرطبي ٣٤٢/١١ وقد ذكر القولين أما أبو السعود فاقصر على الثانى انظر تفسيره ٥٢٦/٣ وانظر أيضا تفسير الألوسي ٩٢/١٧ .

(٢) تفسيره ٧٣/١٧ - ٧٤

(٣) الضمير راجع إلى الساعة التى كانوا يتذكرون حولها فأخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالحديث.

(٤) أخرجه مسلم فى كتاب الفتن وأشراف الساعة ٤-٥/٤٤٤٦-٤٤٤٧ [٣٩]

(٥) انظر تهذيب اللغة ٢٣٤/١١ - ٢٣٥ مادة (ياجوج) وفتح البارى ١٠٦/١٣ .

وقال آخرون : بل هما عربيان واشتقاقهما , اما من أجيح النار وهو التهايبها أو الأجة : وهي الاختلاط أو شدة الحر ، أو الأج : وهو سرعة العدو ، أو الأجاج وهو الماء الشديد الملوحة (١) .

ويمكن رجوع مأجوج إلى أصل آخر ، وهو اشتقاقه من ماج يموج وأصله موجج على زنة مفعول (٢) ويناسب هذا قوله تعالى : (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) (٣) .

أما كونهما من بنى آدم فيستفاد من الحديث الذي ورد فيه أن الله تعالى يطلب آدم يبعث النار من ذريته وأنه من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعون أي أن الناجي واحد من كل ألف ، ففرع الصحابة وقالوا : وإيتاذلك الواحد ؟

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (أبشروا فإن منكم رجلا ومن يأجوج ومأجوج الف) (٤)

فهذا الحديث يدل على أنهم من ذرية آدم عليه السلام لأنه إنما طوبى يبعث النار من ذريته .

وقد قال بعض العلماء إنهم من آدم لامن حواء ، قال ابن كثير : (وقد قال بعضهم إنهم من آدم لامن حواء وذلك أن آدم احتلم فاختلط منيه بالتراب فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج ، وهذا مما يدل عليه ولم يرد عن من يجب قبول قوله في هذا ، والله أعلم) (٥)

ويرى كثير من العلماء أنهما من ذرية يافث أبنى الترك (٦) فيكونان إذاً من ذرية نوح عليه السلام

وقد كانتا تعيضان في الأرض فسادا ، وعظم ضررهما على جيرانهما فطلبوا من الملك الصالح ذي القرنين أن يبين^{بين} بينهما ردما ، فبناه بالحديد المذاب كما أخبر

الله تعالى بذلك في كتابه الكريم .

(١) انظر الصحاح ٢٩٨/١ مادة (أجج) والمفردات في غريب القرآن ص/١٠ مادة (أج) وفتح الباري ١٠٦/١٢ وقد ذكر الأزهري في التهذيب ٢٢٥/١١ بعض هذه الوجوه وأنه يمكن أن يكون اشتقاقه كذلك لو كانت عربية .

(٢) ذكره ابن حجر في الفتح عن أبي حاتم ١٠٦/١٢ ولم يتضح لي وجهه لأن زنة مفعول من (ماج) موج وأصله موجج .

(٣) سورة الكهف الآية (٩٩) .

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الأنبياء باب قصة يأجوج ٢٨٢/٦

(٥) النهاية في الفتن والملاحم ٢٠١/١

(٦) انظر: التذكرة للقرطبي ٧٨١/٢ و٧٨٤ والنهية لابن كثير ٢٠١/١ وفتح الباري ٢٨٦/٦ و١٠٦/١٢ وفي لوامع الأنوار البهية ١١٥/٢ أن ابن عبد البر نقل الإجماع على أنهم من أولاد يافث بن نوح .

قال تعالى: (ثم أتبع سبحانه إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا قالوا أيذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا قال ما مكنى فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما أتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال أتونى أفرغ عليه قطرا فما استطعوا أن يظهروه وما استطعوا له نقبا قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجعلهم جمعا) (١)

وأما متى يخرجون وصفه خروجهم فيستفاد من الأحاديث أن خروجهم يكون بعد ظهور الدجال وهلاكه على يد عيسى بن مريم عليه السلام بعد نزوله في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه - في قصة خروج الدجال ، بعد ذكر قتل عيسى عليه السلام للدجال: (فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى أنى قد أخرجت عباداً إلى لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادى إلى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، فيمرأواثلهم على بحيرة طرية فيشربون مافيها ويمرأخرهم فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماء) الحديث

وفيه أن المسلمين ومعهم نبي الله عيسى عليه السلام يلقون من الأمور العظام ما يجعل الواحد منهم يفضل رأس الثور على مائة دينار ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله ، فيرسل الله تعالى على يأجوج ومأجوج نوعاً من الديدان في رقابهم فتبيدهم ، ثم يرسل الله تعالى طيراً تطهر الأرض من نتنهم حيث تحملهم وتطرحهم حيث شاء الله . (٢)

(١) سورة الكهف الآيات من (٩٢) إلى (٩٩)
(٢) أخرجه مسلم في الصحيح كتاب الفتن وأشراط الساعة ٢٢٥٣/٤ - ٢٢٥٤ ح [١١٠]

ثانيا: بقية أشراف الساعة

وأما أشراف الساعة الكبرى غير خروج يأجوج ومأجوج فهي ما جاء في الحديث الذي مرفى الدلالة على أن خروجها من أشراف الساعة ،

وقد اختلفت روايات الحديث في ترتيب العلامات، كما وردت أحاديث أخرى في الحديث عنها تختلف في ترتيب الأحداث ، ومن هنا تباينت نظرات العلماء حيال ترتيب العلامات .

وسوف أوجز القول حول تلك العلامات حسب ترتيبها في الحديث المذكور، مع تقديم نزول عيسى على الدابة للمناسبة بينه وبين خروج الدجال .

١ = الدخان:

قال تعالى : (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) (١)

فسر غير واحد من السلف ومنهم حبر الأمة ابن عباس رضى الله عنهما الدخان الوارد في الآية بأن المراد به الدخان التي يحدث آخر الزمان ، وقد رجح ابن كثير رحمه الله- هذا القول حيث قال- بعد أن حكى عن ابن عباس رضى الله عنهما ما يدل عليه- : (وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضى الله عنهما حبر الأمة وترجمان القرآن، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم مع الأحاديث المرفوعة من المحاج والحسان وغيرهما التي أورد وما مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة...) (٢)

وهناك قول آخر في تفسير الآية وهو أن المراد بالدخان المجاعة التي أصابت قريشا حتى أصبحوا كأنهم يرون الدخان من شدة الجوع ، وعلى هذا القول لا يكون في الآية دليل على الدخان الذي هو من أشراف الساعة ، ولكن الأحاديث الصحيحة تصرح بأنه منها ، ومن تلك الأحاديث ما مر في ذكر يأجوج ومأجوج (٣)

وقوله صلى الله عليه وسلم : (بادرُوا بالأعمال ستا: الدجال والدخان

والدابة الأرض وطلوع الشمس من مغربها وأمر العامة وخويصة أحدكم) (٤)

(١) سورة الدخان الآية (١٠)

(٢) تفسير ابن كثير ٤/١٥٠

(٣) انظر: ص (٢٦٦) من هذا البحث

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراف الساعة ٤/٢٢٦٧ ح (١٢٩)

٢ = الدجال :

وفتنته من أكبر الفتن التي تحدث في آخر الزمان، ومع ذلك فلم يرد ذكره صريحاً في القرآن الكريم ، بل ورد ضمناً في بعض الآيات ، كقوله تعالى: (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً) (١)

فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض) (٢)

فهذا الحديث كالتفسير للآية .

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أمر الدجال كما لم يبينه أي نبي آخر ، مع أن جميع الأنبياء قد أُنذروا قومهم فتنة الدجال ، ولعل السبب في ذلك كون أمته صلى الله عليه وسلم آخر الأمم ، وهذا يؤكد أنه خارج فيهم لامحالة .

وقد روى أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (مابعت نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب إلا أنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، مكشوب بين عينه كافر) (٣)

ومما ورد في شأن الدجال عن النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحديث الذي جمع أخبار الدجال والذي رواه النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (غير الدجال أخوفنى عليكم ، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فكل امرئ حجيح نفسه ، والله خليفتى على كل امرئ مسلم ، إنه شاب قطط عينه طافية ، إنى أشبهه بعبد العزى بن قطن ، من أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، إنه خاج في خلعة بين الشام والعراق ، فعائث يمينا وعائث شمالا ، يا عباد الله فأثبتوا) (٤) الحديث

(١) سورة الأنعام الآية (١٥٨)

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ١٢٨/١ ج <٢٤٩>

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الفتنة /باب ذكر الدجال ٩١/١٣ وكتاب التوحيد /باب قول الله تعالى: (ولتصنع على أعينى) ٢٨٩/١٣ وأخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة ٢٢٤٨/٤ ج <١٠١>

(٤) هذا أول حديث طويل ، فيه ذكر الدجال وما بعده من حوادث كنزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج وقيام الساعة على شرار الناس، وقد تقدم تخريجه في الحديث عن يأجوج ومأجوج في الصفحة (٢٧٨) من هذا البحث

٣ = نزول عيسى بن مريم عليه السلام ونزوله عليه السلام يكون بعد خروج الدجال وإفساده فى الأرض ، فينزل عليه السلام فيقتل الدجال ، ويكون إمام المسلمين وحاكمهم ، فيكسر المليب ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويقا تل المسلمون تحت لوائه الكفار ، وبخاصة اليهود والنصارى، أما اليهود فلأنهم أكثر أتباع الدجال ، فيقاتلهم المسلمون حتى يقول الشجرة يامسلم : هذا يهودى ورائى فتعال اقتله ، وأما النصارى فلأنهم حرفوا دين المسيح عليه السلام ، والإشارة إليهم فى الحديث الذى ورد فيه أن عيسى يكسر المليب ويقتل الخنزير ، لأن النصارى عباد المليب وأكألو الخنزير ، ومن أدلة نزول المسيح عليه السلام آخر الزمان من الكتاب :

قوله تعالى: (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيمة يكون عليهم شهيدا) (١)

قال ابن جرير فى تفسير الآية: (اختلف أهل التأويل فى معنى ذلك: فقال بعضهم : معنى ذلك وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به يعنى بعيسى قبل موته يعنى قبل موت عيسى ، يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتضير الملل كلها واحدهم ملة الإسلام الحنيفة ، دين إبراهيم صلى الله عليه وسلم) (٢)

وقد روى هذا القول عن غير واحد من أئمة التفسير وعلى رأسهم ابن عباس ورجحه بعد ذكر الأقوال الأخرى (٣)

ورجحه ابن كثير أيضا فى تفسيره (٤)

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم : (والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فىكم

ابن مريم حكما عدلا فيكسر المليب ويقتل الخنزير ويضع الحرية ...) الحديث (٥)

وكذا ما مر فى قصة قتله للدجال، وقد بلغت الأحاديث التى وردت فيه حد التواتر (٦)

فلا ينبغي الالتفات إلى من أنكر ذلك بدعى أنها أحاديث آحاد وبغيرها من الدعاوى الباطلة .

(١) سورة النساء الآية (١٥٩)

(٢) تفسير الطبرى ١٤/٦

(٣) انظر المصدر نفسه ١٦/٦

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٥٩٠/١

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب أحاديث الأنبياء باب نزول عيسى بن مريم عليه السلام ٤٩٠/٦ - ٤٩١ ومسلم فى كتاب الإيمان ١٢٥/١ ج ٢٤٢ يلفظ (ويضع الجزية) أى لا يقبل من الكفار إلا الإسلام فلا يقبل الجزية لأن شبهة الكتابية قد زالت عن أهل الكتاب بقى بنزوله . انظر شرح التوى ١٩٠/٢ وفتح البارى ٤٩١/٦ - ٤٩٢

بين يدي الفصل

يوم القيامة يوم عظيم، وقد سماه الله كذلك في قوله تعالى عن المطففين (١)
(ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العلمين) (٢).

وعظم ذلك اليوم يتمثل في عظم ما يحصل فيه من الأهوال والوقائع، من النفخ في الصور إلى الوقوف بين يدي الله عز وجل، في حر شمس تكاد تغلى الرؤوس منه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وما يعقب ذلك من مواقف صعبة عند الحساب والميزان، وعبور الصراط، واقتحام العقبة، حتى ينتهي الأمر إما بالفوز ودخول الجنة، أو الخسران ودخول النار والعياذ بالله، وهو يوم فيه من الهول ما يذهل المرضة عن رضيعها، ويجعل ذوت الحمل تضع أحمالها، ويجعل الولدان شيئا.

قال تعالى: (يأيتها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكرى وما هم بسكرى ولكن عذاب الله شديد) (٣).

وقال: (فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا السماء منفطر به كان وعده مفعولا) (٤).

وقد ورد ذكر بعض أهوال يوم القيامة وما يقع فيه من أمور في سورة الأنبياء مما استدعى عقد هذا الفصل، وقد راعيت في ترتيب مباحثه ترتيب وقوعها حسب ما يفهم من بعض نصوص الكتاب والسنة وما استنبطه العلماء منها.

فالنفخ في الصور هو بداية اليوم ثم يعقبه انهيار نظام هذا الكون كما قال تعالى: (فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانثقت السماء فهي يومئذ واهية) (٥).

ثم يعقب ذلك بقية الأهوال من الحساب والوزن، وسيأتى وجه تقديم الحساب على الوزن^(٦) أما دخول الجنة أو النار فهو خاتمة المطاف.

وبعد هذه المقدمة الوجيزة في وجه تقديم بعض الوقائع على بعض أشرع في مباحث الفصل فأقول:-

(١) من التطفيف وهو عدم إتمام الكيل، انظر تفسير الطبري ٥٧/٣٠
(٢) سورة المطففين الآيات: ٤، ٥، ٦ (٣) سورة الحج الآيتان: ١، ٢ .
(٤) سورة المزمل الآيتان ١٧، ١٨ .
(٥) سورة الحاقة الآيات من ١٢ إلى ١٦ (٦) انظر ص (٤٩٦) من هذا البحث.

والإشارة في (يومئذ) ليوم القيامة، فهم آمنون من كل فزع فيه، لأنهم يحاسبون حسابا يسيرا ويؤتون كتاب أعمالهم بأيمانهم وتثقل موازينهم ثم يجوزون المراط بأمان إلى جنان الرحمن (فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون).

قال تعالى: (يُعباد لاخوف عليكم اليوم ولأنتم تحزنون الذين آمنوا بغايتنا وكانوا مسلمين)(١).

ونفخة الصور للبعث هي النفخة الثانية والآخره وهي نفخة الفزع، وأما النفخة الأولى فهي نفخة الصعق، فيصعق عندهما جميع من في السموات والأرض من الأحياء، والمراد بالصعق الموت، فهي إذا خاصة بالأحياء يوم ينفخ، أما الثانية فعامه للجميع، ومن هنا يتضح أن عدد النفخات اثنتان.

ومما يدل على ذلك:-

١ - قوله تعالى: (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون)(٢).

٢ - قوله صلى الله عليه وسلم: (ما بين النفختين أربعون) قالوا للراوى: يا أبا هريرة أربعون سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهرا؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون يوما؟ قال: أبيت، قال: (ثم ينزل الله تبارك وتعالى ماء فينبتون كما ينبت البقل) الحديث(٣)

٣ - قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الدجال بعد ذكره هلاك الدجال على يد المسيح عليه السلام ثم موت جميع المؤمنين حتى لايبقى على الأرض إلا شرار الناس: (ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أمضى ليتاور فع ليتا(٤)، فأول من يسمعه رجل يلوط (٥) حوض إبله فيصعق ويمعق الناس، ثم يرسل الله مطرا كأنه الطل، فينبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) الحديث(٦).

(١) سورة الزخرف الآيتان: ٦٨، ٦٩ . (٢) سورة الزمر الآية: ٦٨ .
(٢) أخرجه البخارى في كتاب التفسير (سورة الزمر) ٥٥١/٨ وسورة النبأ ٦٨٩/٨-٦٩٠ ومسلم في كتاب الفتن ٢٢٧٠/٤ ح [١٤١]. وقوله (أبيت) معناه: أبيت أن أجزم أن المراد أربعون يوما أو سنة أو شهرا، بل الذى أجزم به أنها أربعون مجملة، وقد جاءت مفسرة من رواية غير مسلم عن غير (أربعون سنة) قاله النووى في شرحه على مسلم ٩١١/١٨-٩٢، وقال ابن حجر: أخرج ابن مردويه عن الأعمش (أربعون سنة) وهو شاذ، وروى عن ابن عباس أيضا ولكن من وجه ضعيف فتح البارى باختصار ٥٥٢/٨ وعلى هذا فالتوقف أسلم.
(٤) أمضى: أمال، والليت جانب العيق انظر شرح النووى على مسلم ٧٦/١٨.
(٥) يلوط حوض إبله: أى يطينه ويملحه، انظر المصدر السابق المصحح ذاتها.
(٦) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراف الساعة ٢٢٥٨/٤-٢٢٥٩ ح [١٦].

فالأية والحديثان صريحة بأن النسخة في الصور مرتان(١)، وقد ذهب بعض العلماء إلى أنها ثلاث، وقالوا: إن نسخة الفرع نسخة أخرى غير نسخة المعق والبعث، واستدلوا بآية النهل المتقدمة، وبحديث الصور وهو حديث طويل ورد فيه ذكر الصور وعظّمه، وفيه تموير لبعض مشاهد القيامة وقد ورد فيه أنه صلى الله عليه وسلم قال: (فينفخ فيه ثلاث نفخات، الأولى نسخة الفرع، والثانية نسخة المعق، والثالثة نسخة القيام لرب العالمين)(٢). ولكن الصحيح هو القول الأول، لأن الظاهر أن الفرع في آية النمل هو الفرع الحاصل عند النسخة الثانية لقوله تعالى بعدما: (وكل أتوه دأخرين) وقيل الذي يحدث عند النسخة الأولى ولاشك في أن الفرع حاصل في كلتا النسختين، ولكن الفرع في الثانية أعم.

وأما الحديث الذي استدلوا به فهو حديث ضعيف مضطرب كما صرح به غير واحد من الحفاظ (٣).

ونخلص من هذا كله إلى أنه يجب الإيمان بأن نهاية هذه الدنيا يكون بالنفخ في الصور نفخا حقيقيا، وأن البعث كذلك، وأن الصور الذي ينفخ فيه صور حقيقي، وقد ورد في صفته أنه قرن ينفخ فيه الملك الموكل به، فروى أن أعرابيا سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما الصور؟ فقال: (قرن ينفخ فيه)(٤).

والنافخ فيه إسرائيل كما صرح به غير واحد من العلماء(٥).

قال الطبري في تفسير قوله تعالى: (وله الملك يوم ينفخ في الصور) (والصواب من القول في ذلك عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن إسرائيل قد التقم الصور وحنى جبهته ينتظروا متى يؤمر فينفخ)(٦).

-
- (١) انظر التذكرة ٢٠١/١-٢٢٠ وفتح الباري ٣٦٩/١١-٣٧٠.
(٢) انظر التذكرة ٢٠٩/١-٢٢٠-٢٢١، والنهية لابن كثير ٢٧٩-٢٧٠/١.
(٣) انظر التذكرة للفركبي ٢٢٠/١ وتفسير ابن كثير ١٥٤/٢ والنهية في الفتن والملاحم ٢٧٨/١ وفتح الباري ٣٦٩/١١.
(٤) أخرجه الامام أحمد في المسند ١٦٢-١٩٢. أخرجه أبو داود في كتاب السنة باب في ذكر البعث والصور ٢٣٦/٤ ح [٤٧٤٢] والترمذي في التفسير سورة الزمر ٣٧٢/٥ ح [٢٢٤٤] وقال: هذا حديث حسن والدارمي في كتاب الرقائق باب ينفخ الصور ٣٢٥/٢ والحاكم ٥٦٠/٤ وصححه ووافقه الذهبي.
(٥) قال ابن حجر: "اشتهر أن صاحب الصور إسرائيل عليه السلام، ونقله فيه الطيبي الإجماع" فتح الباري ٣٦٨/١١ وقد ورد في حديث الصور ولكنه كما تقدم حديث ضعيف، وعليه فإن صح الإجماع الذي ذكره الطيبي فهو، وإلا فالعلم عند الله.
(٦) تفسير الطبري ١٥٧/٧.

وقيل: إنه غيره وعلى هذا فإن السماء تتبدل أيضا بعد طيها سماء أخرى كما تتبدل الأرض أرضا أخرى، وهذا التغيير الذى يحدث في نظام الكون يشمل أمورا أخرى للسماء غير الطى كما يشمل غير السماء أيضا.

فتنشق السماء وتصير وردة كالدمان وتمور مورًا قال تعالى: (إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع يوم تمور السماء مورا) (١) ومعنى تمور: تتحرك مستديرة (٢).

وقال تعالى: (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) (٣).

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآيات: (يقول تعالى: (فإذا انشقت السماء) يوم القيامة كما دلت عليه هذه الآيات مع ما شاكلها من الآيات الواردة في معناها كقوله تعالى: (وانشقت السماء فهي يومئذ واهية) (٤) وقوله: (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا) (٥) وقوله: (إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت) (٦)، وقوله تعالى: (فكانت وردة كالدهان) أى تذوب كما يذوب الدردي (٧)، والفضة في السبك وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم) (٨).

وقيل في معنى (وردة كالدهان) أن المراد أنها تحمر كالوردة وهو نور الشجر وكالدمان وهو الأديم الأحمر، وقيل فيه أقوال أخرى (٩) ويرجع هذه الأقوال كلها إلى أن السماء من شدة الهول يتغير لونها.

وهذا بالنسبة للسموات، وأما غيرها، فقد ورد أن الشمس والقمر تجمعان وتكوران ويذهب ضوءهما، وتنكدر النجوم وتتناثر وتطمس، وتضطرب الأرض وتزلزل وتطوى أيضًا وتسير الجبال وتفتت حتى تصير كشيبي مهيلا، وتصبح كالعهن المنفوش فيستوى وجه الأرض ويصبح قاعا مغمفا لاعوج فيه، ولأمت، وتسجر البحار وتفجر فتصير نارًا تضطرم، ومن الأدلة على ذلك: (١٠).

-
- (١) سورة الطور الآيات ٧، ٨، ٩ .
 - (٢) انظر تفسير الطبرى ١٣/٢٧ وابن كثير ٢٥٨/٤ .
 - (٣) سورة الرحمن الآية ٢٧ .
 - (٤) سورة الحاقة الآية ١٦ .
 - (٥) سورة الفرقان الآية ٢٥ .
 - (٦) سورة الانشقاق الآيتان ١، ٢ .
 - (٧) الدردي (بفتح الألف الأولى وسكون الراء وتشديد الياء) من الزيت ما يبقى في أسفله انظر الصحاح ٤٧٠/٢ مادة (دردي).
 - (٨) تفسير ابن كثير ٢٩٥/٤ .
 - (٩) انظر تفسير الألوسى ١١٣/٢٧، والشوكانى ١٣٧/٥ - ١٣٨ .
 - (١٠) راعيت في ترتيب الآيات ترتيب سورها في القرآن الكريم لأن دلالتها واضحة

١ - قوله تعالى : (ويستلونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا
مفمفا يترى فيها عوجا ولا أمنا) (١) .

ب - قوله تعالى : (إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا، فكانت هباء منبثا) (٢) .

ج - (فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الإنسان يومئذ أين
المفر) (٣) .

د - قوله تعالى : (إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت وإذا
العشار عطلت وإذا الوحوش حشرت وإذا البحار سجرت وإذا النفوس زوجت
وإذا العوذة سئلت بأي ذنب قتلت وإذا الصحف نشرت وإذا السماء كشطت وإذا
الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلقت علمت نفس ما أفضرت) (٤) .

هـ - وقوله تعالى : (إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت
وإذا القبور بعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت) (٥)

- = عملى ما سبق من أجله، فلم أحتج إلى أن أرتب حسب ما تقدم من ذكر
ما يحدث للأجرام السماوية والأرضية.
- (١) سورة طه الآيات: ١٠٥ - ١٠٦ - ١٠٧، والقاع : الأرض المستوية والمفمفا
تأكيد له والامت : الارتفاع، والمعنى أن الأرض تكون مستوية لا يرى الرائي
فيها مرتفعا ولا منخفضا، انظر تفسير القرطبي ٢٤٥/١١ - ٢٤٧ وابن كثير
١٧٤/٣ والمفردات مادتي (قيع) و(صف) .
- (٢) سورة الواقعة الآيات : ٦، ٥، ٤ . ومعنى رجت تحريكها فامتزت واضطربت
والهباء المنبث هو الغبار الذي تذروه الرياح فتذهب ولا يبقى منه شيء،
فالجبال تبس أي تفت فتا حتى تصبح كالغبار، انظر تفسير ابن كثير ٣٠٣/٤ .
- (٣) سورة القيامة الآيات ٧، ٨، ٩، ١٠ . ومعنى جمع الشمس والقمر كورا، وقيل جمع
بينهما، انظر تفسير الطبري ١١٢/٢٩ وابن كثير ٤٧٨/٤ .
- (٤) سورة التكويم الآيات من [١] إلى [١٤] ومعنى كورت لفت كما تلف العمامة، قيل :
المراد ذهاب ضوئها، والعشار الإبل الحواميل وهي من أعز أموال العرب
ولا يتركونها إلا لأمر بالغ الهول، ومعنى سجت البحار أوقدت وصارت نارا،
ومعنى كشطت السماء قلعت، كأنها تقلع عن مكانها قبل طيها، انظر التذكرة
للقرطبي ٢٤٠/١ - ٢٤٣ .
- (٥) سورة الانفطار الآيات من [١] إلى [٥] .

و - قوله تعالى : (إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت وأذنت لربها وحقت) (١) .

وهذه المجموعات الثلاث الأخيرة من الآيات قد جمعت معظم ما يحدث يوم القيامة من تغيير في أحوال الكون، ولهذا ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ (إذا الشمس كورت) و(إذا السماء انفطرت) و (إذا السماء انشقت) (٢) .

(١) سورة الانشقاق الآيات من [١] إلى [٥] ، ومعنى (وأذنت لربها وحقت) أى سمعت لربها وأطاعت أمره فيما أمر به من الانشقاق، وحقت أى وحق لها أن تطيع أمره ومعنى مدت الأرض: بسطت وفرشت ووسعت، ومعنى (ألقت ما فيها وتخلت) أى ألقت ما في بطنها من الأموات وتخلت منهم، كقوله تعالى : (وأخرجت الأرض أثقالها) سورة الزلزلة الآية (٢) انظر تفسير الطبرى ٧٢/٣٠ وابن كثير ٥٢١/٤ .

(٢) أخرجه الامام أحمد في المسند بزيادة (سورة هود) ٢٧/٢ - ٣٦ - ١٠٠ ، والترمذى في التفسير باب سورة التكويز ٤٢٢/٥ ح [٢٢٢٢] عن عبد الله بن عمر، وقال: حديث حسن غريب.

المبحث الثالث

الحساب

قال تعالى: (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون) الآية (١).

وقال تعالى: (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) الآية (٤٧).

ورد الحساب في هاتين الآيتين (١) ورد في الآية الأولى بلفظ المصدر وفي الثانية بلفظ اسم الفاعل صفة لله سبحانه وتعالى، وهو مما يقع يوم القيامة، فيجب الإيمان به كما يجب بكل ما أخبر الله سبحانه وتعالى من أمور الآخرة، ومحاسبة العباد على أعمالهم يوم القيامة تكون لتقريرها عليهم بعد أن يكون كل أوتى كتاب عمله، إما باليمين أو بالشمال وراء الظهر، ثم بعد الحساب توزن الأعمال ليكون الجزاء على وفق ذلك (٢).

والحساب قد يكون بعرض الأعمال فقط دون مناقشة، وهذا هو الحساب اليسير الذي قال تعالى عنه: (فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا) (٣).

وقد يكون الحساب بالمناقشة والتدقيق، فمن حوسب كذلك عذب، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:—(من نوقش الحساب عذب)، قالت عائشة: فقلت: أفليس قال الله تعالى: (فسوف يحاسب حسابا يسيرا) قال: (ليس ذلك بالحساب ولكن ذلك العرض من نوقش الحساب يوم القيامة عذب) (٤).

وأهل هذا الحساب إذا عرض عليهم أعمالهم يجادلون في إثباتها، فيختم الله عز وجل على أفواههم، ويتكلم كل عضو من أعضائهم بما قام به من أعمال كما قال تعالى: (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) (٥).

(١) سبق معنى الآية الأولى من (٢٧) من هذا البحث. والآية الثانية ألمق بالمبحث القادم وسيأتى تفسيرها هناك.

(٢) انظر المنهاج فنن شعب الإيمان للحليمي ٢٨٧/١.

(٣) سورة الانشقاق الآيات ٧ - ٨ - ٩.

(٤) أخرجه البخارى في كتاب التفسير (سورة الانشقاق) ٦٩٧/٨ والرقاق باب من نوقش الحساب عذب ٤٠٠/١١ ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٢٠٤/٤ ح [٨٠، ٧٩].

(٥) سورة يس الآية ٦٥.

وقال تعالى: (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون)(١).

وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ضحك ذات يوم حتى بدت نواجذه ثم قال: "أتدرون مم أضحك؟" قلنا: الله ورسوله أعلم، قال صلى الله عليه وسلم: (من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: رب ألم تجرئى من الظلم؟ فيقول: بلى فيقول: لا أجزى على إلا شاهداً من نفسى، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً وبالكرام الكاتبين شهوداً، فيختم على فيه ويقال لأركانها: انطقي بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعد الكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل)(٢).

والحساب يوم القيامة ليس عاماً لجميع أهل الموقف، بل من أولياء الله من يدخل الجنة بغير حساب، وبخاصة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقد ^{صح} عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفاً بغير حساب)(٣).

فالناس إذا على ثلاث مراتب، من لا يحاسب أصلاً، ومن يحاسب حساباً يسيراً، وهذان من المؤمنين، والثالث من يحاسب حساباً شديداً وهؤلاء من الكفار وقد يكونون من المسلمين الذين ارتكبوا من المعاصى ما لم يغفره الله لهم بل أراد تعذيبهم عليها(٤).

ويرى بعض العلماء أن الكفار لا يحاسبون أصلاً، وممن روى عند ذلك من السلف عائشة رضى الله عنها، فقد روى عنها أنها قالت: (لا يحاسب رجل يوم القيامة إلا دخل الجنة، الله يقول: (فأما من أوتى كتابه يمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً)(٥).

- (١) سورة فصلت الآيات ١٩، ٢٠، ٢١.
- (٢) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق ٢٢٨٠/٤ - ٢٢٨١ ج ٧١.
- (٣) أخرجه البخارى عن ابن عباس في كتاب الرقاق باب (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ٢٠٥/١١ كما أخرجه بمعناه في باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ٤٠٥/١١-٤٠٦ وكتاب الطب باب من اكتوى بغيره وفضل من لم يكتو ١٥٥/٧ وباب من لم يرق ٢١١/١٠ ومسلم في كتاب الإيمان ١٩٧/١-٢٠٠ ج ٢٦٧ إلى ٢٧٤.
- (٤) انظر المنهاج في شعب الإيمان ٢٨٤/١ والتذكرة في أهوال الموتى وأمور الآخرة ٣٢٩/١.
- (٥) أخرجه اللالكائى عنه في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١١٧٦/٦ ج ٢٢١٤ والآية هي (٧) من سورة الانشقاق.

واستدلت على عدم حساب الكفار بقوله تعالى: (فيوميذ لايسئل عن ذنبه انيس ولاجان)(١) وقوله تعالى: (يعرف المجرمون بسيماهم) الآية: (٢)

واستدل بعضهم على ذلك بما ثبتت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: (إن الله يدنى المؤمن حتى يضع عليه كنفه ويستره من الناس فيقول له: أتعرف كذا وكذا؟ فيقول نعم يارب، فيقول: أتعرف ذنب كذا وكذا فيقول: نعم يارب فيقول: أتعرف؟ فيقول: نعم، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى نفسه أنه قد هلك قال: فأنى قد غفرتها لك، فيعطى كتاب حسناته، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد - وفي لفظ: فينادى على رؤوس الأشهاد: (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين)(٣).

والشاهد من الحديث أنه يفهم منه أن الكفار والمنافقين يتضح أمرهم من دون حساب ولاطلب إقرار، بل يعرفون بسيماهم فلا يمهلون، بل يساقون إلى النار. وهناك تعليل آخر، وهو أنه إذا وجد من المؤمنين من هو أدنى إلى رحمة الله فلم يحاسب فلا يبعد أن يوجد من الكفار من هو أدنى إلى غضب الله فيدخل النار بغير حساب(٤).

ولكن أدلة الحساب السابقة تدل على أن الكفار محاسبون حيث أنها عممت الحساب، بل إن بعضها خصمها بالمعذنين فقط.

(١) سورة الرحمن الآية: ٣٩

(٢) سورة الرحمن الآية: ٤١

(٣) سورة هود الآية: ١٨ والحديث استدل به اللالكائى في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١١٧٥/٦ وأخرجه البخارى في كتاب المظالم باب قول الله (اللعنة على الظالمين) ٩٦/٥ والتفسير سورة هود ٣٥٣/٨ والأدب باب ستر المؤمن على نفسه ٤٨٦/١٠ والتوحيد باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ٤٧٥/١٢ ومسلم في كتاب التوبة ٢١٢٠/٤ ح ٥٢

(٤) انظر المنهاج في شعب الإيمان ٢٨٤/١ والتذكرة في أهوال الموتى وأمور الآخرة ٢٢٩/١ ولكن هذا مجرد تعليل ولايكفى دليلاً.

وما روى عن عائشة في عدم محاسبة الكفار - إن صح - معارض بما روت عن النبي صلى الله عليه وسلم حيث أوضح لها النبي أن المراد بالحساب اليسير العرض.

وقد فصل شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة فقال فيها: ﴿ وفصل الخطاب: أن الحساب يراد به عرض أعمالهم (١) عليهم وتوبيخهم عليها ويراد بالحساب موازنة الحسنات بالسيئات ، فإن أُريد بالحساب المعنى الأول فلاريب أنهم يحاسبون بهذا الاعتبار، وإن أُريد المعنى الثاني، فإن قصد بذلك أن الكفار تبقى لهم حسنات يستحقون بها الجنة فهذا خطأ ظاهر، وإن أُريد أنهم يتفاوتون في العقاب، فعقاب من كثرت سيئاته أعظم من عقاب من قلت سيئاته، ومن كانت له حسنات خفف عنه العذاب، كما أن أباطال أخف من أبي لهب، وقال تعالى: (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب) (٢).

وقال تعالى: (إنما النسيء زيادة في الكفر) (٣)، والنفار دركات، فإذا كان بعض الكفار عذابه أشد عذاباً من بعض - لكثرة سيئاته وقلة حسناته - كان الحساب لبيان مراتب العذاب، لا لأجل دخولهم الجنة) (٤).

وإذا تقرر هذا فمن هم أول الأمم حساباً؟ وما هو أول ما يحاسب عليه العبد من عمله؟ وما الجريمة الأولى التي يحاسب عليها؟ والجواب على هذه كما يأتي:

أما أول الأمم حساباً فهم أمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لشرفه صلى الله عليه وسلم كما أنهم من ^{أول} يجوز على الصراط وأول من يدخل الجنة) (٥). وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم: (نحن الآخرون السابقون يوم القيامة) (٦) وفي رواية لمسلم: (المقضى لهم قبل الخلائق) (٧).

ويقول صلى الله عليه وسلم: (نحن آخر الأمم وأول من يحاسب يقال: أين الأمة الأمية ونبيها؟ فنحن الآخرون الأولون) (٨).

- (١) الضمير راجع إلى الكفار المذكورين في كلام السابق.
 (٢) سورة النحل الآية: ٨٨ (٣) سورة التوبة الآية: ٢٧.
 (٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٠٥/٤-٢٠٦ (٥) انظر النهاية في الفتن والملاحم ٥١/٢
 (٦) أخرجه البخاري بهذا اللفظ عن أبي هريرة في كتاب الجمعة باب فرض الجمعة ٢٥٤/٢ وباب هل من لم يشهد الجمعة غسل ٢٨٢/٢ وكتاب أحاديث الأنبياء الباب ٥٣، ٥١٥/٦ وكتاب الأيمان والندور الباب الأول ٥١٧/١١ وكتاب الديات باب من أخذ حقه أو اقتص دون السلطان ٢١٥/١٢-٢١٦ وكتاب التوحيد باب قوله تعالى (يريدون أن يبدلوا كلم الله) ١٢/٤٦٤ ومسلم في كتاب الجمعة ٥٨٥/٢-٥٨٦ ج: ١٩-٢٠.
 (٧) أخرجه في كتاب الجمعة ٥٨٦/٢ ج: ٢٢
 (٨) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد باب صفة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ١٤٢٤/٢ ج: ٤٢٩٠ وقال البوصيري في الزوائد ٢٥٦/٤: (إسناده صحيح رجاله ثقات).

وأول ما يحاسب به العبد من أعماله الصلاة، وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته، فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله، ثم يقول الله عز وجل: انظروا هل لعبيدي نافلة، فإن كانت له، نافلة أتمت بها الفرائض ثم الفرائض كذلك) (١).

وأول الجرائم التي يحاسب عليها ويقضى فيها جريمة القتل لما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء) (٢).

(١) سبق تخريج هذا الحديث من (١٠٤) من هذا البحث.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق باب القصاص يوم القيامة (٢٩٥/١١) وكتاب الديات باب قوله تعالى: (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم) (١٨٢/١٢) ومسلم في كتاب القسامة ١٣٠٤/٣ ج: ٢٨ .

المبحث الرابع

الميزان

قال تعالى: (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) الآية: ٤٧ .

أخبر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة أنه يضع الموازين القسط ليوم القيامة، أي يحضر الموازين العدل لأهل يوم القيامة أو في يوم القيامة والموازين هنا جمع وقد وصفها بالقسط وهو مفرد، وذلك لأنه مصدر والمصدر يوصف به المفرد والجمع (١).

وزاد كون الموازين قسطا بيانا فقال: (فلا تظلم نفس شيئا) أي لا تظلم أي نفس أي شيء، فلا ينقص من إحسان محسن ولا يزداد في إساءة مسيء، ولكن يجازى المحسن بإحسانه ولا يعاقب المسيء إلا بإساءته (٢).

كما قال تعالى في آية أخرى: (ولا يظلم ربك أحدا) (٣).

ثم قال تعالى: (وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها) أي وإن كان عمل العامل شيئا حقيرا مثل وزن حبة الخردل فإنه لا يسقط لحقارته، بل يأتي الله به، ويحاسب عليه، فيجازى على السيئة بمثلها أو يعفو، يضاعف الحسنة إلى عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف كما قال تعالى: (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تكن حسنة يضعفها ويؤت من لده أجر عظيم) (٤).

وقوله (وكفى بنا حاسبين) أي محاسبين لأنه لا أحد أعلم بأعمالهم وما سلف في الدنيا من صالح أو سيء منه سبحانه (٥).

وبعد عرض معنى الآية نجد فيها ذكر نصب الموازين والحساب وهما من وقائع يوم القيامة، أما الحساب فقد مر في المبحث السابق.

-
- (١) انظر تفسير الطبري ٢٥/١٧ وزاد المسير ٢٥٤/٥ والقرطبي ٢٩٤/١١ .
 - (٢) انظر تفسير الطبري ٢٠/١٧ .
 - (٣) سورة الكهف الآية: ٤٩ .
 - (٤) سورة النساء الآية: ٤٠ .
 - (٥) تفسير الطبري ٢٥/١٧ .

وأما نصب الميزان فيكون لوزن أعمال العباد، لإظهار ما يستحقه كل أحد من الجزاء، والكلام على الميزان يتضمن الحديث عن ترتيبه بين وقائع يوم القيامة، وهل هو ميزان واحد أم موازين متعددة، وما هي صفة الميزان؟ وما الذي يوزن فيه، ودخول الإيمان بالميزان في الإيمان باليوم الآخر.

أما ترتيبه : فهو في الترتيب بعد الحساب كما حكاه القرطبي عن العلماء قال القرطبي: " قال العلماء: وإذا انقضى الحساب كان بعد وزن الأعمال لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها " (١).

وأما هل هو ميزان واحد أو موازين متعددة؟ فإن الميزان ورد في القرآن الكريم بلفظ الجمع كآلية التي معنا وكقوله تعالى: (والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) (٢).

لكنه ورد في السنة بلفظ المفرد كقوله صلى الله عليه وسلم: (والحمد لله تملأ الميزان) (٣).

ف قيل في الجمع بين ذلك: أنها موازين متعددة حسب ما يدل عليه ظاهر القرآن والإفراد يراد به الجنس، ولكن أكثر العلماء على أنه ميزان واحد، وأما الجمع فيحتمل أنه باعتبار تعدد ما يوزن به، أو أنه عبر عنه بالجمع كما عبر عن المفرد بالجمع في نحو قوله تعالى: (كذبت عاد المرسلين) (٤) (كذبت ثمود المرسلين) (٥) وإنما كذبت عاد رسولا واحدا (٦).

وهذا الوجه الثاني غير سديد لأنه يمكن الرد عليه بأن عاداً - مثلا - لما كذبت رسولها صارت مكذبة لجميع المرسلين لأن حكمهم واحد، فمن كذب رسولا واحدا كذب الجميع، فحسن الجمع إذاً بهذا الاعتبار، بينما المدعى هنا عدم وجود موازين متعددة أصلا.

وهناك احتمال آخر وهو أن الموازين جمع موزون لا ميزان (٧) وعلى هذا لا يبقى في الأمر إشكال لأن الأعمال الموزونة كثيرة فعلا.

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ٢/٣٥٩ واصل الكلام للحليمي في المنهاج ١/٢٨٧.

(٢) سورة الأعراف الآيتان: ٨، ٩ . (٣) أخريد مسلم في كتاب الأثر ١/٢٠٣ ح [١]

(٤) سورة الشعراء الآية: ١٢٢ . (٥) سورة الشعراء الآية: ١٤١ .

(٦) التذكرة ٢/٢٧١-٢٧٢ وتفسير ابن كثير ٣/١٨٩ . (٧) انظر التذكرة ٢/٢٧٢ .

صفة الميزان:

الميزان الذى توزن به الأعمال يوم القيامة ميزان حسي حقيقي ورد من صفة أن له كفتين عظيمتين لو وضعت السموات والأرض في واحدة منها لوسعتها، وأنه يتقل ويخف، ويمتلئ، وهذه كلها من صفات الحسيات، وفيه الرد على منكرى الميزان من المعتزلة وغيرهم.

فأما أن له كفتين فدليله قول صلى الله عليه وسلم في حديث صاحب البطاقة: (فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يتقل مع اسم الله شيء) (١).

وأما كون الكفتين عظيمتين جدا فمن قوله صلى الله عليه وسلم: (يوضع الميزان وله كفتان لو وضع في أحدهما السموات والأرض ومن فيهن لوسعته) الحديث (٢).

وأما كونه يتقل ويخف فمن نحو قوله تعالى: (فأمن ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية) (٣).

وأما كونه يمتلئ فمن نحو قوله صلى الله عليه وسلم: (الطهور شرط الإيمان والحمد لله تملأ الميزان) (٤).

وورد عن بعض السلف أن له لسانا (٥).

وذكر القرطبي - ونقله عنه ابن كثير - أن كفة الحسنات من نور، وكفة السيئات من ظلام، وأنه ينصب بين يدي العرش وعن يمينه الجنة وعن يساره النار، وتكون كفة الحسنات في ناحية الجنة، وكفة السيئات في ناحية النار (٦).

مالذى يوزن في الميزان؟

يستفاد من نصوص الشرع أن العمل يوزن يوم القيامة، وكذا العامل وكتاب الأعمال.

فأما وزن الأعمال فيستفاد من مثل قوله صلى الله عليه وسلم المتقدم: (والحمد لله تملأ الميزان)

-
- (١) سيأتي الحديث كاملا مع تخريجه في ص (٢٠٥-٢٠٦) من هذا البحث.
 - (٢) أخرجه الأجرى في الشريعة ص/٢٧٢ والحاكم ٥٩٨٦/٤ ومصححه ووافقه الذهبي، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١١٧٢/٦ .
 - (٣) سورة القارعة الآيات ٦، ٧، ٨، ٩ .
 - (٤) تقدم تخريجه ص (٢٠٢) من هذا البحث.
 - (٥) رواه اللالكائي عن الحسن ١١٧٢/٦ .
 - (٦) انظر التذكرة ٢٦٤/٢ والنهية في الفتن والملاحم ٢٥/٢ .

ولا يقال : إن الأعمال أعراض فلا يعقل أن توزن، لأن الذى خلقها أعراضا قادر على أن يحيلها أجساما (١)، وقد أنكر من أنكر الميزان لهذا السبب حيث قالوا إن المراد المجازاة بأكمل الجزاء، لا أن هناك ميزانا حيا لاستحالة وزن الأعمال وهي أعراض (٢).

وهذا القول مردود بما تقدم في صفة الميزان بأن له كفتين وأنه يثقل ويخف فهذا دليل مريح على أنه ميزان حسي، وأما كون الأعمال أعراضا فقد تقدم الرد عليه، على أن بعض العلماء يرى أن وزن الأعمال يكون بوزن صحتها التى كتبت فيه - كما سيأتى دليل وزن كتاب الأعمال - وعلى هذا فالموزون جسم وليس بعرض وإنما هو دليل على العرض (٣).

وأما وزن العامل نفسه فيستفاد من مثل قوله صلى الله عليه وسلم : (إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال : اقرءوا : (فلانقيم لهم يوم القيمة وزنا) (٤) الحديث (٥).

فهذا الحديث مريح في أن العامل نفسه يوزن، وأن الذى لاحسنة عنده مهما عظم جسمه وسمن لا يزن جناح بعوضة، بينما المؤمن صاحب الحسنات وإن صغر جسمه ونحف يكون وزنه ثقيلًا، كما يفيد ذلك حديث ابن مسعود رضى الله عنه، حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه، لما ضحك القوم من دقة ساقيه : (والذى نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد) (٦).

وأما وزن كتاب الأعمال، فدليله قوله صلى الله عليه وسلم : (إن الله سيخلص رجلا من أمتى عاى رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا، كل

(١) انظر النهاية في الفتن والملاحم ٢٦٢/٢ .
(٢) انظر مقالات الإسلاميين للأشعري ١٦٤/٢-١٦٥ والتذكرة ٢٦٤/٢ .
(٣) انظر التذكرة ٢٦٤/٢ وفي هذا أبلغ الرد عليهم، ولكن الصحيح - كما سبق وسيأتى - أن الوزن ليس قاصرا على كتاب الأعمال .
(٤) سورة الكهف الآية : ١٠٥ (٥) أخرجه البخاري في كتاب التفسير سورة الكهف ٤٩٦/٨ .
(٦) أخرجه أحمد ١١٤/١-٤٢١ و ١٣١/٥ قال ابن كثير في النهاية : وإسناده جيد قوى، النهاية ٢٩/٢ .

سجل مثل مد البصر، ثم يقول : أتُنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتني الحافظون؟ فيقول : لا يارب، فيقول : أفلك عذر؟ فيقول : لا يارب، فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك ، قال: ماهذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: إنك لا تظلم، قال : فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء(١).

وفي هذا الحديث دلالة على أن كتاب الأعمال يوزن أيضاً، وفيه وفي الحديث قبله رد على منكرى الميزان لأنه حتى لو تنزل معهم وقيل: إن الأعراس لاتوزن، فما قد ثبت وزن العامل وكتاب الأعمال وهما ليسا بأعراس، فالميزان على هذا التقدير حسي ولاشك، ولا يبقى لمن نفاها شبهة.

ويستفاد مما تقدم أن الوزن عام لكل الأعمال الصالحة والسيئة، لكن بعض العلماء استنبط من قوله تعالى : (يعرف المجرمون بسيممهم) ومن حديث السبعين الألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب(٢) وحديث الشفاعة الذي فيه: (فيقال : يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لاصاب عليهم)(٣) أن هؤلاء لاوزن لهم فلا يكون الوزن عاماً في حق كل أحد(٤).

وفي الاستدلال بهذه النصوص نظراً، لأن وزن الأعمال ليس للمحاسبة فقط، وإنما قد يكون لإظهار قدر الأعمال حتى يكون الجزاء وفقه، فإن هؤلاء الداخلين قد لا يكونون على درجة متساوية، وإن كانوا جميعاً لاصاب عليهم، وكذلك الكفار لا يلزم من معرفتهم بسيمامهم أن لاتوزن أعمالهم، بل توزن فيخف ميزانهم فيكون ذلك دليلاً على خسرانهم.

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢١٢/٢ والترمذي في كتاب الإيمان باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله ٢٤/٥ ح: ٢٦٢٩ وقال حديث حسن غريب وابن ماجه في كتاب الزهد باب صفة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ١٤٢٧/٢ ح: ٤٣٠٠ والحاكم ٦/١ و٥٢٩ ومصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي ومصححه الألباني في الصحيحة ٢١٢/١ ح: ١٢٥ .

(٢) تقدم تخريجه من (٢٩٧٧) من هذا البحث .

(٣) أخرجه البخاري عن أبي هريرة في كتاب التفسير سورة الاسراء ٢٩٦/٨ ومسلم في كتاب الإيمان ١٨٤/١-١٨٦ ح: ٢٢٧ .

(٤) انظر التذكرة ٢/٢٦١-٢٦٢ .

قال القرطبي: " وإنما توزن أعمال المؤمن المتقى لإظهار فضله، كما توزن أعمال الكافر لخزيه وذلك، فإن أعماله توزن تبكيته له على فراغه وخلوه عن كل خير، فكذلك توزن أعمال المتقى تحسبنا لحاله وإشارة لخلوه من كل شر وتزيينا لأمره على رؤوس الأشهاد(١) .

ونخلص من هذا كله إلى أن الميزان حق وهو ميزان حسي توزن به الأعمال والعاملون وصحف الأعمال، فالإيمان به واجب وهو داخل في الإيمان باليوم الآخر، لأن الإيمان باليوم الآخر يشمل الإيمان بكل ما أخبر الله سبحانه وتعالى أنه واقع فيه ومن ذلك الميزان، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم عد الإيمان بالميزان من أركان الإيمان، وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالجنة والنار والميزان...) الحديث(٢) .

ولهذا عد السلف - رحمهم الله - الإيمان به من أصول الإيمان وعدوا منكريه من أهل البدع والأهواء(٣) .

(١) التذكرة ٣٦٦/٢ وانظر النهاية ٣٦/٢ .
(٢) أخرجه الإمام أحمد ٣١١/١ و ١٢٩/٤ و ١٦٤ .
(٣) انظر العقيدة الطحاوية مع شرح ابن أبي العز من ٢٩٦ والشريعة للأجري من ٣٨٢ وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للألكائي ١١٥٧/٦ ومجموع الفتاوى ١٤٥/٣-١٤٦ .

المبحث الخامس

الجنة والنار

أولا : الجنة :

قال تعالى : (إن الذين سبقتم لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيها وهم فيما اشتهت أنفسهم خلدون لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون) الآيات: [١٠١، ١٠٢، ١٠٣].

لم يرد في آيات السورة لفظ الجنة، ولكن ورد فيها بعض صفات أهل الجنة ومالهم فيها من النعيم، وكذا ذكر ما تنال به الجنة.

ففي الآيات السابقة يخبر الله تعالى أن الذين سبقتم لهم الحسنى منه سبحانه يكونون خالدون فيما اشتهت أنفسهم، والمراد بذلك الجنة كما تفيد آيات أخرى كقوله تعالى: (يعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بما أتينا وكانوا مسلمين ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خلدون وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون) (١) الآيات.

فلهم فيها جميع ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم، ولهم فوق تلك اللذات الحسية لذات معنوية أخرى، وهي الأمن من انقطاع تلك النعم، فهم فيها خالدون لا يخشون زوالها عنهم، كما أنهم لا يحزنهم أى فزع بعد دخولهم الجنة، وتتلقاهم الملائكة لتهنئتهم بفوزهم بالجنة.

فهذه بعض الكرامات التي أعدها الله تبارك وتعالى لعباده في الجنة، وليست كلها فإنه سبحانه وتعالى أخبر أنه قد أعد لهم ما لا يخطر على بال أحد من النعم، قال تعالى: (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) (٢)

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى: (أعدت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)، قال أبو هريرة أقرءوا إن شئتم: (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) (٣).

(١) سورة الزخرف الآيات من ٦٨ إلى ٧٢ . (٢) سورة السجدة الآية: (١٧) .
(٣) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق باب ما جاء في صف الجنة وأنها مخلوقة ٣١٨/٦ وكتاب التفسير سورة السجدة ٥١٥/٨-٥١٦ وكتاب التوحيد باب قول الله تعالى: (يريدون أن يبدلوا كلام الله) ٤٦٥/١٣ . ومعناه في كتاب الإيمان ١٧٦/١ ج: ٣١٢ .
ومسلم

وقوله تعالى في أول الآيات هنا : (إن الذين سبقتم لهم منا الحسنى) ورد في تفسيره عدة أقوال (١) وبناء على الراجح منها وهو أن المراد من سبق في علم الله لهم السعادة تكون الآية دليلا على أن دخول الجنة يحصل للسعداء الذين سبق في علم الله أنهم أهل الجنة، وهذا كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها) الحديث (٢).

ولكن سبق في علم الله وكتابة السعادة للعبد مبنيان على ما سيعمله العبد، أى أن الله عز وجل علم أن العبد سيفعل كذا وكذا فكتب عليه ذلك، فدخول الجنة إذاً وإن كان حاصلًا على وفق ما سبق في علم الله سبحانه، إلا أن من أسبابه اختيار العبد لطريق الخير وعمله الصالح، فإن هذا الاختيار هو سبب الرحمة وسبب كتابة السعادة للعبد (٣).

ومثل هذه الآية في الدلالة على أن سبق الرحمة والسعادة يدخل العبد الجنة قوله صلى الله عليه وسلم : (سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لا يدخل أحدًا الجنة عمله) قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: (ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بمغفرة ورحمة) (٤).

فالحديث صريح في أن المغفرة والرحمة هما سبب دخول الجنة لا العمل، ولكن هناك نصوصا شرعية أخرى تفيد بأن العمل سبب لدخول الجنة، ومنها ما تقدم في قوله تعالى: (جزاء بما كانوا يعملون).

وكذا قوله تعالى : (وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون) (٥).

وقد جمع العلماء بين هذه النصوص وتلك، وأجابوا عن التعارض الظاهري بينها عدة إجابات ومنها:-

- (١) انظر تفسير الطبري، ٧٥١/٧ وانظر كثير ٣/٢٧١-٢٠٨
- (٢) أخرجه البخاري عن ابن مسعود في كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة ٢٠٣/٦ وكتاب أحاديث الأنبياء باب خلق آدم وذريته ٣٦٢/٦ وكتاب القدر الباب الأول ٤٧٧/١١ وكتاب التوحيد باب قوله تعالى: (ولقد سبقتم كلماتنا لعبادنا المرسلين) ٤٤٠/١٢.
- (٣) فسر بعض المفسرين الحسنى بالرحمة وبعضهم بالسعادة ولا منافاة بين التفسيرين، انظر تفسير ابن كثير ٣/٢٠٧.
- (٤) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب القصد والمداومة على العمل ٢٩٤/١١ عن أبى هريرة وعائشة رضي الله عنهما ورواه مسلم عنهما وعن جابر في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ٢١٦٩/٤-٢١٧٠-٢١٧١ ج: من [٧١] إلى [٧٨].
- (٥) سورة الزخرف الآية: ٧٢.

١ - أن المراد بأن العمل لا يدخل الجنة أنه ليس سببا مستقلا لدخول الجنة ما لم يوفق الله صاحبه ويهديه للإخلاص فيه وقبوله، بل ويهديه للعمل الصالح نفسه **فقلوا** رحمة الله بالعباد لم يوفقه للإيمان أصلا ولا للعمل، فإن عمل عملا استحق به الجنة فبرحمة الله وفضله، فلا يدخل أحد الجنة ما لم يؤمن ويعمل صالحا، ولا يتم العمل الصالح إلا برحمة من الله وفضل.

٢ - أن العمل ليس سببا لدخول الجنة كما هو صريح الحديث، وإنما هو سبب لرفعة الدرجة، فأهل الجنة يدخلونها بمحض فضل الله ورحمته، لكن تفاضلهم فيها يكون بحسب ما عملوه من الصالحات (١).

وأيا ما كان فإن الجنة دار رحمة الله وكرمه وفضله، أعدما للسعداء من عباده، وهم الذين يتقون، ويعملون بموجب ما يأمرهم به، وفيها من النعيم ما لا يقدر أن يوصف، فالسعيد حقا من فاز بدخولها والشقي من حرمها، فنسأل الله الجواد الكريم أن يجعلنا من أهلها.

ثانيا : ذكر النار / أعادنا الله منها.

قال تعالى : (ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين) الآية : ٢٩ .

وقال : (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون بل تأتيهم بغتة فتبهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون) الآيتين : ٣٩-٤٠ .

وقال : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها وأردون لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها وكل فيها خلدون لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون إن الذين سبقوا لهم منا الحسن أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتتت أنفسهم خلدون) الآيات من : (٩٨) إلى (١٠٢) .

(١) انظر شرح النووي على مسلم ١٥٩/١٧ - ١٦٠ - ١٦١ وفتح الباري ٢٩٥/١١ - ٢٩٦ .

ورد في هذه الآيات الكريمة ذكر النار باسمها وباسم جهنم وهو واحد من عدة أسماء سميت بها النار في القرآن الكريم (١).

كما ورد فيها أن جهنم جزاء لمدعى الألوهية وللمشركين وأصنامهم، وورد فيها كذلك ذكر بعض ما يلقاه الكفار من صنوف العذاب في جهنم.

فقوله تعالى: (ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك جهنم) ورد في شأن الملائكة أي من ادعى الألوهية من الملائكة جزاؤه جهنم، ولا يشفع فيه كونه من المقربين، ولكن هذا الشرط ليس بلازم وقوعه حتى يقع المشروط، فإن الله سبحانه قد أخبر أن الملائكة لا يعصونه في شيء، فالآية إذاً وردت تحذيراً لكل من تسول له نفسه الإقدام على الشرك معتمداً على دعوى القرب من الله، فإن القرب الحقيقي من الله هو الالتزام بأوامره.

وقوله: (كذلك نجزي الظالمين) تعميم لهذا الحكم، وهو أن جهنم يجزي به كل ظالم مدع للألوهية (٢).

وأما قوله: (لو يعلم الذين كفروا... الخ الآية) فقد ورد في سياق الرد على الكفار في استعجالهم بالعذاب، أي لو يعلم هؤلاء المستعجلون ما أعد لهم من العذاب، وهو النار التي تحيط بهم من جميع جوانبهم فلا يستطيعون كفها عن وجوههم ولا عن ظهورهم، ولا يجدون من ينصرهم على دفعها عنهم، وهي تأتيهم بغتة فتأخذهم من دون أن يقدروا على ردها ولا ينظرون ليستعدوا لتقبل الصدمة...
وجواب " لو " محذوف، وتقديره لما استعجلوا العذاب.

(١) سميت النار بعدة أسماء في القرآن الكريم، ومنها جهنم والجحيم قال تعالى: (ولاتستل عن أصحاب الجحيم) البقرة الآية: ١١٩ .
والسعير قال تعالى: (وسيلطون سعيراً) النساء الآية: ١٠ .
وسقر قال تعالى: (سأمليه سقر) سورة المدثر الآية: ٢٦ .
ولظى قال تعالى: (كلا إنها لظى نزاعة للشوى) سورة المعارج الآيتان: ١٥-١٦ .
والحطمة قال تعالى: (كلا لينبذن في الحطمة) الهمة الآية: ٤ .
والهاوية قال تعالى: (وأما من خفت موازينه فأماهاوية وما أدرك ماهاية نار حامية) القارعة الآيات: ٨، ٩، ١٠، ١١ .
قيل: إن هذه أسماء للنار، وقيل أسماء لدركاتها، ثم ذكرنا لكل ذلك أصحاباء، ولكن لم يقيم دليل صحيح على ذلك، غاية ما ورد أن النار سبعة أبواب كما قال تعالى: (لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) الحجر الآية: ٤٤، وأن المنافقين في أسفل الدركات (إن المتلطفين في الدرك الأسفل من النار) النساء الآية: ١٤٥ . انظر التذكرة ٤٤٤/٢ و٤٤٨ النهاية في الفتن والملاحم ١٩٢/٢ - ١٩٤ .
(٢) وقد سبق تفسير هذه الآية في ص (١١٠) من هذا البحث.

ففي الآية إذا وصف لكيفية العذاب في نار جهنم، بأن النار تحيط بهم فيها من جميع الجهات، والمراد بالوجوه والظهور هنا القدم والخلف، وقد جاء ذكر الجهات الأخرى في قوله تعالى: (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين) (١)

وقوله تعالى: (يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين يوم يفتيهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون) (٢) وأما الآيات بعدها فقد وردت في مباحث سابقة، والشاهد فيها هنا ورود ذكر جهنم فيها وما يلقاه المشركون وآلهتهم فيها، حيث يقذفون فيها قذفا بلا رفق ولأناة، وكأنما تصب بهم حصيا كما تصب بالنواة، (٣) فيكونون وقودا للنار، ويلقون فيها من صنوف العذاب ما تضيء معها أنفاسهم، فيكون لهم زفير وشهيق، ولا يسمعون شيئا فيحرمون نعمة السمع.

هذا للمشركين، وأما المؤمنون - وهم الذين سبق لهم من الله الحسن - فهم يعيدون عن هذا كله بعدا تاما، فلا يسمعون حسا وهو صوتها وهي تحرة - بل على العكس من ذلك يكونون خالدين فيما اشتهدت أنفسهم، وهو الجنة. ونخلص من هذا العرش السريع لمحتوى الآيات إلى أن جهنم دار الشقاء التي أعدّها الله عز وجل لأعدائه وأعداء أنبيائه ورسوله الخارجين عن أمره، فيلقون فيها من العذاب ما لا يعلم قدره إلا الله عز وجل، وأنهم خالدون فيها لا يخرجون منها، وأيضا يفتي عليهم فيها فيموتوا، ولا يخفف العذاب عنهم. فالواجب على كل عاقل الحذر من الأسباب المؤدية إلى مثل هذا الخزي العظيم.

فنسأل الله المولى القدير أن يعيدنا منها وأن يوفقنا للعامل بما يرضيه سبحانه أنه لي ذلك والتأدر عليه.

(١) سورة الأعراف الآية (٤١)

(٢) سورة العنكبوت الآيتان (٥٤ - ٥٥)

(٣) انظر تفسير الطالبي ١٢ / ٢٣٥٩

الخاتمة

بعد دراسة ماورد فى السورة بشأن التوحيد والنبوات والبعث يتبين لنا أن هذه السورة من أشمل سور القرآن الكريم على مواضيع العقيدة بجميع جوانبها ، وقد بان لى خلال عرض مواضيع السورة أمور مهمة أسطجا هنا نتائج لهذا العمل المتواضع الذى قمت به ، وهى :

أولاً: - فيما يتعلق بالإيمان بالله سبحانه أو ضحت السورة دلائل توحيد الله عزوجل فى ربوبيته وألوهيته ، واستحقاقه للأسماء الحسى والصفات العلى كما ورد فيها تنزيهه الله سبحانه عن ما لا يليق به من صفات النقص كاتخاذ الشريك أو الصاحبة أو الولد وكاللهو واللعب .
وورد فيها كذلك ذكر الإيمان بقضاء الله وقدره ، وتعليل أفعاله بالحكم البالغة والغايات السامية .

ثانياً: فيما يتعلق بالإيمان بالملائكة الكرام تحدثت السورة عنهم ، مبينة منزلتهم الحقيقية وهى العبودية المطلقة لله تعالى ، رادةً بذلك على من رفعهم فوق تلك المنزلة .

ثالثاً: فيما يتعلق بالإيمان بالرسول والكتب تحدثت السورة عن قصصهم وعن الأساليب والوسائل التى استخدموها فى سبيل الدعوة إلى الله تعالى وما لاقوه من عناء فى سبيل ذلك، كما تحدثت عن بعض صفاتهم وأحوالهم الخاصة وعن معجزاتهم ، وعن مواقف أقوامهم من دعوتهم .
وتحدثت السورة كذلك عن ضرورة اتباعهم وخطورة مخالفتهم من خلال ذكر مصير كل ممن اتبع الرسل ومن خالفهم .

وعرضت السورة لذكر بعض الكتب المنزلة على المرسلين و القرآن الكريم وما بحمله من خير ورحمة للعالمين .

رابعاً: فيما يتعلق بالإيمان باليوم الآخر تحدثت السورة عن إمكانية البعث ووجوب قيام يوم الحزاء وذنو ذلك اليوم، منبهة إلى بعض أشراف الساعة، وتحدثت كذلك عن بعض وقائع وأحوال ذلك اليوم العظيم وماذا سيكون مصير الناس جميعاً يومئذ مؤمنهم وكافرهم .

خامساً: ومن خلال عرض السورة لهذه الموضوعات نجد الترابط الوثيق بينها، والربط بينها وبين واقع الحياة ، فالإيمان بالله يتضمن عبادته بما شرع

على لسان رسله وأنبيائه ، ووصفه بما يليق به من الصفات الحسنى والانقياد لأوامره والإيمان بحكمته وعدله وأنه سيجزى كل عامل بما عمل إن خيرا فخير وإن شرا فكدلك ، ونبته السورة إلى أن تطبيق هذه فى واقع الحياة ليس بمستحيل ، بل هاهم أولاء الرسل وأتباعهم قد طبقوه فى واقع حياتهم ، فكان لهم السعادة الدنيوية والأخروية فالإيمان إذا ليس مجرد اعتقاد بالقلب وإقرار باللسان دون العمل ، بل لابد من العمل حتى يتوافق العلم والقول والعمل .

وإزاء هذه الحقائق التى أثبتتها سورة الأنبياء - شأنها فى ذلك شأن سائر أخواتها من سور القرآن الكريم - يجب علينا أن نتمثل هذه الحقائق ونجسدها فى واقع الحياة ، لنكون قد حققنا الغاية التى ظقنا من أجلها ، فنسعد بالراحة النفسية والطمأنينة القلبية فى هذه الحياة ، ونفوز بالنعيم فى الحياة الأخرى ولتنفيذ ذلك أقدم هذه التوصيات لنفسى أولا ، ثم لك أيها القارئ الكريم ثانيا ثم لجميع المسلمين وهى :

١ = وجوب تصحيح مفهوم العقيدة حتى تشمل كافة مناحى الحياة ، وتبسيط علم العقيدة بتقنيته مما علق به من شوائب الفلسفة الكلامية الجامدة .

٢ = وجوب اتباع نهج القرآن فى شتى الميادين ، وسن أولى الميادين بذلك ميدان تدريس العقيدة ، فقد استطاع هذا النهج أن يخرج أجيالا ضربوا أروع الأمثلة فى التأريخ البشرى كله فى التفانى فى خدمة الحق وإنقاذ البشرية من الهوة التى كانت تتردى فيها .

٣ = وجوب الاعتصام والتمسك بحبل الله المتين ونبتذ الفرقة والخلاف بين المسلمين إذ قوة المسلمين بتمسكهم بالعقيدة السليمة أولا ثم بوصلتهم واعتصامهم بحبل الله المتين وعدم تفرقتهم .

٤ = وجوب الاسترشاد بهدى المصطفى صلى الله عليه وسلم ، لأن دينه خاتم الأديان ، وهو ناسخ لما قبله ، وهو دين كامل شامل لجميع مناحى الحياة .

٥ = وجوب الاستعداد ليوم الرحيل عن هذه الدنيا ، ووضع القيام بين يدي اللد عزوجل يوم القيامة نصب العين دائما ، فهو وحده الكفيل بوضع حد لتجاوز النفس الأمانة بالسوء حدها ، وكسر نزعاتها وكبح جماحها .

وأخيرا أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يتولانا جميعا ويوفقنا لما فيه الخير والملاح ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفهارس :

- ١ = فهرس آيات سورة الأنبياء حسب ترتيبها في السورة
- ٢ = فهرس آيات غير سورة الأنبياء حسب ترتيبها في المصحف
- ٣ = فهرس الأحاديث حسب ترتيب حروف المعجم
- ٤ = فهرس الأعلام المترجم لهم حسب ترتيب حروف المعجم
- ٥ = فهرس المصادر والمراجع
- ٦ = فهرس الموضوعات

أولاً: فهرس الآيات من سورة الأنبياء

الرقم	الآية	رقمها	الصفحة
١	(اقتربت للناس حسابهم)	١	٢٧١ - ٢٩٦
٢	(ما يأتيهم من ذكر ربهم محدث	٣-٢	٢٣٦ - ٢٤٩
٣	(قال رب، يعلم القول في - السماء)	٤	٤ - ١٣٠
٤	(بل قالوا أضغث أحلام)	٥	٢٣٦
٥	(وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً)	٧-٨-٩	١٩٧ - ٢١٢ - ٢٣٠
٦	(ثم صدقناهم الوعد)	٩	٢٢٨ - ٢٣٤
٧	(لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه - ذكركم)	١٠	٢١٩ - ٢٤٩
٨	(وكم قصصنا من قرية كانت - ظالمة)	١١-١٥	٢٤٣
٩	(وما خلقنا السماء والأرض - وما بينهما لغيبين)	١٦	٦٠ - ٢٦٦
١٠	(لو أردنا أن نتخذ لهموا - لا تحذنه من لدنا)	١٧-٢٤	١١١ - ٢٤٩
١١	(وله من في السموات والأرض	١٩-٢٠	١٦٤
١٢	(يسبحون الليل والنهار)	٢٠	٨٩
١٣	(أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون)	٢١	١٦
١٤	(لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه)	٢٣	٦٠ - ٦٢
١٥	(وقالوا اتخذ الرحمن ولداً - سبحته)	٢٥	٧١ - ٢١٢
١٦	(لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون)	٢٦	١١١ - ١٣٥ - ١٦٤
١٧	(يعلم ما بين أيديهم وما - خلفهم)	٢٧	٧٨ - ١١١ - ١٣٩
١٨	(ومن يقل منهم إنى إله من دونه)	٢٨	١١١ - ١٣١ - ١٦٧
		٢٩	١٠٩ - ٣٠٩

فهرس الايات من سورة الانبياء

الصفحة	رقمها	الاية	الرقم
٢٦١ - ٢٦	٣٠	(أولم ير الذين كفروا أن - السموات)	١٩
٦٠ - ٢٦	٣١	(وجعلنا فى الأرض رؤس)	٢٠
٢٦ - ١٦	٣٣	(وهو الذى خلق الليل والنهار)	٢١
١٩٧	٣٤	(وما جعلنا لبشر من قبلك - الخلد)	٢٢
٢٦٦ - ٦٠	٣٥	(كل نفس ذائقة الموت)	٢٣
٢٣١ - ١٣٥	٣٦	(وإذ أراءك الذين كفروا)	٢٤
٢٧١	٣٧	(خلق الإنسان من عجل - ويقولون متى هذا الوعد)	٢٥
٣٠٩ - ٢٧١	٣٩	(لويعلم الذين كفروا حين - لا يكفون)	٢٦
٢٤٣ - ٢٣٦	٤١	(ولقد استهزئ برسلى من قبلك	٢٧
١٤٧ - ١٣٥ - ٣٦	٤٢	(قل من يكلوكم بالليل - والنهار)	٢٨
١١١	٤٣	(أم لهم ءالهة تمنعهم من - دوننا)	٢٩
٢١٢ - ٢٠٧	٤٥	(قل إنما أنذركم بالوحى)	٣٠
٣٠١ - ٢٩٦ - ١٤٧	٤٧	(ونضع الموزين القسط)	٣١
٢٤٩ - ١٨١ - ٧٨	٤٨ - ٥٠	(ولقد ءاتينا موسى وهرون - الفرقان)	٣٢
٢٣٦ - ٢٠٣ - ١٨٢ - ١١١	٥١	(ولقد ءاتينا إبراهيم رشده)	٣٣
٢٣٦ - ١٨٢	٥٢	(قالوا وجدنا ءاباءنا لها - عبدين)	٣٤
١٦	٥٦	(قال بل ربكم رب السموات - والأرض)	٣٥
١٤١	٦٣	(فسئلوهم إن كانوا ينطقون)	٣٦
١٤١	٦٥	(لقد علمت ما هؤلاء ينطقون)	٣٧

فهرس الايات من سورة الانبياء

الصفحة	رقمها	الاية	الرقم
٢٢٦ - ٢٢٦	٦٨-٧٠	(قالوا حرقوه وانصروا - ءالهتكم)	٣٨
١٣٩ - ٣٤	٦٩	(قلنا يا ناركونى برداوسلما)	٣٩
٢٢٨ - ١١١ - ٣٤	٧٠-٧١	(واردوا به كيدا فجعلنهم - الاخسرين)	٤٠
٢٠٣	٧٢	(وكلا جعلنا صلحين)	٤١
١١٢ - ٢٠٧ - ١٣٩	٧٣	(وجعلنهم ايمة يهدون بامرنا)	٤٢
١٠١	٧٣	(واوحينا اليهم فعل الخير)	٤٣
٢٢٨ - ٢٠٣ - ٨٤ - ٣٤	٧٤	(ولمطء اتينه حكماوعلما)	٤٤
٢٠٣	٧٥	(وادخلنه فى رحمتنا)	٤٥
-٢٢٨-١٨٥-٨٩-٧٧-٣٤	٧٦	(ونوحا إذ نادى من قبل)	٤٦
٢٤٣-٢٣٤		(وداود وسليمن إذ يحكمان - فى البحر)	٤٧
٢٠٧ - ١٨٦	٧٨	(ففهمنا سليمان)	٤٨
٢٢٦ - ٢٠٧ - ١٨٦	٧٩-٨٠	(وكلاء اتينا حكماوعلما)	٤٩
٢٠٣	٧٩	(وعلمنه صنعة ليوس لكم - لتحصنكم من باسكم)	٥٠
٨٩	٨٠	(ولسليمن الريح عاصفة)	٥١
٢٢٧ - ٣١	٨١	(ومن الشيطان من يفوضون له)	٥٢
١٤٧	٨٢	(وايوب إذ نادى ربه)	٥٣
١٨٩-١٣٥-٨٩-٦٠-٣٤	٨٣-٨٤	(واسمعيل وإدريس وذا الكفل)	٥٤
٢٠٥-١٩٠-٧٨	٨٥	(وادخلنهم فى رحمتنا)	٥٥
٢٠٥-١٩٠-١٣٥-٧٨	٨٦	(وذا النون إذ ذهب مغضا)	٥٦
١٩٢-٨٩-٣٤	٨٧	(فنادى فى الظلمت)	٥٧
٢٠٤	٨٧	(وزكريا إذ نادى ربه)	٥٨
١٩٣-١٤٧-٨٩-٣٤	٨٩	(فاستجنا له ووهبنا له يحيى)	٥٩
٨٩	٩٠		

فهرس آيات سورة الانبياء

الصفحة	رقمها	الاية	الرقم
٢٠٤-٧٨	٩٠	(إنهم كانوا يسرعون في الخيرات)	٦٠
١٦٨	٩١	(والتي أحصت فرجها)	٦١
٧١	٩٢	(إن هذه امتكم أمة واحدة)	٦٢
٢٣٤	٩٣-٩٤	(وتقطعوا أمرهم بينهم)	٦٣
١٦٩-١٠٦	٩٤	(فمن يعمل من الصلح وهو - مؤمن)	٦٤
٢٧٥	٩٥	(وحرّم على قرية أهلكنها)	٦٥
٢٧٥	٩٦-٩٧	(حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج)	٦٦
٣٠٩-١١١-١١٠	-٩٨	(إنكم وما تعبدون من دون - الله)	٦٧
٣٠٩-٣٠٧-٥٦	١٠١	(إن الذين سبقت لهم منا - الحسنى)	٦٨
٣٠٧-٢٨٩-١٧١	١٠٣	(لا يحزنهم الفزع الأكبر)	٦٩
٢٩٢-٢٦١	١٠٤	(يوم نظوى السماء كطى - السجل للكتب)	٧٠
٢٤٩-٥٦	-١٠٥	(ولقد كتبنا في الزبور من - بعد الذكر)	٧١
١٣٥-٦٠	١٠٧	(وما أرسلناك إلا رحمة)	٧٢
٢١٢-٧١	١٠٨	(قل إنما يوحى إلى.....)	٧٣
٢٧١-١٩٧	١٠٩	(فإن تولوا فقل أذنتكم)	٧٤
٢٧١-١٣١	١١٠	(إنه يعلم الجهر من القول)	٧٥
١٤٧-١٣٥	١١٢	(قل رب احكم بالحق)	٧٦

ثانياً: فهرس الآيات من غير سورة الانبياء

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
١	(الحمد لله رب العلمين)	٢	الفاتحة	٩
٢	(الرحمن الرحيم)	٣	،،	٩
٣	(إياك نعبد وإياك نستعين)	٦-٥	،،	٩
٤	(يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم)	٦٩-٢١	البقرة	
٥	(وإن كنتم في ريب مما نزلنا)	٢٤-٢٣	،،	٢٢١
٦	(وإذ قال ربك للمليكة)	٣٠	،،	١٤١-٤
٧	(قلنا اهبطوا منها)	٣٩-٣٨	،،	٤
٨	(واستعينوا بالصبر والصلوة)	٤٦-٤٥	،،	١٠٢
٩	(واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً)	٤٨	،،	١١٦
١٠	(على الملكين بيابل)	١٠٢	،،	١٦١
١١	(ولا تسئل عن أصحاب الجحيم)	١١٩	،،	٣١٠
١٢	(فاذكروني أذكركم)	١٥٢	،،	٩٣
١٣	(يا أيها الذين ءامنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم)	١٧٢	،،	٩٨
١٤	(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب)	١٧٧	،،	٨٥
١٥	(كان الناس أمة واحدة...)	٢١٣	،،	
١٦	(يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم)	٢٥٥	،،	٢٤٨ ١٣٢-١١٦
١٧	(ءامن الرسول بما أنزل إليه)	٢٨٥	،،	١٥٩

فهرس الايات من غيرسورة الانبياء

الرقم	الاية	رقمها	السورة	الصفحة
١٨	(لا يكلف الله نفسا إلا وسعها	٢٨٦	البقرة	٨٤
١٩	(فأما الذين فى قلوبهم زيغ	٧	آل عمران	١٢٧
٢٠	(قالت رب إنى وضعتها أنثى)	٣٦	،،	١٩٤
٢١	(هو من عند الله)	٣٧	،،	١٩٤
٢٢	(رب هب لى من لدنك ذرية)	٣٨	،،	١٩٤
٢٣	(وإن منهم لفريقا يلوون - السنتم بالكتب)	٧٨	،،	٢٥٤
٢٤	(يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله...)	١٠٢	،،	٨٣
٢٥	(بلى إن تصبروا و اتقوا)	١٢٥	،،	٨٥
٢٦	(فبما رحمة من الله لنت لهم)	١٥٩	،،	٢٠٦
٢٧	(لقدمن الله على المؤمنين)	١٦٤	،،	١٩٩
٢٨	(الذين قال لهم الناس ..)	١٧٣-	،،	٩٦
٢٩	(إنما ذلكم الشيطان)	١٧٥	،،	٨١
٣٠	(ولله ميراث السموت والأرض)	١٨٠	،،	١٤٩
٣١	(يا أيها الذين ءامنوا اصبروا)	٢٠٠	،،	٨٥
٣٢	(وسيطلون سعيرا)	١٠	النساء	٣٠١
٣٣	(إن الله لا يظلم مثقال ذرة)	٤٠	،،	٣٠١
٣٤	(إن الله لا يغفر أن يشرك به)	٤٨	،،	١١٠
٣٥	(فلا وربك لا يؤمنون حتى - يحكموك)	٦٥	،،	٢١٠
٣٦	(يا أيها الذين ءامنوا ءامنوا بالله ورسوله)	١٣٦	،،	٢٤٨

فهرس الآيات من غير سورة الانبياء

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
٣٧	(إن المنفقين فى الدرك - الأسفل)	١٤٥	النساء	٣١٠
٣٨	(وقولهم إنا قتلنا المسيح)	١٥٧	،،	١٩٥
٣٩	(وإن من أهل الكتب - إلا لىؤمنن به)	١٥٩	،،	٢٨٢
٤٠	(وءاتينا داود زبوراً)	١٦٣	،،	٢٥٥
٤١	(ورسلا قد قصصنهم عليك)	١٦٤	،،	١٨٠
٤٢	(وكلم الله موسى تكليماً)	١٦٤	،،	١٨٠-١٤٢ ٢١٥
٤٣	(رسلاً مبشرين ومنذرين)	١٦٥	،،	١٧٥
٤٤	(لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله)	١٧	،،	١٦٤
٤٥	(إننا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور)	٤٤	المائدة	٢٥٣
٤٦	(وقفينا على آثرهم بعبسى ابن مريم)	٤٦	،،	٢٥٥-٢٥٠
٤٧	(وأنزلنا إليك الكتب ...)	٣٨	،،	٢٥٧
٤٨	(لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح)	٧٢	،،	١٩٥-١٥٦
٤٩	(لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة)	٧٣	،،	١٩٥-١٥٦
٥٠	(ما المسيح ابن مريم إلا رسول)	٧٥	،،	٢٠٢
٥١	(وإذ قال الله يعيسى)	١١٦	،،	١٥٦
٥٢	(ولو جعلناه ملكاً جعلناه رجلاً وهو القاهر فوق عباده)	٩	الانعام	١٩٩
٥٣	(وهو القاهر فوق عباده)	١٨	،،	٤٤
٥٤	(ألا له الحكم)	٦٢	،،	١٤٩
٥٥	(وكذلك نرى إبراهيم)	٧٩-٧٥	،،	٤٣-٢١
٥٦	(وكيف أخاف ما أشركتم)	٨١	،،	١١٥

فهرس الايات من غير سورة الانبياء

الرقم	الاية	رقمها	السورة	الصفحة
٥٧	(ولو اشركوا الحبط عنهم ما كانوا يعملون)	٨٨	الانعام	١١٠
٥٨	(اولئك الذين ءاتينهم)	٨٩	،،	٢٠٣
٥٩	(وان الشيطان ليوحون)	١٢١	،،	٢١٤
٦٠	(الله اعلم حيث يجعل رسالته)	١٢٤	،،	١١٨
٦١	(هل ينظرون الا ان تأتيتهم الملائكة)	١٥٨	،،	٢٨٤-٢٨٠
٦٢	(يوم ياتي بعض ءايت ربك)	١٥٨	،،	
٦٣	(والوزن يومئذ الحق)	٩-٨	الاعراف	٣٠٢
٦٤	(ربنا ظلمنا انفسنا)	٢٣	،،	٩٤-٣٨
٦٥	(يبني ءادم ايماءتيتكم)	٣٦-٣٥	،،	٢٤٦-٧١
٦٦	(لهم من جهنم مهاد)	٤١	،،	٣١١
٦٧	(ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها)	٥٦	،،	٨٧
٦٨	(لقد ارسلنا نوحا الى قومه)	٥٩	،،	٧١
٦٩	(و الى عاد اخاهم هودا)	٦٥	،،	٧٢
٧٠	(فأنجيناه واهله االا امراته)	٨٣	،،	١٨٤
٧١	(اقامنوا مكر الله)	٩٩	،،	٨٧
٧٢	(وكتبنا له في الالواح)	١٤٥	،،	١٨٢
٧٣	(واذ اخذ ربك من بني ءادم)	١٧٢	،،	٤٧
٧٤	(فافمنوا مكر الله)	١٨٧	،،	٢٧٣
٧٥	(واذ كر ربك في نفسك تضرعا وخيفة)	٢٠٥	،،	٩٢
٧٦	(واذ يمكر بك الذين كفروا)	٣٠	الانفال	٢٤٢
٧٧	(وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم)	٣٣	،،	١٣٨

فهرس الآيات من غيرسورة الانبياء

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
٧٨	(فإن تابوا وأقاموا الصلوة)	٥	التوبة	١٠٥
٧٩	(وإن أحد من المشركين)	٦	،،	١٤٢
٨٠	(وقالت اليهود عزير ابن الله)	٣٠		١٥
٨١	(إنما النسيء زيادة في الكفر)	٣٧		٢٩٩
٨٢	(خذ من أموالهم صدقة)	١٠٣		١٠٥
٨٣	(لقد جاءكم رسول من أنفسكم)	١٢٨		٢٠٦
٨٤	(قل من يرزقكم من السماء)	٣٢-٣١	يونس	١٤
٨٥	(فلولا كانت قرية آمنت)	٩٨		١٩٢
٨٦	(واتبع ما يوحى إليك)	١٠٩		١٥٠
٨٧	(هؤلاء الذين كذبوا على ربهم)	١٨	هود	٢٩٨
٨٨	(ولقد أرسلنا نوحا)	٢٦-٢٥		٢٠٨
٨٩	(حتى إذا جاء أمرنا)	٤٠		٢٣٥
١٠٠	(ونادى نوح ابنه)	٤٣-٤٢		٢٣٥
١٠١	(تلك من أنباء الغيب)	٤٩		٢٢٤
١٠٢	(وإلى ثمود أخاهم صلحا)	٦١		٧٢
١٠٣	(فلما رءأ أيدهم لا تصل إليه - نكرهم)	٧٠		٨٣
١٠٤	(فلما جاء أمرنا جعلنا عليها - سافلها)	٨٢		١٦٦
١٠٥	(وإلى مدين أخاهم شعيبا)	٨٤		٢١٠
١٠٦	(قال له خير حفظا)	٦٤	يوسف	١٤٧
١٠٧	(وكأين من آية في السموت)	١٠٥		٣١
١٠٨	(قل هذه سبيلي ادعوا إلى الله)	١٠٨		٢٠٩

فهرس الآيات من غيرسورة الانبياء

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
١٠٩	(وإن تعجب فعجب قولهم)	٥	الرعد	٢٦٠
١١٠	(له معقبات من بين يديه)	١١		٣٢
١١١	(وهم يكفرون بالرحمن)	٣٠		١٣٦
١١٢	(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا)	٥	إبراهيم	٢٥٠
١١٣	(وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم - لأزيدنكم)	٧		٩٩
١١٤	(وقال موسى إن تكفروا)	٨		٩٩
١١٥	(قالت رسلهم أفي الله شك)	١٠		
١١٦	(وقال الذين كفروا لرسولهم)	١٣-١٤		٢٣٤-٢٤٤
١١٧	(يوم تبدل الأرض غير الأرض)	٤٨		
١١٨	(هذا بلغ للناس)	٥٢		٢٥٢
١١٩	(إننا نحن الذكور)	٥	الحجر	٣٠
١٢٠	(وحفظنا من كل شيطان رجيم)	١٧		
١٢١	(وإنالنحن نحى ونميت)	٢٣		١٤٩
١٢٢	(لهاسبعة أبواب)			٣١٠
١٢٣	(قال ومن يقنط من رحمة ربه - إلا الضالون)	٥٦		١٨٧
١٢٤	(فأخذتهم الصيحة مشرقين)	٧٣		١٨٤
١٢٥	(وألقي في الأرض رؤس)	١٥	النحل	٢٨
١٢٦	(والذين يدعون من دون الله)	٢٠		٩٥
١٢٧	(ولقد بعثنا في كل أمة رسولا)	٣٦		٧٢؛ ٦٨؛ ٥
١٢٨	(وما أرسلنا من قبلك - إلا رجالا)	٤٣		١٠٨
١٢٩	(وقال الله لاتتخذوا إلهين - إثنين)	١٥		٢٠٠
				٨١

فهرس الايات من غيرسورة الانبياء

الرقم	الاية	رقمها	السورة	الصفحة
١٣٠	(واوحى ربك إلى النحل)	٦٨	النحل	٨١
١٣١	(الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا)	٨٨		٢٩٩
١٣٢	(الامن أكره وقلبه مطمئن..)	١٠٦		٨١
١٣٣	(واصبر وما صبرك إلا بالله)	١٢٧		٢٠٥
١٣٤	(وإن من شيء إلا يسبح بحمده)	٤٤	الاسراء	٢٢٧، ٢٣٣
١٣٥	(وقالوا اءذا كنا عظما ورفنا)	٤٩-٥٠		٢٦٥
١٣٦	(أفأنتم أن يخسف بكم - جانب البر)	٦٨		٢٢٥
١٣٧	(وما أوتيتم من العلم الا قليلا)	٨٥		١٧٦
١٣٨	(وما منع الناس أن يؤمنوا)	٩٤		١٩٩
١٣٩	(قل لو كان في الأرض ملكة)	٩٥		١٩٩-١٩٨
١٤٠	(إن الذين أوتوا العلم - من قبله)	١٠٧-		٨٨
١٤١	(ولا تطع من أغفلنا قلبه..)	٢٨	الكهف	٩٢
١٤٢	(إن الذين آمنوا.....)	٣٠-٣١		١٠٨
١٤٣	(ولا يظلم ربك أحدا)	٤٩		٣٠١
١٤٤	(وما نرسل المرسلين إلا...)	٥٦		٢٠٧
١٤٥	(ثم اتبع سباحتى إذا بلغ..)	٩٢-٩٩		٢٧٨
١٤٦	(وتركنا بعضهم يومئذ يموج..)	٩٩		٢٧٧

فهرس الايات من غير سورة الانبياء

الرقم	الاية	رقمها	السورة	الصفحة
١٤٧	(فلا نقيم لهم يوم القيامة - وزنا)	١٠٥	الكهف	٣٠٤
١٤٨	(فمن كان يرجو لقاء ربه ...)	١١٠		٧٤
١٤٩	(ذكر رحمت ربك عبده زكريا)	٦-٢	مريم	٩١
١٥٠	(فخرج على قومه من المحراب)	١١		٢١٣
١٥١	(وءاتينه الحكم صبيا)	١٢		١١٨
١٥٢	(واذكر في الكتاب مريم)	١٦		٢٠١/١٦٨
١٥٣	(أنى يكون لى غلم)	٢٠		١٩٥
١٥٤	(إنا نحن نرث الارض)	٤٠		١٤٩
١٥٥	(واذكر في الكتاب ابراهيم)	٤٣-٤١		٢٠٩ ١١٨-١١٨
١٥٦	(يا ابراهيم تعبد ما لا يسمع)	٤٣		١١٨-١١٨
١٥٧	(قال سلم عليك)	٤٧		١١٨
١٥٨	(واعتزلكم وما تدعون ...)	٤٨		٩٥
١٥٩	(وندينه من جانب الطور)	٥٢		١٤٢
١٦٠	(واذكر في الكتاب اسمعيل)	٥٥-٥٤		١٩٠
١٦١	(واذكر في الكتاب ادريس)	٥٧-٥٦		٢٠٥-١٩١
١٦٢	(تكاد السموات يتفطرن)	٩٣-٩٠		١٣٥

فهرس الآيات من غير سورة الانبياء

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
١٦٣	(وماتلك بيمينك يأموسى)	٢١-١٧	طه	١٤٦
١٦٤	(ويستلونك عن الجبال)	-١٠٥		٢٩٤
١٦٥	(يعلم ما بين أيديهم ...)	١١٠		١٣٢
١٦٦	(وكذلك أنزلناه قرءانا...)	١١٣		٢٣٧
١٦٧	(وعصى آدم ربه فغوى...)	-١٢١		١٠٨
١٦٨	(وقالوا لولا يأتنا بآية...)	١٣٣		٢٢٠
١٦٩	(ولو أنا أهلكنهم بعباد...)	١٣٤		١٧٥
١٧٠	(يأيتها الناس اتقوا ربكم...)	٢-١	الحج	٢٨٨
١٧١	(وترى الأرض هامدة)	٧-٥		٢٦٢
١٧٢	(وما أرسلنا من قبلك من رسول)	٥٢		١٧٨
١٧٣	(ولا ننبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيه)	٥٢		١٧٨
١٧٤	(ويمسك السماء أن تقع...)	٦٥		٣٠
١٧٥	(قد أفلح المؤمنون...)	٢-١	المؤمنون	٨٨
١٧٦	(قال رب انصرنى بما كذبون)	٢٦	"	٩٠
١٧٧	(يأيتها الرسل كلوا من الطيبات...)	٥٢-٥١	"	٧٤
١٧٨	(بل قالوا مثل ما قال الأولون...)	٨٣-٨١	"	٢٦٠
١٧٩	(قل لمن الأرض ومن فيها...)	٩١-٨٤	"	٤٩
١٨٠	(ومن يدع مع الله إلهاء آخر)	١١٧	"	١١٥
١٨١	(وعد الله الذين آمنوا منكم)	٥٥	النور	٢٢٣
١٨٢	(قل أنزله الذي يعلم السر)	٦	الفرقان	١٣٢
١٨٣	(وقالوا مال هذا الرسول)	٨-٧	"	١٩٨

فهرس الايات من غير سورة الانبياء

الرقم	الاية	رقمها	السورة	الصفحة
١٨٤	(وما أرسلنا من قبلك من المرسلين)	٢٠	الفرقان	١٩٨
١٨٥	(ويوم تشقق السماء بالغمام)	٢٥	،،	٢٩٣
١٨٦	(وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا)	٥٦	الفرقان	٢٠٧
١٨٧	(وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا)	٦٠	،،	١٣٦
١٨٨	(كذبت قوم نوح المرسلين)	١٠٥-	الشعراء	٢٠٥
١٨٩	(لئن لم تنته ينوح لتكونن)	١١٦	،،	٢٤٢
١٩٠	(كذبت عاد المرسلين)	١٢٣	،،	٣٠٢
١٩١	(كذبت ثمود المرسلين)	١٤١	،،	٣٠٢
١٩٢	(وإنه لتنزيل رب العلمين)	١٦٢-	،،	٢٣١
١٩٣	(قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله)	٤٩	النمل	٢٤٢
١٩٤	(أمن خلق السموات والأرض)	٦٠	،،	٦٩
١٩٥	(وإذا وقع القول عليهم أخرجنا)	٨٢	،،	٢٨٣
١٩٦	(ويوم ينفخ في الصور فزع)	٨٧	،،	٢٨٩
١٩٧	(من جاء بالحسنة فله خير منها)	٨٩	،،	٢٨٩-١٧١
١٩٨	(وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه)	٧	القصص	٢١٤-٢٠١
١٩٩	(فخرج منها خائفا يترقب)	٢١	،،	
٢٠٠	(إنك لا تهدي من أحببت)	٥٦	،،	٢٠٨
٢٠١	(قل أرءيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا)	٧١-٧٣	،،	
٢٠٢	(وقال الذين أوتوا العلم ويلكم)	٨٠	،،	٨٦

فهرس الايات من غير سورة الانبياء

الرقم	الاية	رقمها	السورة	الصفحة
٢٠٣	(ألم أحسب الناس أن يتركوا	٣-١	العنكبوت	٢٦٠
٢٠٤	(ولقد أرسلنا نوحا إلى - قومه)	١٣	،،	١٨٥
٢٠٥	(قال رب انصرني على القوم - المفسدين)	٣٠	،،	٣٨
٢٠٦	(اتل ما أحى إليك من الكتاب)	٤٥	،،	١٠٢
٢٠٧	(وما كنت تتلو من قبله - من كتاب)	٤٨	،،	٢٢٤
٢٠٨	(وقالوا لولا أنزل عليه آيات مدرسه)	٥١-٥٠	،،	٢٢٠
٢٠٩	(ويستعجلونك بالعذاب)	٥٥-٥٤	،،	٣١١
٢١٠	(ولئن سألتهم من خلق - السموات)	٦١	،،	١٤
٢١١	(ألم غلبت الروم في أدنى - الأرض)	٤-١	الروح	٢٢٣
٢١٢	(وهو الذي يبدؤ الخلق ثم - يعيده)	٢٧	،،	٢٦٤
٢١٣	(ولقد أرسلنا من قبلك رسلا - إلى قومهم)	٤٧	،،	٢٣٠
٢١٤	(وكان حقا علينا نصر المؤمنين)	٤٧	،،	٣٥
٢١٥	(قل يتوفكم ملك الموت)	١١	السجدة	١٦١
٢١٦	(فلا تعلم نفس ما أخفى لهم)	١٧	،،	٣٠٧-٢٢٥
٢١٧	(وأورثكم أرضهم وديارهم - وأموالهم)	٢٧	الأحزاب	٢٥٢
٢١٨	(سنة الله في الذين خلوا - من قبل)	٣٨	،،	
٢١٩	(الذين يبلغون رسالت الله)	٣٩	،،	٨١
٢٢٠	(يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله)	٤٢-٤١	،،	٩٣

فهرس الايات من غير سورة الانبياء

الرقم	الاية	رقمها	السورة	الصفحة
٢٢١	(وقال الذين كفروا هل ندلكم	٧-٨	سبا	٢٦٠
٢٢٢	(ولقد اتينا داود منا فضلا)	١٠	،،	١٨٧
٢٢٣	والناله الحديد)	١٠-١١	،،	١٨٧
٢٢٤	(ولسليمن الرريح غدوها شهر)	١٢	،،	١٨٨
٢٢٥	(يعملون له مايشاء)	١٣	،،	١٨٨
٢٢٦	(اعملوا ال داود شكرا)	١٣	،،	٩٩
٢٢٧	(حتى إذا فزع عن قلوبهم)	٢٣	،،	١٤٠
٢٢٨	(الحمد لله فاطر السموات)	١	فاطر	١٦٦
٢٢٩	(وكل في فلك يسبحون)	٤٠	يسس	٤٤
٢٣٠	(اليوم نختم على افواههم)	٦٥	،،	٢٩٦
٢٣١	(إنما أمره إذا اراد شيئا)	٨٢	،،	١٣٩
٢٣٢	(احشروا الذين ظلموا...)	٢٢	الصفات	١٢٢
٢٣٣	(وجعلنا ذريته هم الباقيين)	٧٧	،،	١٠٩
٢٣٤	(قالوا ابنوا له بنيانا)	٩٧	،،	٢٢٦
٢٣٥	(فلما بلغ معه السعى قال - يبني)	١٠٢	،،	٢١٥
٢٣٦	(ستجدني إن شاء الله من - من الصبرين)	١٠٢	،،	٢١٦
٢٣٧	(فالتقمه الحوت وهو مليم)	١٤٢	،،	٩٠
٢٣٨	(فنبذنه بالعراء وهو سقيم)	١٤٥-	،،	١٩٣
٢٣٩	(ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا)	١٧١-	،،	٢٢٩
٢٤٠	(وعجبوا أن جاءهم منذر منهم)	٤-٥	هي	٦٨-٤٩
٢٤١	(إنا سخرنا الجبال معه)	١٨-١٩	،،	١٨٧
٢٤٢	(وما خلقنا السماء والأرض - وما بينهما باطلا)	٢٧-٢٨	،،	٢٦٧

فهرس الايات من غيرسورة الانبياء

الرقم	الاية	رقمها	السورة	الصفحة
٢٤٣	(فسخرناله الريح)	٣٦	ص	١٨٨
٢٤٤	(واذكر عبدنا أيوب)	٤٣-٤١	،،	١٨٩-٩٠-٣٦
٢٤٥	(إننا وجدناه صابرا.....)	٤٤	،،	١٨٩-٩٧
٢٤٦	(واذكر إسماعيل واليسع)	٤٨	،،	١٩١
٢٤٧	(لو أراد الله أن يتخذولدا لاصطفى مما يخلق)	٤	الزمر	١١٢
٢٤٨	(وإذا مس الإنسان ضر دعاربه)	٨	،،	٩٥
٢٤٩	(إنما يوفى الصبرون أجرهم- بغير حساب)	١٠	،،	٨٥
٢٥٠	(الله نزل أحسن الحديث)	٢٣	،،	٢٣٨
٢٥١	(ولقد أوحى اليك والى الذين من قبلك)	٦٦-٦٥	،،	١٦٦
٢٥٢	(وما قدروالله حق قدره)	٦٧	،،	٢٩٢
٢٥٣	(ونفخ فى الصور فصعق من - فى السموات)	٦٨	،،	٢٩٠
٢٥٤	(وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا)	٧٣	،،	١٧٣
٢٥٥	(وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده)	٧٤	،،	٢٥٢
٢٥٦	(الذين يحملون العرش ومن - حوله يسبحون بحمديهم...)	٨-٧	غافر	١٦٧
٢٥٧	(ماللظالمين من حميم)	١٨	،،	١١٦
٢٥٨	(انالمنصر رسلنا والذين- ءامنوا)	٥١	،،	٣٥
٢٥٩	(لخلق السموات والارض أكبر)	٥٧	،،	٢٦٣
٢٦٠	(ولقد أرسلنا رسلا من قبلك)	٧٨	،،	١٨٠
٢٦١	(حم تنزيل من الرحمن - الرحيم)	٤-١	فصلت	٢٢٢

فهرس الايات من غيرسورة الانبياء

الرقم	الاية	رقمها	السورة	الصفحة
٢٦٢	(ويوم يحشرأعداءالله إلى النار)	٢١-١٩	فصلت	٢٩٧
٢٦٣	(إن الذين قالوا ربناالله - ثم استقموا)	٣١-٣٠	،،	١٧٢
٢٦٤	(ومن آياته الليل والنهار)	٣٧	،،	٢٠
٢٦٥	(فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له)	٣٨	،،	١٦٦
٢٦٦	(ومن آياته أنك ترى الأرض)	٣٩	،،	٢٦٢
٢٦٧	(والملائكة يسبحون بحمدربهم	٥	الشورى	١٦٧
٢٦٨	(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)	١١	،،	١٢٥-١٥٧
٢٦٩	(ولمن صبروغفرإن ذلك لمن عزم الأمور)	٤٣	،،	٨٦
٢٧٠	(وماكان لبشرأن يكلمه الله إلا وحيا)	٥١	،،	٢١٥-١٤٠
٢٧١	(ومن يعيش عن ذكرالرحمن - نقيض له شيطنا)	٣٦	الزخرف	٩٢
٢٧٢	(يعبادلاخوف عليكم اليوم)	٧٢-٦٨	،،	٣٠٧-٢٩٠
٢٧٣	(وتلك الجنة التى أورثتموها	٧٢	،،،	٣٠٨
٢٧٤	(أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجوتهم)	٨٠	،،	١٧٠
٢٧٥	(ولين سألتهم من خلقهم - ليقولن الله)	٨٧	،،	١٤
٢٧٦	(فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين)	١٠	الدخان	٢٧٩
٢٧٧	(ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون	١٨-١٧	،،	٢٠٥
٢٧٨	(أم حسب الذين اجترحوا السيئات)	٢٢-٢١	الجاثية	٢٦٨-٦٠
٢٧٩	(قل أرءيتم ما تدعون من دون الله)	٤	الاحقاف	٩٥

فهرس الايات من غير سورة الانبياء

الرقم	الاية	رقمها	السورة	الصفحة
٢٨٠	يقومنا إناسمنا كتباً أنزل - (من بعد موسى)	٣٠	الاحقاف	٢٣٢
٢٨١	(أولم يروا أن الله الذي - خلق السموات)	٣٣	،،	٢٦٢
٢٨٢	واصبر كما صبر أولوا العزم من (الرسل)	٣٥	،،	٨٥
٢٨٣	(إن أكرمكم عند الله اتقاكم	١٣	الحجرات	٨٤
٢٨٤	(بل عجبوا أن جاءهم منذر -)	٣-٢	ق	٢٦٠
٢٨٥	أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم	١١-٦	،،	٢٦٣-٣٠
٢٨٦	إذ يتلقى الملقيان (....)	١٨	،،	١٧٠
٢٨٧	(فالمقسمت أمرا)	٤	الذاريات	١٦٣-١٦١
٢٨٩	(هل أتلك حديث ضيف إبراهيم)	٢٥-٢٤	،،	١٦٢
٢٩٠	(وما خلقت الجن والإنس إلا - ليعبدون)	٥٦	،،	٦٨
٢٩١	(إن عذاب ربك لواقع)	٩-٧	الطور	٢٩٣
٢٩٢	(أم خلقوا من غير شيء)	٣٦-٣٥	،،	١٨
٢٩٣	(واصبر لحكم ربك)	٤٨	،،	٢٠٥
٢٩٤	(ولقد رآه نزلة أخرى)	١٣	النجم	
٢٩٥	(أولم ينبأ بما فى صحف موسى)	٤١-٣٦	،،	٢٥٢
٢٩٦	(فتول عنهم يوم يدع الداع)	٨-٦	القمر	٢٨٩
٢٩٧	(فدعا ربه أنى مغلوب)	٦٠	،،	٩٠-٣٦
٢٩٨	(فإذا انشقت السماء فكانت - وردة)	٣٧	الرحمن	٢٩٣
٢٩٩	(فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس	٣٩	،،	٢٩٨
٣٠٠	(يعرف المجرمون بسيمهم)	٤١	،،	٢٩٨
٣٠١	(إذ أرجت الأرض رجاً)	٦-٤	الواقعة	٢٩٤
٣٠٢	(الم يأن للذين ءامنوا - أن تخشع قلوبهم لذكر الله)	١٦	الحديد	٨٧

فهرس الايات من غيرسورة الانبياء

الرقم	الآية	السورة	الصفحة
٣٠٣	(ما أصاب من مصيبة في الأرض)	الحديد	٥٧
٣٠٤	(قد سمع الله قول التي - قول التي تجادلك)	المجادلة	١٣٤
٣٠٥	(كتب الله لأغلبن أنا ورسلى)	،،	٢٣٠
٣٠٦	(لوانزلنا هذا القرآن على جبل)	الحشر	٨٨
٣٠٧	(قد كان لكم أسوة حسنة...)	المتحنة	١٨٣
٣٠٨	(لقد كان لكم فيهم أسوة)	،،	١٨٣
٣٠٩	(ذلكم حكم الله يحكم بينكم)	،،	١٥٠
٣١٠	(ذلك بأنه كانت تأتيهم - رسلم)	التغابن	١٩٩
٣١١	(فانقوا الله ما استطعتم)	،،	٨٣
٣١٢	(ومن يتق الله يجعل له - مخرجا)	الطلاق	٨٤
٣١٣	(ضرب الله مثلا للذين كفروا)	التحرير	٢٣٥
٣١٤	(الذى خلق الموت والحياة)	الملك	٢٦٩
٣١٥	(ليبلوكم أيكم أحسن عملا)	،،	١٠٧
٣١٦	(فاصبر لحكم ربك)	القلم	١٩٢
٣١٧	(فإذ انفخ في الصور نفخة - وحادة)	الحاقة	٢٨٨
٣١٨	(وانشقت السماء فهي يومئذ - واهية)	،،	٢٩٣
٣١٩	(والملك على أرجائها)	،،	١٦١
٣٢٠	(ولوتقول علينا بعض - الاقاويل)	،،	٢٢٩
٣٢١	(كلا إنها لظى)	المعارج	٣١٠
٣٢٢	(إننا أرسلنا نوحا إلى قومه)	نوح	٢٠٨

فهرس الايات من غيرسورة الانبياء

الرقم	الاية	رقمها	السورة	الصفحة
٣٢٣	(قال رب انى دعوت قومي ليلا	٩-٥	نوح	٢٠٩
٣٢٤	(الم تر واکيف خلق الله سبع سموات طباقا)	٢٠-١٥	،،	٧٢
٣٢٥	(رب لا تذرعلى الارض من الكافرين ديارا)	٦	،،	٣٦
٣٢٦	(رب اغفرلى ولولدى)	٢٨	،،	٣٨
٣٢٧	(وقالوا اناسمنا قرءانا عجبيا)	٢-١	الجن	٢٢٥
٣٢٨	(فكيف تتقون ان كفرتم يوما)	١٨-١٧	المزمل	٢٨٨
٣٢٩	(سأصليه سقر)	٣١٠	المدثر	٢٦
٣٣٠	(فاذا برق البصر)	١٠-٧	القيامة	٢٩٤
٣٣١	(لا تحرك به لسانك لتعجل به)	١٩-١٦	،،	٢٥٦
٣٣٢	(كلا بل تحبون العاجلة)	٢١-٢٠	،،	١٧٥
٣٣٣	(الم نجعل الارض مهتدا)	٧-٦	النبأ	٢٨
٣٣٤	(والنزعت غرقا)	١	النازعات	١٦١
٣٣٥	(فالمدبرات امرأ)	٥	،،	١٦٣-١٦١
٣٣٦	(ثم شققنا الارض شقا)	٢٧-٢٦	عبس	٢٧
٣٣٧	(اذا الشمس كورت)	١٤-١١	التكوير	٢٩٤
٣٣٨	(ذى قوة عندذى العرش مكين)	٢٠	،،	٢٦٦
٣٣٩	(اذا السماء انفطرت)	٥-١	الانفطار	٢٩٤
٣٤٠	(ماغرك بربك الكريم)	٦	،،	١٣٦
٣٤١	(الا يظن أوليك انهم مبعوثون)	٦-٤	المصفيين	٢٨٨
٣٤٢	(اذا السماء انشقت)	٥-١	الانشقاق	٢٩٥-٢٩٣
٣٤٣	(فأما من أوتى كتابه بيمينه	٩-٧	،،	٢٩٧-٢٩٦
٣٤٤	ان هذا فى الصحف الأولى	١٩-١٨	الاعلى	٢٥٣
٣٤٥	(أفلا ينظرون الى الإبل)	١٩-١٧	الغاشية	٢٩
٣٤٦	(فأما من ثقلت موازينه)	١٠-٨	القارعة	٣٠٣
٣٤٧	(وأما من خفت موازينه)	١٠-٨	،،	٣١٠
٣٤٨	(كلا لينبذن فى الحطمة)	٤	الهمزة	٣١٠

ثالثا: فهرس الاحاديث

رقم	الحديث	صفحة
١	ابشروا فإن منكم رجلا	٢٧٧
٢	اتدرون مم اضحك	٢٩٧
٣	احياناياتينى مثل صلمة الجرس (٢١٥
٤	اخذالله الميثاق من ظهرآدم (٤٨
٥	إذاحكم الحاكم فاجتهد	١٨٧
٦	إذا قضى الله الامر	١٤
٧	إذا مر بالنطفة اثنتان واربعون ليلة (١٦٩
٨	اعدت لعبادى المالخين ما لاعين رات	٣٠٧
٩	امرت ان اقاتل الناس	١٠٥
١٠	اناغنى الشركاء عن الشرك	١٠٦
١١	اناعند ظن عبدى بى	٩٣
١٢	انت اول الرسل إلى اهل الأرض	١٨٥
١٣	ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله	٣٤٨-١٥٩
١٤	ان احدكم يجمع خلقه فى بطن امه	١٦٩
١٥	ان اسرافيل قد التقم المور	٢٩١
١٦	ان اول الايات خروجا	٢٨٣
١٨	ان الله تبارك وتعالى إذا أحب عبدا	١٤٣
١٩	ان الله سيخلص رجلا من امتى	٣٠٤
٢٠	ان الله عزوجل يبسط يده بالليل	٢٨٤
٢١	ان الله هو الحكم	١٥٠
٢٢	ان الله يدنى المؤمن حتى يفع عليه كنفه	٢٩٨
٢٣	ان الله يقول لاهون اهل النار عذابا	٤٧
٢٤	ان الله ينادى يوم القيامة بموت	١٤٣

فهرس الاحاديث

المفحات	الحديث	رقم
٢٧٦	إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات	٢٥
٣٠٤	إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة	٢٦
١٦	إنى لم أبعث لعانا	٢٧
٣٠٠-١٠٤	أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته	٢٨
	أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى - الدماء	٢٩
٣٠٠		
٣٠٦	الإيمان أن تؤمن بالله	٣٠
٢٧٩	بادروا بالأعمال ستا	٣١
٢٧١	بعثت أنا والساعة كهذه من هذه	٣٢
١٠٤	بين الرجل وبين الشرك	٣٣
٩٠	بينما أيوب يفتسل عريانا	٣٤
٢٨٢	تخرج الدابة فتسم الناس	٣٥
٨٢	التقوى ههنا	٣٦
٢٨٠	ثلاثة إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها	٣٧
٢٩٠	ثم ينفخ فى الصور	٣٨
١٦٢	خلقت الملائكة من نور	٣٩
٢٣٠	خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة	٤٠
٣٠٨	سدوا وقاربوا	٤١
٣٠٣	الطهور شطر الإيمان	٤٢
٢٨٠	غير الدجال أخو قنى عليكم	٤٣
٢٧٨	فبينما هو كذلك	٤٤
٣٠٣	فتوضع السجلات فى كفة	٤٥
١٦٨	فيشفع النبيون والملائكة	٤٦
٣٠٥	فيقال : يا محمد أدخل من امتك الجنة	٤٧

فهرس الاحاديث

المفحات	الحديث	رقم
١٦٨	فيقول الله عزوجل : شفعت هو الملائكة	٤٨
٢٩١	فينفخ فيه ثلاثة نفحات	٤٩
١٧١-٩٢	قالت الملائكة : رب ذاك عبدك	٥٠
٢٩١	قال : قرن ينفخ فيه	٥١
١٧٠	قال الله عزوجل : إذا هم عبيد	٥٢
٥٦	كان الله ولم يكن شيء قبله	٥٣
٢٢٥	كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم	٥٤
٥٧	كتب الله مقادير الخلاق	٥٥
١٨٠	كم الانبياء ؟ قال : مائة الف	٥٦
٢٨٤	لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها	٥٧
٢٥٥	لقد اوتيت مزارا من مزامير آل داود	٥٨
٢٩٦	ليس ذاك بالحساب	٥٩
٩٣	ما اجلسكم ؟	٦٠
٢٨٠	ما بعث نبي إلا انذر امته	٦١
٢٩٠	ما بين النفتين اربعون	٦٢
٢٧٣	ما المسئول عنها باعلم من السائل	٦٣
٢٢٠	ما من الانبياء نبي إلا أعطى من الآيات ما سئله آمن عليه البشر	٦٤
١٤٢	ما منكم احد إلا سيكلمه ربه	٦٥
١٣٣	مفاتيح الغيب خمس	٦٦
١٠٦-٩٤	من احدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد	٦٧
٢٨١	من حفظ عشر آيات من اول سورة الكهف	٦٨
	من دعا بدعوة يونس	٦٩
٢٩٥	من سره أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ	٧٠

فهرس الاحاد يث

الرقم	الاحاد يث	المفحات
٧١	من لم يشكر الناس لم يشكر الله	١٠٠
٧٢	من نوقش الحساب عذب	٢٩٦
٧٣	نحن آخر الامم	٢٩٩
٧٤	نحن الاخرون السابقون يوم القيامة	٢٩٩
٧٥	نحن معاشر الانبياء اولاد علات	٧٥
٧٦	وان احدكم ليعمل بعمل اهل النار	٣٠٨
٧٧	والحمد لله تملا الميزان	٣٠٣-٣٠٢
٧٨	وخلق آدم عليه السلام بعد العمر	٢٣
٧٩	والذى نفس بيده لهما اشقل	٣٠٤
٨٠	والذى نفس بيده ليوشكن	٢٨٢
٨١	ومن يستعفف يعفه الله	٨٦
٨٢	يحشر الناس حفاة عراة	٢٦٤
٨٣	يحشر الناس على ثلاثة طرائق	٢٨٦
٨٤	يدخل الجنة من امتى سبعون الفا	٢٩٧
٨٥	يطوى الله عزوجل السموات يوم القيامة	٢٩٢
٨٦	يقول تعالى : يا آدم	١٤٣
٨٧	يوضع الميزان وله كفتان	٣٠٣

رابعاً: فهرس الأعلام المترجم لهم

٢٣	= ابن أبي حاتم الرازي	١
٢٣٩	= ابن إسحاق	٢
١٨	= ابن تيمية	٤
١١٢	= ابن الجوزي	٥
٢٧	= ابن حجر العسقلاني	٦
٢٠٠	= ابن حزم الأندلسي	٧
١٧	= ابن رشد (الحفيد)	٨
٨٠	= ابن سيده	٩
١٢	= ابن فارس	١٠
١٤	= ابن القيم	١١
١٨	= ابن كثير	١٢
٢٣٩	= ابن هشام	١٣
٢٠١	= أبو الحسن الأشعري	١٤
٦١	= أبو السعود	١٥
١١	= الأزهرى	١٦
١١	= الأصمعي	١٧
٦٢	= الألويسي	١٨
٢٤٣	= البغوي	١٩
٥١	= البهاء	٢٠
٥٠	= التجاني	٢١
٤٠	= التفتازاني	٢٢
٥١	= جعفر المادق	٢٣
٦٥	= الجوهري	٢٤

٦٧ الجوينى = ٢٥
٢٥ الخطابى = ٢٦
٦٧ الخليل بن احمد = ٢٧
٤١ الخيالى = ٢٨
١٤٥ الدارمى = ٢٩
١٢ الراغب الاصفهانى = ٣٠
٦٥ رؤبة بن العجاج = ٣١
١١٢ الزجاج النحوى = ٣٢
٦٨ سليمان بن عبدالله آل الشيخ = ٣٣
٦٧ سيبويه = ٣٤
١٩ سيد قطب = ٣٥
٢١١ الشوكانى = ٣٦
١٢٥ الصابونى (شيخ الإسلام) = ٣٧
١٤٩ الضحاك بن قيس = ٣٨
٢٣ الطبرى = ٣٩
١٥٢ الغزالى = ٤٠
٢١٨ الفخر الرازى = ٤١
١٠٧ الغفيل بن عياض = ٤٢
٦٦ الفيروز آبادى = ٤٣
٤٣ القاسمى = ٤٤
٥١ الكلينى = ٤٥
١٦٠ الكمائى = ٤٦
١٣١ الشيخ محمد الامين الشنقيطى = ٤٧
٧ النابغة الذبيانى = ٤٨
٩٤ الهروى = ٤٩
٢٣٩ الوليد بن المغيرة = ٥٠

فهرس المصادر والمراجع

حرف الشمزقة

- ١ = ابن تيمية السلفى نقده لمسالك المتكلمين والفلاسفة
فى الإلهيات- للأستاذ محمد خليل هراس دار الكتب العلمية
الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م
- ٢ = إتحاف فؤاده البشر فى القراءات الأربع عشر ،
للشيخ أحمد بن محمد بن أحمد الدمياطى الشهير بالبناء
(ت ١١١٧هـ) رواية وتصحيح وتعليق على محمد الضباع. نشر عبد
الحميد أحمد هنلى مصر ١٣٥٩هـ
- ٣ = الإتيان لجلال الدين السيوطى (ت ٩١١هـ) تحقيق محمد أبو
الفضل إبراهيم - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م
- ٤ = أحكام القرآن للجمام أبى بكر أحمد بن على الرازى الحنفى
(ت ٣٧٠هـ) دار الكتاب العربى بيروت لبنان
- ٥ = أحكام القرآن لابن العربى أبى بكر محمد بن عبد الله (٥٤٣هـ)
تحقيق على محمد البجاوى دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت
- ٦ = الأربعين فى أصول الدين لغير الدين الرازى (ت ٦٠٦هـ) مجلس
دايرة المعارف المعثمانية بعهد آباء الدكين، الطبعة الأولى
١٣٥٣هـ
- ٧ = الإرشاد فى قواعد الأدلة فى أصول الاعتقاد لإمام الحرمين
أبى المعالى عبد الملك الجوينى (ت ٤٧٨هـ) تحقيق أسعد تميم ،
مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت لبنان الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ
١٩٨٢م
- ٨ = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبى السعود
بن محمد العمارةى (ت ٩٨٢هـ) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع
١٣٤٧هـ
- ٩ = استخراج الجدال من القرآن <ضمن مجموعة الرسائل المنبرية>
إدارة الطباعة المنبرية دار إحياء التراث العربى بيروت لبنان
- ١٠ = أسرار البلاغة للرحمانى أبى بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن شرحه وتعليقه عبد المنعم
خفاجى - مكتبة القاهرة الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ

- ١١ = الأسفار المقدسة قبل الإسلام ، للدكتور صابر طعمية -
عالم الكتب - بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م
- ١٢ = الإسلام يتحدى ، لوheid الدين خان ، تعريب ظفر الإسلام
خان - مؤسسة الرسالة ودار البحوث العلمية الطبعة التاسعة ١٤٠٥ هـ
١٩٨٥ م
- ١٣ = الأسماء والصفات للبيهقي - دار الكتب العلمية بيروت لبنان
- ١٤ = الإرشادات والتنبيهات لأبي علي بن سينا - تحقيق د/
سليمان دنيا دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية
- ١٥ = اشراط الساعة ليوسد بن عبد الله بن يوسف السوابل - دار
ابن الجوزي الطبعة الثانية ١٤١١ هـ ١٩٩٠ م
- ١٦ = أصول الدين للبيهقي عبد القاهر طاهر الاسفراييني (ت ٤٢٩ هـ)
نشر مدرسة الإلهيات بدار الفنون التوركية استانبول الطبعة
الأولى ١٣٤٦ هـ ١٩٢٨ م
- ١٧ = أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد
الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي (ت ١٣٩٣ هـ) طبعة
١٣٨٤ هـ ١٩٦٥ م
- ١٨ = الامتصام لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي
الشاطبي الفرساطي (ت ٧٩٠ هـ ضبط وتصحيح الأستاذ أحمد عبد
الشافي - دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ
١٩٨٨ م
- ١٩ = إجاز القرآن للباقلاني أبي بكر محمد بن الطيب (ت ٤٠٣ هـ)
تحقيق حماد الدين أحمد - مؤسسة الكتب الثقافية بيروت
الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ
- ٢٠ = الأعلام لغير الدين الزركلي - دار العلم للملايين
بيروت - الطبعة الرابعة ١٩٧٩ م
- ٢١ = اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لشيخ
الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) دار الحديث بالأزهر
- ٢٢ = الإنجيل - دراسة وتحليل د/ محمد شلبس شتيوي - مكتبة
الصلاح - الكويت الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م

٢٣ = الإنسان بين العلم والدين لقوى أبوخليل - دار الفكر -
دمشق سورية طبعة ١٤٠١هـ ١٩٨١م

٢٤ = الإنسان في ظل الأديان د/عمارة نجيب مكتبة المعارف الرياض

حرف الباء

٢٦ = بدائع الفوائد لابن القيم - مكتبة ابن تيمية القاهرة ،
ومكتبة العلم بجدة

٢٧ = البداية والنهاية لابن كثير - تدقيق وتحقيق د/ أحمد
أبوالمحم وأخرين - دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة
الأولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م

٢٨ = البدر الطالع بمحاسن وكن بعد القرن السابع لمحمد بن علي
الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) مطبعة السعادة - القاهرة الطبعة
الأولى ١٣٤٨هـ

٢٥ = البحر المحيط لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٥٤هـ)

دار الفكر للطباعة والنشر الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م

٢٩ = البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد
الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ) تحقيق محمد أبو الفل إبراهيم
مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه الطبعة الثانية

٣٠ = بغية المرئاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة

والباطنية أهل الإلحادين القائلين بالحلول والاعتقاد

لشيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق د/موسى سليمان الدويش -

مكتبة العلوم والحكم الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م

٣١ = بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس لأحمد بن يحيى

بن أحمد شهيرة الطبري (ت ٥٩٩هـ) دار الكاتب العربي ١٩٦٧م

٣٢ = بغية الوعاة وطبقات الفلويين والسنعاة لملاي الدين

السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفل إبراهيم ، مكتبة عيسى

البابي الحلبي وشركاه - مصر، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م

٣٣ = البهائية لمصطفى الدين الخطيب - المكتبة الإسلامية بيروت
الطبعة الثانية

٣٤ = البهائية - تاريخها وعتيدتها واصلتها بالباطنية والصهيونية
لعبد الرحمن الوكيل مطبعة السنة المحمدية القاهرة الطبعة
الاولى ١٣٨١هـ ١٩٦٢م

٣٥ = بيان إجاز القرآن للطايب أبي سليمان همد بن محمد بن
إبراهيم (٣٨٨٥هـ) <ثلاث رسائل في إجاز القرآن >
تحقيق وتعليق محمد خلق الله ، و - د / محمد زهلول - دار
المعارف بمصر الطبعة الاولى ١٩٧٦م

٣٦ = بيان تلبس المهية في تأسيس بدوهم الكلامية لشيخ
الإسلام ابن تيمية - تصحيح وتكميل وتعليق محمد بن همد
الرحمن بن قاسم - مطبعة الحكومة - مكة المكرمة - الطبعة
الاولى ١٣٩١هـ

٣٧ = البيهقي وموقفه من الألهيات للدكتور أحمد عطية الفامدى
المجلس العلمى بالجامعة الإسلامية الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م

حرف التاء

تاج الروس من جواهر القاموس الزيدى محمد مرتضى ، منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان ط ١ ١٤٠٦هـ

٣٨ = تاريخ بغداد للمافظ أبي بكر أحمد بن علي الططبي
البغدادى (٤٦٣هـ) دار الكتاب العربى - بيروت

٣٩ = تاريخ الحكماء لجمال الدين أبي الحسين علي بن يوسف
القلطرى - مكتبة المشنى - بغداد

٤٠ = تاريخ حكماء الإسلام لظهير الدين أبي الحسن علي بن زيد
البيهقي (٥٦٥هـ) تحقيق محمد كردعلى - المجمع العلمى
العربى - دمشق ١٣٦٥هـ ١٩٦٦م

٤١ = تاريخ الرسل والملوك ، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى
(٣١٠هـ) تحقيق محمد أبو الفل إبراھيم - دار المعارف بمصر
الطبعة الثانية

٤٢ = التاريخ الكبير للبغارى أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن
إبراهيم (٢٥٦هـ) دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان

٤٣ = التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية من الفرق

العزیز الناصر الرشید دار الرشید للنشر والتوزیع

- ٥٣ = التنبيه والإيضاح مما وقع في الصحاح لابن بري أبي محمد عبد الله بن بري المصري (٥٥٨٢هـ)
تقديمه بعض حجازي مرآة على التبري ناصف - الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الأولى ١٩٨٠م

٥٤ = تهافت الفلاسفة للفزالي أبي حامد (٥٥٥٥هـ) نشره مصطفى

البابى الحلبي وأخويه بمصر

٥٥ = تهذيب التهذيب لابن حجر أحمد بن علي العسقلاني (٨٥٢هـ)

مجلس دائرة المعارف النظامية - الهند، الطبعة الأولى

٥٦ = تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى (٣٧٠هـ)

تحقيق عبدالسلام محمد هارون ومراجعة محمد علي النجار -

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر - الدار المصرية

للتأليف والترجمة ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م

٥٧ = كتاب التوحيد وإشبات صفات الرب عز وجل للمافظ محمد بن

إسحاق بن هزيمة (٣١١هـ) مراجعة وتعليق محمد خليل هراس -

دار الكتب العلمية - بيروت لبنان ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م

٥٨ = التوراة - دراسة وتحليل - للدكتور محمد شلبى شتيوى -

مكتبة الفلاح - الكويت الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م

٥٩ = تيسير العزيز الحميد لسليمان بن عبدالله بن محمد بن

عبدالوهاب (١٢٣٣هـ) المكتب الإسلامى الطبعة الثالثة ١٣٩٨هـ

٦٠ = التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو عثمان بن سعيد

الداؤدي (٤٤٤هـ) تصحيح أوتويرتزل نشر جمعية المستشرقين

الألمانية ١٩٣٠م

٦١ = تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد

الرحمن بن ناصر السعدى المكتبة السلفية ومكتبتها ١٣٧٥هـ

حرف الجيم

٦٢ = جامع البيان عن تأويل آي القرآن في تفسير القرآن لأبي

جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ) دار المعرفة للطباعة

والنشر - بيروت ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م | الطبعة المحققة لمحمد محمد شاكر مراجعة دكتور
أحمد محمد شاكر - دار المعارف بمصر

٦٣ = الجامع لأحكام القرآن للقرطبي أبي عبدالله محمد بن أحمد

- ٦٤ = الأنصاري (ت ٦٧١هـ) دار التراث العربي بيروت لبنان ١٩٦٥-١٩٦٦م
الجرج والتعديل للإمام أبي محمد عبد الرحمن بن أبي
حاتم الرازي (ت ٣٢٧هـ) دار الكتب العلمية بيروت
الطبعة الأولى ١٣٧١هـ ١٩٥٢م
- ٦٥ = جهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي أبي محمد علي بن
أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ) تحقيق محمد عبدالسلام محمد هارون
دار المعارف - الطبعة الرابعة
- ٦٦ = جواهر المعاني وبلوغ الأمان في فيض سيدي أبي العباس
التجاني لعلي حرازم بن العربي يرادة المغربي الفاسي،
شركة مكتبة ومطبعة البياي الحلبي - الطبعة
الأخيرة ١٣٨٢هـ

حرف الحاء

- ٦٧ = حاضر العالم الإسلامي تأليف لو شروب ستودارد الأمريكي -
نقله إلى العربية الأستاذ عجاج نويهي تعليق الأمير شكيب
أرسلان ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع
الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ ١٩٧٣م
- ٦٨ = حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للمسبوطي - تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربية عيسى
البياي الحلبي ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م
- ٦٩ = حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم أحمد
بن عبد الله الأصفهاني (ت ٤٣٠هـ) المكتبة السلفية
- ٧٠ = حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر للشيخ عبد
الرزاق البيطار (ت ١٣٣٥هـ) تحقيق وتنسيق محمد بهجة البيطار
مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق - ١٣٨هـ ١٩٦١م

حرف الخاء

- ٧١ = خلق أعمال العباد للبخاري الإمام محمد بن إسماعيل
(ت ٢٥٦هـ) تخريج وتعليق بدر البدر - دار السلفية حولي -
الكويت الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م

٧٢ = خلق لتطور - لفريق من العلماء - تعريب د / إحسان حقى -
دار النفايس - بيروت الطبعة الرابعة ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م

حرف الدال

٧٣ = درم تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق
د / محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م

٧٤ = الدرر الكامنة فراعين المائة الثامنة للحافظ ابن حجر
العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ) تحقيق محمد سيدى جادالمق دار
الكتب الحديثة - مصر

٧٥ = الدر المنثور فى التفسير بالماثور للسيوطى - دار
المعرفة للطباعة والنشر

٧٦ = دعوة التوحيد أصولها والادوار التى مرت بها ومشاهير
دعاتها - للدكتور محمد خليل هراس دار الكتب العلمية -
بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م

٧٧ = دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١ هـ)
تعليق وشرح محمد عبد المنعم خفاجى مكتبة القاهرة ١٣٩٦ هـ
١٩٧٦ م

٧٨ = دلائل التوحيد للشيخ محمد جمال الدين القاسمى - دار
الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ ١٩٨٤ م

٧٩ = الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء الذهب لابن فرحون
المالكي (ت ٧٩٩ هـ) تحقيق د / محمد الاحمد ابوالنور - مكتبة
دار التراث مصر

٨٠ = ديوان روية بن العجاج ضمن مجموع أشعار العرب تصحيح وترتيب ولهم به البرد البردى
طبع في دار غوليمه في مدينة ليمبغ ٢١٩٠٣
حرف الذا

٨١ = ذيل تاريخ بغداد لابن النجار محب الدين أبى عبد الله
محمد بن محمود البغدادي (ت ٦٤٣ هـ) تصحيح د / قيصر فرج وآخرين
دار الكتاب العربى بيروت

حرف الراء

- ٨٢ = الرد على الجهمية للدارمي عثمان بن سعيد (ت ٢٨٠هـ) تخريج
وتعليق بدر البدر - دار السلفية حولي الكويت الطبعة
الأولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م
- ٨٣ = الرسالة الأكلمية لشيخ الإسلام ابن تيمية مقابلة
وفهرست وتقديم أحمد حمدي إمام مطبعة المدنى - القاهرة
مصر ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م
- ٨٤ = الرسالة التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق زهير
الشاويين - المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الثانية ١٣٩١هـ
- ٨٥ = رسالة التوحيد للإمام محمد عبده - دار النصر للطباعة -
القاهرة ١٩٦٩م
- ٨٦ = الرسالة الشافية لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني - (ضمن
ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) تحقيق وتعليق محمد خلف
الله ، ود/ محمد زغلول - دار المعارف بمصر الطبعة
الأولى ١٩٧٦م
- ٨٧ = الروح لابن القيم ، تحقيق ودراسة د/ السيد الجميلي -
دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م
- ٨٨ = روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني
للعلامة أبي الفضل شهاب الدين محمود الألوكي (ت ١٢٧٠هـ) دار
الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م
- ٨٩ = الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد
والفتون المتنوعة القاهرة للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى
(ت ١٣٧٦هـ) الرئاسة العامة لإدارت البحوث العلمية
والإفتاء والدعوة والإرشاد الرياض ١٤٠٥هـ

حرف الزاي

- ٩٠ = زاد المسير فرعلم التفسير لأبي الفرج جمال الدين عبد
الرحمن بن عليّ الجوزي (ت ٥٩٧هـ) المكتب الإسلامي - دمشق

٩١ = زاد المعاد في هدى خير العباد لابن قيم الجوزية تحقيق
شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط مؤسسة الرسالة
الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م

حرف السين

- ٩٢ = سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ محمد ناصر الدين
الألباني - المكتب الإسلامي - دمشق ومكتبة المعارف الرياض
- ٩٣ = سنن ابن ماجه للحافظ أبي عبدالله محمد بن يزيد
القزويني (ت ٢٧٥هـ) تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي
المكتبة العلمية - بيروت
- ٩٤ = سنن أبي داود - للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن
الأشعث السجستاني الأزدي (ت ٢٧٥هـ) تحقيق محمد محي الدين
عبد الحميد - المكتبة العصرية - صيدا - بيروت
- ٩٥ = سنن الترمذي - الجامع الصحيح - لأبي عيسى محمد بن سورة
الترمذي (ت ٢٧٩هـ) تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين - مكتبة
البايبي الحلبي . الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م
- ٩٦ = سنن الدارمي - للإمام أبي محمد عبدالله عبدالرحمن بن
الفضل الرازي (ت ٢٥٥هـ) دار إحياء السنة النبوية - بعناية
محمد أحمد
- ٩٧ = سنن النسائي للإمام الحافظ أبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب
النسائي (ت ٣٠٣هـ) المطبوع مع شرح السيوطي وحاشية السندي
دار الحديث القاهرة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م
- ٩٨ = السنة لأبي بكر أحمد محمد بن هارون الخلال (ت ٣١١هـ) دراسة
وتحقيق د/ عطية الزهراني دار الراية للنشر والتوزيع
الرياض الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ١٩٨٩م
- ٩٩ = السنة لابن أبي عاصم الشيباني الحافظ (ت ٢٨٧هـ) ومعه
ظلال الجنة في تخريج السنة للناسخ ، المكتب الإسلامي
بيروت لبنان الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م

١٠٠ = السنة للإمام عبد الله بن الإمام أحمد بن محمد حنبل
(ت ٢٩٠هـ) تحقيق ودراسة د/ محمد بن سعيد القحطاني دار
ابن القيم - الدمام - المملكة العربية السعودية الطبعة
الأولى ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م

١٠١ = سير اعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن
عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ) تحقيق شعيب الارناؤوط وآخرين -
مؤسسة الرسالة - بيروت ط (٢٤) ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م

١٠٢ = السير النبوية لابن هشام أبي محمد عبد الملك بن هشام
(ت ٢١٣هـ) تعليق وتخرّيج د/ عمر عبد السلام تدمري -
دار الريان للتراث - القاهرة الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٧٨

حرف الثنين

١٠٣ = شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن
محمد مخلوف - دار الكتاب العربي - بيروت ١٣٤٩هـ

١٠٤ = شذرات الذهب في أخبار من ذهب للمؤرخ الفقيه أبي
الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ) مكتبة
القدم - القاهرة - ١٣٥٠هـ

١٠٥ = شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة
وإجماع الصحابة والتابعين من بعدهم للحافظ أبي
القاسم هبة الله بن الحسن الطبري الدلكاشي (ت ٤١٨هـ)
تحقيق د/ أحمد سعد محمدان، دار طيبة للنشر والتوزيع -
الرياض

١٠٦ = شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار بن أحمد - تعليق
الإمام أحمد بن الحسين بن أبي هاشم تحقيق د/ عبد الكريم
عثمان - مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م

١٠٧ = شرح العقائد النسفية لسعد الدين التفنيزي مكتبة
المشترى بغداد - طبعة بالأفست

١٠٨ = شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز تخرّيج محمد صادق

- الدين الألبانى - مكتبة الدعوة الإسلامية - شباب الأزهر
- ١٠٩ = شرح القصيدة النبوية الممماة الكافية الشافية فى الانتصار للفرقة الناجية - شرح وتحقيق د/ محمد ^{علاء} هراس - دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر - مصر
- ١١٠ = شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها جمع وتصحيح أحمد بن الأمين الشنقيطى - المطبعة الرحمانية - مصر الطبعة الثالثة ١٣٣٨ هـ
- ١١١ = الشريعة للإمام أبى بكر محمد بن الحسين الأجرى (ت ٣٦٠ هـ) تحقيق محمد حامد الفقى - دار الكتب العلمية بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م
- ١١٢ = الشعروالشعراء لابن قتيبة عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ) تحقيق أحمد محمد شاکر - دار المعارف - مصر ١٩٦٦ م
- ١١٣ = شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن قيم الجوزية - تحرير الحسانى حسن عبد الله - مطبعة السنة المحمدية - القاهرة

حرف الصاد

- ١١٤ = الصحاح - تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (ت ٣٩٣ هـ) تحقيق أحمد عبد الغفور عطار دار العلم للملايين الطبعة الثالثة ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م
- ١١٥ = صحيح البخارى مع شرحه فتح البارى للإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى (ت ٢٥٦ هـ) ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي - تصحيح محب الدين الخطيب - المطبعة السلفية ومكتبتها
- ١١٦ = صحيح الترمذى والترغيب والترهيب للمنذرى اختيار وتحقيق محمد ناصر الدين الألبانى - المكتب الإسلامى ببيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م
- ١١٧ = صحيح مسلم للإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابورى (ت ٢٦١ هـ) تحقيق وتصحيح وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربى

الأولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م

١٢٨ = عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية - تأليف أحمد بن سعيد حمدان الغامدي ، دار طيبة الرياض - الطبعة

الأولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م

١٢٩ = عقيدة السلف وأصحاب الحديث للصابوني أبي عثمان إسماعيل (ت ٤٤٩٩هـ) المطبوع ضمن الرسائل المنيرية إدارة الطباعة المنيرية دار إحياء التراث العربي - بيروت

١٣٠ = عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي للدكتور صالح بن عبد الله العبود -

المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

١٣١ = فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ أحمد بن علي بن مجد العسقلاني - (ت ٨٥٢هـ) ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي

تصحيح محب الدين الخطيب المطبعة السلفية ومكتبتها

١٣٢ = فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، لمحمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) شركة ومكتبة

ومطبعة البابي الحلبي مصر - الطبعة الثانية ١٣٨٣هـ ١٩٦٤

١٣٣ = الفتوى الحموية الكبرى ، لشيخ الإسلام ابن تيمية تقديم محمد عبد الرزاق حمزة مطبعة المدني - ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م

١٣٤ = الفرق بين الفرق لعبد القاهر بن طاهر البغدادي (ت ٤٢٩هـ) دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ

١٩٨٥م

١٣٥ = الفصل في الملل والأهواء والنحل ، لابن حزم أبي محمد علي بن أحمد (ت ٥٦٦هـ) دار المعرفة بيروت ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م

١٣٦ = الفوائد البهية في تراجم الحنفية لمحمد بن عبد الحس الكنوي الهندي تصحيح وتعليق محمّد بدرالدين

دار المعرفة بيروت

١٣٧ = في ظلال القرآن لسيد قطب - دار الشروق الطبعة الشرعية التاسعة ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م

حرف القاف

- ١٣٨ = القاموس المحيط ، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي
شركة مكتبة ومطبعة الباب الحلي الطبعة الثانية ١٣٧١هـ ١٩٥٢م
- ١٣٩ = القراءات الشاذة وتوجيهها في لغة العرب لعبد الفتاح
القاضي دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الاولى ١٤٠١هـ ١٩٨١م
- ١٤٠ = القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم - د/ مورييس
بوكاي - جمعية الدعوة الإسلامية طرابلس - ليبيا
- ١٤١ = قصص الانبياء لابن كثير تحقيق د/ مصطفى عبد الواحد الطبعة
الثالثة ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م

- ١٤٢ = قصة الحضارة لول ديورانت ترجمة د/ زكي نجيب محمود
وأخرين الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية الطبعة
الرابعة

- ١٤٣ = قضية الألوهية بين الفلسفة والدين < الله ذاتا وموضوعا >
لعبد الكريم الخطيب دار الفكر العربي الطبعة الثانية

حرف الكاف

- ١٤٤ = الكافي للكليشي محمد بن يعقوب الرزي (ت هـ) تصحيح
نجم الدين الآملي المطبعة الإسلامية طهران ١٣٨٨هـ

- ١٤٥ = الكامل في التاريخ لأبي الحسن علي بن أبي الكريم
عز الدين ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) دار الكتاب العربي بيروت الطبعة
السادسة ١٤٠٦هـ ١٩٢٩م

- ١٤٦ = الكتاب المقدس المطبعة الأمريكية ببيروت ١٩٢٩م - الترجمة العربية

- ١٤٧ = الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لمكي بن
أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ) محقق د/ محي الدين رمضان
مجمع اللغة العربية دمشق ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م

- ١٤٨ = الكواشف الجليلة عن معاني الواسطية لعبد العزيز المحمد
السلطان شركة الراجحي للصرافة والتجارة الطبعة
العاشر ١٤٠١هـ ١٩٨١م

حرف اللام

- ١٤٩ = الله يتجلى في عصر العلم لنخبة من العلماء الأمريكيين
ترجمة د/ الدمرداش عبد المجيد سرحان مراجعة وتعليق
د/ محمد جمال الدين الفندي دار القلم بيروت لبنان
- ١٥٠ = لسان العرب لأبي منظور الإفريقي دار صادر بيروت
- ١٥١ = لسان الميزان لأبن حجر العسقلان مجلس دائرة المعارف
النظامية بالهند حيدرآباد الدكن الطبعة الأولى ١٣٢٩هـ
- ١٥٢ = لوامع الانوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح
الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية لشيخ محمد بن أحمد
السفاري في الحنبلي (ت ١١٨٩هـ) مؤسسة الخائفين ومكتبتها
دمشق الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م

حرف الهيم

- ١٥٣ = المجدون في الإسلام من القرن الأول إلى الرابع عشر لعبد
المتعال الصعدي مكتبة الآداب ومطبعاتها بالجماميز
- ١٥٤ = مجمل اللفه لأبي الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ) دراسة
وتحقيق زهير عبد المحسن سلطان مؤسسة الرسالة الطبعة
الأولى ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م
- ١٥٥ = مجمع فتاوى ابن تيمية جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد
بن قاسم وابنه محمد ط ١٤٠٤هـ
- ١٥٦ = محاضرات في النصرانية لمحمد أبو زهرة دار الفكر
العربي القاهرة الطبعة الثانية
- ١٥٧ = المحكم والمحيط الأعظم في اللفه لعلي بن إسماعيل بن
سيدة (ت ٤٥٨هـ) تحقيق د/ مراد كامل شركة مكتبة ومطبعة
الباي الحلبي مصر الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م
- ١٥٨ = مدارج السالكين بين منازل «إياك نعبد وإياك نستعين»
لمن فيم الحوزية دار الكنت العلمية بيروت لبنان
الطبعة الأولى ١٣٧٥هـ ١٩٥٦م

- ١٥٩ = الذاهب المعاصرة وموقف الاسلام منها للدكتور عبد الرحمن عميرة دار اللواء للنشر والتوزيع الرياض الطبعة الخامسة ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م
- ١٦٠ = المسائل الخمسون في اصول الدين لغير الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ) تحقيق د / احمد حجازي السقا المكتب الثقافي للنشر والتوزيع الازهر الطبعة الاولى ١٩٨٩ م
- ١٦١ = المستدرک علی الصمیعین فی الحدیث للحکیم أبی عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٤٠٥ هـ) وفي ذيله تلخيص المستدرک للذهبي دار الفكر بيروت ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م
- ١٦٢ = المستفاد في ذيل تاريخ بغداد لابن النجار العافظ أبى عبد الله محمد بن محمود البغدادي (ت ٦٤٣ هـ) انتقاء كاتبه ابن الدمياطي تحقيق د / قيصر أبو فرج دار الكتاب العربي
- ١٦٣ = المسك الأذفر في نشر مزايا القرن الثامن عشر والثالث عشر لمحمود شكري الألوسي تحقيق د / عبد الله الصبوري دار العلوم للطباعة والنشر الرياض ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م
- ١٦٤ = مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) دار الكتب العلمية الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م
- ١٦٥ = مشكاة المصابيح لمحمد عبد الله الخطيب التبريزي تحقيق محمد ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م
- ١٦٦ = مصباح الزجاجاة في زوائد ابن ماجه تأليف العافظ أحمد بن أبى بكر بن إسماعيل بن سليم الكناني البوصيري تحقيق وتعليق محمد المنتقى الكشناوي دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع بيروت الطبعة الاولى ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م
- ١٦٧ = معالم التنزيل < تفسير البغوي > لأبى محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت ٥١٦ هـ) تحقيق خالد عبد الرحمن العك ومروا السوار - دار المعرفة بيروت الطبعة الاولى ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م

- ١٦٨ = معاني القرآن للفراء أبي زكريا يحيى بن زياد (ت ٢٠٧هـ) تحقيق
ومراجعة محمد علي النجار دار المصرية للتأليف والترجمة
- ١٦٩ = معجم الأدباء لياقوت الحموي شهاب الدين (ت ٦٢٦هـ) مطبوعات
دار المأمون مكتبة البابي الحلبي مصر الطبعة الأخيرة
- ١٧٠ = معجم البلدان لياقوت الحموي - دار إحياء التراث العربي
بيروت لبنان
- ١٧١ = معجم المؤلفين لعمر رضا كعالة - دار إحياء التراث
العربي - بيروت لبنان
- ١٧٢ = معجم مقاييس اللغة لابن فارس أبي الحسن أحمد بن فارس
بن زكريا (ت ٣٩٥هـ) تحقيق وضبط عبد السلام مصيد هارون
البابي الحلبي - الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م
- ١٧٣ = معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار للذهبي شمس
الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) تحقيق وتعليق
بشار هواز وآخرين مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى
١٩٨٤هـ ١٤٠٤م
- ١٧٤ = مفاتيح اللبيب من كتب الأمازيغ لابن هشام الأنصاري
(ت ٧٦١هـ) تحقيق محمد موسى الدين عبد الحميد المكتبة
العصرية ضية بيروت لبنان ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م
- ١٧٥ = مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن
القيم - دار الكتب العلمية - بيروت
- ١٧٦ = مفتاح السعادة ومصباح السيادة في مؤلفات العلم ،
لأحمد بن مصطفى الشهير بطائف كسرى زاده - مراجعة
وتحقيق كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور - دار الكتب
الحديثة
- ١٧٧ = المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني أبي القاسم
الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ) تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني -
دار المعرفة بيروت

- ١٧٨ = مقالات الإسلاميين وأشهر المصلين للإمام أبي الحسن
على بن إسماعيل الأشعري (ت ٣٣٠هـ) تحقيق محمد محيي الدين
عبد الحميد مكتبة النهضة المصرية القاهرة الطبعة الثانية
- ١٧٩ = الملل والنحل للشهرستاني أبي الفتح محمد بن عبد الكريم
(ت ٥٤٨هـ) المطبوع على هامش الفصل - دار المعرفة ببيروت
الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م
- ١٨٠ = مناهج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد تقديم وتحقيق
د/ محمود قاسم مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٥٥م
- ١٨١ = مناهج السنة النبوية لابن تيمية - تحقيق د/ محمد
رشاد سالم - جامعة الإمام محمد بن سعود
الإسلامية الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م
- ١٨٢ = المنهاج في شعب الإيمان للمصطفى أبي عبد الله
الحسين بن الحسن (ت ٤٠٣هـ) تحقيق هلمى محمود مؤده دار
الفكر الطبعة الأولى - ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م
- ١٨٣ = منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان للدكتور هلمى بن
محمد ناصر التقيى الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م
- ١٨٤ = منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير د/ فهد عبد
الرحمن الرومي - مؤسسة الرسالة ببيروت لبنان الطبعة
الثالثة ١٤٠٧هـ
- ١٨٥ = موارد اللسان الى زوايد ابن هبان للنهيشى نور السدين
(ت هـ) تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة - دار الكتب العلمية
بيروت لبنان
- ١٨٦ = المواقد في علم الكلام للإمام عبد الرحمن بن أحمد
القاسى (ت ٧٥٦هـ) عالم الكتب - بيروت
- ١٨٧ = موجز تاريخ العالم ه.ج ويلز - ترجمة عبد العزيز توفيق
جاويد ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة
- ١٨٨ = ميزان الإعتدال في نقد الرجال للذهبي تحقيق هلمى محمد
البحاوى ولتعمية على البجاوى دار الفكر العربى

حرف النون

- ١٨٩ = كتاب النبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية دار الكتب العلمية بيروت لبنان ٥١٤٠٥-١٩٨٥م
- ١٩٠ = النجوم الزاهرة لابن تغري بردى أبى المعاسن جمال الدين (ت ٨٧٤هـ) دار الكتب المصرية
- ١٩١ = النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى - إشراف على بن محمد الصباغ على التصحيح والمراجعة/المكتبة التجارية الكبرى مصر
- ١٩٢ = النكت فى إيجاز القرآن للرماضى أبى الحسن على بن هبى (ت ٣٨٦هـ) <ضمن مجموعة ثلاثة رسائل فى إيجاز القرآن > تحقيق وتعليق محمد خلف الله ود/ محمد بن زكلول - دار المعارف بمصر الطبعة الأولى ١٩٧٦ م
- ١٩٣ = نهاية الإقدام فى علم الكلام للشهرستانى أبى الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ) تحرير وتصحيح الفردوس
- ١٩٤ = النهاية فى غريب الحديث لابن الأشير مجد الدين أبى المعادات (ت ٦٠٦هـ) تحقيق طاهر الزاوى ومحمود الطنناصى - دار إحياء الكتب العربية - الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ
- ١٩٥ = النهاية فى الفتن والملاحم لابن كشير - تحقيق محمد أحمد عبد العزيز - دار الحديث
- ١٩٦ = خيل الوطر من تراجم رجال اليمن فى القرن الثالث عشر لمحمد بن محمد بن يحيى زبلة اليمن - المطبعة السلفية ومكتبها القاهر ١٣٥٠هـ

حرف الواو

- ١٩٧ = الواوى بالوفيات للصلدى - علاج الدين خليل بن أبىك - دار النشر فرانكفورت بقرنشتاين بقمسبادى ١٣٨٩هـ-١٩٧٠م
- ١٩٨ = الوهى للمحمدى لمحمد رشيد رفاء مكتبة القاهرة الطبعة السادسة ١٣٨٠هـ-١٩٦٠م
- ١٩٩ = وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان أبى

العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ) شقيق د / إسمان
عباس ، دار الثقافة بيروت

حرف الياء

٢٠٠ = تهجئة الدهر في معاني أهل العصر للشمس أبي منصور
عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩هـ) دار الكتب العلمية الطبعة
الأولى ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م

سادسا : فهرس الموضوعات

الموضوع	المفـحة
= المقدمة	١
= التمهيد	٢
= الباب الاول : مباحث التوحيد	٣
= المدخل : تعريف التوحيد وتقسيمه	٤
= الفصل الاول : مباحث توحيد الربوبية .	١٠
= المبحث الاول : تعريف توحيد الربوبية	١١
= المعنى الشرعي لتوحيد الربوبية	١٢
= تقسيمه	١٣
= منزلة توحيد الربوبية	١٤
= المبحث الثاني: دلالة السورة على الربوبية العامة .	١٦
= دليل الخلق والإيجاد	١٦
= دليل العناية	٢٥
= المبحث الثالث: دلالة السورة على الربوبية الخاصة	٤٣
= المبحث الرابع: ادلة المتكلمين على توحيد الربوبية	٣٩
= دليل التمانع	٤٠
= دليل الحركة	٤٣
= المبحث الخامس: بيان أهمية الاستدلال لتوحيد الربوبية	٤٧
= المبحث السادس : مباحث الإيمان بالقدر	٥٥
= سبق القضاء والقدر بما هو كائن قبل أن يكون ...	٥٦
= الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى	٦٠
= الفصل الثاني : مباحث توحيد الألوهية	٦٤
= تعريف توحيد الألوهية اللغوي	٦٥

٦٨	= التعريف الشرعي وبيان منزلته	٢٣
٦٩	= علاقته بتوحيد الربوبية	٢٤
٧٠	= المبحث الثاني : دلالة السورة على توحيد الألوهية	٢٥
٧١	= تقرير توحيد الألوهية في السورة	٢٦
٧٧	= أنواع العبادات الواردة في السورة	٢٧
٧٨	= العبادات القلبية	٢٨
٨٩	= العبادات القولية	٢٩
١٠١	= عبادات الجوارح والعبادات المالية	٣٠
١٠٦	= شرطا قبول العبادة	٣١
١٠٨	= المبحث الثالث : الشرك وخطره كما عرضت له السورة .	٣٢
١١١	= المبحث الرابع عرض السورة لتنزيه الله عن الشريك	٣٣
١٢٤	= المبحث الثالث : مباحث توحيد الأسماء والصفات ..	٣٤
١٢٥	= المبحث الأول : تعريفه وبيان مذهب السلف فيه	٣٥
١٢٧	= المخالفون للسلف في باب الأسماء والصفات	٣٦
١٣٠	= المبحث الثاني : دلالة آيات السورة على بعض صفات الله	٣٧
١٣٥	= الآيات التي وردت فيها صفة الرحمة	٣٨
١٣٩	= الآيات الدالة على صفة الكلام	٣٩
١٤٧	= الآيات الدالة على الصفات الأخرى	٤٠
١٥١	= المبحث الثالث : شبه المخالفين للسلف في باب الصفات	٤١
١٥٨	= الباب الثاني : مباحث الإيمان بالملائكة والنبوات ..	٤٢
١٥٩	= الفصل الأول الإيمان بالملائكة	٤٣
١٦٠	= المبحث الأول تعريف الملائكة	٤٤
١٦٢	= الإطلاق الشرعي للفظ الملائكة	٤٥
١٦٤	= المبحث الثاني : صفات الملائكة	٤٦
١٦٧	= المبحث الثالث : المهمات المناطة بالملائكة	٤٧
١٧٤	= الفصل الثاني : مباحث الإيمان بالنبوات	٤٨

١٧٥ = ٤٩ المدخل إلى الفصل
١٧٧ = ٥٠ المبحث الأول تعريف النبي والرسول
١٧٧ = ٥١ التعريف اللغوي للفظين
١٧٨ = ٥٢ التعريف الشرعي
١٨٠ = ٥٣ عدد الانبياء والمرسلين
١٨١ = ٥٤ المبحث الثاني: النبوات الواردة في السورة
١٨١ = ٥٥ ذكر موسى وهارون عليهما السلام
١٨٢ = ٥٦ ذكر إبراهيم عليه السلام وابنيه إسحق ويعقوب
١٨٤ = ٥٧ ذكر لوط عليه السلام
١٨٥ = ٥٨ ذكر نوح عليه السلام
١٨٦ = ٥٩ ذكر داود وسليمان عليهما السلام
١٨٩ = ٦٠ ذكر ايوب عليه السلام
١٩٠ = ٦١ ذكر إسماعيل وإدريس وذى الكفل عليهم السلام
١٩٢ = ٦٢ ذكر يونس عليه السلام
١٩٣ = ٦٣ ذكر زكريا ويحي وعيسى عليهم السلام
١٩٦ = ٦٤ المبحث الثالث صفات الانبياء والرسول عليهم السلام
١٩٧ = ٦٥ الصفات الخلقية
٢٠٣ = ٦٦ الصفات الخلقية
٢٠٧ = ٦٧ وظائف الانبياء والمرسلين عليهم السلام
٢١٢ = ٦٨ المبحث الرابع : الوحي
٢١٧ = ٦٩ المبحث الخامس دلائل صدق الانبياء عليهم السلام
٢١٧ = ٧٠ تعريف المعجزة
٢١٩ = ٧١ القرآن الكريم (معجزة الرسالة المحمدية)
٢٢١ = ٧٢ المسألة الثانية (أوجه الإعجاز في القرآن الكريم)
٢٢٦ = ٧٣ معجزات الانبياء السابقين: نجات إبراهيم عليه السلام من النار

٢٢٦	= تسخير الجبال والطيروالحديد لداود عليه السلام.....
٢٢٧	= تسخير الريح لسليمان عليه السلام.....
٢٢٨	= نصر الله سبحانه الانبياء والرسل عليهم السلام.....
٢٣٠	= الاستدلال بثبوت جنس النبوة على نبوة النبي المعين
٢٣٣	= المبحث السادس وجوب متابعة الرسل وبيان خطر مخالفتهم
٢٣٤	= مواقف السعداء وعاقبته.....
٢٣٦	= مواقف الاشقياء.....
٢٤٣	= عاقبة مواقف الاشقياء وجزاؤه.....
٢٤٨	= الفصل الثالث الايمان بالكتب.....
٢٤٩	= الكتب السماوية التي ورد ذكرها في السورة.....
٢٥٢	= صحف ابراهيم وموسى.....
٢٥٣	= التوراة.....
٢٥٤	= الزبور.....
٢٥٥	= الانجيل.....
٢٥٦	= القرآن الكريم.....
٢٥٨	= الباب الثالث مباحث الايمان باليوم الاخر.....
٢٦٠	= الفصل الاول ادلة قيام الساعة والبعث بعد الموت
٢٦١	= المبحث الاول ادلة إمكانية البعث من السورة
٢٦٢	= قدرة الله عزوجل على ما هو اعظم من البعث
٢٦٦	= المبحث الثاني ادلة وجوب قيام يوم الجزاء
٢٧٠	= الفصل الثاني ميعاد قيام الساعة واشراطها
٢٧١	= المبحث الاول ميعاد قيام الساعة

٢٧٤	= ٩٦ المبحث الثانى اشراط الساعة
٢٧٥	= ٩٧ خروج ياجوج وماجوج
٢٧٩	= ٩٨ بقية اشراط الساعة ، الدخان
٢٨٠	= ٩٩ الدجال
٢٨٢	= ١٠٠ نزول عيسى بن مريم عليه السلام
٢٨٣	= ١٠١ الدابة
٢٨٤	= ١٠٢ طلوع الشمس من مغربها
٢٨٥	= ١٠٣ الخموفات الثلاثة
٢٨٦	= ١٠٤ النار
٢٨٧	= ١٠٥ الفصل الثالث وقائع يوم القيامة واهواله
٢٨٩	= ١٠٦ المبحث الاول النفخ فى الصور
٢٩٢	= ١٠٧ المبحث الثانى إتهيار نظام الكون
٢٩٦	= ١٠٨ المبحث الثالث الحساب
٣٠١	= ١٠٩ المبحث الرابع الميزان
٣٠٣	= ١١٠ صفة الميزان
٣٠٩	= ١١١ المبحث الخامس الجنة والنار
٣١٢	= ١١٢ ذكر النار
	= ١١٣ الخاتمة
٣١٥	= ١١٤ فهرس آيات سورة الانبياء
٣١٨	= ١١٥ فهرس آيات من غير سورة الانبياء
٣٣٥	= ١١٦ فهرس الاحاديث
٣٣٩	= ١١٧ فهرس الاعلام المترجم لهم
٣٤١	= ١١٨ فهرس المصادر والمراجع
٣٦٢	= ١١٩ فهرس الموضوعات

ومناك قول آخر فى تفسير الآية للمفسرين وهو أن الواو عاطفة فيكون جواب <<إذا>> مقدرًا بعده أى إذا فتحت ياجوج وماجوج واقترب الوعد الحق تشخص أثمار الكفار ويقولون ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا (١).

وقوله تعالى: (فإذا هي شاخته أثمار الذين كفروا) أى أنه إذا اقتربت الساعة ودخلت علاماتها الكبرى التى تزيل الشك، وتورث اليقين بوقوعها، تظهر علامات الندم والحسرة على الكفار، وذلك بشخوص أثمارهم، وهوبروزها حتى لا تكاد تطرف، ويظهرون ندمهم بقولهم: (ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين)

قال ابن جرير: " وقوله: (ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا) يقول تعالى ذكره فإذا أثمار الذين كفروا قد شاخت عند مجيء الوعد الحق بأمواله وقيام الساعة بحقائقها وهم يقولون: ياويلنا قد كنا قبل هذا الوقت فى الدنيا فى غفلة من هذا الذى نرى ونعائين، ونزل بنا من عظيم البلاء " (٢).

فخروج ياجوج وماجوج إذا من علامات قرب الساعة، وقد عدّها الرسول صلى الله عليه وسلم من العلامات العشر الكبرى.

فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إنها (٣) لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات) فذكر: الدخان، والدجال، والدابة وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم، وياجوج وماجوج، وثلاثة خسوف خسف بالشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم) (٤).

أما من هم ياجوج وماجوج فهما علمان على قبيلتين عظيمتين من بنى آدم، وقد اختلف اللغويون حول الاسمين، فقليل هما أعجميان وعليه فلا اشتقاق لهما فى اللغة العربية (٥).

(١) انظر زاد المسير ٢٨٩/٥ والقرطبي ٣٤٢/١١ وقد ذكر القولين أما أبو السعود فاقترع على الثانى انظر تفسيره ٥٢٦/٣ وانظر أيضا تفسير الألوسي ٩٢/١٧ .

(٢) تفسير الطبري ٧٣/١٧ - ٧٤

(٣) الضمير راجع إلى الساعة التى كانوا يتذكرون حولها فأخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالحديث.

(٤) أخرجه مسلم فى كتاب الفتن وأشراف الساعة ٤-٥/٤٤٤٦-٤٤٤٧ [٣٩]

(٥) انظر تهذيب اللغة ٢٣٤/١١ - ٢٣٥ مادة (ياجوج) وفتح الباري ١٠٦/١٣ .

وذكر أن لبثه في الأرض أربعون يوما ، يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة (أى كاسبوع) وسائر أيامه كالأيام اليهودية ،

وذكر فيه أنه يأتي القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت ، ويأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فيصرف عنهم ، فيصبحون مملحين ليس بأيديهم من أموالهم شيء ،

وذكر فيه أنه بينما يفتن الناس ينزل عيسى بن مريم عليه السلام فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله ،

ومن فوائد هذا الحديث ذكره بعض ما يعصم من فتنة الدجال :

وهو قراءة فواتح سورة الكهف ، وجاء في أحاديث أخرى : (من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال) وفي رواية من (آخر سورة الكهف) (١) وقد ورد في الأحاديث أن الدجال لا يدخل مكة والمدينة (٢) فسكنامما إبان فتنة عممة أيضا .

(١) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين ٥٥٥/١ ح <٢٥٧>
(٢) ورد ذلك في صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراف الساعة ٢٢٦٥/٤ ح <١٢٢> وورد في البخاري ذكر عدم دخوله المدينة فقط في كتاب الفتن باب لا يدخل الدجال المدينة ١٠١/١٣

٣ = نزول عيسى بن مريم عليه السلام ونزوله عليه السلام يكون بعد خروج الدجال وإفساده فى الأرض ، فينزل عليه السلام فيقتل الدجال ، ويكون إمام المسلمين وحاكمهم ، فيكسر المليب ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويقا تل المسلمون تحت لوائه الكفار ، وبخاصة اليهود والنصارى، أما اليهود فلأنهم أكثر أتباع الدجال ، فيقاتلهم المسلمون حتى يقول الشجرة يامسلم : هذا يهودى ورائى فتعال اقتله ، وأما النصارى فلأنهم حرفوا دين المسيح عليه السلام ، والإشارة إليهم فى الحديث الذى ورد فيه أن عيسى يكسر المليب ويقتل الخنزير ، لأن النصارى عباد المليب وأكألو الخنزير ، ومن أدلة نزول المسيح عليه السلام آخر الزمان من الكتاب :

قوله تعالى: (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيمة يكون عليهم شهيدا) (١)

قال ابن جرير فى تفسير الآية: (اختلف أهل التأويل فى معنى ذلك: فقال بعضهم : معنى ذلك وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به يعنى بعيسى قبل موته يعنى قبل موت عيسى ، يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتضير الملل كلها واحدهم ملة الإسلام الحنيفة ، دين إبراهيم صلى الله عليه وسلم) (٢)

وقد روى هذا القول عن غير واحد من أئمة التفسير وعلى رأسهم ابن عباس ورجحه بعد ذكر الأقوال الأخرى (٣)

ورجحه ابن كثير أيضا فى تفسيره (٤)

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم : (والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فىكم

ابن مريم حكما عدلا فيكسر المليب ويقتل الخنزير ويضع الحرية ...) الحديث (٥)

وكذا ما مر فى قصة قتله للدجال، وقد بلغت الأحاديث التى وردت فيه حد التواتر (٦)

فلا ينبغي الالتفات إلى من أنكر ذلك بدعوى أنها أحاديث آحاد وبغيرها من الدعاوى الباطلة .

(١) سورة النساء الآية (١٥٩)

(٢) تفسير الطبرى ١٤/٦

(٣) انظر المصدر نفسه ١٦/٦

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٥٩٠/١

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب أحاديث الأنبياء باب نزول عيسى بن مريم عليه السلام ٤٩٠/٦ - ٤٩١ ومسلم فى كتاب الإيمان ١٢٥/١ ج ٢٤٢ يلفظ (ويضع الجزية) أى لا يقبل من الكفار إلا الإسلام فلا يقبل الجزية لأن شبهة الكتابية قد زالت عن أهل الكتاب بقى بنزوله . انظر شرح التوى ١٩٠/٢ وفتح البارى ٤٩١/٦ - ٤٩٢

٤ = الدابة

قال تعالى : (وإذا وقع الفول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) (١)

وهذه الآية صريحة في خروج الدابة وأن ذلك يقع حين يقع الفول على العباد، أي حين يجب الوعد عليهم لتماديهم في العصيان والطغيان وإعراضهم عن آيات الله وإغراقهم في المعاصي (٢)

وهذه الدابة تكلم الناس أي الكلام المعروف ، وقيل إنها تسم الناس فتجعل للمؤمن علامة مخالفة لعلامة الكافر ، ولا منافاة بين هذين القولين ولا بينهما وبين القول الثالث الذي هو أنه تجرح الناس لأنه يمكن أن يراد بذلك الوسم ، وقد ورد في خروج الدابة ومكان خروجها وصفاتها أحاديث كثيرة أكتفى منها بهذين الحديثين

الحديث الأول : حديث ابن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى فأيتهم ما كانت قبل صاحبها فالأخرى على إثرها قريبا) (٣)

الحديث الثاني : حديث أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (تخرج الدابة فتسم الناس على خراطيمهم ثم يعمرون فيكم (٤) حتى يشتري الرجل البعير فيقول: ممن اشتريته ؟ فيقول اشتريته من أحد المخطمين) (٥)

(١) سورة النمل الآية (٨٢)
(٢) انظر: المنهاج في شعب الإيمان ٤٢٦/١ والتذكرة ٧٨٥ وتفسير ابن كثير ٢/٣٨٦
(٣) صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراف الساعة ٤/٢٢٦٠ ج <١١٨>
(٤) أي يكثرون
(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢٦٨/٥ وقد صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٥٢٦/١ ج <٢٢٢>

٥ = طلوع الشمس من مغربها :

وهو أول الآيات العظام المؤذنة بتغيير أحوال العالم العلوى وقد حصل العلماء مامر فى ذكر الدابة وأنها وطلوع الشمس من مغربها أولى الآيات على هذا، لعل على الأولوية المطلقة ، وذلك لأن باب التوبة تغلق بطلوع الشمس من مغربها ، وقد مرّ أن عيسى عليه السلام يقاتل الكفار حتى لا يبقى إلا الدين الحق ، وهذا يعنى أن الدجال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج سابقة على إغلاق باب التوبة (١) أما خروج الدابة فقريب جدا من طلوع الشمس لأن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر الأمر على الاحتمال .

ومن الأدلة على طلوع الشمس من المغرب :

١ = قوله تعالى : (يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا) (٢)

فقد سبق فى تفسير هذه الآية أن المراد ببعض الآيات الدجال ودابة الأرض وطلوع الشمس من المغرب ، (٣) وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد به طلوع الشمس من المغرب (٤) وذلك لأحاديث كثيرة وردت بهذا المعنى ومنها :

١ = حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت فرأها للناس آمنوا أجمعين فذاك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا) (٥)

ب = حديث أبى موسى الأشعري رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال (إن اللد عزوجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها) (٦)

-
- (١) انظر: فتح الباري ٣٥٢/١١
(٢) سورة الأنعام الآية (١٥٨)
(٣) انظر: ص (٨٠) من هذا البحث
(٤) انظر: تفسير المنعاني ٢٢٢/١ والطبرى ٧١/٨ و٧٦ و زاد المسير ١٥٦/٢ - ١٥٧
(٥) أخرجه البخارى فى الصحيح فى كتاب الرقاق باب طلوع الشمس من مغربها ٣٥٢/١١ ومسلم فى كتاب الإيمان من صحيحه ١٢٧/١ ح <٢٤٨>
(٦) صحيح مسلم كتاب التوبة ٢١١٢/٤ ح <٢١>

فهذا تصريح فى أن غاية قبول التوبة طلوع الشمس من مغربها .
وقد نبه العلماء على أن عدم قبول التوبة لمن لم يكن مؤمنا البتة، أو كان
عاصيا فغير المؤمن لا يقبل منه إيمان بعد ذلك، والعاصى يبقى معه إيمانه الذى
ينجيه من الخلود فى النار، ولكن لا تنفعه التوبة مما يرتكب بعد من المعاصى. (١)
فالحديثان كالتفسير للآية ، وهما دليلان على أن طلوع الشمس من المغرب من
أشراط الساعة ، وأنه مؤذن بانتهاء الدنيا كما يذآن الغر غرة بالموت لأن
التوبة تقفل أبوابها بهما .

٦ = الخسوفات الثلاثة

وقدمر فى حديث ذكر الأشراف العشر ذكر هذه الخسوفات وأنها ثلاثة ، خسف بالمشرق
وأخر بالمغرب وثالث بجزيرة العرب (٢) وذكرها فى هذا الحديث دليل على أن
المراد به خسوفات بأقذار زائدة على الخسوفات التى حدثت ولا تزال تحدث ببعض
المناطق .

قال ابن حجر : (قد وجد الخسف فى مواضع ، ولكن يحتمل أن يكون المراد بالخسوف
الثلاثة قدرا زائدا على ما وجد كان يكون أعظم منه مكانا أو قدرا) (٣)

(١) انظر: التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة ٢/٧٩٣-٧٩٤ وفتح البارى
٢٥٢/١١-٢٥٧ وقد استقصى الكلام حول المسألة
(٢) انظر من (٢٤٦) من هذا البحث
(٣) فتح البارى ١٣ / ٨٤

٧ = النار

وهي نار عظيمة تخرج من اليمن فتسوق الموجودين في آخر الزمان من سائر أقطار الأرض إلى أرض الشام وهي أرض المحشر، والمراد بالمحشر إليها الحشر الدنيوي لا الحشر الآخروي، فإن ذلك يكون في أرض غير هذا الأرض كما قال تعالى : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات) (١)

ومن الأدلة على ما تقدم من أمر هذه النار الحديث المتقدم الذاك فيه ذكر الآيات العشر وفيه : (وآخر ذلك نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى محشرهم) (٢) وكذا قوله صلى الله عليه وسلم : (يحشر الناس على ثلاث طرائق : راغبين وراهبين واثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير، ويحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا ، وتبيت معهم حيث باتوا وتصيح معهم حيث أصبحوا وتمس معهم حيث أمسوا) (٣)

قال ابن كثير رحمه الله بعد إيراد بعض الأحاديث في شأن هذه النار: (فهذه السياقات تدل على أن هذا الحشر هو حشر الموجودين في آخر الدنيا ، وأنهم يكونون على ثلاثة أصناف ، فقسم يحشرون طاعمين كاسين راكبين ، وقسم يمشون تارة ويركبون تارة أخرى ، ويحشر بقيتهم النار ، وهي النار التي تخرج من قعر عدن ، فتحيط بالناس من ورائهم تسوقهم من كل جانب إلى أرض المحشر ، ومن تخلف منهم أكلته النار) (٤)

-
- (١) سورة إبراهيم الآية (٤٨)
(٢) انظر ص (٢٧٦) من هذا البحث
(٣) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق / باب المحشر ٢٧٧/١١ ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها ٢١٩٥/٤ ح [٥٩]
(٤) النهاية في الفتن والملاحم ٢٨٧/١ باختصار

الفصل الثالث

وقائع القيامة وأهوالها ومحنة خمسة مباحث:

- المبحث الأول: النفخ في الصور
- المبحث الثاني: انهيار نظام الكون
- المبحث الثالث: الحساب
- المبحث الرابع: الميزان
- المبحث الخامس: الجنة والنار

بين يدي الفصل

يوم القيامة يوم عظيم، وقد سماه الله كذلك في قوله تعالى عن المطففين (١)
(ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العلمين) (٢).

وعظم ذلك اليوم يتمثل في عظم ما يحصل فيه من الأهوال والوقائع، من النفخ في الصور إلى الوقوف بين يدي الله عز وجل، في حر شمس تكاد تغلى الرؤوس منه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وما يعقب ذلك من مواقف صعبة عند الحساب والميزان، وعبور الصراط، واقتحام العقبة، حتى ينتهي الأمر إما بالفوز ودخول الجنة، أو الخسران ودخول النار والعياذ بالله، وهو يوم فيه من الهول ما يذهل المرزعة عن رضيعها، ويجعل ذوات الحمل تضع أحمالها، ويجعل الولدان شيبا.

قال تعالى: (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكرى وما هم بسكرى ولكن عذاب الله شديد) (٣).

وقال: (فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا السماء منفطر به كان وعده مفعولا) (٤).

وقد ورد ذكر بعض أهوال يوم القيامة وما يقع فيه من أمور في سورة الأنبياء مما استدعى عقد هذا الفصل، وقد راعيت في ترتيب مباحثه ترتيب وقوعها حسب ما يفهم من بعض نصوص الكتاب والسنة وما استنبطه العلماء منها.

فالنفخ في الصور هو بداية اليوم ثم يعقبه انهيار نظام هذا الكون كما قال تعالى: (فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية) (٥).

ثم يعقب ذلك بقية الأهوال من الحساب والوزن، وسيأتى وجه تقديم الحساب على الوزن^(٦) أما دخول الجنة أو النار فهو خاتمة المطاف.

وبعد هذه المقدمة الوجيزة في وجه تقديم بعض الوقائع على بعض أشرع في مباحث الفصل فأقول:-

(١) من التطفيف وهو عدم إتمام الكيل، انظر تفسير الطبري ٥٧/٣٠
(٢) سورة المطففين الآيات: ٤، ٥، ٦ (٣) سورة الحج الآيتان: ١، ٢ .
(٤) سورة المزمل الآيتان ١٧، ١٨ .
(٥) سورة الحاقة الآيات من ١٢ إلى ١٦ (٦) انظر ص (٤٩٦) من هذا البحث.

المبحث الأول

النفخ في الصور

قال تعالى : (لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقمهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون) الآية [١٠٣]. تقدمت هذه الآية في مبحث سابق، والشاهد فيها هنا ذكر الفزع الأكبر فيها، فقد رجح غير واحد من المفسرين أن المراد به النفخة الآخرة أي نفخة الصور الثانية وهي النفخة التي يبعث عندها جميع الخلق للقيام لرب العالمين (١).

ووجه الطبري رحمه الله هذا القول بأن الفزع فيه أكبر من كل فزع قبله لأن من لم يفزعه ذلك فهو أحرى أن لا يفزع مما بعده، ومن لم يأمن فيه لم يأمن مما بعده (٢)، وهذا وجه جيد، ويؤيده ما ذكر الله سبحانه وتعالى من حالة الناس يوم ينفخ في الصور نفخة القيام لرب العالمين، فقد قال تعالى في وصف ذلك اليوم : (ويوم ينفخ في الصور ففرغ من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين) (٣).

وقال تعالى : (فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر خشعا أبصرهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر مهطعين إلى الداع يقول الكفرون هذا يوم عسر) (٤).

فهذه الآيات وأمثالها في القرآن الكريم توضح أن هذه النفخة تسبب فزعا كبيرا وهولاً عظيماً، وبخاصة للكفار، لأنها مؤذنة بملاقاتهم جزاء أعمالهم التي يشفقون منها، فما يلقونه من الهول يومئذ أعظم من كل ما لاقوه قبل.

أما المؤمنون ففزعهم ليس كفزع الكفار يومئذ، لأن الأمان يتبعه، ولأن الملائكة تهديء من روعهم كما في الآية التي معنا، وكما قال تعالى : (من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون) (٥).

(١) انظر تفسير الطبري ٧٨/١٧ والألوسي ٩٨/١٧ .

(٢) انظر تفسير الطبري ٧٨/١٧ .

(٣) سورة النمل الآية ٨٧ .

(٤) سورة القمر الآيات ٦، ٧، ٨ .

(٥) سورة النمل الآية ٨٩ .

والإشارة في (يومئذ) ليوم القيامة، فهم آمنون من كل فزع فيه، لأنهم يحاسبون حسابا يسيرا ويؤتون كتاب أعمالهم بأيمانهم وتثقل موازينهم ثم يجوزون المراط بأمان إلى جنان الرحمن (فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون).

قال تعالى: (يُعباد لاخوف عليكم اليوم ولأنتم تحزنون الذين آمنوا بغايتنا وكانوا مسلمين)(١).

ونفخة الصور للبعث هي النفخة الثانية والآخره وهي نفخة الفزع، وأما النفخة الأولى فهي نفخة الصعق، فيصعق عندهما جميع من في السموات والأرض من الأحياء، والمراد بالصعق الموت، فهي إذا خاصة بالأحياء يوم ينفخ، أما الثانية فعامه للجميع، ومن هنا يتضح أن عدد النفخات اثنتان.

ومما يدل على ذلك:-

١ - قوله تعالى: (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون)(٢).

٢ - قوله صلى الله عليه وسلم: (ما بين النفختين أربعون) قالوا للراوى: يا أبا هريرة أربعون سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهرا؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون يوما؟ قال: أبيت، قال: (ثم ينزل الله تبارك وتعالى ماء فينبتون كما ينبت البقل) الحديث(٣)

٣ - قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الدجال بعد ذكره هلاك الدجال على يد المسيح عليه السلام ثم موت جميع المؤمنين حتى لايبقى على الأرض إلا شرار الناس: (ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أمضى ليتاور فع ليتا(٤)، فأول من يسمعه رجل يلوط (٥) حوض إبله فيصعق ويمعق الناس، ثم يرسل الله مطرا كأنه الطل، فينبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) الحديث(٦).

(١) سورة الزخرف الآيتان: ٦٨، ٦٩ . (٢) سورة الزمر الآية: ٦٨ .
(٢) أخرجه البخارى في كتاب التفسير (سورة الزمر) ٥٥١/٨ وسورة النبأ ٦٨٩/٨-٦٩٠ ومسلم في كتاب الفتن ٢٢٧٠/٤ ح [١٤١]. وقوله (أبيت) معناه: أبيت أن أجزم أن المراد أربعون يوما أو سنة أو شهرا، بل الذى أجزم به أنها أربعون مجملة، وقد جاءت مفسرة من رواية غير مسلم عن غير (أربعون سنة) قاله النووى في شرحه على مسلم ٩١١/١٨-٩٢، وقال ابن حجر: أخرج ابن مردويه عن الأعمش (أربعون سنة) وهو شاذ، وروى عن ابن عباس أيضا ولكن من وجه ضعيف فتح البارى باختصار ٥٥٢/٨ وعلى هذا فالتوقف أسلم.
(٤) أمضى: أمال، والليت جانب العيق انظر شرح النووى على مسلم ٧٦/١٨.
(٥) يلوط حوض إبله: أى يطينه ويملحه، انظر المصدر السابق المصحح ذاتها.
(٦) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراف الساعة ٢٢٥٨/٤-٢٢٥٩ ح [١١٦].

فالأية والحديثان صريحة بأن النسخة في الصور مرتان(١)، وقد ذهب بعض العلماء إلى أنها ثلاث، وقالوا: إن نسخة الفرع نسخة أخرى غير نسخة المعق والبعث، واستدلوا بآية النهل المتقدمة، وبحديث الصور وهو حديث طويل ورد فيه ذكر الصور وعظّمه، وفيه تموير لبعض مشاهد القيامة وقد ورد فيه أنه صلى الله عليه وسلم قال: (فينسخ فيه ثلاث نسخات، الأولى نسخة الفرع، والثانية نسخة المعق، والثالثة نسخة القيام لرب العالمين)(٢). ولكن الصحيح هو القول الأول، لأن الظاهر أن الفرع في آية النمل هو الفرع الحاصل عند النسخة الثانية لقوله تعالى بعدما: (وكل أتوه دأخرين) وقيل الذي يحدث عند النسخة الأولى ولاشك في أن الفرع حاصل في كلتا النسختين، ولكن الفرع في الثانية أعم.

وأما الحديث الذي استدلوا به فهو حديث ضعيف مضطرب كما صرح به غير واحد من الحفاظ (٣).

ونخلص من هذا كله إلى أنه يجب الإيمان بأن نهاية هذه الدنيا يكون بالنسخ في الصور نسخا حقيقيا، وأن البعث كذلك، وأن الصور الذي ينسخ فيه صور حقيقي، وقد ورد في صفته أنه قرن ينسخ فيه الملك الموكل به، فروى أن أعرابيا سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما الصور؟ فقال: (قرن ينسخ فيه)(٤).

والنافخ فيه إسرائيل كما صرح به غير واحد من العلماء(٥).

قال الطبري في تفسير قوله تعالى: (وله الملك يوم ينسخ في الصور) (والصواب من القول في ذلك عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن إسرائيل قد التقم الصور وحنى جبهته ينتظروا متى يؤمر فينسخ)(٦).

-
- (١) انظر التذكرة ٢٠١/١-٢٢٠ وفتح الباري ٣٦٩/١١-٣٧٠.
(٢) انظر التذكرة ٢٠٩/١-٢٢٠-٢٢١، والنهية لابن كثير ٢٧٩-٢٧٠/١.
(٣) انظر التذكرة للفركبي ٢٢٠/١ وتفسير ابن كثير ١٥٤/٢ والنهية في الفتن والملاحم ٢٧٨/١ وفتح الباري ٣٦٩/١١.
(٤) أخرجه الامام أحمد في المسند ١٦٢-١٩٢. أخرجه أبو داود في كتاب السنة باب في ذكر البعث والصور ٢٣٦/٤ ح [٤٧٤٢] والترمذي في التفسير سورة الزمر ٢٧٢/٥ ح [٢٢٤٤] وقال: هذا حديث حسن والدارمي في كتاب الرقائق باب ينسخ الصور ٢٢٥/٢ والحاكم ٥٦٠/٤ وصححه ووافقه الذهبي.
(٥) قال ابن حجر: "اشتهر أن صاحب الصور إسرائيل عليه السلام، ونقله فيه الطييمي الإجماع" فتح الباري ٣٦٨/١١ وقد ورد في حديث الصور ولكنه كما تقدم حديث ضعيف، وعليه فإن صح الإجماع الذي ذكره الطييمي فهو، وإلا فالعلم عند الله.
(٦) تفسير الطبري ١٥٧/٧.

المبحث الثاني

انهيار نظام هذا الكون

قال تعالى: (يوم تطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين) الآية ١٠٤ .

في هذه الآية إشارة إلى أن هذا النظام الكونى السائد في هذه الدنيا سيتغير عند ما يأذن الله عز وجل بفناء هذه الدار، ويستمر التغير إلى أن يفصل الله بين الخلائق يوم القيمة .

ومن مظاهر هذا التغير ما سبق في ذكر الخسوفات الثلاث وطلوع الشمس من المغرب (١) ومنها ما يحدث للسماء وما فيها من نجوم وكواكب، وما يحدث للأرض وما عليها من جبال وبحار،

ففي الآية التي معنا يخبر الله عز وجل أن السماء تطوى يوم القيامة كما تطوى الكتب على ما فيها من كتابة .

وقد ورد في آيات أخرى أحاديث أن الله عز وجل يطوى السموات بيمينه والأرض بيده الأخرى لإظهار عظمته .

قال تعالى: (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيمة والسموات مطويت بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) (٢) .

وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يطوى الله عز وجل السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون أين المتكبرون؟ ثم يطوى الأرضين بشماله ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون أين المتكبرون) (٣) وهذا الطى المذكور قيل إنه التبديل المذكور في قوله تعالى: (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) (٤)

(١) انظر ص (٢٨٥) من هذا البحث .

(٢) سورة الزمر الآية (٦٧) .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار ٢١٤٨/٤ ج [٢٤] .

(٤) سورة إبراهيم الآية ٤٨ وانظر معنى الآية في تفسير الطبرى ١٦٣/١٤ - ١٦٧ والتذكرة ٢١٧ - ٢١٨ .

وقيل: إنه غيره وعلى هذا فإن السماء تتبدل أيضا بعد طيها سماء أخرى كما تتبدل الأرض أرضا أخرى، وهذا التغير الذى يحدث في نظام الكون يشمل أمورا أخرى للسماء غير الطى كما يشمل غير السماء أيضا.

فتنشق السماء وتصير وردة كالدمان وتمور مورًا قال تعالى: (إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع يوم تمور السماء مورا) (١) ومعنى تمور: تتحرك مستديرة (٢).

وقال تعالى: (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) (٣).

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآيات: (يقول تعالى: (فإذا انشقت السماء) يوم القيامة كما دلت عليه هذه الآيات مع ما شاكلها من الآيات الواردة في معناها كقوله تعالى: (وانشقت السماء فهي يومئذ واهية) (٤) وقوله: (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا) (٥) وقوله: (إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت) (٦)، وقوله تعالى: (فكانت وردة كالدهان) أى تذوب كما يذوب الدردي (٧)، والفضة في السبك وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم) (٨).

وقيل في معنى (وردة كالدهان) أن المراد أنها تحمر كالوردة وهو نور الشجر وكالدمان وهو الأديم الأحمر، وقيل فيه أقوال أخرى (٩) ويرجع هذه الأقوال كلها إلى أن السماء من شدة الهول يتغير لونها.

وهذا بالنسبة للسموات، وأما غيرها، فقد ورد أن الشمس والقمر تجمعان وتكوران ويذهب ضوءهما، وتنكدر النجوم وتتناثر وتطمس، وتضطرب الأرض وتزلزل وتطوى أيضًا وتسير الجبال وتفتت حتى تصير كشيبي مهيلا، وتصبح كالعهن المنفوش فيستوى وجه الأرض ويصبح قاعا مغمفا لاعوج فيه، ولأمت، وتسجر البحار وتفجر فتصير نارًا تضطرم، ومن الأدلة على ذلك: (١٠).

-
- (١) سورة الطور الآيات ٧، ٨، ٩ .
 (٢) انظر تفسير الطبرى ١٣/٢٧ وابن كثير ٢٥٨/٤ .
 (٣) سورة الرحمن الآية ٢٧ .
 (٤) سورة الحاقة الآية ١٦ .
 (٥) سورة الفرقان الآية ٢٥ .
 (٦) سورة الانشقاق الآيتان ١، ٢ .
 (٧) الدردي (بفتح الألف الأولى وسكون الراء وتشديد الياء) من الزيت ما يبقى في أسفله انظر الصحاح ٤٧٠/٢ مادة (دردي).
 (٨) تفسير ابن كثير ٢٩٥/٤ .
 (٩) انظر تفسير الألوسى ١١٣/٢٧، والشوكانى ١٣٧/٥ - ١٣٨ .
 (١٠) راعيت في ترتيب الآيات ترتيب سورها في القرآن الكريم لأن دلالتها واضحة